الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع (١)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

الجزء الرابع عشر

دمشق
١٩٩٥ ـ ١٤١٦هـ

المصادر العربية

مؤرخو القرن السابع

١ ـ ابن جبير
٢-عبد اللطيف البغدادي(نصوص من تاريخه ورحلته)
٣ ـ ابن الاثير الجزري(الباهر في الدولة الاتابكية)

دمشق ١٤١٤ / ١٩٩٤

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

من مزايا الأدب الجغرافي العربي غناه بكتابات الرحالة ، والرحالة وإن انتموا من حيث المبدأ الى الجغرافيين ، هم في الواقع ينتمون بصورة اكثر التصاقا الى التاريخ ، لأن مدوناتهم وثائقية لهم قيمة سياسية واجتماعية واقتصادية كبيرة ، وفي تاريخنا العربي جاء جل الرحالة من الغرب الاسلامي، من الاندلس وبلدان الغرب ، ومعظم الرحلات بالأصل حجازية ، ثم تفرعت فصارت شامية وعراقية وجزرية ومصرية.

لقد جاء معظم المغاربة والاندلسيين برا وبحرا الى المشرق طلبا للعلم واداء فريضة الحج ، ويلاحظ ان عدد هؤلاء الذين زاروا المشرق في فترة الحروب الصليبية لم يكن كبيرا ، مقارنة بعدد الأوربيين الكبير الذين حجوا أنذاك الى الأراضي المقدسة ، وسأقوم — انشاء الله — في فترة لاحقة بترجمة كتب الرحلات الأوربية.

ومع اندلاع احداث الحروب الصليبية غادر المشرق الامام ابو بكر ابن العربي وذكرت من قبل أنني اطلعت على نسخة خطية في المغرب من هذه الرحلة ، ومع ذلك اودع ابن العربي في كتابه عددا من المشاهدات خاصة في كتابه العواصم من القواصم ، وبعد ابن العربي، يعد ابن جبير اهم الرحالة الذين زاروا المشرق اكثر من مرة ايام نور الدين أولاثم ايام صلاح الدين ولفتت رحلة ابن جبير انتباه المؤرخين والباحثين اليها منذ القرن الماضي ، ومازال موضع اهتمام المؤرخين وسواهم وابن جبير:

هو محمد بن احمد بن جبير الكناني الأندلسي ، البلنسي الأصل ، الغرناطي الموطن ، ولد سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م ، او قبيل ذلك بسنة ، وتوفي بالاسكندرية سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م ، وكان شاعرا أديبا من علماء الأندلس فقها وكرم نفس واخلاق ، اخذ العلم عن علماء عصره في الأندلس ثم في الحجاز والشام والعراق ، وقام ابن جبير بثلاث رحلات الى المشرق ، كانت اولاها سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢ م وهي التي اودع مشاهداته خلالها في كتاب رحلته المتداول ، ثم قام بالرحلة الثانية سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م ، وذلك انه سمع بنصر حطين ، فجاء ليقدم تهانيه وبيعته لصلاح الدين ، وسنرى في الروضتين لأبي شامة نص القصيدة التي نظمها بهذه المناسبة ، وامضى هذه المرة عامين في المشرق ثم عاد الى غرناطة ، ثم رحل ثالثه اثر وفاة زوجته ، فحج وجاور طويلا ثم قدم الى الاسكندرية حيث توفي فيها.

وسنرى في مواد موسوعتنا صورة الاحداث المأساوية التي عانت منها بلاد الشام والجزيرة ومصر بعد وفاة صلاح الدين ، وذلك بسبب الصراعات بين ابناء البيت الايوبي ، وقد حسم الصراع بعد امد لصالح الملك العادل ابو بكر بن ايوب ـ اخو صلاح الدين ـ واشار المؤرخون الى ان مصر عانت منذ السنة التى تسلم العادل السلطة فيها من القحط الشديد ، وادى هذا القحط الى مجاعة هائلة ، وصف بعض صورها عبد اللطيف البغدادي.

وهو موفق الدين ـ ابو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد ابن علي وعرف بابن اللباد ، كان موصلي الأصل ، بغدادي المولد ، ولد سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م ، ونشأ نشأة جدية حيث انصرف منذ طفولته نحو طلب العلم في بغداد اولا ثم في دمشق ، وقد اهتم اهتماما كبيرا بصناعة الطب ، والطب احترف في دمشق.

وقد حدثنا نفسه عن قدومه الى دمشق بقوله: « ولما كان في سنة خمس وثمانين وخمسمائة حيث لم يبق في بغداد من يأخذ بقلبي ،

ويملأ عيني ، ويحل ما يشكل علي دخلت الموصل ، فلم اجد فيها بغيتي.. ولما دخلت دمشق وجدت فيها من اعيان بغداد والبلاد ممن جمعهم الاحسان الصلاحي جمعا كبيرا ، وشارك البغدادي في نشاطات دمشق العلمية ، ثم ارتحل الى معسكر صلاح الدين قرب عكا ، قال:« ثم اني توجهت الى زيارة القدس ، ثم الى صلاح الدين بظاهر عكا ، فاجتمعت ببهاء الدين ابن شداد ، قاضي العسكر يومئذ ، وقد اتصلت به شهرتي بالموصل ، فانبسط الي واقبل علي وقال: نجتمع بعماد الدين الكاتب ، فقمنا اليه ، وخيمته الى خيمة بهاء الدين ، فوجدته يكتب كتابا الى الديوان العزيز بقلم الثلث من غير مسودة ، وقال: هذا كتاب الى بلدكم ، وذاكرني في مسائل من علم الكلام ، وقال: قوموا بنا الى القاضي الفاضل ، فدخلنا عليه ، فرأيت شيخا ضئيلا كله رأس وقلب ، وهو يكتب ويملي على اثنين ، ووجهه وشفتاه تلعب الوان الحركات لقوة حرصه في اخراج الكلام ، وكأنه يكتب بجملة اعضائه... وقال لي ترجع الى دمشق وتجري عليك الجرايات ، فقلت: اريد مصر ، فقال السلطان مشغول القلب بأخذ الفرنج عكا ، وقتل المسلمين بها ، فقلت : لابد لي من مصر ، فكتب لي ورقة صغيرة الى وكيله بها .

فلما دخلت القاهرة جاءني وكيله – وهو ابن سناء الملك – وكان شيخا جليل القدر ، نافذ الأمر ، فانزلني دارا قد ازيحت عللها وجاءني بدنانير وغلة ، ثم مضى الى ارباب الدولة وقال: هذا ضيف القاضي الفاضل ، فدرت الهدايا والصلات من كل جانب... وشاع ان صلاح الدين هادن الفرنج وعاد الى القدس ،فقادتني الضرورة الى التوجه اليه... وتوجهت الى القدس فرأيت ملكا عظيما يملأ العين روعة ، والقلوب محبة ، قريبا بعيدا ، سهلا محببا ، واصحابه يتشبهون به يتسابقون الى المعروف كما قال الله تعالى:« ونزعنا ما في صدورهم من غل» واول ليل حضرته وجدت مجلسا حفلا بأهل العلم ، يتذاكرون في اصناف العلوم ، وهو يحسن الاستماع والمشاركة ، ويأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق ، ويتفقه في ذلك ويأتي بكل معنى بديع ، وكان مهتما في بناء سور القدس وحفر خندقه ،

يتولى ذلك بنفسه وينقل الحجارة على عاتقه ، ويتأسى به جميع الناس الفقراء والأغنياء ، والاقوياء والضعفاء حتى العماد الكاتب والقاضي الفاضل ، ويركب لذلك قبل طلوع الشمس الى وقت الظهر ، ويأتي داره ويمد الطعام ثم يستريح ، ويركب العصر ، ويرجع في المساء ، ويصرف اكثر الليل في تدبير ما يعمل نهارا ، فكتب لي صلاح الدين بثلاثين دينارا في كل شهر على ديوان الجامع ،واطلق لي اولاده رواتب حتى تقدر لي في كل شهر مائة دينار».

ورجع البغدادي الى دمشق ، وكان فيها عندما عاد صلاح الدين اليها ، وشهد هناك مرض صلاح الدين ووفاته وما حدث بعد ذلك قال:« ثم إن صلاح الدين دخل دمشق ، وخرج يودع الحاج ، ثم رجع فحم فقصده من لاخبرة عنده ، فخارت القوة ،ومات قبل الرابع عشر ، ووجد الناس عليه شبيها بما يجدونه على الأنبياء ، ومارأيت ملكا حزن الناس بموته سواه لأنه كان محبوبا يحبه البر والفاجر ، والمسلم والكافر ، ثم تفرق اولاده واصحابه ايدي سبأ ، ومزقوا في البلاد كل ممزق».

واقام البغدادي بدمشق حتى حاصرها العزيز عثمان بن صلاح الدين ، وقد خرج اليه ، ورافقه الى مصر ، وظل مقيما بالقاهرة حتى ما بعد وفاة العزيز عثمان الى استيلاء العادل على القاهرة ، وقد قام البغدادي بوصف مصر ودون اخبار المجاعة التي تعرضت اليها ايام العادل ، وبعد هذا غادر مصر الى القدس ، ثم الى دمشق ، وبعد ذلك الى حلب ، وزار بلاد سلاجقة الروم ، ثم عاد الى حلب فأقام بها مدة طويلة وخطر له في شهور سنة ثمان وعشرين وستمائة السفر الى العراق ليحج ، فمرض ببغداد ، واخذ في مداواة نفسه بطبه ، فمات ـ كما شاء الله ـ في شهور سنة تسع وعشرين وستمائة»(١٢٣٢ م) وكان البغدادي غزير الانتاج متنوعه ، من ذلك الحديث واللغة والطب والحساب والنبات ، والتاريخ ، ووصلنا من تاريخه بعض النقول اخترت منها ماارتبط بموضوع الحروب الصليبية ، كما اخترت فصلين مما وصف به المجاعة بمصر.

واعود للتأكيد إن لمواد ابن جبير ومواد البغدادي اهمية تقترن بما كتبه العماد الاصفهاني وابن شداد ، وتغني صورة الأحداث ، لاسيما من الجوانب غير العسكرية والسياسية.

وينتمي الى عصر ابن جبير والبغدادي مؤرخ كبير ، عاش ايضا عصر صلاح الدين ، لابل حضر بعض معاركه ، ومع ذلك لم يكن كبير الاعجاب بصلاح الدين ولامؤثرا له ، لأنه جزري المولد ، موصلي الاقامة ، اتابكي الهوى ، إنه ابن الاثير الجزري .

عدت منطقة الجزيرة بين اقدم الامصار التي ازدهرت فيها الحضارة العربية ففي مدنها توفرت المدارس والمكتبات ، وعاش فيها الكتاب والشعراء ، وصنف الجزريون في مختلف فنون المعرفة بالسريانية حينا وبالعربية في غالب الاحيان ، وسلف لنا التعرف الى عدد من المؤرخين السريان ، ولاسيما الذين ارخوا لأحداث الحروب الصليبية ، واكثر من السريان واعظم شهرة الذين ارخوا بالعربية ، وتعرفنا من قبل على ابن الأزرق وتعاملنا مع مواده التي اودعها في كتابه« تاريخ آمد وميافارقين».

واعظم شهرة من ابن الازرق واخصب انتاجا ابن الاثير ، وهو عز الدين ابو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني وقد ولد عز الدين(٥٥٥ - ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢ م) في جزيرة ابن عمر ، وكانت من اعمال الموصل ، وفيها عاش الى ان انتقل مع والده واسرته الى الموصل سنة ٥٧٩ هـ/ ١١٨٣ م ، وكان والده من اعيان العاملين في الدولة الاتابكية بالموصل ، وغالبا ما أشار اليه ابنه في كتاباته.

وكان لابن الاثير اخوين ، واحد اسن منه ، هو مجد ابو السعادات المبارك ، ولد سنة٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م ، وعرف الاصغر منه باسم ضياء الدين نصر الله، وكان قد ولد سنة ٥٥٨ هـ/ ١١٦٣ م ، واتجه كل واحد من الاخوة الثلاثة نحو

اختصاص تميز به ، فقد شهر مجد الدين بالعلوم الدينية ، واختص ضياء الدين بالأدب ، وسيرد معنا ذكره كثيرا ، اثناء وزارته للأفضل علي بن صلاح الدين ، ومثل ضياء الدين خدم مجد الدين في ادارة الاتابكة في كتابة الانشاء بالموصل ، لكن عز الدين مؤرخنا – كما يرجح – لم يدخل في خدمة الاتابكة ولعله لم يتسلم أية وظيفة لديهم ، مع ان صلاته بهم كانت وثيقة ، ومكانته لديهم عالية حتى انه سفر لبعضهم الى بغداد وربما الى غيرها ، وتتلمذ مؤرخنا على علماء عصره وحصل على معارف واسعة خاصة في ميدان التاريخ وصنف اربعة كتب وصلتنا ونشر بعضها اكثر من مرة وهي :

١ – اللباب في تهذيب الانساب
٢ – اسد الغابة في معرفة الصحابة
٣ – الكامل في التاريخ
٤ – التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل

وقد هذب في الأول كتاب الانساب للسمعاني ، ولأن السمعاني اقتصر اهتمامه على الانتساب الجغرافي ، فقد عدا كتاب اللباب لابن الاثير جغرافيا تاريخيا ، وعليه اعتمد ابو الفداء في تصنيفه لكتابه تقويم البلدان.

ويعد كتاب اسد الغابة من اهم معاجم تراجم الصحابة عليهم السلام اماكتاب الكامل في التاريخ ، فهو من اهم مصادر تاريخ الاسلام . اختصر فيه ماأورده الطبري في تاريخه ثم اكمل اخبار الاسلام حتى ايامه ، لكنه وإن اعتمد على الطبري بشكل اساسي فانه استدرك عليه وسد الخلل في معلوماته وراعى التوازن بين اخبار المشرق والمغرب.

وصنف ابن الاثير كتابه الباهر للتأريخ للأسرة الاتابكية التي عاش وذووه في كنفها ، وكان والده مصدر الكثير من معلوماته ، وكذلك مشاهداته وسماعاته من معاصريه ، وبحكم الانتماء الى

الاتابكة أقبل على الثناء عليهم جميعا ، ولدى تـأريخه للصراع بين صلاح الدين وأتابكة الشام والموصل تحزب للاتابكة وحـرم صـلاح الدين من الثناء ان لم نقل انتقد افعاله ، ومـع هـذا يظـل كتـابه هذا بين اهم مصادر اخبار الجزيرة والحروب الصليبية ، يكمل حلقة موادنا التي حصلنا عليها مـن ابـن الازرق الفارقي والمصـادر السريانية ، اما موقفه من صلاح ففي مواد العماد الاصفهاني وابن أبي طي وابن شداد وسواهم ما يعدل الصورة ويوازن المعلومات.

لكتاب الباهر نسخة خطية واحدة معروفة بالعالم ، محفـوظة في المكتبة الوطنية بباريس برقم/ ٨١٨ / ، وقد وقعت في / ٢٣٢ / ورقة ، احتوى كل وجه منها على ثلاثة عشر سطرا ، في كل سـطر مـا بين سبع الى عشر كلمات ، وسلف ان نشر هـذا الكتـاب مـن قبـل المستشرق الفرنسي دي سيلين عام ١٨٧٦ م وترجم الى الفرنسية ثم اعيد تحقيقه ونشر بالقاهرة عام ١٩٦٣ م ، محققا مـن قبـل عبـد القادر أحمد طليمات ، حيث كان موضوع رسالة ماجستير نوقشت في جامعة عين شمس عام ١٩٦٢ .

وبذل السيد طليمات قصارى جهده لضـبط نص مخـطوط هـذا الكتاب الهام ، واسـتدرك كثيرا مـن التصحيفات على طبعـة دي سيلين ، لكن ضعف خلفياته التـاريخية حـول السـلاجقة وفتـرة الحروب الصليبية وعدم تعمقه بالتعامل مع المخـطوط العربي جعله يصحف العديد من الكلمات ، لابل اكثر من ذلك جعله يقـوم بحـذف الصحيح من متن المخطوط وايداعه بالحاشية واستبداله بما وهـم انه الصحيح ، ودفعني هذا الى العودة الى تحقيق الكتـاب وادخـاله ضمن مواد موسوعتنا.

من الله اسأل العون، والسداد ، واتوجه اليه جـل وعلا بـالثناء والحمد والشكر.

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

دمشق ٢١ ـ ذي القعدة ١٤١٥ هـ

٢٠ ـ نيسان ـ ١٩٩٥ م

سهيل زكار

مشاهدات

ابن جبير في بلاد الشام والجزيرة

ذكر مدينة الموصل حرسها الله تعالى

هذه المدينة عتيقة ضخمة ، فخمة ، قد طالت صحبتها للزمن ، فأخذت أهبة استعدادها لحوادث الفتن ، قد كادت ابراجها تلتقي انتظاما ، لقرب مسافة بعضها [من بعض] ، وباطن الداخل منها بيوت ، بعضها على بعض ، مستديرة بجداره المطيف بالبلد كله ، كأنه قد تمكن فتحها فيه لغلظ بنيته ، وسعة وضعه ، وللمقاتلة في هذه البيوت حرز وقاية ، هي من المرافق الحربية . وفي أعلى البلد قلعة عظيمة ، قد رص بناؤها رصا ، ينتظمهما سور عتيق البنية ، مشيد البروج ، وتتصل بها دور السلطان ، وقد فصل بينهما وبين البلد ، شارع متسع ، يمتد من أعلى البلد الى اسفله ، ودجلة شرقي البلد ، وهي متصلة بالسور ، وابراجه في مائها .

وللبلدة ربض كبير فيه المساجد والحمامات والخانات والاسواق ، وأحدث فيه بعض أمراء البلدة ـ وكان يعرف بمجاهد الدين ـ جامعا على شط دجلة ، ما أرى وضع جامع أحفل منه ، بناء يقصر الوصف عنه ، وعن تزيينه وترتيبه ، وكل ذلك نقش في الآجر . وأما مقصورته فتذكر بمقاصير الجنة ، ويطيف به شبابيك حديد ، تتصل بها مصاطب تشرف على دجلة لا مقعد أشرف منها ولا احسن ، ووصفه يطول ، وإنما وقع الالماع بالبعض ، جريا الى الاختصار . وامامه مارستان حفيل ، من بناء مجاهد الدين المذكور .

وبنى ايضا داخل البلد ، وفي سوقه ، قيسارية للتجار ، كأنها الخان العظيم ، تنغلق عليها أبواب حديد ، وتطيف بها دكاكين وبيوت ، بعضها على بعض ، قد جلي ذلك كله في أعظم صورة من البناء المزخرف ، الذي لا مثيل له . فما أرى في البلاد قيسارية تعدلها ،والمدينة جامعان : احدهما جديد ، والآخر من عهد بني امية ، وفي صحن هذا الجامع قبة ، داخلها سارية رخام قائمة ، قد

خلخل جيدها بخمسة خلاخل مفتولة فتل السوار من جرم رخامها ، وفي اعلاها خصة رخام مثمنة ، يخرج عليها انبوب من الماء ، خروج انزعاج وشدة ، فيرتفع في الهواء أزيد من القامة ، كأنه قضيب من البلور معتدل ، ثم ينعكس الى أسفل القبة ، ويجمع في هذين الجامعين القديم والحديث ، ويجمع ايضا في جامع الربض . وفي المدينة مدارس للعلم نحو الست أو أزيد على دجلة ، فتلوح كأنها القصور المشرفة ، ولها مارستان حاشى الذي ذكرناه في الربض .

وخص الله هذه البلدة بتربة مقدسة فيها « مشهد جرجيس صلى الله عليه وسلم » وقد بني فيه مسجد ، وقبره في زاوية من احد بيوت المسجد ، عن يمين الداخل إليه ، وهذا المسجد هو بين الجامع الجديد وباب الجسر ، يجده المار الى الجامع من باب الجسر عن يساره ، فتبر كنا بزيارة هذا القبر المقدس ، والوقوف عنده ، نفعنا الله بذلك .

ومما خص الله به هذه البلد ، أن في الشرق منها ، اذا عبرت دجلة على نحو الميل ، « تل التوبة » وهو التل الذي وقف به يونس عليه السلام بقومه ، ودعا ودعوا حتى كشف الله عنهم العذاب . وبمقربة منه ، على قدر الميل ايضا العين المباركة المنسوبة اليه ، ويقال : إنه أمر قومه بالتطهر فيها واضمار التوبة ، ثم صعدوا على التل داعين ، وفي هذا التل بناء عظيم ، هو رباط يشتمل على بيوت كثيرة ، ومقاصر ، ومطاهر ، وسقايات ، ويضم الجميع باب واحد ، وفي وسط ذلك البناء بيت ينسدل عليه ستر ، وينغلق دونه باب كريم مرصع كله ، يقال : إنه كان الموضع الذي وقف فيه يونس صلى الله عليه وسلم ، ومحراب هذا البيت يقال : انه كان بيته الذي كان يتعبد فيه ، ويطيف بهذا البيت شمع كأنه جذوع النخل عظما فيخرج الناس الى هذا الرباط كل ليلة جمعة ، ويتعبدون فيه . وحول هذا الرباط قرى كثيرة ، ويتصل بها خراب عظيم ، يقال: أنه كان مدينة « نينوى » وهي مدينة يونس عليه السلام ، واثر السور المحيط بهذه المدينة ظاهر ، وفرج الابواب فيه بينة ، وأكوام أبراجه مشرفة ، بتنا

بهذا الرباط المبارك ليلة الجمعة السادس والعشرين لصفر ، (ثم) صبحنا العين المباركة ، وشربنا من مائها ، وتطهرنا فيها ، وصلينا في المسجد المتصل بها ، والله ينفع بالنية في ذلك ، بمنه وكرمه ، وأهل هذه البلدة على طريقة حسنة ، يستعملون اعمال البر فلا تلقي منهم الا ذا وجه طلق وكلمة لينة ، ولهم كرامة للغرباء واقبال عليهم ، وعندهم اعتدال في جميع معاملاتهم . فكان مقامنا في هذه البلدة أربعة ايام .

ومن أحفل المشاهد الدنياوية المريبة ، بروز شاهدناه يوم الاربعاء ثاني يوم وصولنا الموصل للخاتونين : أم عز الدين صاحب الموصل ، وبنت الامير مسعود المتقدم ذكرها ، فخرج الناس عن بكرة ابيهم ركبانا ومشاة وخرج النساء كذلك ، واكثرهن راكبات ، وقد اجتمع منهن عسكر جرار وخرج امير البلد للقاء والدته ، مع زعماء دولته . فدخل الحاج المواصلة صحبة خاتونهم على احتفال وأبهة ، قد جللوا اعناق إبلهم بالحرير الملون ، وقلدوها القلائد المزوقة . ودخلت خاتون المسعودية تقود عسكر جواريها ، وامامها عسكر رجالها يطوفون بها ، وقد جللت قبتها كلها سبائك ذهب مصوغة أهلة ودنانير سعة الاكف ، وسلاسل وتماثيل بديعة الصفات ، فلا تكاد تبين من القبة موضعا ، ومطيتاها تزحفان بها زحفا ، وصخب ذلك الحلي يسد المسامع ، ومطاياها مجللة الاعناق بالذهب ، ومراكب جواريها كذلك ؛ مجموع ذلك الذهب لايحصى تقديره ، وكان مشهدا ابهت الأبصار ، وأحدث الاعتبار ، وكل ملك يفنى الا ملك الواحد القهار ، لا شريك له .

واخبرنا غير واحد من الثقات ، ممن يعرف حال خاتون هذه ، انها موصوفة بالعبادة والخير ، مؤثرة لأفعال البر ، فمنها أنها أنفقت في طريقها هذا الى الحجاز ، في صدقات ونفقات في السبيل ، مالا عظيما ، وهي تحب الصالحين والصالحات ، وتزورهم متنكرة رغبة في دعائهم ، وشأنها عجيب كله على شبابها ، وانغماسها في نعيم الملك . والله يهدي من يشاء من عبادة .

وفي عشي اليوم الرابع من المقام بهذه البلدة ، وهـو يوم الجمعة السادس والعشرين لصفر المذكور ، رحلنا منها على دواب اشتريناها بالموصل ، تفاديا من معاملة الجمالين ، على ان القدر المحمود لم يسبب لنا الا صحبة الا شبه منهم ، ومن شكرناه على طول الصحبة وتماديها من مكة شرفها الله الى الموصل . فأسرينا ليلة السبت الى بعيد نصف الليل ، ثم نزلنا بقرية من قرى الموصل ، ورحلنا منها ضحوة يوم السبت المذكور ، وقلنا بقرية تعرف « بعين الرصد »،وكان مقيلنا تحت جسر معقود على واد يتحدر فيه الماء ، وكان مقيلا مباركا . وفي تلك القرية خان كبير جديد ، وفي محلات الطريق كلها خانات ، واتفق مبيتنا تلك الليلة بالقرية المذكورة ، وأسرينا منها ، وبتنا بقرية كبيرة تعرف « بجدال » لها حصن عتيق . وفي يومنا هذا رأينا ، عن يمين الطريق ، « جبل الجودي » المذكور في كتاب الله تعالى ، والذي استوت عليه سفينة نوح عليه السلام ، وهو جبل عال مستطيل ، ثم رحلنا في السحر الاعلى ، من يوم الاثنين التاسع والعشرين لصفر . فكان مبيتنا بقرية من قرى « نصيبين » ومنها اليها مرحلة ، ويعرف الموضع المذكور « بالكلاني » .

شهر ربيع الأول من سنة ثمانين ، عرفنا الله بركتة

استهل هلاله ليلة الثلاثاء ، بموافقة الثاني عشر من يونيه ، ونحن بالقرية المذكورة ، فرحلنا منها سحر يوم الثلاثاء المذكور ، ووصلنا « نصيبين » قبل الظهر من اليوم المذكور .

ذكر مدينة نصيبين ، حرسها الله

شهيرة العتاقة والقدم ، ظاهرها شباب ، وباطنها هرم ، جميلة

المنظر ، متوسطة بين الكبر والصغر ، يمتد امامها وخلفهـا بسـيط أخضر مد البصر ، قد اجرى الله فيه مذانب من الماء تسقيه ، وتطرد في نواحيه ، وتحف بها عن يمين وشمال بساتين ملتفة الاشـجار ، يانعة الثمار ، ينساب بين يديها نهر قـد انعـطف عليهـا انعـطاف السوار ، والحدائق تنتظم بحافتيه ، وتفيء ظـلالها الوارفـة عليه ، فرحم الله أبا نواس الحسن بن هانىء حيث يقول :

طابت نصيبين لي يوما فطبت لها
ياليت حظي من الدنيا نـصيبين

فخـارجها رياض الشـمائل ، اندلسي الخمـائل ، يرف غضـارة ونضارة ، ويتألق عليه رونق الحضارة ، وداخلها شعث البادية بـاد عليه ، فلا مطمح للبصر اليه ، لاتجد العين فيه فسـحة مجـال ، ولا مشحة جمال ، وهـذا النهـر يتسرب اليهـا من عين معينه ، منبعهابجبل قريب منها ، تنقسـم منهـامذانب تحتـرق بسـاتطها وعمائرها ، ويتخلل البلد منها جزء فيتفـرق على شـوارعها ويلج في بعض ديارها ، ويصل الى جامعها المكرم منه سرب يخترق صحنه ، وينصب في صهريجين : احدهما وسط الصحن ، والآخر عند البـاب الشرقي منه ، ويفضي الى سـقايتين حـول الجـامع . وعلى النهـر المذكور ، جسر معقود من صـم الحجـارة ، يتصـل ببـاب المدينة القبلي ، وفيها مدرستان ، ومارستان واحد ، وصاحبها معين الدين أخو عز الدين صاحب الموصل (١) ، ابنا أتـابك ولمعين [الدين] أيضا مدينة « سنجار » وهي عن يمين الطريق الى « الموصل » .

ويسكن في احدى الزوايا الجوفية من جامعها المكرم ، الشيخ ابو اليقظان الاسود الجسد ، الابيض الكبـد ، أحـد الاولياء الذين نور الله بصائرهم بالايمان ، وجعلهـم مـن البـاقيات الصـالحات في الزمان ، الشهير المقامات ، الموصـوف بـالكرامات ، نضـو (٢) التبتل والزهادة ، ومن اخلقت جدته العبادة ، قد اكتفى بنسج يده ، ولايدخر من قوت يومه لغده ؛ أسعدنا الله بلقـائه ، وأصـحبنا مـن

بركة دعائه ، عشي يوم الثلاثاء مستهل ربيع الأول ، فحمدنا الله عز وجل على أن من علينا بــرؤيته ، وشرفنا بمصـــافحته ، والله ينفعنا بدعائه ، إنه سميع مجيب لا اله سواه .

فكان نزولنا بها في خان خارجها ، وبتنا بها ليلة الاربعاء الثـــاني من ربيع الاول . ورحلنا صبيحة في قافلة كبيرة من البغال والحمير : حرانيين ، وحلبيين ، وسواهم من أهل البلاد ، بلاد بكر ومايليها ، وتركنا حاج هذه الجهات وراء ظهورنا على الجمال ، فتمادى سيرنا الى اول الظهر ، ونحن على أهبة وحذر مــن اغارة الا كراد ، الذين هم آفة هذه الجهات من الموصــل الى نصــيبين الى مــدينة دنيسر؛ يقطعون السبيل ، ويسعون فسادا في الارض ، وســكناهم في جبــال منيعة على قرب من هذه البلاد المذكورة ، ولم يعــن الله ســلاطينها على قمعهم ، وكف عادتهم ، فهم ربما وصلوا في بعض الاحيان الى باب نصيبين ، ولادافع لهم ولا مــانع الا الله عز وجــل . فقلنا يوم الاربعاء المذكور ، ورأينا ذلك اليوم ، عن يمين طريقنا ، بقرب مــن صفح الجبل ، مدينة « دارا » العتيقة ، وهي بيضاء كبيرة ولها قلعة مشرفة ، ويليها بمقدار نصف مرحلة ، مدينة « ماردين » ، وهـــي في صفح جبل في قنتة قلعة لها كبيرة ، هي من قــلاع الدنيا الشــهيرة ، وكلتا المدينتين معمورة .

ذكر مدينة دنيسر ، حرسها الله

هي في بسيط من الارض فســيح ، وحــولها بســاتين الرياحين والخضر ، يسقى بالسواقي ، وهي مائلة الطبــع الى البــادية ، ولا سور لها ، وهي مشحونة بشرا ، ولها الأسواق الحفيلة ، والارزاق الواسعة ، وهي مخطر لأهل بلاد الشام ، وديار بكر ، وآمد ، وبلاد الروم التي تلي طاعة الأمير مســعود ، ومــايليها ، ولهــا المحــرث الواسع ، ولها مرافق كثيرة . فــكان نزولنا مــع القــافلة ببـــراح

ظاهرها ، وأصبحنا يوم الخميس الثالث لربيع [الأول] بها فريحين ، وخارجها مدرسة جديدة ، بقية البناء فيها ، ويتصل بها حمام ، والبساتين حولها ، فهي مدرسة ومأذنة وصاحب هذه البلدة قطب الدين ، وهو أيضا صاحب مدينة « دارا » ومدينة « ماردين » و « رأس العين » وهو قريب لابني اتابك(٣) .

وهذه البلدة لسلاطين شتى كملوك طوائف الاندلس ، كلهم قد تحلى بحلية تنسب الى الدين ، فلا تسمع الا ألقابا هائلة ، وصفات لذي التحصيل غير طائلة ، قد تساوى فيها السوقة والملوك ، واشترك فيها الغني والصعلوك ، ليس فيهم من ارتسم بسمة به تليق ، او اتصف بصفة هو بها خليق إلا صلاح الدين صاحب الشام وديار مصر والحجاز واليمن ، والمشتهر الفضل والعدل ، فهذا اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه ، وما سوى ذلك في سواه فزعازع ريح ، وشهادات يردها التجريح ، ودعوى نسبة للدين برحت به أي تبريح !

ألقاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد(٤)

ونرجع الى حديث المراحل ، قربها الله :

فكان مقامنا بدنيسر الى أن صلينا الجمعة ، وهو اليوم الرابع لربيع[الاول] ، تلوم أهل القافلة بها لشهود سوقها ، لأن بها يوم الخميس ويوم الجمعة ويوم السبت ويوم الأحد بعدها سوق حفيلة ، يجتمع لها أهل هذه الجهات المجاورة لها والقرى المتصلة بها ، لأن الطريق كلها يمينا وشمالا قرى متصلة وخانات مشيدة ، ويسمون هذه السوق المجتمع اليها من الجهات البازار ، وأيام كل سوق معلومة .

ورحلنا اثر صلاة الجمعة ، فاجتزنا على قرية كبيرة لها حصن ،

تعرف « بتل العقارب » هي للنصارى المعاهدين الذميين ، ذكرتناهذه القرية بقرى الاندلس حسنا ونضارة ، تحفها البساتين والكروم وأنواع الاشجار ، ويتسرب بازائها نهر ترف الظلال عليه ، وخطها متسع ، والبساتين قد انتظمته ، وشاهدنا بها من الخنابيص (٥) امثال الغنم كثرة وانسا بأهلها . ثم وصلنا عشي النهار الى قرية اخرى تعرف « بالجشر » هي الان لناس من المعاهدين ، وهم فرقة من فرق الروم . فكان مبيتنا بها ليلة السبت الخامس لربيع المذكور ، ثم اسحرنا منها ، ووصلنا مدينة « رأس العين » قبيل الظهر من يوم السبت المذكور .

ذكر مدينة رأس العين ، حرسها الله

هذا الاسم لها من اصدق الصفات ، وموضوعها به أشرف الموضوعات ، وذلك ان الله تعالى فجر أرضها عيونا ، واجراها ماء معينا ، فتقسمت مذانب ، وانسابت جداول ، تنبسط في مروج خضر ، فكأنها سبائك اللجين ممدودة في بساط الزبرجد ، تحف بها أشجار وبساتين ، قد انتظمت حافتيها الى آخر انتهائها من عمارة بطحائها ، وأعظم هذه العيون عينان : احداهما فوق الاخرى ، فالعليا منهما نابعة فوق الارض في صمم الحجارة ، كأنها في جوف غار كبير متسع يبسط الماء فيه حتى يصير كالصهريج العظيم ، ثم يخرج ويسيل نهرا كبيرا كأكبر ما يكون من الانهار ، وينتهي الى العين الاخرى ويلتقي بمائها ، وهذه العين الثانية عجب من عجائب مخلوقات الله عز وجل ، وذلك انها نابعة تحت الارض من الحجر الصلد ، بنحو أربع قامات او ازيد ، ويتسع منبعها حتى يصير صهريجا في ذلك العمق ، ويعلو بقوة نبعه حتى يسيل على وجه الارض ، فربما يروم السابح القوي السباحة ، الشديد الغوص في اعماق المياه ، ان يصل بغوصه الى قعره ، فيمجه الماء بقوة ، انبعاثا من منبعه ، فلا يتناهى في غوصه الى مقدار نصف مسافة

العمق او أقل شيئا ؛ شـاهدنا ذلك عيانا . ومـاؤها اصـفى مـن الزلال ، واعذب من السلسبيل ، يشف عما حواه ، فلو طرح الدينار فيه في الليلة الظلماء لما اخفاه ، ويصاد فيها سـمك جليل مـن اطيب مايكون من السمك ، وينقسم ماء هذه العين نهرين : احدهما أخـذ يمينا ، والآخر يسارا ، فـالأيمن يشـق خـانقاه مبنية للصـوفية والغرباء بازاء العين ، وهي تسمى الرباط أيضا ، والايسر ينسرب على جانب الخانقاه ، وتفضي منه جداول الى مـظاهرها ومـرافقها المعدة للحاجة البشرية ، ثم يلتقيان اسلفها مع نهـر العين الأخـرى العليا . وقد بنيت على شط نهرهما المجتمع ، بيوت ارحـاء تتصـل على شط موضوع وسط النهر ، كأنه سد . ومن مجتمع ماء هـاتين العينين منشأ نهر الخابور .

وبمقر به من هذه الخانقاه بحيث تناظـرها ، مـدرسة ،بـازائها حمام ، وكلاهما قد وهى وأخلق وتعطل ، ومارأى كان في موضوعات لدنيا مثل موضوع هذه المدرسة ، لانها في جزيرة خضراء ، والنهـر يستدير بها من ثلاثة جوانب ، والمدخل اليهـا مـن جـانب واحـد . وأمامها ووراءها بستان ، وبازائها دولاب يلقـي الماء الى بسـاتين مرتفعة عن مصب النهر ، وشأن هـذا الموضـع كله عجيب جـدا ، فغاية حسن القرى بشرقي الاندلس ، ان يكون لها مثل هذا الموضع جملا ، او تتحلى بمثل هذه العيون ولله القدرة في جميع مخلوقاته .

وأما المدينة فللبداوة بها اعتناء ، وللحضارة عنهـا اسـتغناء ، لاسور يحصنها ، ولادور انيقة البناء تحسنها ، قد ضحيت (٦) في صحرائها كأنها عوذة لبطحائها . وهي مع ذلك كاملة مرافق المدن ، ولها جامعان حديث وقديم ، فالقديم بموضع هذه العيون ، وتنفجـر أمامه عين معينة هي دون اللتين ذكرناهما ، وهو من بنيان عمر بـن عبد العزيز رضي الله عنه ، لكنه قـد اثـر القـدم فيه ، حتـى آذن بتداعيه ، والجامع الآخر داخل البلد وفيه يجمع أهله ، فكان مقامنا بها ذلك اليوم نزهة ، لم نختلس في سفرنا كله مثلها .

فلما كان عند المغيب من يوم السبت الخامس لربيع المذكور ، وهو السادس عشر ليونيه ، رحلنا منهـا رغبـة الاسراء، وبـرد الليل ، وتفاديا من حر هجيرة التـأويب ، لأن منهـا الى حـران مسـيرة يومين ، لاعمارة فيها ، فتمادى سيرنا الى الصـباح ، ثـم نزلنا في الصحراء على ماء جب ، وارحنا قليلا . ثم رفعنا ضحوة النهار من يوم الأحد ، وسرنا ونزلنا قريب العصر على ماء بئر ، بمـوضع فيه برج مشيد وآثار قديمة ، يعرف « ببرج حواء » . فبيتنا به ثم رفعنا منه بعد تهويم سـاعة ، واسرينا الى الصـباح ، فـوصلنا مـدينة « حران » مع طلوع الشمس من يوم الاثنين السابع لربيع المذكور ، والثامن عشر ليونيه ، والحمد لله على تيسيره .

ذكر مدينة حران ، كلاها الله

بلد لاحسن لديه ، ولاظل يتوسط برديه ، قـد اشـتق مـن اسـمه هواؤه ، فلا يأذف البرد ماؤه ، ولا تزال تتقد بلفح الهجير سـاحاته وارجاؤه ، ولاتجد فيه مقيلا ، ولا تتنفس منه الا نفسا ثقيلا ، قد نبذ بالعراء ، ووضـع في وسـط الصـحراء ، فعـدم رونق الحضـارة ، وتعرت أعطافه من ملابس النضارة .

استغفر الله ! كفى بهذا البلد شرفا وفضلا أنهـا البلدة العتيقـة المنسوبة لابينا ابراهيم صلى الله عليه وسلم ، وله بقبلها بنحو ثلاثة فراسخ مشهد مبـارك ، فيه عين جـارية ، كان مـأوى له ولسـارة صلوات الله عليهما ، ومتعبدا لهما ببركة هذه النسبة ، قد جعل الله هذه البلد مقرا للصالحين المتزهدين ، ومثابة للسـائحين المتبتلين . لقينا من افرادهم الشيخ أبا البركات حيان بن عبد العـزيز ، حـذاء مسجده المنسوب اليه ، وهو يسكن منه في زاوية بناهـا في قبلتـه ، وتتصل بها في آخر الجانب زاوية لابنه عمر ، قـد التـزمها واشـبه طريقة ابيه فما ظلم ، وتعرفت منه شـنشنة أعرفهـا مـن أخـزم .

فوصلنا الى الشيخ ، وهو قد نيف على الثمانين ، فصافحنا ودعا لنا وامرنا بلقاء ابنه عمر المذكور . فملنا اليه ولقيناه ، ودعا لنا ، ثم ودعناهما وانصرفنا مسرورين ، بلقاء رجلين من رجال الآخرة .

ولقينا ايضا بمسجد عتيق الشيخ الزاهد سلمة ، فلقينا رجلا من الزهاد الافراد ، فدعا لنا وسألنا ، وودعناه وانصرفنا ، وبالبلد سلمة آخر ، يعرف بالمكشوف الرأس ، لايغطي رأسه تواضعالله عز وجل حتى عرف بذلك ، وصلنا الى منزله ، فأعلمنا أنه خرج للبرية سائحا .

وبهذه البلدة كثير من أهل الخير ، وأهلها هينون معتدلون ، محبون للغرباء ، مؤثرون للفقراء . وأهل هذه البلاد ، من الموصل لديار بكر ، وديار ربيعة الى الشام ، على هذه السبيل من حب الغرباء ، واكرام الفقراء ؛ وأهل قراها كذلك . فما يحتاج الفقراء الصعاليك معهم زادا ، لهم في ذلك مقاصد في الكرم مأثورة ، وشأن أهل هذه الجهات في هذا السبيل عجيب ، والله يذفعهم بما هم عليه ، وأما عبادهم وزهادهم والسائحون في الجبال منهم ، فاكثر من ان يقيدهم الاحصاء ، والله يذفع المسلمين ببركاتهم ، وصوالح دعواتهم ، بمنه وكرمه .

ولهذه البلدة المذكورة أسواق حفيلة الانتظام ، عجيبة الترتيب ، مسقفة كلها بالخشب ، فلا يزال أهلها في ظل ممدود ، فتخترقها كأنك تخترق دارا كبيرة الشوارع ، قد بني عند كل ملتقى أربع أسواق منها ، قبة عظيمة مرفوعة مصنوعة من الجص ، هي كالمفرق لتلك السكك . ويتصل بهذه الأسواق جامعها المكرم ، وهو عتيق مجدد ، قد جاء على غاية الحسن ، وله صحن كبير ، فيه ثلاث قباب مرتفعة على سوار رخام ، وتحت كل قبة بئر عذبة ، وفي الصحن ايضا قبة رابعة عظيمة ، قد قامت على عشر سوار من الرخام ،دور كل سارية تسعة أشبار ،وفي وسطالقبة عمود من الرخام عظيم الجرم ، دوره خمسة عشر شبرا . وهذه القبة من بنيان الروم . واعلاها مجوف كأنه البرج المشيد ، يقال : إنه كان مخزنا

لعدتهم الحربية ، والله أعلم ، والجامع المكرم سقف بجوائز الخشب والحنايا ، وخشبه عظام طوال لسعة البلاط ، وسعته خمس عشرة خطوة ، وهو خمسة ابلطة . وما رأينا جامعا اوسع حنايا منه . وجداره المتصل بالصحن ، الذي عليه المدخل اليه ، مفتتح كله ابوابا ، عددها تسعة عشرة بابا : تسعة يمينا ، وتسعة شمالا ، والتاسع عشر منها باب عظيم وسط هذه الابواب ، يمسك قوسه من أعلى الجدار الى اسفله بهي المنظر ، جميل الوضع ، كأنه باب من ابواب المدن الكبار . ولهذه الابواب كلها اغلاق من الخشب البديع الصنعة والنقش ، تنطبق عليها على شبه ابواب مجالس القصور ، فشاهدنا من حسن بناء هذا الجامع ، وحسن ترتيب اسواقه المتصلة به ، مرأى عجيبا قلما يوجد في المدن مثل انتظامه .

ولهذه البلدة مدرسة ومارستانان . وهي بلدة كبيرة ، وسورها متين حصين ، مبني بالحجارة المنحوتة ، المرصوص بعضها على بعض ، وفي نهاية من القوة ، وكذلك بنيان الجامع المكرم . ولها قلعة حصينةمما يلي الجهة الشرقية منها ، منقطعة عنها بفضاء واسع بينهما ، ومنقطعة ايضا عن سورها بحفير عظيم يستدير بها ، قد شيدت حافاته بالحجارة المركومة ، فجاء في نهاية الوثاقة والقوة . وسور القلعة وثيق الحصانة ، ولهذه البلدة نهير ، مجراه بالجهة الشرقية ايضا منها بين سورها وجبانتها ، ومصبه من عين هي على بعد من البلد .

والبلد كثير الخلق ، واسع الرزق ، ظاهر البركة ، كثير المساجد ، جم المرافق ، على احفل ما يكون من المدن . وصاحبه مظفرالدين بن زين الدين وطاعته الى صلاح الدينوهذه البلاد كلها من الموصل الى نصيبين الى الفرات ، المعروفةبديار ربيعة وحدها من نصيبين الى الفرات مع ما يلي الجنوب من الطريق ، وديار بكر التي تليها في الجانب الجوفي كآمد وميا فارقين وحاني وغيرها مما يطول ذكره ، ليس في ملوكها من يناهض صلاح الدين ، فهم الى طاعته

وإن كانوا مستبدين ، وفضله يبقي عليهم ، ولو شاء نزع الملك منهم لفعله بمشيئة الله .

فكان نزولنا ظاهر البلد بشرقيه على نهيره المذكور ، واقمنا مريحين يوم الاثنين ويوم الثلاثاء بعده ، واثر الظهر منه كان اجتماعنا بسلمة المكشوف الرأس ، الذي فاتنا لقاؤه يوم الاثنين ، فلقيناه بمسجده فرأينا رجلا عليه سيما الصالحين ، وسمت المحبين ، مع طلاقة وبشر ، وكرم لقاء وبر ، فآنسنا ودعا لنا ، وودعناه وانصرفنا حامدين الله عز وجل ، على ما من به علينا من لقاء اوليائه الصالحين وعبادة المقربين .

وفي ليلة الاربعاء التاسع لربيع المذكور ، كان رحيلنا بعد تحويم ساعة ، فأسرينا الى الصباح ، ونزلنا مريحين « بتل عبده » ، وهو موضع عمارة ، وهذا التل مشرف متسع ، كأنه المائدة المنصوبة ، وفيه اثر بناء قديم . وبهذا الموضع ماء جار ، وكان رحيلنا منه عند المغرب ، واسرينا الليل كله ، واجتزنا على قرية تعرف « بالبيضاء » فيها خان كبير جديد ، وهو نصف الطريق من حران الى الفرات ، ويقابلها على اليمين من الطريق ، في استقبالك الفرات الى الشام ، مدينة ، « سروج » التي شهر ذكرها الحريري بنسبة أبي زيد اليها ، وفيها البساتين والمياة المطردة ، حسبما وصفها به في مقاماته .

فكان وصولنا الى الفرات ضحوة النهار ، وعبرنا في الزواريق المقلة المعدة للعبور ، الى قلعة جديدة على الشط ، تعرف «بقلعة نجم » وحولها ديار بادية ، وفيها سويقة يوجد فيها المهم من علف وخبز ، فأقمنا بها يوم الخميس العاشر لربيع الأول المذكور مريحين خلال ما تكمل القافلة بالعبور ، واذا عبرت الفرات حصلت في حد الشام ، وسرت في طاعة صلاح الدين الى دمشق . والفرات حد بين ديار الشام وديار ربيعة وبكر ، وعن يسار الطريق ، في استقبالك الفرات الى الشام ، مدينة « الرقة » وهي على الفرات ، وتليها

« رحبة مالك بن طوق » وتعرف « برحبة الشام » ، وهي من المدن الشهيرة ، ثم رحلنا منها عند مضي ثلث الليل الاول ، واسرينا ووصلنا مدينة « منبج » مع الصباح من يوم الجمعة الحادي عشر لربيع المذكور ، والثاني والعشرين ليونيه .

ذكر مدينة منبج ، حرسها الله

بلدة فسيحة الارجاء ، صحيحة الهواء ، يحف بها سور عتيق ممتد الغاية والانتهاء ، جوها صقيل ، ومجتلاها جميل ، ونسيمها أرج النشر عليل ، نهارها يندى ظله ، وليلها كما قيل فيه : سحر كله ، تحف بغربيها وبشرقيها بساتين ملتفة الاشجار ، مختلفة الثمار . والماء يطرد فيها ، ويتخلل جميع نواحيها ، وخصص الله داخلها بآبار معينة ، شهدية العذوبة ، سلسبيلية المذاق ، تكون في كل دار منها البئر والبئران ، وارضها أرض كريمة ، تستنبط مياها كلها ، واسواقها وسككها فسيحة متسعة ، ودكاكينها وحوانيتها كأنها الخانات والمخازن اتساعا وكبرا ، وأعالي اسواقها مسقفة ، وعلى هذا الترتيب أسواق أكثر مدن هذه الجهات ، لكن هذه البلدة تعاقبت عليها الاحقاب ، حتى أخذ منها الخراب ؛ كانت من مدن الروم العتيقة ، ولهم فيها من البناء آثار تدل على عظم اعتنائهم بها . ولها قلعة حصينة في جوفيها ، تنقطع عنها وتنحاز منها ، ومدن هذه الجهات كلها لاتخلو من القلاع السلطانية . وأهلها أهل فضل وخير ، سنيون شافعيون ، وهي مطهرة بهم من أهل المذاهب المنحرفة ، والعقائد الفاسدة ، كما تجده في الاكثر من هذه البلاد ، فمعاملاتهم صحيحة ، واحوالهم مستقيمة ، وجادتهم الواضحة في دينهم من اعتراض بنيات الطريق سليمة .

فكان نزولنا خارجها ، في أحد بساتينها ، وأقمنا يوما مريحين ، ثم رحلنا نصف الليل . ووصلنا « بزاعة » ضحوة يوم السبت الثاني عشر لربيع المذكور .

ذكر بلدة بزاعة كلاها الله عز وجل

بقعة طيبة الثرى ، واسعة الذرى تصغر عن المدن وتكبر عن القرى ، بها سوق تجمع بين المرافق السفرية ، والمتاجر الحضرية ، وفي اعلاها قلعة كبيرة حصينة ، رامها احد ملوك الزمن ففاظته باستصعابها ، فأمر بثلم بنائها حتى غادرها عورة منبوذة بعرائها ، ولهذه البلدة عين معينة ، يخترق ماؤها بسيط بطحاء ترف بساتينها خضرة ونضارة ، وتريك برونقها الانيق حسن الحضارة .

ويناظرها في جانب البطحاء قرية كبيرة ، تعرف « بالباب » هي باب بين بزاعة وحلب ، وكان يعمرها منذ ثماني سنين قوم من الملاحدة الاسماعيلية لايحصى عددهم الا الله فطار شرارهم ، وقطع هذه السبيل فسادهم واضرارهم ، حتى داخلت أهل هذه البلاد العصبية ، وحركتهم الانفة والحمية ، فتجمعوا من كل أوب عليهم ، ووضعوا السيوف فيهم فاستأصلوهم عن آخرهم ، وعجلوا بقطع دابرهم ، وكومت بهذه البطحاء جماجمهم ، وكفى الله المسلمين عاديتهم وشرهم ، وأحاق بهم مكرهم ، والحمد لله رب العالمين . وسكانها اليوم قوم سنيون . فأقمنا بها يوم السبت ببطحاء هذه البلدة مريحين ، ورحلنا منها في الليل ، واسرينا الى الصباح ، ووصلنا مدينة « حلب » ضحوة يوم الاحد الثالث عشر لربيع الاول والرابع والعشرين ليونيه .

ذكر مدينة حلب ، حرسها الله تعالى

بلدة قدرها خطير وذكرها في كل زمان يطير ، خطابها من الملوك كثير ، ومحلها من النفوس أثير ، فكم أهاجت من كفاح وسل عليها من بيض الصفاح ، لها قلعة شهيرة الامتناع ، بائنة الارتفاع ، معدومة الشبه والنظير في القلاع ، تنزهت حصانة أن ترام او

تستطاع ، قاعدة كبيرة ، ومائدة مـن الارض مسـتديرة ، منحـوتة الارجاء ، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء ، فسبحان من احكم تقديرها ، وأبدع كيف شاء تصويرها وتدويرها ، عتيقـة في الازل ، حديثة وإن لم تزل ، قد طاولت الايام والاعوام ، وشيعت الخـواص والعوام . هذه منازلها وديارها ، فأين سكانها قديما وعمارها وتلك دار مملكتها وفناؤها ، فأين أمـراؤها الحمـدانيون وشـعراؤها ؟ اجل ، فني جميعهم ، ولم يأن بعد فناؤها ! فياعجبـا للبـلاد تبقـى وتذهب املاكها ، ويهلكون ولايقضى هلاكها ، تخـطب بعـدهم فـلا يتعذر ملاكها (٧) وترام فيتيسر بأهون شيء ادراكها ، هذه حلب ، كم ادخلت من ملوكها في خبر كان ، ونسخت بظرف الزمان بالمكان ، انث اسمها فتحلت بزينة الغوان ، ودانت بالغدر فيمن خـان وتجلت عروسا بعد سيف دولتها ابن حمدان ، هيهات ! هيهات ! سـيهرم شبابها ، ويعدم خطابها ، ويسرع فيها بعد حين خرابها ، وتتـطرق جذبات الحوادث اليها ، حتى يرث الله الارض ومن عليهـا ، لا إله سواه ، سبحانه جلت قدرته .

وقد خرج بنا الكلام عن مقصده ، فلنعـد الى مـا كنا بصـدده ، فنقول : ان من شرف هذه القلعـة ، انه يذكر انهـا كانت قـديما في الزمـان الاول ربـوة يأوي اليهـا ابـراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والتسليم ، بغنيمات له ، فيحلبها هنالك ، ويتصدق بلبنها ، فلذلك سميت « حلب » والله أعلم . وبها مشـهد كريم له ، يقصـده الناس ويتبركون بالصلاة فيه . ومـن كمـال خـلالها المشـترطة في حصانة القلاع ، ان الماء بها نابع ، وقد صـنع عليه جبـان ، فهمـا ينبعان ماء فلا تخاف الظمأ أبد الدهر ، والطعام يصبر فيها الدهـر كله ، وليس في شروط الحصانة أهـم ولا آكد مـن هـاتين الخلـتين ويطيف بهذين الجبين المذكورين ، سوران حصينان من الجانب الذي ينظر للبلد ، ويعترض دونهما خندق والحسن اعظم من أن تنتهي الى وصفه . وسورها الاعلى كله أبراج منتظمة ، فيها العلالي المنيفـة ، والقصاب المشرفة ، قد تفتحت كلها طيقانا . وكل بـرج مسـكون ، وداخلها المساكن السلطانية ، والمنازل الرفيعة الملوكية .

واما البلد فموضوعه ضخم جدا ، حفيل التركيب ، بديع الحسن ، واسع الأسواق كبيرها ، متصلة الانتظام مستطيلة ، تخرج من [سماط] صنعة الى سماط صنعة أخرى ، الى ان تفرغ من جميع الصناعات المدنية ، وكلها مسقف بالخشب ، فسكانها في ظلال وارفة ، فكل سوق منها تقيد الابصار حسنا ، وتستوقف المستوفز تعجبا ، وأما قيساريتها فحديقة بستان نظافة وجمالا ، مطيفة بالجامع المكرم ، لايتشوق الجالس فيها مرأى سواها ، ولوكان من المرائي الرياضية . وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة ، قد اتصل السماط خزانة واحدة ، وتخللتها شرف خشبية بديعة النقش ، وتفتحت كلها حوانيت ، فجاء منظرها أجمل منظر ، وكل سماط منها يتصل بباب من ابواب الجامع المكرم ، وهذا الجامع من احسن الجوامع وأجملها ، قد أطاف بصحنه الواسع بلاط متسع ، مفتح كله ابوابا قصرية الحسن ، الى الصحن ، عددها ينيف على الخمسين بابا ، فيستوقف الابصار حسن منظرها ، وفي صحنه بئران معينان ، والبلاط القبلي لامقصورة فيه ، فجاء ظاهر الاتساع ، رائق الانشراح . وقد استفرغت الصنعة القرنصية جهدها في منبره ، فما أرى في بلد من البلاد منبرا على شكله ، وغرابة صنعته ، واتصلت الصنعة الخشبية منه الى المحراب ، فتجالت صفحاته كلها حسنا ، على تلك الصفة الغربية . وارتفع كالتاج العظيم على المحراب ، وعلا حتى اتصل بسمك السقف وقد قوس اعلاه ، وشرف بالشرف الخشبية القرنصية ، وهو مرضع كله بالعاج والآج واتصال الترصيع من المنبر الى المحراب ، مع ما يليهما من جدار القبلة ، دون ان يتبين بينهما انفصال ، فتجتلي العيون منه أبدع منظر يكون في الدنيا . وحسن هذا الجامع المكرم اكثر من ان يوصف .

ويتصل به من الجانب الغربي ، مدرسة الحنفية تناسب الجامع حسنا واتقان صنعة ، فهما في الحسن روضة تجاور أخرى ، وهذه المدرسة من احفل ماشاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعة ، ومن

أظرف ما يلحظ فيها ان جدارها القبلي مفتح كله بيوتا وغرفا ، ولها طيقان يتصل بعضها ببعض ، وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنبا ، فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدليا امامها ، فيمد الساكن فيها يده ويجتنيه متكئا دون كلفة ولا مشقة ، وللبلدة سوى هذه المدرسة نحو اربع مدارس أو خمس ، ولها مارستان .

وأمرها في الاحتفال عظيم ، فهي بلدة تليق بالخلافة ،وحسنها كله داخل لاخارج لها الا نهير يجري من جوفيها الى قبليها ، ويشق ربضها المستدير بها ، فإن لها ربضا كبيرا ، فيه من الخانات مالا يحصى عدده . وبهذا النهر الارحاء ، وهي متصلة بالبلد ، وقائمة وسط ربضه وبهذا الربض بعض بساتين تتصل بطوله ، وكيفما كان الامر فيه داخلا وخارجا ، فهو من بلاد الدنيا التي لانظير لها ، والوصف فيه يطول .

فكان نزولنا بربضه في خان يعرف بخان ابي الشكر ؛ فاقمنا به أربعة أيام ، ورحلنا ضحوة يوم الخميس السابع عشر لربيع المذكور ، والثامن والعشرين ليونيه ، ووصلنا « قنسرين » قبيل العصر ، فأرحنا بها قليلا ، ثم انتقلنا الى قرية تعرف « بتل باجر » . فكان مبيتنا بها ليلة الجمعة الثامن عشر منه . وقنسرين هذه هي البلدة الشهيرة في الزمان ، لكنها خربت وعادت كأن لم تكن بالامس ، فلم يبق الا آثارها الدارسة ، ورسومها الطامسة ، ولكن قراها عامرة منتظمة ، لانها على محرث عظيم مد البصر عرضا وطولا ، وتشبهها من البلاد الاندلسية جيان ، ولذلك يذكر أن أهل قنسرين عند استفتاح الاندلس نزلوا جيان ، تأنسا بشبه الوطن وتعللا به مثلما فعل في اكثر بلادها ، حسب ماهو معروف .

ثم رحلنا من ذلك الموضع ، عند الثلث الماضي من الليل ، فأسرينا وسرنا الى ضحوة من النهار ، ثم نزلنا مريحين بموضع يعرف « بباقدين » في خان كبير يعرف بخان التركمان ، وثيق الحصانة

وخانات هذا الطريق كأنهـا القـلاع امتناعا وحصـانة ، وابـوابها حديد ، وهي من الوثاقة في غاية . ثم رحلنا من هذا الموضع ، وبتنا بموضع يعرف « بتمنى » في خان وثيق ، على الصفة المذكورة .

ثم اسحرنا منه يوم السـبت التـاسع عشر لربيع الاول المذكور ، وهـو آخر يوم من يونيه ، ورأينا عن يمين طريقنا بمقدار فرسخين ، يوم الجمعة المذكور . بلاد « المعرة » ، وهي سواد كلهـا : بشـجر الزيتون والتين والفسـتق وانواع الفـواكه ، ويتصـل التفـاف بساتينها ، وانتظام قراها ، مسيرة يومين ، وهي من اخصب بـلاد الله ، واكثرها ارزاقا ، ووراءهـا جبـل «بهراء» وهـو سـامي الارتفاع ، ممتد الطول ، يتصل من البحر الى البحر ، وفي صـفحته حصون للملاحدة الاسماعيلية ، فرقة مرقت مـن الاسـلام ، وادعت الالهية في أحد الانام ، قيض لهم شيطان من الانس يعرف بسنان ، خدعهم بأباطيل وخيالات مـوه عليهـم بـاستعمالها ، وسـحرهم بمحالها ، فاتخذوه الها يعبدونه ، ويبذلون الانفس دونه ، وحصلوا من طاعته وامتثال أمره ، بحيث يأمر أحدهم بالتردي مـن شـاهقة جبل فيتردى ، ويستعجل في مرضاته الردى ، والله يضل من يشاء ، ويهدي من يشاء بقدرته ، ونعـوذبه سـبحانه مـن الفتنة في الدين ، ونسأله العصمة مـن ضـلال الملحـدين ، ولا رب غيره ، ولامعبـود سواه . وجبل بهراء المذكور هو حد بين بلاد المسـلمين والافـرنج ، لأن وراءه أنطاكية واللاذقية وسواهما مـن بـلادهم ، اعادهـا الله للمسلمين . ويغيرون منه على حماة وحمص ، وهـو بمـرأى العين منهما ، فكان وصولنا الى مدينة « حماه » في الضحى الاعلى ، مـن يوم السبت المذكور ، فنزلنا بربضها في احد خاناته .

ذكر مدينة حماة ، حماها الله تعالى

مدينة شهيرة في البلدان ، قـديمة الصـحبة للزمـان ، غير فسـيحة الفناء ، ولا رائقة البناء ، اقطارها مضمومة ، وديارها مـركومة ،

لايهش البصر اليها ، عند الاطلال عليهــا ، كأنهــا تــكن بهجتهــا وتخفيها ، فتجد حسنها كامنا فيهــا ، حتــى اذا جســت خــلالها ، وذقرت ظلالها ، أبصرت بشرقيهــا نهــرا كبيرا ، تتســع في تــدفقه اساليبه ، وتتناظر بشطيه دواليبه ، قد انتظمت طــرتيه ، بســاتين تتهدل اغصانها عليه ، وتلوح خضرتها عذارا بصفحتيه ، يذسرب في ظلالها ، وينساب على سمت اعتــدالها ، وبــأحد شــطيه المتصــل بربضها مظاهر منتظمة بيوتا عدة ، يخترق الماء من أحد دواليبــه ، جميع نواحيها ، فلا يجد المغتسل اثر اذى فيها ، وعلى شطه الثاني المتصل بالمدينة السفلى جامع صغير ، قد فتح جداره الشرقي عليه ، طيقانا تجتلى منها منظرا ترتاح النفس اليه ، وتتقيد الابصار لديه ، وبازاء ممر النهر بجــوفي المدينة ، قلعــة حلبية الوضــع ، وإن كانت دونها في الحصانة والمنع ، سرب لها من هذا النهر ماء ينبع فيهــا ، فهي لاتخاف الصدى ، ولا تتهيب مرام العــدى . ومــوضوع هــذه المدينة في وهدة من الارض عريضة مستطيلة ، كأنهــا خندق عميق ، يرتفع لها جانبان : أحدهما كالجبل المطــل ، والمدينة العليا متصــلة بصفح ذلك الجانب الجبلي ، والقلعــة في الجــانب الآخــر في ربــوة منقطعة كبيرة مستديرة ، قد تولى نحتهــا الزمــان ، وحصــل لهــا بحصانتها من كل عدو الامان ، والمدينة السفلى تحت القلعة متصــلة بالجانب الذي يصب النهر عليه ، وكلتا المدينتين صغيرتان ، وســور المدينة العليا يمتــد على رأس جــانبها العلي الجبلي ويطيف بهــا . وللمدينة السفلى سور يحدق بها من ثــلاثة جــوانب ، لأن جــانبها المتصل بالنهر لايحتاج الى سور ، وعلى النهر جسر كبير ، معقــود بصم الحجارة ، ويتصل من المدينة السفلى الى ربضها . وربضــها كبير فيه الخانات والديار ، وله حوانيت يســتعجل فيهــا المســافر حاجته ، الى ان يفرغ لدخول المدينة ، وأسواق المدينة العليا أحفــل وأجمل من أسواق المدينة السفلى ، وهي الجامعة لجميع الصناعات والتجارات ، وموضوعها حسن التنظيم ، بديع الترتيب والتقسيم ، ولها جامع أكبر من الجامع الاســفل ، ولهــا ثــلاث مــدارس ، ومارستان على شط النهر ، بازاء الجامع الصغير . وبخارج هــذه البلدة بسيط فسيح عريض ، قد انتظم اكثــره شــجرات الاعناب ،

وفيه المزارع والمحارث ، وفي منظره انشراح للنفس وانفساح ، والبساتين متصلة على شطي النهر ، وهو يسمى « العاصي » لأن ظاهرة انحداره من سفل الى علو ، ومجراه من الجنوب الى الشمال ، وهو يجتاز على قبلي حمص وبمقربة منها .

فكان مقامنا بحماة الى عشي يوم السبت المذكور ، ثم رحلنا منها ، وأسرينا الليل كله ، وأجزنا في نصفه هذا النهر العاصي المذكور ، على جسر كبير معقود من الحجارة . وعليه مدينة رستن التي خربها عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وآثارها عظيمة ، ويذكر الروم القسطنطينيون أن بها أموالا جمة مكنوزة ، والله أعلم بذلك ، فوصلنا الى مدينة « حمص » مع شروق الشمس من يوم الاحد الموفى عشرين لربيع [الاول] وهو أول يوليه ، فنزلنا بظاهرها بخان السبيل .

ذكر مدينة حمص ، حرسها الله تعالى

هي فسيحة الساحة ، مستطيلة المساحة ، نزهة لعين مبصرها من النظافة والملاحة ، موضوعة في بسيط من الارض عريض مداه ، لايخترقه النسيم بمشراه ، يكاد البصر يقف دون منتهاه أفيح أغبر ، لاماء ولا شجر ، ولاظل ولا ثمر ، فهي تشتكي ظماءها ، وتستقي على البعد ماءها ، فيجلب لها من نهيرها العاصي ، وهو منها بنحو مسافة الميل ، وعليه طرة بساتين تجتلي العين خضرتها ، وتستغرب نضرتها ، ومنبعه في مغارة بصفح جبل ، فوقها بمرحلة بموضع يقابل « بعلبك » أعادها الله ، وهي عن يمين الطريق الى دمشق ، وأهل هذه البلدة موصوفون بالنجدة والتمرس بالعدو ، لمجاورتهم إياه ، وبعدهم في ذلك اهل حلب . فأحمد خلال هذه البلدة هواؤها الرطب ، ونسيمها الميمون تخفيفه وتجسيمه ، فكأن الهواء النجدي في الصحة شقيقه وقسيمه ، وبقبلي هذه المدينة قلعة حصينة منيعة ،

عاصية غير مطيعة ، قــد تميزت وانحــازت بمــوضوعها عنهــــا ، وبشرقيها جبانة فيها قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه ، هو ســيف الله المسلول ، ومعه قبر ابنه ومعه قبر ابنه عبد الرحمن ، وقبر عبيد الله بن عمر رضي الله عنهم . واسوار هــذه المدينة غاية في العتــاقة والوثاقة ، مرصوص بناؤها بالحجارة الصــم الســود ، وابــوابها ابواب حديد ، سامية الاشراف ، هــائلة المنظــر ، رائعــة الاطــلال والاناقة ، تكتنفها الابراج المشيدة الحصينة ، واما داخلها فما شئت من بادية شعثاء ، خلقة الارجاء ، ملفقة البناء ، لا اشراقا لآفاقها ، ولا رونق لأسواقها ، كاسدة لا عهد لها بنفاقها ، وماظنك ببلد حصــن الأكراد منه على أميال يسيرة ، وهو معقل العدو ، فهو منه تتــرائى ناره ، ويحرق اذا يطير شراره ، ويتعهد اذا شــاء كل يوم مغــاره ، وسألنا أحد الاشياخ بهذه البلدة : هل فيها مارستان على رسم مدن الجهات ؟ فقال ، وقد انكر ذلك:حمص كلها مارستان ! وكفاك تبيينا شهادة اهلها فيها ! وبها مدرسة واحدة . وتجــد في هــذه البلدة عند اطلالك عليها من بعد ، في بســيطها ومنظــرها وهيئة مــوضوعها ، بعض شبه بمدينة « اشبيلية » مــن بــلاد الاندلس ، يقــع للحين في نفسك خياله ، وبهذا الاسم ســميت في القــديم ، وهــي العلة التــي اوجبت نزول الاعراب أهل حمص فيهــا ، حســبما يذكر ، وهــذا التشبيه ، وان لم يكن بذاته ، فله لمحة من إحدى جهاته .

وأقمنا بها يوم الأحد المذكور ، ويوم الاثنين بعــده ، وهــو الثــاني ليوليه ، الى أول الظهر ، ورحلنا منها وتمــادينا الى العشي ، ونزلنا بقرية خربة تعرف « مشغرى » ، فعشينا بها الدواب ، ثم رحلنا عند المغرب ، وأسرينا طول ليلتنا ، وتمادى سيرنا الى الضــحى الأعلى من يوم الثـــلاثاء الثـــاني والعشرين مـــن الشــــهر المذكور . ونزلنا بقرية كبيرة للنصارى المعاهدين ، تعــرف « بــالقارة » ليس فيها من المسلمين أحد ، وبها خان كبير كأنه الحصــن المشــيد ، في وسطه صهريج كبير ، مملوء ماء يتسرب له تحــت الارض مــن عين على البعد ، فهو لايزال ملآن ، فارحنا بالخان المذكور الى الظهــر ، ثم رحلنا منه الى قرية تعرف « بالنبك » بهــا مــاء مــار ومحـــرث

متسع ، فنزلنا بها للتعشية ، ثم رحلنا منها بعد اختلاس تهويمه خفيفة .

واسرينا الليل كله ، فوصلنا الى خان السلطان مع الصباح ، وهو خان بناه صلاح الدين صاحب الشام ، وهو في نهاية الوثاقة والحسن ، بباب حديد على سبيلهم في بناء خانات هذه الطرق كلها ، واحتفالهم في تشييدها . وفي هذا الخان ماء جار ، يتسرب الى سقاية في وسط الخان كأنها صهريج ، ولها منافس ينصب منها الماء في سقاية صغيرة مستديرة حول الصهريج ، ثم يغوص في سرب في الارض ، والطريق من حمص الى دمشق قليل العمارة الا في ثلاثة مواضع او أربعة ؛ منها هذه الخانات المذكورة . فأقمنا بها يوم الاربعاء الثالث والعشرين لربيع المذكور بالخان المذكور ، مريحين ومستدركين للنوم الى أول الظهر ، ثم رحلنا وجزنا « بثنية العقاب » ، ومنها يشرف على بسيط دمشق وغوطتها . وعند هذه الثنية مفرق طريقين : احداهما التي جئنا منها ، والثانية آخذة شرقا في البرية على السماوة الى العراق ، وهي طريق قصد لكنها لاتدخل الا في الشتاء ، فانحدرنا منها بين جبال في بطن واد الى البسيط ، ونزلنا منه بموضع يعرف « بالقصير » فيه خان كبير ، والنهر جار أمامه ، ثم رحلنا منه الصبح ، وسرنا في بساتين متصلة لايوصف حسنها ، ووصلنا دمشق في الضحى الاعلى من يوم الخميس الرابع والعشرين لربيع الاول ، والخامس ليوليه ، والحمد لله رب العالمين .

شهر ربيع الآخر

استهل هلاله يوم الاربعاء ، بموافقة الحادي عشر ليوليه ، ونحن بدمشق ، نازلين فيها بدار الحديث ، غربي جامعها المكرم .

ذكر مدينة دمشق ، حرسها الله تعالى

جنة المشرق ، ومطلع حسنه المؤنق المشرق ، وهي خاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها ، وعروس المدن التي اجتليناها ، قد تجلت بأزاهير الرياحين ، وتجلت في حلل سندسية من البساتين ، وحلت من موضوع الحسن بالمكان المكين ، وتزينت في منصتها أجمل تزيين ، وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه صلى الله عليهما منها الى ربوة ذات قرار ومعين ، ظل ظليل وماء سلسبيل ، وتنساب مذانبه انسياب الاراقم بكل سبيل ، ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل ، تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل ، وتناديهم :هلموا الى معرس الحسن ومقيل ، قد سئمت ارضها كثرة الماء حتى اشتاقت الى الظماء فتكاد تناديك بها الصم الصلاب: « اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب(٨) » ، قد احدقت البساتين بها احداق الهالة بالقمر ، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر ، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر ، فكل موضع لخطته بجهاتها الاربع نضرته اليانعة قيد النظر ، ولله صدق القائلين عنها : « إن كانت الجنة في الارض فدمشق لاشك فيها ، وان كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحاذيها » .

ذكر جامعها المكرم ، عمره الله تعالى

هو من أشهر جوامع الاسلام حسنا ، واتقان بناء وغرابة صنعة ، واحتفال تنميق وتزيين . وشهرته المتعارفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه . ومن عجيب شأنه لاتنسج به العنكبوت ولا تدخله ، ولاتلم به الطير المعروفة بالخطاف ......

وفي هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم ، كل يوم اثر صلاة الصبح ، لقراءة سبع من القرآن دائما ، ومثله اثر صلاة العصر

لقراءة تسمى الكوثرية ، يقرأون فيهـا مـن سـورة الكوثـر الى الخاتمة . ويحضر في هذا المجتمع الكوثـري كل مـن لايجيد حفـظ القرآن . وللمجتمعين على ذلك اجراء كل يوم ، يعيش منه ازيد مـن خمس مئة انسان . وهذا من مفاخر هذا الجامع المكرم . فـلا تخلو القراءة منه صباحا ولامسـاء . وفيه حلقـات للتـدريس الطلبـة ، وللمدرسين فيها اجراء واسع . وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي ، يجتمع فيها طلبة المغاربة ، ولهم اجراء معلوم . ومـرافق هذا الجامع المكرم للغرباء ، وأهل الطلب ، كثيرة واسـعة ، واغرب ما يحدث به ان سارية من سواريه ، هي بين المقصـورتين القـديمة والحديثة ، لها وقف معلوم يأخذه المستند اليها للمذاكرة والتدريس ، ابصرنا بها فقيها من أهل إشبيلية ، يعرف بـالمرادي . وعند فـراغ المجتمع السبعي من القراءة صباحا ، يستند كل انسـان منهـم الى سارية ، ويجلس أمامه صبي يلقنه القرآن . وللصـبيان أيضـا على قراءتهم جراية معلومة ، فأهل الجدة من آبائهم ينزهون أبناءهم عن اخذها ، وسائرهم يأخذها . وهذا من المفاخر الاسلامية .

وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد ، ولهـا وقـف كبير ، يأخـــــــــذ منه المعلم لهـــــــــــم ما يقوم به ، وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم ؛ وهذا ايضا من أغرب ما يحدث به من مفاخر هذه البلاد . وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها ، انما هـو تلقين ، ويعلمون الخط في الأشعار وغيرها ، تنزيها لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالاثبات والمحو . وقد يكون في أكثر البلاد الملقن على حدة والمكتـب على حدة فينفصل مـن التلقين الى التـكتيب ، لهـم في ذلك سـيرة حسنة . ولذلك ما يتأتى لهم حسن الخـط ، لأن المعلم له لايشـتغل بغيره ، فهو يستفرغ جهـده في التعليم ، والصـبي في التعلم كذلك ، ويسهل عليه لانه بتصوير يحذو حذوة ......

وبآخر هذا الجبل [جبل قاسيون] المذكور ، في آخـر البسـيط البستاني الغربي من هذا البلد ، الربوة المبـاركة المذكورة في كتـاب

الله تعالى : مأوى المسيح وامه صلوات الله عليهما ، وهي من ابدع مناظر الدنيا حسنا ، وجمالا ، واشراقا ، واتقان بناء ، واحتفال تشييد ، وشرف وضع ، هي كالقصر المشيد ، ويصعد اليها على ادراج ، والمأوى المبارك منها مغارة صغيرة في وسطها ، وهي كالبيت الصغير . وبازائها بيت يقال : انه مصلى الخضر صلى الله عليه وسلم ، فيبادر الناس للصلاة بهذين الموضعين المباركين، ولا سيما المأوى المبارك . وله باب حديد صغير ينغلق دونه ، والمسجد يطيف بها ، ولها شوارع دائرة ، وفيها سقاية لم ير أحسن منها ، قد سيق اليها الماء من علو ، وماؤها ينصب على شاذروان في الجدار ، متصل بحوض من رخام يقع الماء فيه ، لم ير أحسن من منظره . وخلف ذلك مظاهر ، يجري الماء في كل بيت منها ، ويستدير بالجانب المتصل بجدار الشاذروان . وهذه الربوة المباركة رأس بساتين البلد ، ومقسم مائة ، يذقسم فيها الماء على سبعة أنهار ، يأخذ كل نهر طريقه ، واكبر هذه الانهار نهر يعرف « بذورا » ، وهو يشق تحت الربوة ،وقد ذقر له في الحجر الصلد اسفلها ، حتى اذفتح له متسرب واسع كالغار ، وربما انغمس الجسور من سباح الصبيان او الرجال من أعلى الربوة في النهر ، واندفع تحت الماء حتى يشق متسربة تحت الربوة ويخرج اسفلها ، وهي مخاطرة كبيرة . ويشرف من هذه الربوة على جميع البساتين الغربية في البلد ، ولا اشراف كاشرافها حسنا وجمالا واتساعا مسرح للابصار ، وتحتها تلك الانهار السبعة تتسرب وتسيح في طرق شتى فتحار الابصار في حسن اجتماعها ، وافتراقها ، واندفاع انصبابها ، وشرف موضوع هذه الربوة ومجموع حسنها ، اعظم من ان يحيط به وصف واصف في غلق مدحه ، وشأنها في موضوعات الدنيا الشريفة خطيرة كبيرة .

ويتصل بها اسفل منها ، بمقربة من المسافة ، قرية كبيرة تعرف « بالنيرب » ، قد غطتها البساتين ، فلا يظهر منها الا ما سما بناؤه . وبها جامع لم ير أحسن منه ، مفروش سطحه كله بفصوص الرخام الملون ، فيخيل لناظره أنه ديباج مبسوط ، وفيه سقاية ماء

رائقة الحسن ، ومطهرة لهـا عشرة أبـواب ، يجـري الماء فيهـا ، ويطيف بها ، فوقها لجهة القبلة قـرية كبيرة ، هـي مـن أحسـن القرى ، تعرف « بالمزة » ، وبها جامع كبير وسقاية معينة ، وبقرية النيرب حمام ، واكثر قرى هذه البلدة فيها الحمامات .

وفي الجهة الشرقية من البلد ، عن يمين الطريق الى مولد ابراهيم عليه السلام ، قرية تعـرف « ببيت لاهية » يريدون الآلهـة ، وكانت فيها كنيسة هي الآن مسجد مبارك . وكان آزر أبو ابراهيم ينحـت فيها الآلهة ويصورها ، فيجيء الخليل ابـراهيم صـلوات الله عليه وعلى نبينا الكريم فيكسرها ، وهي اليوم مسجد يجتمـع فيه أهـل القرية ، وسطحه كله مفروش بفصوص الرخام الملونة ، منتـظم كله خواتيم واشكالات بديعة ، يخيل لمبصرها أنها فرش متقنة مزخرفة ، وهو من المشاهد الكريمة ، وللربوة المبـاركة اوقـاف كثيرة ، مـن بساتين وارض بيضاء ورباع . وهي معينة التقسـيم اوظائفها : فمنها ما هو معين باسم الذفقة في الأدم للبائتين فيهـا مـن الزوار ، ومنها ما هو معين للاكسية برسم التغطية بالليل ، ومنهـا مـا هـو معين للطعام ، الى تقاسيم تسـتوفي جميع مـؤنها ، ومـؤن الامين الراتب فيها برسم الامامة ، والمؤذن الملتزم خدمتها ؛ ولهم على ذلك كله مرتب معلوم في كل شهر . وهي خطة من أعظم الخطط .

والامين فيها الآن مـن بقية المرابـطين المسـوفيين(٩) ومـن أعيانهم ، يعرف بأبي الربيع سليمان بن ابـراهيم بـن مـالك ، وله مكانة من السلطان ووجـوه الدولة ، وله في الشـهر خمسـة دنانير حاشى فائدة الربوة ، وهو متسم بالخير ومرتسم بـه ، وهـو متعلق بسبب من اسباب البرفي ايواء أهل الغرب من الغرباء المنقطعين بهذه الجهات ، يسبب لهم وجوه المعـايش مـن الامـامة في مسـجد ، او سكنى بمدرسة تجري عليه فيها الذفقة ، أو التزام زاوية مـن زوايا المسجد الجامع يجبي اليه فيها رزقه ، او حضور في قراءة سبع ، أو سدانة مشهد من المشاهد المباركة يكون فيه ، ويجري عليه ما يقـوم به من أوقافه ، الى غير ذلك من الوجوه المعاشية ، على هذه السبيل

المباركة مما يطول شرحــه ، فــالغريب المحتــاج هنا ، اذا كان على طريقة الخير ، مصون محفوظ غير مريق ماء الوجه ، وسائر الغرباء ممن ليس على هذه الحال ، ممن عهـد الخـدمة والمهنة ، يســبب له ايضا أسباب غريبة من الخدمة : إما بستان يكون ناطـورا فيه ، أو حمام يكون عينا على خدمته وحافظا الاثوابها داخلية ، أو طاحونة يكون أمينا عليها ، أو كفــالة صــبيان يؤديهـــم الى محــاضرهـم ويصرفهم الى منازلهم ، الى غير ذلك من الوجوه الواسـعة . وليس يؤتمن فيها كلها سوى المغاربة الغرباء ، لانهم قد علالهم بهـذا البلد صيت في الامانة ، وطار لهم فيها ذكر ، وأهلها لا يأتمنون البلديين. وهذا من الطاف الله تعالى بالغرباء ، وله الحمد والشـكر على مـا يولي عباده . وإن شاء احد المتعلقين بـأسباب المعـارف التعـرض هنالك السلطان ، يقبله ويكرمه ويرتبه ، ويجري عليه بحسب قـدره ومنصبه ، قد طبعت هذه البلاد وملوكها على هذه الفضــائل قـديما وحديثا . وقد تســلسل بنا القـول الى غير البـاب الذي نحـن فيه والحديث ذو شجون ، والله كفيل بحسن العون ، لا رب سواه .

وبغربي البلد جبانة (١٠) كبيرة ، تعرف بقبور الشهداء ، فيها كثير من الصحابة والتابعين الائمـة الصــالحين رضي الله عنهـم . فالمشهور بها من قبور الصــحابة ، رضي الله عنهـم ، قبـر ابـــي الدرداء ، وقبر زوجته أم الدرداء رضي الله عنهما ، وموضع مبــارك فيه تاريخ قديم مكتوب عليه « في هذا الموضــع قبـر جمــاعة مـــن الصحابة ، رضي الله عنهم ، منهم فضــالة بـن عبيد ، وســهل بـن الحنظلية ، من الذين بايعوا رسول الله ، صــلى الله عليه وســلم ، تحت الشجرة ، وخال [أمير] المؤمنين معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه » وقبره مســنم في الموضــع المذكور . وقـرأت في فضــائل دمشق : أن أم المؤمنين أم حبيبة أخت معــاوية رضي الله عنهمــا ، مدفونة بدمشق . وقبر واثلة بن الاسقع من أهل الصفة ، وفي الجهة التي [تلي] هذا الموضوع المبارك ، تاريخ فيه مكتوب : « هذا قبـر أوس ابن أوس الثقفي » . وحول هذا الموضع المذكور ، على مقربة منه ، قبر بلال بن حمامة مؤذن رسول الله صلى الله عليه وســلم .

وفي رأس القبر المبارك تاريخ باسمه رضي الله عنه ، والدعاء في هـذا الموضوع المبارك مستجاب ، قد جرب ذلك كثير من الأولياء وأهل الخير المتبركين بزيارتهم ، الى قبور كثيرة من الصحابة وسواهم من الصالحين ، ممن قد ذهب اسمه وغبر ذكره ، ومشاهد كثيرة لأهل البيت رضي الله عنهم رجالا ونساء ، وقد احتفل الشيعة في البناء عليهم ، ولها الاوقاف الواسعة .

ومن احفل هذه المشاهد مشهد منسوب لعلي بن ابي طالب ، رضي الله عنه ، قد بني عليه مسجد حفيل ، رائق البناء ، وبازائه بستان كله نارنج والماء يطرد فيه من سقاية معينة . والمسجد كله ستور معلقة في جوانبه صغار وكبار ، وفي المحراب حجر عظيم ، قد شق بنصفين ، والتحم بينهما ولم يبن النصف عن النصف بالكلية ، يزعم الشيعة أنه انشق لعلي رضي الله عنه : إما بضربة بسيفه ، أو بأمر من الامور الالهية على يديه . ولم يذكر عن علي ، رضي الله عنه ، أنه دخل قط هذا البلد ، اللهم الا إن زعموا أنه كان في النوم ، فلعل جهة الرؤيا تصح لهم ، اذ لا تصح لهم جهة اليقظة ، وهذا الحجر اوجب بنيان هذا المشهد . وللشيعة في هذه البلاد أمور عجيبة ، وهم اكثر من السنيين بها . وقد عمروا البلاد بمذاهبهم ، وهم فرق شتى .....

وسلط الله على هذه الرافضة طائفة ، تعرف بالبذوية ، سنيون يدينون بالفتوة وبأمور الرجولة كلها ، وكل من الحقوه بهم لخصلة يرونها فيه منها يحرمونه [ويلبسونه] السراويل ، فيلحقوه بهم ، ولايرون ان يستعدي أحد منهم في نازلة تنزل به ، لهم في ذلك مذاهب عجيبة . واذا أقسم أحدهم بالفتوة برقسمه ، وهم يقتلون هؤلاء الروافض ، أينما وجدوهم . وشأنهم عجيب في الأنفة والائتلاف .

ومن المشاهد المكرمة مشهد سعد بن عبادة رئيس الخزرج ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بقرية تعرف « بالمنيحة » شرقي البلد وعلى مقدار أربعة أميال منه ، وعلى قبره مسجد صغير حسن البناء ، والقبر في وسطه ، وعند رأسه مكتوب :

« هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج ، صاحب رسول الله صـــلى الله عليه وسلم » . ومن مشاهد أهل البيت رضي الله عنهم : مشـــهد أم كلثوم ابنة علي بن ابي طالب رضي الله عنهما ، ويقال لهـــا زينب الصغرى ، وأم كلثوم كنية أوقعها عليها النبي صلى الله عليه وسلم لشبهما بابنته أم كلثوم رضي الله عنها ، والله اعلم بذلك ، ومشهدها الكريم بقرية قبلى البلد تعرف « براوية » على مقدار فرسخ ، وعليه مسجد كبير ، وخارجه مساكن ، وله أوقاف ، وأهل هذه الجهـــات يعرفونه بقبر الست أم كلثوم ، مشينا اليه ، وبتنا بـــه ، وتبـــركنا برؤيته ، نفعنا الله بذلك .

وبالجبانة التي بغربي البلد ، من قبور أهـــل البيت ، كثير رضي الله عنهم ، منها قبران عليهما مسجد يقال : إنهما من ولد الحسن رضي الله عنهما ومسجد آخر فيه قبر يقـــال : إنه لســـكينة بنت الحســـين رضي الله عنهمـــــــــــــــا ، أو لعلهـــــــــــــــــا سكينة أخرى من أهل البيت ، ومن المشـــاهد ايضـــا قبـــر بجـــامع النيرب ، في بيت بالجهة الشرقية منه ، يقال : إنه لأم مريم رضي الله عنها ، وبقرية « داريا » قبر أبي مســـلم الخـــولاني رضي الله عنه ، وعليه قبة هي علامة القبر ، وبها ايضا قبر ابـــي ســـليمان الداراني رضي الله عنه . وبين هذه القـــرية وبين البلد مقـــدار أربعـــة أميال ، وهي لجهة الغرب منه ، ومن المشاهد الكريمـــة ، التـــي لم نعـــاينها ووصفت لنا قبرا شيث ونوح عليهما الســـلام ، وهمـــا « بـــالبقاع » وهي على يومين في البلد . وحدثنا من ذرع قبر شيث فألفىفيه أربعين باعا ، وفي قبر نوح ثلاثين ، وبازاء قبر نوح قبر ابنه له . وعلى هذه القبور بناء ، ولها أوقاف كثيرة ، ولها قيم يلتزمها ، ومن المشـــاهد المباركة ايضا ، بالجبانة الغربية وبمقربة من بـــاب الجـــابية ، قبـــر اويس القرني رضي الله عنه ، وقبور خلفاء بني امية رحمهـــم الله ، يقال : انها بازاء باب الصـــغير ، بمقـــربة مـــن الجبـــانة المذكورة ، وعليها اليوم بناء يسكن فيه ، والمشاهد المباركة بهذه البلدة اكثر من ان تنضبط بالتقييد ، وانما رسم من ذلك ما هو مشهور ومعلوم .

ومن المشاهد الشهيرة ايضا ، مسجد الاقدام ، وهو على مقدار ميلين من البلد مما يلي القبلة ، على قارعة الطريق الاعظم الآخذ الى بلاد الحجاز والساحل وديار مصر ، وفي هذا المسجد بيت صغير ، فيه حجر مكتوب عليه : « كان بعض الصالحين يرى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، فيقول : ههنا قبر اخي موسى صلى الله عليه وسلم » . والكثيب الأحمر على الطريق ، بمقربة من هذا الموضع ، وهو بين غالية وغويلية كما ورد في الاثر ، وهما موضعان ، وشأن هذا المسجد في البركة عظيم ، ويقال : ان الذور ماخلاقط من هذا الموضع الذي يذكر ان القبر فيه ، حيث الحجر المكتوب . وله اوقاف كثيرة . فأما الاقدام ففي حجارة في الطريق اليه ، معلم عليها ، تجد اثر القدم في كل حجر ، وعدد الاقدام تسع ، ويقال : انها اثر قدم موسى عليه السلام ، والله أعلم بحقيقة ذلك ، لا اله سواه .

شهر جمادى الأولى ، عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الجمعة ، بموافقة العاشر لشهر اغوشت العجمي

ذكر جمل من احوال البلد ، عمره الله بالاسلام

لهذه البلدة ثمانية ابواب : « باب شرقي » ، وهو شرقي ، وفيه منارة بيضاء يقال : إن عيسى عليه السلام ينزل فيها ، لما جاء في الأثر انه ينزل بالمنارة البيضاء شرقي دمشق ، ويلي هذا الباب « باب توما » وهو ايضا في حيز الشرق ، ثم « باب السلامة » ، ثم « باب الفراديس » ، وهو شمالي ؛ ثم « باب الفرج » ، ثم « باب النصر » ، وهو غربي ؛ ثم « باب الجابية » كذلك ، ثم « باب الصغير » ، وهو بين الغرب والقبلة .

والمسجد الجامع مائل الى الجهة الشمالية من البلد ، والارباض به مطيفة الا من جهة الشرق مع ما يتصل بها من القبلة يسيرا . والارباض كبار ، والبلد ليس بمفرط الكبر ، (و) هو مائل الطول ، وسككه ضيقة مظلمة ، وبناؤه طين وقصب ، طبقات بعضها فوق بعض ، ولذلك ما يسرع الحريق اليه ، وهو كله ثلاث طبقات ، فيحتوي من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن لأنه أكثر بلاد الدنيا خلقا ، وحسنة كله خارج لاداخل .

وفي داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم ، تعرف بكنيسة مريم ، ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها ، وهي حفيلة البناء ، تتضمن من التصاوير أمرا عجيبا تبهت الأفكار ، وتستوقف الابصار ، ومرآها عجيب ، وهي بأيدي الروم ، ولا اعتراض عليهم فيها .

وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة ، وبها مارستانان قديم وحديث ، والحديث احفلهما وأكبرهما ، وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر دينارا ، وله قومه بأيديهم الأزمة المحتوية على أسماء المرضى ، وعلى الذفقات التي يحتاجون اليها في الادوية والأغذية وغير ذلك ، والأطباء يبكرون اليه في كل يوم ، ويتفقدون المرضى ، ويأمرون باعداد ما يصلحهم من الادوية والاغذية ، حسبما يليق بكل انسان منهم ، والمارستان الآخر على هذا الرسم ، لكن الاحتفال في الجديد اكثر ، وهذا القديم هو غربي الجامع المكرم . وللمجانين المعتقلين ايضا ضرب من العلاج ، وهم في سلاسل موثقون ، ونعوذ بالله من المحنة وسوء القدر ، وتندر من بعضهم النوادر الظريفة ، حسبما كنا نسمع به ، ومن اعجب ما حدثت به من ذلك : ان رجلا كان يعلم القرآن ، وكان يقرأ عليه أحد أبناء وجوه البلد ، ممن أوتى مسحة جمال ، واسمه نصر الله ، وكان المعلم يهيم به . فزاد كلفه حتى اختبل ، وادي الى المارستان ، واشتهرت علته وفضيحته بالصبي ، وربما كان يدخله أبوه اليه ، فقيل له : اخرج وعد لما كنت عليه من القرآن . فقال متماجنا تماجن المجانين : وأي قراءة بقيت لي ؟ ما

بقي في حفظي من القرآن شيء سوى « اذا جاء نصر الله » فضحك منه ، ومن قوله ، ونسأل الله العافية له ولكل مسلم ، فلم يزل كذلك حتى توفي سمح الله له .

وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الاسلام ، والمدارس كذلك . ومن أحسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نور الدين رحمه الله ، وبها قبره نوره الله . وهي قصر من القصور الانيقة ، ينصب فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم ، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة الى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار . فتحار الابصار في حسن ذلك المنظر ، فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين رحمه الله ، وأما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة ، وهي برسم الصوفية ، وهي قصور مزخرفة ، يطرد في جميعها الماء على احسن منظر يبصر .

وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد ، لانهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها ، وفرغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في اسباب المعايش ، واسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنان ، فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيم الدنيا والآخرة ، وهم على طريقة شريفة ، وسنة في المعاشرة عجيبة ، وسيرتهم في التزام رتب الخدمة غريبة ، وعوائدهم من الاجتماع للسماع المشوق جميلة ، وربما فارق منهم الدنيا في تلك الحالات المنفعل المثابر رقة وتشوقا . وبالجملة فأحوالهم كلها بديعة وهم يرجون عيشا طيبا هنيئا .

ومن اعظم ما شاهدناه لهم موضع يعرف بالقصر ، وهو صرح عظيم مستقل في الهواء ، في اعلاه مساكن لم ير أجمل اشرافا منها ، وهو من البلد بنصف الميل ، له بستان عظيم يتصل به ، وكان متنزها لاحد ملوك الاتراك فيقال : انه كان فيه احدى الليالي على راحة ، فاجتاز به قوم من الصوفية ، فهريق عليهم من النبيذ الذي كانوا يشربونه في ذلك القصر . فرفعوا الامر لنور الدين ، فلم يزل حتى

استوهبه من صاحبه ، ووقفه برسم الصوفية مؤبدا لهم . فبطال العجب من السماحة بمثله ، وبقي اثر الفضل فيه مخلدا لنور الدين رحمه الله . ومناقب هذا الرجل الصالح كبيرة ، وكان من الملوك الزهاد ، وتوفي في شوال سنة تسع وستين وخمس مئة ، واستولى بعده على الأمر صلاح الدين ، وهو على طريقة من الفضل شهيرة ، وشأنه في الملوك كبيرة ، وله الأثر الباقي شرفه من ازالة المكوس بطريق الحجاز ، ودفعه عوضا عنها لصاحب الحجاز ، وكانت الأيام قد استمرت قديما بهذه الضريبة اللعينة ، الى أن محا الله رسمها على يدي هذا الملك العادل ، اصلحه الله .

ومن مناقب نور الدين رحمه الله تعالى : أنه كان عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك ،أوقاف كثيرة ، منها طاحونتان ، وسبعة بساتين ، وارض بيضاء ، وحمام ودكانان بالعطارين ، وأخبرني أحد المغاربة الذين كانوا ينظرون فيه ، وهو ابو الحسن على بن سردال الجياني المعروف بالأسود : أن هذا الوقف المغربي يغل ، اذا كان النظر فيه جيدا ، خمس مئة دينار في العام ، وكان له رحمه الله بجانبهم فضل كبير ، نفعه الله بما اسلف من الخير ، وهيأ ديارا موقوفة لقراء كتاب الله عز وجل يسكنونها .

ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الاحصاء ، ولاسيما لحفاظ كتاب الله عز وجل ، والمنتمين للطلب ، فالشأن بهذه البلدة لهم عجيب جدا ، وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم ، لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر ، والاتساع أوجد ، فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا ، فليرحل الى هذه البلاد ، ويتغرب في طلب العلم ، فيجد الأمور المعينات كثيرة ، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة ، وهو أكبر الأعوان وأهمها ، فاذا كانت الهمة فقد وجد السبيل الى الاجتهاد ، ولا عذر للمقصر الا من يدين بالعجز والتسويف ، فذلك من لايتوجه هذا الخطاب عليه ، وانما المخاطب كل ذي همة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلمي ، فهذا

المشرق بابه مفتوح لذلك ، فادخل أيها المجتهد بسلام ، وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الأهـل والأولاد وتقـرع سـن الندم على زمـن التضييع ، والله يوفق ويرشد ، لا اله سواه ، قد نصحت ان ألفيت سامعا . وناديت إن اسمعت مجيبا ، « ومن يهـد الله فهـو المهتدى (١١) ، جلت قدرته ، وتعالى جـده . ولو لم يكن بهـذه الجهـات المشرقية كلها الا مبادرة أهلها لاكرام الغـرباء ، وايثار الفقـراء ، ولاسيما أهل باديتها،فانك تجد من بدار الى بر الضيف عجبا ، كفى بذلك شرفا لها . وربما يعرض أحدهم كسرته على فقير فيتوقف عن قبولها ، فيبـكي الرجـل ويقـول : لو علم الله في خيرا لأكل الفقير طعامي ، لهم في ذلك سر شريف .

ومن عجيب امرهم تعظيمهم الحاج ، على قـرب مسـافة الحـج منهم ، وتيسير ذلك لهم ، واستطاعتهم لسبيله . فهم يتمسحون بهم عند صـدورهم ، ويتهـافتون عليهـم تبركابهم ، ومن أغرب ما حدثناه من ذلك : أن الحاج الدمشقي مـع من انضاف اليهم من المغـاربة عند صـدورهم الى دمشـق في هـذا العام ، الذي هو عام ثمانين ، خرج الناس لتلقيهم : الـجـم الغفير نساء ورجالا ، يصافحونهم ، ويتمسحون بهم ، واخرجوا الدراهـم لفقرائهم يتلقونهم بها ، واخرجوا اليهم الاطعمـة ، فـاخبرني مـن ابصر كثيرا من النساء يتلقين الحاج ،ويناولنهم الخبر . فـاذا عض الحاج فيه اختطفنه من ايديهم ، وتبادرن لاكله ، تبركا بأكل الحـاج له ، ودفعن له عوضا منه دراهم ، الى غير ذلك من الأمور العجيبـة ضد ما اعتدنا في المغرب في ذلك . وصنع بنا في بغداد عند تلقي الحاج بها مثل ذلك او قريب منه ، ولو شئنا استقصاء هذه الأمور لخرجت بنا عن مقصد التقييد ، وانما وقع الالماع بلمحة دالة ، يكتفى بها عن التطويل ، وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد يلتزم إن أحـب ضـيعة من الضياع ، فيكون فيها طيب العيش ، ناعم البال ، ويذثال الخيـر عليه من أهل الضيعة ويلتزم الامامة أو التعليم أو مـا شاء ، ومتـى

سئم المقام خرج الى ضيعة أخرى ، أو يصعد الى جبل لبنان ، أو الى جبل الجو دي ، فيلقى بها المريدين المنقطعين الى الله عز وجل ، فيقيم معهم ما شاء ، وينصرف الى حيث شاء .

ومن العجب ان النصارى المجاورين لجبل لبنان ، اذا رأوا به أحد المنقطعين من المسلمين ، جلبوا لهم القوت ، وأحسنوا اليهم ، ويقولون : هؤلاء ممن انقطع الى الله عز وجل فتجب مشاركتهم ، وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا ، فيه أنواع الفواكه ، وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة ، وقلما يخلو من التبتيل والزهادة . واذا كانت معاملة النصارى لضد ملتهم هذه المعاملة ، فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض ! ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى ، وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ؛ ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم .

شاهدنا في هذا الوقت ، الذي هو شهر جمادى الأول ، ومن ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين ، لمنازلة حصن الكرك ، وهو من أعظم حصون النصارى ، وهو المعترض في طريق الحجاز ، والمانع لسبيل المسلمين على البر ، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشف قليلا ، وهو سرارة أرض فلسطين ، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة ، ويذكر أنه ينتهي الى اربع مئة قرية ، فنازله هذا السلطان ، وضيق عليه ، وطال حصاره . واختلاف القوافل من مصر الى دمشق ، على بلاد الافرنج ، غير منقطع . واختلاف المسلمين من دمشق الى عكة كذلك ، وتجار النصارى أيضا لايمنع أحد منهم ولايعترض ، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم : وهي من الأمنة على غاية . وتجار النصارى ايضا يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم ، والاتفاق بينهم ، والاعتدال في جميع الاحوال ، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس في عافية ، والدنيا لمن غلب ، هذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم ، وفي الفتنة

الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهـم كذلك ، ولا تعتـرض الرعايا ولاالتجار ، فالأمن لايفارقهم في جميع الاحـوال سـلما أو حـربا ، وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب مـن أن يسـتوفى الحـديث عنه والله يعلي كلمة الاسلام بمنه .

ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان ، منحازة في الجهة الغـربية من البلد ، وهي بازاء باب الفرج مـن أبـواب البلد ، وبهـا جـامع السلطان يجمع فيه وعلى مقربة منها ، خارج البلد في جهة الغرب ، ميدانان كأنهما مبسوطان خزا لشدة خضرتهمـا ،وعليهمـا حلق ، والنهر بينهما ، وغيضة عظيمة من الدور متصلة بهما ، وهمـا مـن أبدع المناظر ، يخرج السلطان اليهما ، ويلعب فيهما بـالصوالجة ، ويسابق بين الخيل فيهما ، ولا مجال للعين كمجالها فيهما . وفي كل ليلة يخرج ابناء السلطان اليهمـا للرمـاية ، والمسـابقة ، واللعـب بالصوالجة . وبهذه البلدة ايضا قرب مئة حمام فيها وفي ارباضها ، وفيها نحو أربعين دارا للوضوء ، يجري الماء فيها كلهـا ، وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب ، لأن المرافق بهـا كثيرة . وفي الذي ذكرناه من ذلك كفـاية ، والله يبقيهـا دار اسـلام بمنه ، وأسواق هذه البلدة من احفل اسواق البلاد ، واحسـنها انتـظاما ، وابدعها وضعا ، ولاسيما قيسـارياتها ، وهـي مـرتفعات كأنهـا الفنادق ، مثقفة كلها بأبواب حديد كأنهـا أبـواب القصـور ، وكل قيساريةمنفردة بضبتها واغلاقها الجديدة ، ولهـا ايضـا سـوق ، يعرف بالسوق الكبير ، يتصل من باب الجابية الى باب شرقـي وفيه بيت صغير جدا قد اتخذ مصلى ، وفي قبلته حجر يقال : ان ابـراهيم صلى الله عليه وسلم كان يكسر عليه الآلهة التي كان يسوقها أبـوه للبيع .

وحديث الدار المنسوب لعمر بن عبد العـزيز ـ التـي هـي اليوم للصوفية ، وهي في الدهليز الذي في الباب الشمالي المعـروف ببـاب الناطفيين ، وقد تقدم التنبيه عليها قبل هذا ـ حـديث عجيب ؛ وذلك ان الذي اشتراها ، وبناها ، وجعل لها الاوقاف الواسـعة ، وأمـر

بأن يدفن فيها ، وان يختم على قبره القرآن كل جمعة ، وعين من ذلك الاوقاف لمن يحضر ذلك كل جمعة رطلا من خبز الحواري — وهو ثلاثة ارطال من أرطال المغرب — رجل من العجم يعرف بالسميساطي — وسميساط بلدة من بلاد العجم — وكان موصوفا بالورع والزهد . وأصل يساره وتموله ، فيما ذكر لنا ، أنه ألفى يوما من الأيام بالدهليز المذكور ازاء الدار المذكورة ، رجلا أسود مريضا ، مطروحا بموضعه ، غير ملتفت اليه ولا معتنى به ، فتأجر فيه ، والتزم تمريضه وخدمته ، والنظر له اغتناما للثواب من الله عز وجل . فحانت وفاة الرجل ، فاستدعى ممرضه السميساطي المذكور ، فقال له : « انت قد احسنت الى وخدمتني ، ولطفت في تمريضي ، واشفقت لحالي وغربتي ، فأنا أريد أن اكافئك على فعلك بي ، زائدا الى مكافأة الله عز وجل عني في الآجل ، إن شاء الله ؛ وذلك أبي كنت جن احد فتيان الخليفة المعتضد العباسي ، ومعروفا بزمام الدار ، وكانت لي حظوة ومكانة ، فعتب على بعض الأمر ، فخرجت طريدا ، فانتهيت الى هذه البلدة ، فاصابني فيها من أمر الله ما اصابني ، فسببك الله لي رحمة ، فأنا أقلدك أمانة ، وأعهد اليك فيها عهدا ، اذا أنامت وغسلتني ، فانهض على بركة الله تعالى الى بغداد ، وتلطف في السؤال عن دار صاحب الزمام فتى الخليفة ، فاذا ارشدت اليها فصرف الحيلة في اكترائها ، وارجو ان الله يعينك على ذلك. وأذا سكنتها فاعمد الى موضع — سماه له فيها ، وذكر له أمارة عليه — فاحفر فيه مقدار كذا ، وانزع اللوح الذي تجده معترضا تحت الارض ، وخذ الذي تجده مدفونا تحت الارض ، وصرفه في منافعك ، وما يوفقك الله اليه من وجوه البر والخير ، مباركا لك في ذلك ، ان شاء الله » ثم توفي الرجل الموصي رحمه الله ، وتوجه الموصى اليه بعهده الى بغداد ، فيسر الله له في اكتراء الدار ، وانتهى الى الموضع المذكور فاستخرج منه ذخائر لاقيمة لها ، عظيمة الشأن ، كبيرة القدر ، فدسها في أحمال متاع ابتاعها ، وخرج الى دمشق من بغداد ، فابتاع الدار المذكورة المنسوبة لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وبناها خانقاه للصوفية ، واحتفل فيها ، وابتاع لها الاوقاف ضياعا ورباعا ، وجعلها برسم الصوفية ،

واوصى بأن يدفن فيها . وأن يختم القرآن على قبـره كل جمعـة ، وعين لكل من يحضر ذلك ماذكرناه . فوجد الغرباء والفقـراء في ذلك مرفقا كثيرا ، فتغص الخانقة بالقرأة كل جمعة ، فاذا ختموا القرآن دعوا له وانصرفوا ، واندفع لكل واحد منهم رطل مـن الخبـز ، على الصفة المذكورة . وبقـي للمتـوفي جميل الاثـر والخير رحمـة الله ورضوانه عليه .

والكوثرية التي ذكرناها ايضا بالجامع المكرم ، والمقروءة كل يوم بعد العصر ، المعينة لمن لايحفظ القرآن كان أصلها أيضـا أن احـد ذوي اليسار توفي ، واوصى بأن يدس قبره في الجامع المكرم ، وأوقف وقفا يغل مئة وخمسين دينارا في السنة برسم من لايحفظ القرآن ، ويقرأ من سورة الكوثر الى الخاتمة . فيذقسم له اربعون دينارا في كل ثلاثة أشهر من السنة ، ويذكر أن أحد الملوك السالفين توفي ايضا ، وأوصى بأن يجعل قبره في قبلة الجامع المكرم ، بحيث لايظهر ، وعين أوقافا عظيمة تغل نحو الألف دينار وأربع مئة دينار في السـنة وزائد لقراء سبع القرآن كل يوم ، وموضع الاجتماع لقراءة هـذا السـبع المبارك كل يوم ، اثر صلاة الصبح ، بالجهة الشرقية من مقصـورة الصحابة رضي الله عنهم ، ويقال : إن في ذلك الموضـع هـو القبـر المذكور . وقراءة السبع لاتتعدى ذلك الموضع ، متصـلا مـع جـدار القبلة الى الجدار الشرقي ، والله عز وجل لايضيع أجر المحسنين . وبقيت هذه الرسوم الشريفـة مخلدة مـع الايام ، نفـع الله بهـا راسميها ، وناهيك فيها من بلاد يهدى فيها لهذه الصـنائع المزلفـة لرضوان الله عز وجل ، وللفقـراء الملتـزمين الجلوس في الجـانب الشرقي من الجامع المكرم ، الذين ليس لهم مأوى يأوون اليه ، وقف وضعه بعض المتأجرين الموقفين برسمهم ، الى مـايطول ذكره مـن المآثر الاخراوية الصدقية ، التي كفل الله بها غرباء هذه الجهات .

ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد المستحسنة ، المرجـو لهـم فيها من الله عز وجل قبول ، أنهم في كل سنة يتوخون الوقـوف يوم

عرفة بجوامعهم ، اثر صلاة العصر ، يقف بهم ائمتهم كاشفي رؤوسهم ، داعين الى ربهم ، التماسا لبركة الساعة التي يقف فيها وفد الله عز وجل وحجيج بيته الحرام بعرفات فلا يزالون واقفين ، داعين ، متضرعين الى الله عز وجل ، وبحجاج بيته الحرام متوسلين ، الى أن يسقط قرص الشمس ، ويقدروا نفر الحاج ، فينفصلوا باكين على ماحرموه من ذلك الموقف العظيم بعرفات ، وداعين الى الله عز وجل في أن يوصلهم اليها ، ولايخليهم من بركة القبول في فعلهم ذلك .

ومن أعظم ما شاهدناه من مناظر الدنيا الغريبة الشأن ، وهياكلها الهائلة البنيان ، المعجزة الصنعة والاتقان ، المعترف لوصفها بالتقصير لسان كل بيان : الصعود الى أعلى قبة الرصاص المذكورة في هذا التقييد ، القائمة وسط الجامع المكرم ، والدخول في جوفها ، وإجالة لحظ الاعتبار في بديع وضعها ، مع القبة التي في وسطها كأنها كرة مجوفة داخلة وسط كرة أخرى أعظم منها ؛ صعدنا اليه في جملة من الاصحاب المغاربة ضحوة يوم الاثنين الثامن عشر لجمادى الأولى المذكورة ، من مرقى في الجانب الغربي من بلاط الصحن كان صومعة في القديم ، وتمشينا على سطح الجامع المكرم ، وكله الواح رصاص منتظمة ، كما قد تقدم الذكر لذلك ، وطول كل لوح أربعة أشبار ، وعرضه ثلاثة أشبار ، وربما اعترض في الالواح نقص أو زيادة ، حتى انتهينا الى القبة المذكورة ، فصعدنا اليها على سلم منصوب ، وريح الميد تكاد تطير بنا ، فحبونا في الممشى المطيف بها ، وهو من رصاص ، وسعته ستة أشبار ، فلم نستطع القيام عليه لهول الموقف فيه ، فأسرعنا الولوج في جوف القبة ، على احد شراجيها المفتحة في الرصاص ، فابصرنا مرأى تحار فيه العقول ، وتقف دون ادراك هيبة وصفه الافهام ، وجلنا في فرش من الخشب العظام ، حول القبة الصغيرة الداخلة في جوف الرصاصية على الصفة التي ذكرناها ، ولها طيقان يبصر منها الجامع ومن فيه ، فكنا نبصر الرجال فيه كأنهم الصبيان في المحاضر ، هذه القبة مستديرة كالكرة ، وظاهرها من خشب قد شد باضلاع من الخشب

الضخام ، موثقة بنطق من الحديد ، ينعطف كل ضلع عليها كالدائرة ، وتجتمع الاضلاع كلها في مركز دائرة من الخشب اعلاها ، وداخل هذه القبة ، وهو مايلي الجامع المكرم ، خواتيم من الخشب ، منتظم بعضها ببعض ، قد اتصل اتصالا عجيبا ، وهي كلها مذهبة بأبدع صنعة من التذهيب ، مزخرفة التلاوين ، بديعة القرنصة ، يرتمي الابصار شعاع ذهبها ، وتتحير الالباب في كيفية عقدها ووضعها لافراط سموها أبصرنا من تلك الخواتيم الخشبية خاتما مطروحا جوف القبة ، لم يكن طوله أقل من ستة أشبار في عرض أربعة ، وهي تلوح في انتظامها للعين كأن دور كل واحد منها شبر أو شبران الغاية لعظم سموها ، والقبة الرصاص محتوية على هذه القبة المذكورة ، وقد شدت ايضا بأضلاع عظيمة من الخشب الضخام ، موثقة الاوساط بنطق الحديد ، وعددها ثمان وأربعون ضلعا ، بين كل ضلع وضلع أربعة أشبار ، قد انعطفت انعطافا عجيبا ، واجتمعت أطرافها في مركز دائرة من الخشب اعلاها ، ودور هذه القبة الرصاصية ثمانون خطوة ، وهي مئتا شبر وستون شبرا ، والحال فيها اعظم من أن يبلغ وصفها ، وانما هذا الذي ذكرناه نبذة يستدل بها على ماوراءها ، وتحت الغارب المستطيل المسمى النسر ، الذي تحت هاتين القبتين ، مدخل عظيم ، هو سقف للمقصورة ، بينه وبينها سماء جص مزينة ، وقد انتظم فيه من الخشب مالايحصى عدده ، وانعقد بعضها ببعض وتقوس بعضها على بعض ، وتركبت تركيبا هائلا منظره ، وقد ادخلت في الجدار كله دعائم للقبتين المذكورتين ، وفي ذلك الجدار حجارة ، كل واحد منها يزن قناطير مقنطرة ، لاتنقلها الفيلة فضلا عن غيرها ، فالعجب كل العجب من تطليعها الى ذلك الموضع المفرط السمو ، وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك ، فسبحان من الهم عباده الى هذه الصنائع العجيبة ، ومعينهم على التأني لما ليس موجودا في طبائعهم البشرية ، ومظهر آياته على ايدي من يشاء من خلقه ، لا اله سواه !
والقبتان على قاعدة مستديرة من الحجارة العظيمة . قد قامت فوقها ارجل قصار ضخام من الحجارة الصمم الكبار . وقد فتح بين كل رجل ورجل شمسية ، واستدارت الشمسيات باستدارتها ، والقبتان

في رأي العين واحدة ، وكنينا عنها باثنتين لكون الواحـدة في جـوف الاخرى ، والظاهر منها قبة الرصاص .

ومـن جملة عجـائب مـا عايناه في هـاتين القبتين أن لم نجد فيهما عنكبوتا ناسجا ، على بعد العهد من التفقد لهما من احد ، والتعاهد لتنظيف مساحتهما ، والعنكبوت في امثالهما موجود كثير ، وقد كان حقق عندنا ان الجامع المكرم لاتنسـج فيه العنكبـوت ، ولا يدخله الطير المعروف بـالخطاف ، وقـد تقـدم ذكرنا لذلك في هـذا التقييد ، فانصرفنا منحدرين ، وقد قضينا عجبا عجـابا مـن هـذا المنظر العظيم شأنه ، المعجز وضعه ، المترفع عن الادراك وصـفه ، ويقال : إنه ماعلى ظهر المعمور أعجب منظرا ، ولا أبعد سموا ، ولا اغرب بنيانا ، من هذه القبة ، الا ما يحكى عن قبـة بيت المقـدس ، فانها يحكى انها ابعد في الارتفاع والسمو من هذه . وجملة الامر ان نظرها ، والوقوف على هيئة وضعها ، وعظيم الاستقدار فيها عند معاينها بالصعود اليها ، والولوج داخلها ، من اغرب ما يحـدث بـه من عجائب الدنيا ، والقدرة لله الواحد القهار ، لا اله سواه .

ولأهل دمشق وغيرها من هذه البلاد في جنائزهم رتبـة عجيبـة ، وذلك أنهم يمشون أمام الجنائز بقـراء يقـرأون القـرآن بـأصوات شجية ، وتلاحين مبكية ، تكاد تنخلع لها النفوس شـجوا وحنانا ، يرفعون اصواتهم بها ، فتتلقاها الآذان بأدمع الأجفان ، وجنائزهم يصلى عليها في الجامع ، قبالة المقصورة ، فـلا بـد لكل جنازة مـن الجامع ، فاذا انتهوا الى بابه قطعوا القراءة ، ودخلوا الى مـوضع الصلاة عليها ، الا ان يكون الميت من أئمة الجامع أو من سـدنته ، فان الحالة المميزة له في ذلك ان يدخلوه بالقراءة الى موضع الصـلاة عليه ، وربما اجتمعوا للعزاء بالبلاط الغربي من الصـحن ، بـازاء باب البريد ، فيصلون افرادا افرادا ، ويجلسون وأمامهم ربعات مـن القرآن يقرؤونها ، ونقباء الجنائز يرفعـون اصـواتهم بـالنداء لكل واصل للعزاء ، من محتشمي البلدة وأعيانهم ، ويحلونهم بخـططهم الهائلة التي قد وضعوها لكل واحـد منهـم بـالاضافة الى الدين ،

فتسمع ما شئت من صدر الدين ، او شمسه ، أو بدره ، او نجمـه ، او زينه ، او بهائه ، أو جماله ، او مجده ، أو فخره ، أو شرفه ، أو معينة ، أو محييه ، أو زكيه ، أو نجيبه ، الى مالا غاية له من هـذه الالفاظ الموضوعة ؛ وتتبعها ولا سيما في الفقهاء بما شئت ايضا من سيد العلماء ، وجمال الائمة ، وحجة الاسلام ، وفخر الشريعـة ، وشرف الملة ، ومفتي الفريقين ، الى مالانهاية له من هـذه الالفـاظ المحالية . فيصعد كل واحد منهـم الى الشريعة ساحبا انياله مـن الكبر ، ثانيا عطفه وقذاله ، فاذا استكملوا وفرغوا مـن القـراءة ، وانتهى المجلس بهم منتهاه ، قام وعاظهم واحـدا واحـدا بحسـب رتبهم في المعرفة ، فوعظ وذكر ، ونبـه على خـدع الدنيا وحـذر ، وانشد في المعنى ما حضر من الاشعار ، ثم ختـم بتعـزية صـاحب المصاب والدعاء له وللمتوف ، ثم قعد ، وتلاه آخر على مثل طـريقته الى أن يفرغوا ويتفرقوا ، فربما كان مجلسا نافعا لمن يحضره مـن الذكرى .

ومخاطبة أهل هذه الجهـات قـاطبة بعضـهم لبعض بـالتمويل والتسويد ، وبامتثال الخدمة ، وتعـظيم الحضرة ، واذا لقـي أحـد منهم آخر مسلما يقول : جاء المملوك او الخـادم بـرسم الخـدمة ، كناية عن السلام ، فيتعاطون المحال تعاطيا ، والجد عندهم عنقـاء مغرب ، وصفه سلامهم ايماء للركوع او السـجود ، فتـرى الاعناق تتلاعب بين رفع وخفض ، وبسط وقبض ، وربما طالت بهم الحـالة في ذلك ، فواحد ينحط وآخر يقوم ، وعمائمهم تهوي بينهـم هـويا . وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السـلام كنا عهـدناه لقينات النساء ، وعند استعراض رقيق الامـاء فياعجبـا لهؤلاء الرجـال ، كيف تحلوا بسمات ربات الحجال ، لقد ابتذلوا انفسهم فيما تـأنف النفوس الأبية منه ، واستعملوا تكفير الذمي المنهي في الشرع عنه ! لهم في هذا الشأن طرائق عجيبة في الباطل . فياللعجـب منهـم ، اذا تعاملوا بهذه المعاملة ، وانتهوا الى هذه الغاية في الالفـاظ بينهـم ، فبماذا يخاطبون سلاطينهم ويعاملونهم ؟لقد تساوت الاذناب عندهم

والرؤوس ، ولم يميز لديهم الرئيس والمرؤوس ! فسبحان خالق الخلق ، اطوارا ، لاشريك له ، ولامعبود سواه .

ومن عجيب حال الصغير عندهم والكبير ، بجميع هذه الجهات كلها ، أنهم يمشون وأيديهم الى خلف ، قابضين بالواحدة على الأخرى ، ويركعون للسلام على تلك الحالة المشبهة باحوال العناة مهانة واستكانة ، كأنهم قد سيموا تعنيفا ، واوثقوا تكتيفا ، وهم يعتقدون تلك الهيئة لهم تمييزا لهم في ذوي الخصوصية وتشريفا ، ويزعمون أنهم يجدون بها نشاطا في الاعضاء ، وراحة من الاعياء ، والمحتشم منهم من يسحب نيله على الارض شبرا ، او يضع خلفه اليد الواحدة على الأخرى ، قد اتخذوا هذه المشية بينهم سننا ، وكل منهم قد زين له سوء عمله ، فرآه حسنا ، استغفر الله منهم ! فان لهم من آداب المصافحة عوائد ، تجدد لهم الايمان ، وتستوهب لهم من الله الغفران ، لما بشر به الحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في المصافحة ، فهم يستعملونها اثر الصلوات ، ولاسيما اثر صلاة الصبح ، وصلاة العصر ، واذا سلم الامام ، وفرغ من الدعاء اقبلوا عليه بالمصافحة ، واقبل بعضهم على بعض يصافح المرء عن يمينه وعن يساره ، فيتفرقون عن مجلس مغفرة ، بفضل الله عز وجل . وقد تقدم الذكر فيما سلف من هذا التقييد أنهم يستعملونها عند رؤية الأهلة ، ويدعو بعضهم لبعض ، بتعرف بركة ذلك الشهر ويمنه واستصحاب السعادة والخير فيه ، وفيما يعود عليه من أمثاله ؛ وتلك ايضا طريقة حسنة ، يدفعهم الله بها ، لما فيها من تعاطي الدعوات ، وتجديد المودات ، ومصافحة المؤمنين بعضهم بعضا رحمة من الله تعالى ونعمة .

وقد تقدم الذكر ايضا في غير موضع من هذا الكتاب عن حسن سيرة السلطان بهذه الجهات « صلاح الدين ابي المظفر يوسف بن ايوب » ، وماله من المآثر المأثورة في الدنيا والدين ، ومثابرته على الجهاد اعداء الله ، لانه ليس أمام هذه البلدة بلدة للاسلام ، والشام اكثره بيد الافرنج ، فسبب الله هذا السلطان رحمة للمسلمين بهذه

الجهات ، فهو لايأوي لراحة ، ولايخلد الى دعة ، ولا يزال سرجه مجلسه ؛ إنا بهذه البلدة نازلون منذ شهرين اثنين ، وحللناها وقد خرج لمنازلة حصن الكرك ، وقد تقدم الذكر ايضا له ، وهو عليه محاصر حتى الآن ، والله تعالى يعينه على فتحه ، وسمعنا أحد فقهاء هذه البلدة ، وزعمائها المسلمين بسدة هذا السلطان ، والحاضرين مجلسه ، يذكر عنه في حضرة محفل علماء البلد وفقهائه ، ثلاث مناقب في ثلاث كلمات حكاها عنه ، رأينا إثباتها هنا : إحداها أن الحلم من سجاياه ، فقال ، وقد صفح عن جريرة أحد الجناة عليه :« أما أنا فلأن أخطي في العفو أحب الي من أن اصيب في العقوبة » . وهذا في الحلم منزع احنفي (١٣) وقال ايضا : وقد تنوشدت بحضرته الاشعار ، وجرى ذكر من سلف من اكارم الملوك واجودهم : « والله لو وهبت الدنيا للقاصد الآمل لما كنت استكثرها له ، ولو استفرغت له جميع ما في خزانتي لما كان عوضا مما اراقه من حر ماء وجهه في استماحه اياي » . وهذا في الكرم مذهب رشيدي او جعفري (١٤) وحضره أحد مماليكه المتميزين لديه بالحظوة والاثرة ، مستعديا على جمال ذكر انه باعه جملا معيبا ، او صرف عليه جملا بعيب لم يكن فيه ، فقال السلطان له : « ماعسى ان أصنع لك ، وللمسلمين قاض يحكم بينهم ، والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة ، واوامره ونواهيه ممتثلة ، وإنما أنا عبد الشرع وشحنته » . والشحنة عندهم صاحب الشرطة « فالحق يقضي لك او عليك » . وهذا في العقد مقصد عمري (١٥) وهذه كلمات ، كفى بها لهذا السلطان فخرا ، والله يمتع ببقائه الاسلام والمسلمين ، بمنه .

شهر جمادى الآخرة ، عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الاحد التاسع من شهر شتنبر العجمي ، ونحن بدمشق حرسها الله ، على قدم الرحلة الى عكة ، فتحها الله ، والتماس ركوب البحر مع تجار النصارى ، وفي مراكبهم المعدة لسفر

الخريف المعروف عندهم بالصليبية ، عرفنا الله في ذلك معهود خيرته . وتكفلنا بكلاءته وعصمته ، بعزته وقدرته ، انه سبحانه الحنان المنان ، ولي الطول والاحسان ، ولارب غيره . وكان انفصالنا منها عشي يوم الخميس الخامس من الشهر المذكور ، وهو الثالث عشر من شهر شتنبر المذكور ، في قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع الى عكة .

ومن أعجب ما يحدث به في الدنيا ، أن قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الافرنج ، وسبيهم يدخل الى بلاد المسلمين ؛ شاهدنا من ذلك عند خروجنا امرا عجيبا ، وذلك ان صلاح الدين عند منازلته حصن الكرك ، المتقدم الذكر في هذا التاريخ ، قصد اليه الافرنج في جميعهم ، وقد تألبوا من كل اوب وراموا ان يسبقوه الى موضع الماء ، ويقطعوا عنه الميرة من بلاد المسلمين . فصمد اليهم ، واقلع عن الحصن بجملته ، وسبقهم الى موضع الماء . فحادوا عن طريقه ، وسلكوا طريقا وعرا ذهب فيه اكثر دوابهم ، وتوجهوا الى حصن الكرك المذكور ، وقد سد عليهم بنيات الطرق القاصدة الى بلادهم ، ولم يبق لهم الا طريق عن الحصن يأخذ على الصحراء ، ويبعد مداه عليهم بتحليق يعترض فيه ، فاهتبل صلاح الدين في بلادهم الغرة ، وانتهز الفرصة وقصد قصدها عن الطريق القاصدة ، فدهم مدينة نابلوس وهجمها بعسكره ، فاستولى عليها ، وسبى كل من فيها ، وأخذ اليها حصونا وضياعا . وامتلأت ايدي المسلمين سبيا لايحصى عدده من الافرنج ، ومن فرقة من اليهود تعرف بالسمرة منسوبة الى السامري . وانبسط فيهم القتل الذريع ، وحصل المسلمون منها على غنائم يضيق الحصر عنها ، الى ما اكتنفت من الامتعة ، والذخائر ، والاسباب، والأثاث ، الى النعم والكراع ، الى غير ذلك . وكان من فعل هذا السلطان الموفق ، أن أطلق ايدي المسلمين على جميع ما احتازته ، وسلم لهم ذلك ، فاحتازت كل يد [ما] حوت ، وامتلأت غنى ويسارا ، وعفى الجيش على رسوم تلك الجهات التي مر عليها من بلاد الفرنج ،

وأبوا غانمين فائزين بالسلامة والغنيمة والاياب ، وتخلصوا من اسرى المسلمين عددا كثيرا وكانت غزوة لم يسمع بمثلها في البلاد .

وخرجنا نحن من دمشق ، وا وائل المسلمين قد طرقوا بالغنائم ، كل بما احتواه وحصلت يده عليه ، وكان مبلغ السبي آلافا لم نتحقق احصاءها ولحق السلطان بدمشق يوم السبت بعدنا الأقرب ليوم انفصالنا ، واعلمنا انه يجم عسكره قليلا ، ويعود الى الحصن المذكور ، فالله يعينه ويفتح عليه بعزته وقدرته ، وخرجنا نحن الى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل بلاد المسلمين ، وناهيك من هذا الاعتدال في السياسة ، فكان مبيتنا ليلة الجمعة بداريا ، وهي قرية من دمشق على مقدار فرسخ ونصف ، ثم رحلنا منها سحر يوم الجمعة بعده الى قرية تعرف « ببيت جن » ، هي بين جبال ، ثم رحلنا منها صبيحة يوم السبت الى مدينة بانياس ، واعترضنا في نصف الطريق شجرة بلوط عظيمة الجرم ، متسعة التدويح ، واعلمنا انها تعرف بشجرة الميزان . فسألنا عن ذلك ، فقيل لنا : هي حد بين الأمن والخوف في هذه الطريق لحراميه الافرنج ، وهم الحواسه والقطاع ، من اخذوه وراءها الى جهة بلاد المسلمين ، ولو بباع أو شبر أسر ، ومن أخذ دونها الى جهة بلاد الافرنج بقدر ذلك اطلق سبيله ، لهم في ذلك عهد يوفون به ، وهو من اظرف الارتباطات الافرنجية واغربها .

ذكر مدينة بانياس ، حماها الله تعالى

هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين ، وهي صغيرة ، ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر ، ويفضي الى احد أبواب المدينة ، وله مصب تحت أرحاء . وكانت بيد الافرنج ، فاسترجعها نور الدين رحمه الله . ولها محرث واسع في بطحاء متصلة ، يشرف عليها حصن للافرنج ، يسمى « هونين » ، بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة

فراسخ . وعمالة تلك البطحاء بين الافرنج وبين المسلمين ، لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة ، فهم يتشاطرون الغلة على استواء ، ومواشيهم مختلطة ، ولا حيف يجري بينهما فيها . فرحلنا عنها عشي يوم السبت المذكور ، الى قرية تعرف « بالمسيه (١٦) بمقربة من حصن الافرنج المذكور ، فكان مبيتنا بها ، ثم رحلنا منها يوم الاحد سحرا ، واجتزنا في طريقنا بين هونين وتبنين بواد ملتف الشجر ، واكثر شجرة الرند ، بعيد العمق كأنه الخندق السحيق المهوى ، تلتقي حافتاه ، ويتعلق بالسماء، اعلاه ، يعرف « بالاسطبل » ، لوولجته العساكر لغابت فيه ، لامنجى ولا مجال لسالكه عن يد الطالب فيه ، المهبط اليه والمطلع عنه عقبتان كئودان ، فعجبنا من أمر ذلك المكان . فاجزناه ومشينا عنه يسيرا ، وانتهينا الى حصن كبير من حصون الافرنج يعرف « بتبنين » وهو موضع تمكيس القوافل ، وصاحبته خنزيرة تعرف بالملكة ، وهي ام الملك الخنزير صاحب عكة ، دمرها الله ، فكان مبيتنا أسفل ذلك الحصن ، ومكس الناس تمكيسا غير مستقصى ، والضريبة فيه دينار وقيراط ، من الدنانير الصورية على الرأس ، ولا اعتراض على التجار فيه ، لأنهم يقصدون موضع الملك الملعون ، وهو محل التعشير ، والضريبة فيه قيراط من الدينار ، والدينار اربعة وعشرون قيراطا .

وأكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين ، وذلك لمقدمة منهم احفظت الافرنج عليهم ، سببها أن طائفة من انجادهم غزت مع نور الدين رحمه الله أحد الحصون ، فكان لهم في اخذه غنى ظهر واشتهر ، فجازاهم الافرنج بهذه الضريبة المكسية ، الزموها رؤوسهم ، فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم ، وقال الافرنج : ان هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولا نرزأهم شيئا ، فلما تعرضوا لحربنا ، وتألبوا مع اخوانهم المسلمين علينا ، وجب ان نضع هذه الضريبة عليهم . فللمغاربة في أداء هذا المكس

سبب من الذكر الجميل في نكايتهم العدو ، يسهله عليهم ، ويخفف عنتهم عنهم .

ورحلنا من تبنين دمرها الله ، سحر يوم الاثنين ، وطريقنا كله على ضياع متصلة ، وعمائر منتظمة ،سكانها كلها مسلمون ، وهم مع الافرنج على حالة ترفيه ، نعوذ بالله من الفتنة ، وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها ، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ، ولايعترضونهم في غير ذلك ، ولهم على ثمر الشجرة ضريبة خفيفة يؤدونها ايضا ، ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم . وكل ما بأيدي الافرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل ، رساتيقهم كلها للمسلمين وهي القرى والضياع ، وقد اشربت الفتنة قلوب اكثرهم ، لما يبصرون عليه اخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم ، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق ، وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين : ان يشتكي الصنف الاسلامي جور صنفه المالك له ، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الافرنج ، ويأنس بعدله ، فالى الله المشتكي من هذه الحال ، وحسبنا تعزية وتسلية ما جاء في الكتاب العزيز : «إن هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء »(١٧) .

فنزلنا يوم الاثنين المذكور بضيعة من ضياع عكة ، على مقدار فرسخ ، ورئيسها الناظر فيها من المسلمين ، مقدم من جهة الافرنج على من فيها من عمارها من المسلمين فأضاف جميع أهل القافلة ضيافة حفيلة ، وأحضرهم صغيرا وكبيرا في غرفة متسعة بمنزله ، وأنالهم ألوانا من الطعام قدمها لهم ، فعمهم بتكرمته وكنا فيمن حضر هذه الدعوة .

وبتنا تلك الليلة ، وصبحنا يوم الثلاثاء العاشر من الشهر المذكور ، وهو الثامن عشر لشتنبر مدينة عكة دمرها الله ، وحملنا الى الديوان ، وهو خان معد لنزول القافلة ، وأمام بابه مصاطب

مفروشة ، فيها كتاب الديوان من النصارى بمحابر الآبنوس المذهبة الحلى ، وهم يكتبون بالعربية ، ويتكلمون بها ، ورئيسهم صاحب الديوان والضامن له يعرف بالصاحب ، لقب وقع عليه لمكانه من الخطة ، وهم يعرفون به كل محتشم متعين عندهم من غير الجند ، وكل ما يجبى عندهم راجع الى الضمان ، وضمان هذا الديوان بمال عظيم ، فانزل التجار رحالهم به ، ونزلوا في اعلاه ، وطلب رحل من لا سلعة له ، لئلا يحتوي على سلعة مخبوءة فيه وأطلق سبيله ، فنزل حيث شاء ، وكل ذلك برفق وتؤدة ، دون تعنيف ولا حمل ، فنزلنا بها في بيت اكتريناه من نصرانية بازاء البحر ، وسألنا الله تعالى حسن الخلاص ، وتيسير السلامة .

ذكر مدينة عكة ، دمرها الله واعادها

هي قاعدة مدن الافرنج بالشام ، ومحط الجواري المنشئات في البحر كالاعلام ، مرفأ كل سفينة ، والمشبهة في عظمها بالقسطنطينية ، مجتمع السفن والرفاق ، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق ، سككها وشوارعها تغص بالزحام ، وتضيق فيها مواطىء الاقدام ، تستعر كفرا وطغيانا ، وتفور خنازير وصلبانا ، زفرة قذرة ، مملوءة كلها رجسا وعذره ،انتزعها الافرنج من ايدي المسلمين في العشر الاول من المئة السادسة ، فبكى لها الاسلام ملء جفونه ، وكانت أحد شجونه . فعادت مساجدها كنائس ، وصوامعها مضارب للنواقيس ، وطهر الله من مسجدها الجامع بقعة بقيت بايدي المسلمين مسجدا صغيرا ، يجتمع الغرباء منهم فيه لاقامة فريضة الصلاة ، وعند محرابه قبر صالح النبي ، صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الانبياء ، فحرس الله هذه البقعة من رجس الكفرة ، ببركة هذا القبر المقدس !

وفي شرقي البلدة العين ، المعروفة بعين البقر ، وهي التي اخرج الله

منهـــــا البقـــــــر لآدم صــــــــلى الله عليه وســـــــلم والمهبط لهذه العين على ادراج وطية ، وعليها مسجد بقـي محـرا به على حاله ، ووضع الافرنج في شرقيه محرابا لهم ، فالمسلم والكافـر يجتمعان فيه ، يستقبل هذا مصلاه ، وهذا مصــلاه ، وهــو بـأيدي النصارى معظم محفوظ ، وابقى الله فيه موضع الصلاة للمسلمين .

فكان مقامنا بها يومين ، ثـم تـوجهنا الى صـور يوم الخميس الثاني عشر لجمادي المذكور والموفي عشرين لشتنبر المذكور على البر، واجتزنا في طريقنا على حصن كبير ، ويعرف « بالزيب » ، وهو مطل على قرى وعمائر متصـــلة وعلى قـــرية مســــورة تعـــرف « بالاسكندرونة » ، وذلك لمطالعة مركب بها ، اعلمنا أنه يتوجه الى بجاية طمعا في الركوب فيه . فحللناهـــا عشي يوم الخميس المذكور ، لان المسافة بين المدينتين نحو الثلاثين ميلا ، فنزلنا بها في خان معد لنزول المسلمين .

ذكر مدينة صور ، دمرها الله تعالى

مدينة يضرب بها المثل في الحصانة ، لاتلقي لطالبها بيد طاعة ولا استكانة ، قد اعدها الافرنج مفزعا لحادثة زمانهم ، وجعلوها مثابة لأمانهم ، هي انظف من عكة سككا وشوارع ، وأهلها الين في الكفر طبائع، وأجرى الى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازع ، فخــلائقهم اسجح ، ومنازلهم اوسع وأفسح ، وأحوال المســلمين بهـــا أهـــون وأسكن ، وعكة أكبر وأطغى وأكفـر . وأمـــا حصـــانتها ومناعتهـــا فأعجب ما يحدث به ، وذلك أنها راجعة الى بابين : احدهما في البر والآخر في البحر وهو يحيط بها الا من جهة واحدة فــالذي في البـــر يفضي اليه ، بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة ، كلها في ستائر مشــيدة محيطة بالباب ، وأما الذي في البحـــر ، فهـــو مـــدخل بين بــــرجين مشيدين الى ميناء ، ليس في البلاد البحرية أعجـب وضـــعا منهـــا ، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ، ويحدق بها مـــن الجـــانب

الآخر جدار معقود بالجص ، فالسفن تدخل تحت السور وترسي فيها ، وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج ، فلا مجال للمراكب الا عند ازالتها ، وعلى ذلك الباب حراس وأمناء ، لايدخل الداخل ولا يخرج الخارج الا على اعينهم ، فشأن هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوضع ، ولعكة مثلها في الوضع والصفة ، لكنها لاتحمل السفن الكبار حمل تلك ، وانما ترسي خارجها ، والمراكب الصغار تدخل اليها ، فالصورية أكمل واجمل وأحفل .

فكان مقامنا بها أحد عشر يوما ، ودخلناها يوم الخميس ، وخرجنا منها يوم الاحد الثاني والعشرين لجمادىٰ المذكور وهو آخر يوم من شتنبر ، وذلك ان المركب الذي كنا أملنا الركوب فيه استصغرناه ، فلم نر الركوب فيه .

ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدث بها ، زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد الأيام عند مينائها . وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالا ونساء ؛ واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة ، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية ، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال ، كأنهما من ذوي أرحامها ، وهي في ابهى زي ، وافخر لباس ، تسحب أنيال الحرير المذهب سحبا على الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأسها عصابة ذهب ، قد حفت بشبكة منسوجة ، وعلى لبتها مثل ذلك منتظم ، وهي رافلة في حليها وحللها ، تمشي فترا في فتر ، مشي الحمامة او سير الغمامة ، نعوذ بالله من فتنة المناظر ، وأمامها جلة رجالها من النصارى ، في أفخر ملابسهم البهية ، تسحب أنيالها خلفهم ، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات ، يتهادين في انفس الملابس ، ويرفلن في أرفل الحلى ، والآلات اللهوية قد تقدمتهم ، والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا في طريقهم سماطين ، يتطلعون فيهم ولا ينكرون عليهم ذلك ؛ فساروا بها حتى

ادخلوها دار بعلها ، وأقاموا يومها ذلك في وليمة ، فـأدانا الاتفـاق الى رؤية هذا المنظر الزخرفي المستعاذ بالله من الفتنة فيه .

ثم عدنا الى عكة في البحر ، وحللناها صبيحة يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمـادى المذكورة ، وأول يوم مـن شـهر اكتـوبر ، واكترينا في مركب كبير ، نروم الاقلاع الى مسينة من بـلاد جـزيرة صقلية ، والله تعالى كفيل بالتيسير والتسهيل ، بعـزته وقـدرته . وكانت راحتنا مدة مقامنا بصور بمسجد بقي بايدي المسلمين . ولهم فيها مساجد أخر ، فأعلمنا به احد أشياخ أهل صور من المسلمين . أنها أخذت منهم سنة ثمان عشرة وخمس مئة ، وأخذت عكة قبلهـا باثنتي عشرة سنة ، بعد محاصرة طويلة ، وبعد اسـتيلاء المسـغبة عليهم ذكر لنا انهم انتهوا منها لحال نعوذ بالله منها وانهم حملتهـم الأنفة على أن هموا بركوب خطة عصمهم الله منها وذلك أنهم عزموا على أن يجمعوا أهـاليهم وأبناءهـم في المسـجد الجـامع ، ويحملوا السيف عليهم ، غيرة من تملك النصارى لهـم ، ثـم يخـرجوا الى عدوهم بعزمة نافذة ، ويصدمونهم صدمة صادقة حتى يمـوتوا على دم واحد ، «ويقضي الله قضاءه» فمنعهم من ذلك فقهاؤهم والمتورعون منهم ، واجمعوا على دفع البلد ، والخروج منه بسلام ، فكان ذلك ، وتفرقوا في بلاد المسلمين ، ومنهم من استهواه حب الوطن ، فـدعاه الى الرجوع والسكنى بينهم ، بعد أمـان كتـب لهـم في ذلك بشروط اشترطوها ، والله غالب على أمره ، سبحانه جلت قدرته ، وذفذت في البرية مشيئته ، وليست له عند الله معـذرة في حلول بلدة مـن بـلاد الكفر الا مجتازا ، وهو يجد مندوحة في بـلاد المسـلمين ، لمشـقات وأهوال يعانيها في بلادهم : منهـا الذلة والمسـكنة الذمية ؛ ومنهـا سماع مايفجع الأفئدة من ذكر من قدس الله ذكره ، وأعلى خـطره ، لاسيما من أراذلهم وأسافلهم ؛ ومنهـا عدم الطهـارة ، والتصرف بين الخنازير ، وجميع المحرمات ، الى غير ذلك ممـا لاينحصر ذكره ولا تعداده ، فالحذر الحذر من دخول بلادهم ، والله تعالى المسـؤول حسن الاقالة والمغفرة من هذه الخطيئة ، التي زلت فيها القدم ، ولم تتداركها الا بعد موافقة الندم ، فهو سبحانه ولي ذلك لارب غيره .

ومن الفجائع التي يعانيها من حل بلادهم اسرى المسلمين ، يرسفون في القيود ، ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد ، والاسيرات المسلمات كذلك ، في أسواقهن خلاخيل الحديد ، فتنفطر لهم الافئدة ، ولا يغني الاشفاق عنهم شيئا ، ومن جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة ، بهذه البلاد الشامية الافرنجية ، أن كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها ، وانما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة ، لبعدهم عن بلادهم ، وأنهم لامخلص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل ، فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين ، والخواتين من النساء وأهل اليسار والثراء إنما يذفقون أموالهم في هذه السبيل . وقد كان نور الدين رحمه الله نذر في مرضة اصابته تفريق اثني عشر ألف دينار ، في فداء أسرى من المغاربة ، فلما استبل من مرضه ارسل في فدائهم ، فسيق فيهم نفر ليسوا من المغاربة ، وكانوا من حماة من جملة عمالته ، فأمر بصرفهم ، واخراج عوض عنهم من المغاربة وقال : « هؤلاء يفتكهم اهلوهم وجيرانهم ، والمغاربة غرباء لاأهل لهم » فانظر الى لطيف صنع الله تعالى لهذا الصنف المغربي .

وقيض الله لهم بدمشق رجلين من مياسر التجار ، وكبرائهم ، واغنيائهم المنغمسين في الثراء : احدهما يعرف بنصر بن قوام ، والثاني بأبي الدر ياقوت مولى العطافي ، وتجارتهما كلها بهذا الساحل الافرنجي ، ولاذكر فيه لسواهما ، ولهما الامناء من المقارضين ، فالقوافل صادرة وواردة ببضائعهما ، وشأنهما في الغنى كبير ، وقدرهما عند أمراء المسلمين والافرنجيين خطير ، وقد نصبهما الله عز وجل لافتكاك الأسرى المغربيين بأموالهما ، وأموال ذوي الوصايا ، لانهما المقصودان بها ، لما قد اشتهر من امانتهما ، وثقتهما ، وبذلهما أموالهما في هذه السبيل . فلا يكاد مغربي يخلص من الأسر الا على ايديهما ، فهما طول الدهر بهذه السبيل يذفقان أموالهما ، ويبذلان اجتهادهما في تخليص عباد الله المسلمين ، من

ايدي اعداء الله الكافــرين ، والله تعـــالى (لايضــيع أجــر المحسنين (١٨)) .

ومن سوء الاتفاقات ، المستعاذ بالله من شرها ، انه صـبحنا في طريقنا الى عكة من دمشق رجل مغـربي مــن « بــونة » عمــل « بجاية » ، كان أسيرا فتخلص على ايدي ابي الدر المذكور ، وبقي في جملة صبيانه ، فـوصل في قـافلته الى عكة ، وكان قـد صـحب النصارى وتخلق بكثير من اخلاقهم ، فمازال الشـيطان يسـتهويه ويغريه ، الى ان نبذ دين الاسلام فكفر ، وتنصر مدة مقامنا بصـور فانصرفنا الى عكة ، وأعلمنا بخبره ، وهو بها قـد بـطس (١٩) ورجس ، وقد عقـد الزنار ، واسـتعجل النار ، وحقـت عليه كلمـة العذاب ، وتأهب لسوء الحساب ، وسـحيق المآب ، نسـأل الله عز وجل أن يثبتنا بالقول الثابت في الدنيا والاخـرة ، ولا يعـدل بنا عن الملة الحنيفية ، وأن يتوفانا مسلمين ، بفضله ورحمته .

وهذا الخنزير صاحب عكة ، المسـمى عندهـم بـالملك ، محجوب لايظهر ، قد ابتلاه الله بالجذام ، فعجل له سوء الانتقام ، قد شـغلته بلواه في صباه ، عن نعيم دنياه ، فهو فيها يشقى (ولعذاب الآخـرة أشد وأبقى) (٢٠) . وحاجبه وصـاحب الحـال عوضـه خـاله القومس ، وهـو صاحب المجبى ، واليه تـرتفع الأمـوال ، والمشرف على الجميع بالمكانة ، والوجـاهة ، وكبـر الشـأن في الافـرنجية اللعينة ، القومس اللعين ، صاحب طرابلس وطبرية ، وهـو ذو قـدر ومنزلة عند الافرنج ، وهـو المؤهل للملك والمرشح له ، وهـو موصوف بالدهـاء والمكر . وكان أسيرا عند نور الدين ، نحو اثنتي عشرة سنة أو أزيد ، ثم تخلص بمال عظيم بذل في نفسه مدة صلاح الدين ، وعند أول ولايته ، وهـو معترف لصلاح الدين بالعبودية والعتق .

وعلى بادية طبرية اختلاف القوافل من دمشق ، لسهولة طريقها .. ويقصد بقوافل البغال على تبنين لوعورتها وقصد طـريقها ، وبحيرة طبرية مشهورة ، وهي ماء عذب ، وسعتها نحـو ثـلاثة فـراسخ أو

أربعة ، وطولها نحو ستة فراسخ ، والأقوال فيها تختلف سعة وضيقا ، وفيها قبور كثيرة ، من قبور الانبياء صلوات الله عليهم كشعيب ، وسليمان ، ويهوذا، وروبيل ، وابنة شعيب زوج الكليم موسى ، وغيرهم صلوات الله وسلامه [عليهم] أجمعين وجبل الطور منها قريب . وبين عكة وبيت المقدس ثلاثة أيام ، وبين دمشق وبينه مقدار ثمانية أيام ، وهو بين المغرب والقبلة من عكة الى جهة الاسكندرية ، والله يعيده الى أيدي المسلمين ، ويطهره من أيدي المشركين ، بعزته وقدرته .

وهاتان المدينتان ، عكة وصور ، لابساتين حولهما ، وانما هما في بسيط من الارض افيح ، متصل بسيف البحر ، والفواكه تجلب اليهما من بساتينهما التي بالقرب منهما ، ولهما عمالة متسعة ، والجبال التي تقرب منهما معمورة بالضياع ، ومنها تجبى الثمرات اليهما ، وهما من غر البلاد ، ولعكة في الشرق منها ، مع آخر البلد ، واد يسيل ماء ، ولها مع شاطئه ، مما يتصل بالبحر بسيط رمل لم ير أجمل منه منظرا ، ولا ميدان للخيل يشبهه. واليه ركوب صاحب البلد كل بكرة وعشية ، وبه يجتمع العسكر ، دمره الله ، ولصور عند بابها البري عين معينة ، ينحدر اليها على ادراج ، والآبار والجباب بها كثيرة لاتخلو دار منها ، والله تعالى يعيد اليها والى اخواتها كلمة الاسلام بمنه وكرمه .

وفي يوم السبت الثامن والعشرين لجمادى المذكورة ، والسادس لاكتوبر ، صعدنا الى المركب ، وهو سفينة من السفن الكبار ، بمنة الله على المسلمين بالماء والزاد ، وحاز المسلمون مواضعهم بانفراد عن الافرنج . وصعده من النصارى المعروفين بالبلغريين ، وهم حجاج بيت المقدس ، عالم لايحصى ، ينتهي الى أزيد من ألفي انسان أراح الله من صحبتهم بعاجل السلامة ، ومأمول التسهيل والصنع الجميل ، بمنه وكرمه لامعبود سواه . ونحن به منتظرون موافقة الريح ، وكمال الوسق ، بمشيئة الله عز وجل .

شهر رجب الفرد ، عرفنا الله بركته ويمنه

استهل هلاله ليلة الثلاثاء ، بموافقة التاسع لشهر أكتوبر ، ونحن على ظهر المركب بمرسى عكة منتظرون كمال وسقه ، والاقلاع باسم الله تعالى ، وبركته ، وجميل صنعه ، وكريم مشيئته ، وتمادى مقامنا فيه مدة اثنتي عشر يوما ، لعدم استقامة الريح .

وفي مهب الريح بهذه الجهات سر عجيب ، وذلك أن الريح الشرقية لاتهب فيها الا في فصلي الربيع والخريف ، والسفر لا يكون الا فيهما ، والتجار لا ينزلون الى عكة بالبضائع الا في هذين الفصلين ، والسفر في الفصل الربيعي من نصف ابريل ، وفيه تتحرك الريح الشرقية وتطول مدتها الى آخر شهر مايه واكثر واقل ، بحسب ما يقضي الله تعالى به ، والسفر في الفصل الخريفي من نصف اكتوبر ، وفيه تتحرك الريح الشرقية ومدتها اقصر من المدة الربيعية ، وانما هي عندهم خلسة من الزمان ، قد تكون خمسة عشر يوما ، واكثر واقل،وما سوى ذلك من الزمان فالرياح فيه تختلف ، والريح الغربية أكثرها دواما ، فالمسافرون الى المغرب ، والى صقلية ، والى بلاد الروم ، ينتظرون هذه الريح الشرقية في هذين الفصلين ، انتظار وعد صادق فسبحان المبدع في حكمته ، المعجز في قدرته ، لا اله سواه .

وكنا طول هذه المدة ، التي اقمنا فيها على ظهر المركب ، نبيت في البر ، ونتفقد المركب في الأحيان . فلما كان سحر يوم الخميس العاشر لرجب المذكور ، والثامن عشر لأكتوبر ، أقلع المركب ، وكنا على عادتنا في البر بائتين ، ولم يحسن النهار للروم بأهبة السفر ، فضيعنا الحزم ، ونسينا المثل المضروب في اعداد الماء والزاد ، وأن لا يفارق الانسان رحله ، فاصبحنا والمركب لاعين له ولا اثر فاكترينا للحين زورقا كبيرا ، له أربعة مجانيف ، وأقلعنا نتبعه . وكانت مخاطرة عصم الله منها ، فأدركنا المركب مع العشي ،

فحمدنا الله عز وجل على ما من به ، وكان أول ذلك اليوم يوم شـدتنا في هذا السفر الطويل ، وآخره والحمد الله يوم فرجنا ، ولله الحمـد والشكر على كل حال .

واتصل جرينا ، والريح الموافقة تأخذ وتدع نحو خمسة أيام . ثم هبت علينا الريح الغربية من مكمنها ، دافعة في وجه المركب . فـأخذ رئيسه ومدبره الرومي الجنوي ، وكان بصيرا بصنعته ، حـاذقا في شغل الرياسة البحرية ، يراوغها تارة يمينا ، وتارة شمالا ، طمعـا ان لايرجع على عقبه ، والبحر في اثناء ذلك رهـو(٢١) سـاكن ، فلما كان نصف الليل ، أو قـريب منه ، ليلة السـبت التـاسع عشر لرجب المذكور ، والسابع والعشرين لاكتـوبر ، تـرددت علينا الريح الغربية ، فقصفت قرية الصاري المعروف بالاردمون ، والقت نصفها في البحر مع ما اتصل بها من الشراع ، وعصم الله مـن وقـوعها في المركب ، لانها كانت تشبه الصـوارى عظمـا وضـخامة . فتبـادر البحريون اليها ، وحط شراع الصـاري الكبير وعطـل المركب مـن جريه ، وصيح بالبحريين الملازمين للعشـاري المرتبـط بـالمركب ، فقصدوا الى نصف الخشبة الواقعـة في البحـر ، وأخـرجوها مـع الشراع المرتبط بها ، وحصـلنا في أمـر لايعلمـه الا الله تعـالى .

وشرعوا في رفع الشراع الكبير ، واقاموا في الاردمون شراعا يعرف بالدلون ، وبتنا بليلة شهباء ،الى أن وضح الصباح ، وقد من الله عز وجل بالسلامة ، وشرع البحريون في اصلاح قرية أخرى ، من خشبة كانت معدة عندهم ، والريح الغربية على اول لجـاجها ، ونحـن بين اليأس والرجاء نتردد ، مغلبين حسن الثقة بجميل صنع الله تعـالى وحفي لطفه ، ومعهود فضله ، سبحانه ، هو أهل ذلك جلت قـدرته ، وتناهت عظمته ، الا إله سواه .

وفي يوم الاربعـاء الثـالث والعشرين منه ، تحـركت الريح الشرقية نسيما فاترا عليلا ، فاستبشرت النفـوس بهـا رجـاء في نمـائها

وقوتها ، فكانت نفسا خافتا ، ثم بعد ذلك غشي البحر ضباب رقيق ، سكنت له امواجه فعاد كأنه صرح ممرد من قوارير ، ولم يبق للجهات الاربــــــــــــع نفس يتنســــــــــــم . فبقينا

لاعبين على صفحة ماء ، تخاله العين سبيكة لجين ، كأنا نجول بين سماءين وهــذا الهــواء الذي يســميه البحــريون الغليني ، وفي ليلة الخميس الرابع والعشرين لرجب المذكور ، وهو أول يوم من دونبــر العجمي ، كان للنصارى عيد مذكور عندهــم ، احتفلوا له في اسراج الشمع ، وكاد لا يخلو احد منهم صغيرا او كبيرا ، ذكرا أو انثــى ، من شمعة في يده ، وتقدم قسيسوهم الصــلاة في المركب بهــم ، ثــم قاموا واحدا واحدا لوعظهم ، وتــذكيرهم بشرائع دينهــم ، والمركب يزهر كله اعلاه واسفله سرجا متقدة ، وتمادينا على تلك الحالة اكثر تلك الليلة . ثم اصبحنا بمثل ذلك الهواء الســاكن ، واتصــل بنا ذلك الى ليلة الاحد السابع والعشرين منه ، فتحركت ريح شمالية ، فعاد المركب بها لجريته واستبشرت النفوس ، والحمدلله .....

من

تاريخ عبد اللطيف البغدادي ورحلته

الخليفة الناصر

كان الناصر لدين الله شابا مرحا عنده ميعة الشباب ، يشق الدروب والأسواق أكثر الليل والناس يتهيبون لقياه ، وظهر التشيع بسبب ابن الصاحب ثم انطفىء بهلاكه وظهر التسنن المفرط ، ثم زال وظهرت الفتوة والبندق والحمام الهوادي ، وتفنن الناس في ذلك ودخل فيه الاجلاء ثم الملوك ، فالبسوا الملك العادل وأولاده سراويل الفتوة وكذا ألبسوا شهاب الدين الغوري ملك غزنة والهند وصاحب كيش وأتابك سعد صاحب شيراز، والملك الظاهر صاحب حلب ، وتخوفوا من السلطان طغريل وجرت بينهم حروب ، وفي الآخر استدعوا تكش لحربه وهو خوارزم شاه فخرج في جحفل لجب والتقى معه على الري واحتز رأسه وسيره الى بغداد ثم تقدم نحو بغداد يلتمس رسوم السلطنة فتحركت عليه أمة الخطا فرجع الى خوارزم وما لبث ان مات ٠

وكان الناصر لدين الله قد خطب لولده الأكبر ابي نصر بولاية العهد ، ثم ضيق عليه لما استشعر منه وعين أخاه ، ثم أمر أبا نصر بأن يشهد على نفسه أنه لايصلح وأنه قد نزل عن الامر ، وأكبر الاسباب في نفور الناصر من ولده هو الوزير نصير الدين بن المهدي العلوي ، فإنه خيل الى الخليفة فساد نية ولده بوجوه كثيرة ، وهذا الوزير أفسد على الخليفة قلوب الرعية والجند وبغضه اليهم والى ملوك الأطراف وكاد يخلي بغداد عن أهلها بالارهاب تارة وبالقتل تارة اخرى، ولا يقدر أحد أن يكشف للخليفة حال الوزير حتى تمكن الفساد وظهر ، فقبض عليه برفق ،

وفي اثناء ذلك ظهر بخراسان وما وراء النهر خوارزم شاه محمد ابن تكش وتجبر ، وطوى البلاد واستعبد الملوك الكبار، وفتك بكثير منهم وأباد أمما كثيرة من الترك ، فاباد أمة الخطا وأمة الترك ،

وأساء الى باقي الأمم الذين لم يصل اليهم سيفه ، ورهبه الناس كلهم ، وقطع خطبة بني العباس من بلاده ، وصرح بالوقيعة فيهم وقصد بغداد ، فوصل الى همذان وبوادره الى حلوان ، فوقع عليهم ثلج عظيم عشرين يوما فغطاهم في غير ابانه ، فأشعره بعض خواصه أن ذلك غضب من الله حيث يقصد بيت النبوة ، والخليفة مع ذلك قدجمع الجموع وأنفق النفقات واستعد بكل ما يصل الممكنة اليه وسره أن الله رده على عقبيه، وقد سمع ان أمم الترك قد تألبوا عليه وطمعوا في البلاد لبعده عنها فقصدهم فقصدوه ، ثم كايدوه وكاثروه الى أن مزقوه في كل وجهة، وبلبلوا لبه وشتتوا شمله ، وملكوا عليه أقطار الأرض حتى ضاقت عليه بما رحبت ، وصار اين توجه وجد سيوفهم متحكمة فيه ، فتقاذفت به البلاد حتى لم يجد موضعا يحويه ولا صديقا يؤويه فشرق وغرب وأنجد وأسهل وأصحر وأجبل ، والرعب قد ملك لبه، فعند ذلك قضى نحبه ، قال : وكان الشيخ شهاب الدين لما جاء في الرسالة خاطبه بكل قول ولاطفه ولايزداد الا طغيانا وعتوا ٠

ولم يزل الامام الناصر مدة حياته في عز وجلالة وقمع الاعداء واستظهار على الملوك ، لم يجد ضيما ، ولا خرج عليه خارجي إلا قمعه ، ولا مخالف إلا دمغه ، وكان من أضمر له سوءا رماه الله بالخذلان وأباده ، وكان مع سعادة جده شديد الاهتمام بمصالح الملك لايخفى عليه شيء من احوال كبارهم وصغارهم ، واصحاب أخباره في اقطار البلاد يوصلون اليه أحوال الملوك الظاهرة والباطنية حتى يشاهد جميع البلاد دفعة واحدة ، وكانت له حيل لطيفة ومكائد غامضة وخدع لايفطن لها أحد، يوقع الصداقة بين ملوك متعاديين وهم لايشعرون ، ويوقع العداوة بين ملوك متفقين وهم لايفطنون ٠

قال:ولو اخذنا في نوادر حكاياته لاحتاجت الى صحف كثيرة ، ولما دخل رسول صاحب مازندران بغداد كانت تأتيه ورقة كل صباح بما عمل في الليل ، فصار يبالغ في التكتم والورقة تأتيه فاختلى ليلة بامرأة دخلت من باب السر فصبحته الورقة بذلك وفيها ، كان عليكم دواج فيه صورة الأفيلة ، فتحير وخرج من بغداد وهو لايشك أن

الخليفة يعلم الغيب لأن الامامية يعتقدون أن الامام المعصوم يعلم ما في بطن الحامل وما وراء الجدار ، وأتى رسول خوارزم شاه برسالة مخفية وكتاب مختوم فقيل ارجع فقد عرفنا ما جئت به فـرجع وهـو يظن انهم يعلمون الغيب، ووصل رسول آخر فقـال الرسـالة معـي مشافهة الى الخليفة فحبس ونسي ثمانية أشهر ثم أخـرج وأعطـي عشرة آلاف دينار ، فذهب الى خوارزم شاه وصـار صـاحب خبـر لهم ، وسير جاسوسا يطلعه على أخبار عسـكر خـوارزم شـاه لما توجه الى بغداد وكان لا يقدر احد أن يدخل بينهـم الا قتلوه فـابتدأ الجاسوس وشوه خلقته وأظهـر الجنون وأنه قـد ضـاع له حمـار فأنسوا به وضحكوا منه ، وتردد بينهم أربعين يومـا ، ثـم عاد الى بغداد فقال هم مائة وتسعون الفـا إلا أن يزيدوا الفـا أو ينقصـوا الفا •

وكان الناصر إذا أطعم أشبع ، وإذا ضرب أوجـع ، وله مـواطن يعطي فيها عطاء من لايخاف الفقر ، ووصل رجل معه ببغاء يقرأ قل هو الله أحد تحفه للخليفة من الهند ، فأصبحت ميتة وأصـبح حيران فجاء فراش يطلب منه الببغاء فبكى وقال الليلة مـاتت فقـال : قـد عرفنا هاتها ميتة ، وقال كم كان في ظنك ان يعـطيك الخليفـة قـال خمسمائة دينار فقال : هذه خمسمائة دينار خذها فقد أرسـلها اليك أمير المؤمنون ، فإنه علم بحالك منذ خرجت مـن الهند، وكان صـدر جهان قد سار الى بغداد ومعه جمع من الفقهاء، وواحد منهم لما خرج من داره من سمرقند على فرس جميلة فقال له أهله لو تـركتها عندنا لئلا تؤخذ منك في بغداد، فقال الخليفة لايقدر أن يأخذها مني ، فأمر بعض الوقادين انه حين يدخل بغداد يضربه ويأخذ الفرس ويهرب في الزحمة ففعل ، فجاء الفقيه يستغيث فلا يغاث ، فلمـا رجعـوا مـن الحج خلع على صدر جهان واصحابه سوى ذلك الفقيه ، وبعد الفراغ منهم خلع عليه وأخرج الى الباب وقدمت له فرسه وعليها سرج مـن ذهب وطوق ، وقيل له لم يأخذ فرسك الخليفة إنما اخـذها أتـوني، فخر مغشيا عليه واستجل بكراماتهم •

قال الموفق عبد اللطيف : وفي وسط ولايته اشتغل برواية الحديث ، واستناب نوابا في ذلك ، فأجرى عليهم جرايات وكتب الملوك والعلماء اجازات ، وجمع كتابا سبعين حديثا، ووصل على يد شهاب الدين الى حلب ، وسمعه الملك الظاهر وجماهير الدولة ، وشرحته شرحا حسنا، وسيرته صحبة شهاب الدين وسبب انعكافه على الحديث أن الشريف العباسي قاضي القضاة نسب اليه تزوير ، فأحضر القاضي وثلاثة شهود فعزر القاضي بأن حركت عمامته فقط ، وعزر الثلاثة بان أركبوا جمالا وطيف بهم المدينة يضربون بالدرة فمات واحد تلك الليلة ، وآخر لبس لبس الفساق ودخل بيوتهم والثالث لزم بيته وادعى وهو البندنيجي رفيقنا ، فبعد مدة احتاج وأراد بيع كتبه فتبين أحد الأجزاء فوجد فيه اجازة الخليفة من مشائخ بغداد فرفعها فخلع عليه ، وأعطي مائة دينار وجعل وكيلا عن أمير المؤمنين في الاجازة والتسميع .

وأقام سنين يراسل جلال الدين حسن صاحب الموت يراوده أن يعيد شعار الاسلام من الصلاة والصيام وغير ذلك. مما رفعوه في زمان سنان ، ويقول إنكم اذا فعلتم ذلك كنا يدا واحدة ، ولم يتغير عليكم من أحوالكم شيء ، ومن يروم هذا من هؤلاء فقد رام منال العيوق، واتفق أن رسول خوارزم شاه بن تكش ورد في أمر من الامور فزور على لسانه كتب في حق الملاحدة يشتمل على الوعيد وعزم الايقاع بهم وانه سيخرب قلاعهم ، ويطلب من الخليفة المعونة في ذلك ، وأحضر رجل منهم كان قاطنا ببغداد ووقف على الكتب وأخرج بها وبكتب أخرى على وجه النصيحة نصف الليل على البريد ، فلما وصل الموت ارهبهم فما وجد مخلصا الا التظاهر بالاسلام وإقامة شعاره ، وسيروا إلى بغداد رسولا معه مائتا شاب منهم ودنانير كبارا في منجوق وعليه لا اله الا الله محمد رسول الله ، وطافوا بها في بغداد وجميع من حولها يعلن بالشهادتين ، وكان الناصر لدين الله قد ملأ القلوب هيبة الخلافة ، وكانت قد ماتت بموت المعتصم ، ثم ماتت بموته ، ولقد كنت بمصر والشام في خلوات الملوك والأكابر ، وإذا جرى ذكره خفضوا أصواتهم هيبة وإجلال ، وورد

بغداد تاجر معه متاع دمياط المذهب فسألوه عنه فأذكر فأعطي علامات فيه من عدده والوانه وأصنافه فازداد إنكاره ، فقيل له من العلامات أنك نقمت على مملوكك التركي فلان فأخذته إلى سيف بحر دمياط خلوة وقتلته ودفنته هناك ولم يشعر بذلك أحد .

أما مرض موته فهو وسنان بقي به سته اشهر ولم يشعر احد من الرعية نكبة حاله حتى خفي على الوزير وأهل الدار ، وكان له جارية قد علمها الخط بنفسه ، فكانت تكتب مثل خطه فتكتب على التواقيع بمشورة قهرمانة الدار ، وفي اثناء ذلك نزل جلال الدين محمد خوارزم شاه على ضواحي بغداد هاربا منفضا من المال والرجال والدواب فافسد بقدر ما كانت تصل يده إليه ، وكانوا يدارونه ولايمضون فيه أمرا لغيبة رأي الخليفة عنهم إلى أن راح إلى أذربيجان ونهب في ذهابه دقوقا واستباحها ، وكانت خلافته سبعا واربعين سنة ، توفي في سلخ رمضان وبويع لولده أبي نصر ولقب بالظاهر بأمر الله ، فكانت خلافته تسعة اشهر .

المستنصر

بويع أبو جعفر ، وسار السيرة الجميلة وعمر طرق المعروف الداثرة ، وأقام شعار الدين ومنار الاسلام ، وعم بسخائه وبذله ، واجتمعت القلوب على حبه والألسنة على مدحه ، ولم يجد أحدا من المتعيبة فيه معابا ، قد اطبقوا عليه ، وكان جده الناصر يقربه ويحبه ويسميه القاضي لعقله وهديه واذكاره ما يجد من المذكر ، والناس معه اليوم في بلهنية وعيشة مرضية ، وسير إليه خوارزمشاه يلتمس منه سراويل الفتوة ، فسير إليه فرس النوبة فسر بذلك وابتهج ، وقبل الارض مرارا شكرا لله على هذه المنزلة التي رزقها وحرمها أبوه ، ثم إنه أذعن عن العبودية والطاعة .

سنة ٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م

قال الموفق عبد اللطيف إن الفرنج عاثوا في سوق العسكر ، فرجع عليهم السلطان فطحنهم طحنا ، وأحصي قتلاهم بأن غرزوا في كل قتيل سهما ثم جمعوا السهام ، فكانت اثني عشر الفا وخمسمائة ، والذين لحقوا بأصحابهم هلك منهم ثمانية وأربعين الفا ، وبلغت الغرارة عندهم مائة وعشرين دينارا . وخرجوا مرة فقتل منهم ستة آلاف ونيف ، ومع هذا فصبرهم صبرهم ، وعملوا على عكا برجين من خشب كل برج سبع طبقات بأخشاب عالية ، ومسامير هائلة يبلغ المسمار نصف قنطار ، وضبات على هذا القياس ، وصفح كل برج منهما بالحديد ، ولبس الجلود ثم اللبود المشربة بالخل ، وجال بشباك من حبال القنب لترد حدة المنجنيق ، وكل واحد يعلو سور عكا بثلاث طبقات ، وزحفوا بهما على السور ، وفي كل طبقة مقاتلة ، فيئس المسلمون بعكا ، فقال دمشقي يقال له ابن النحاس : دعوني أضربها بالمجانيق ، فسخروا منه فطلب قراقوش ان يمكنه من الآلات ، ورمى البرج بحجارة حتى خلخله ، ثم رماها بقدر نفط ثم صاح الله اكبر وعلا الدخان فضج المسلمون وبرزوا من عكا وعملت النار في أرجائه والفرنج ترمي اسهمها من الطبقات ، واشتغلوا فاحرق المسلمون الستائر والعدد فانكسرت صولتهم ، ثم اجتمعت همتهم وقوتهم وعملوا كبشا هائلا رأسه قناطر من الحديد لينطحوا به السور فينهدم ، فلما سحبوه وقرب من السور ساخ في الرمل لثقله وعجزوا عن تخليصه وكان المسلمون في عكا ، في مرض وجوع قد ملوا من القتال ما يحملهم سوى الايمان بالله ، وقد هدمت الفرنج برجا وبدنة ، ثم سد ذلك المسلمون في الليل ووثقوه ، وكان المسلمون اول راكب وآخر نازل .

راشد الدين سنان

كان أعرج لحجر وقع عليه من الزلزلة الكائنة في دولة نور الدين ، فاجتمع اليه محبوه على ما ذكره الموفق عبد اللطيف لكي يقتلوه ، فقال لهم : لم تقتلوني ؟ قالوا : لترجع إلينا صحيحا فانا نكره أن

تكون فينا أعرج ، فشكرهم ودعا لهم فقال اصبروا علي فليس هــذا وقته ولاطفهم ، ولما أراد أن يحلهم مــن الاســلام ويســقط عنهــم التكاليف لأمر جاءه من الموت على عهد الكيا محمد نزل إلى مصيات في شهر رمضان فأكل فيها فأكلوا معه ، واستمر امرهم على ذلك .

الملك العزيز

كان العزيز شابا حسن الصورة ظريف الشمايل قويا ذا بــطش وأيد وعفة حركة ، حييا كريما عفيفا عن الامــوال والفــروج ، وبلغ مــن كرمه أنه لم يبق له خزانة ولاخاص ولابرك ولا فــرش ، وأمــا بيوت أصحابه فتفيض بالخيرات ، وكان شجاعا مقداما ، وبلغ من عفتــه أنه كان له غلام تركي اشتراه بألف دينار ، يقــال له ابــو شــامة ، فوقف على رأسه خلوة فنظر إلى جماله فأمره أن ينزع ثيابه وأجلسه معه مقعــد الفــاحشة ، وأدركه التــوفيق ونهض مسرعا إلى بعض سرارية فقضى وطره ، وخرج والغــلام بحــاله فــأمره بــالالبسة والخروج ، واما عفته عن الأموال فلا أقــدر أن أصــف حــكاياته في ذلك .

الملك الظاهر

كان جميل الصورة رائع الملاحة مــوصوفا بــالجمال في صــغره وفي كبره ، وكان له غور ودهاء ومكر ، وأعظم دليل على دهائه مقــاومته لعمه الملك العادل ، وكان لايخليه يوما من خوف وشــغل قلب ، وكان يصادق ملوك الأطراف ويباطنهم ويلاطفهم ويوهمهم أنه لولا هو لقد كان العادل يقصدهم ، ويوهم عمه أنه لولا هو لم يطعــه أحــد مــن الملوك ويكاشفوه بالشقاق ، فكان بهــذا التــدبير يســتولي على الجهتين ويستعبد الفريقين ، ويشغل بعضهم ببعض ، وكان كريمــا

معطاء ، يغمر الملوك بالتحف والرسل بالنحل والشعراء والقصاد بالصلات ، وتزوج بابنة العادل وماتت معه ، ثم تزوج بأختها وكان له عرس مشهور ، وجاءت منه بالملك العزيز في أول سنة عشر ، واظهر السرور بولادته ، وبقيت حلب مزينة شهرين والناس في أكل وشرب ، ولم يبق صنفا من أصناف الناس إلا أفاض عليهم النعم ووصلهم بالاحسان ، وسير إلى المدارس والخوانك الغنم والذهب ، وأمرهم أن يعملوا الولائم ، ثم فعل ذلك مع الاجناد والغلمان والخدم ، وعمل للنساء دعوة مشهورة أغلقت لها المدينة ، وأما داره بالقلعة فزينها بالجواهر وأواني الذهب الكثيرة ، وكان حين أمر بحفر الخراب حول القلعة وجد عشرين تبنة ذهب فيها قنطار بالحلبي ، فعمل منها أربعين قشوة بحقاقها ، وختن ولده الاكبر أحمد وختن معه جماعة من أولاد المدينة ، وقدم له تقادم فلم يقبل منها شيئا رفقا بهم ، لكن قبل قطعة سمندل طول ذراعين في ذراع فغمسوها في الزيت وأوقدوها حتى نفد الزيت وهي ترجع بيضا فالتهوا بها عن جميع ما حضر ، وكان عنده من أولاد أبيه وأولاد أولادهم مائة وخمسة وعشرون نفسا ، وزوج الذكور منهم بالاناث ، وعقد في يوم واحد خمسة وعشرين عقدا بينهم ، ثم صار كل ليلة يعمل عرسا ويحتفل له ، وبقي على ذلك مدة رجب وشعبان ورمضان ، وكان بينه وبين سلطان الروم عز الدين كيكاوس بن كيخسرو صداقة موكدة ومراسلات ، ومرض نيفا وعشرين يوما وأوصى أن يكون الخادم طغرل دزدار القلعة ، وأن يكون شمس الدين ابن أبي‌يعلى الموصلي وزيرا كما كان ، ولايخرج أحد عن أمره ، وسيف الدين بن جندر أتابك الجيش ، وكان القاضي بهاء الدين بن شداد مسافرا إلى العادل بمصر ، فقدم بعد ثلاث فحل جميع ذلك بالتدريج والخفية وأعانه مرض الوزير ، فلما عوفي وجد الأمور مختلفة فسافر إلى الروم ، ثم انتكس ومرض ومات في السنة ، وأما ابن جندر فنزل عن الاتابكية وجعلوها للملك المنصور – يعني الذي كان تسلطن بمصر بعد والده العزيز – قال : فبقي أياما وعزلوه ثم ولوه ثم عزلوه غير مرة وتلاعبت بهم الاراء ، وكان قصدهم أن يكون الطواشي شهاب الدين طغريل هو الاتابك فسعوا إلى أن تم ذلك ، ثم

- ٦٣٢٩ -

انفوا أن يحكم عليهم خادم فـاختلفت نياتهـم ورأوا أن يملكوا الملك الافضل علي بن صلاح الدين ، وعزم الامراء على التوثب بحلب ، ثم قوي أمر طغريل وثبت وقد هموا بقتله مرات ووقاه الله ، ولو ســاق الافضل لملك حلب ، ولما اختلف عليه اثنان ، لكنه كاتـب عز الدين صاحب الروم وحسن له أن يقصد حلب فحشد وقصدها ، ونازل تل باشر فأخذها وأخذ عين تاب ورعبان ومنبج ، وكاتبه أكثر رؤســاء حلب والأمراء ، فلمــا رأى طغــريل والخــواص ذلك طلبــوا الملك الأشرف فجاء ونزل بظاهر حلب مع شدة خوف ، وجاءت طائفة من العرب ومعهم عسكر يتولعون بعسكر الروم ، فسير اليهم عز الدين كبراء دولته فساقوا بجهل وامعنوا الى بزاعة في تلك البرية فخــارت قواهم وذبلت خيلهم ، واختطفهم العـرب ســبايا كمــا تــؤخذ النساء ، فخار قلب عز الدين ورجــع الى تـــل بـــاشر ثـــم الى بلاده ، ولحقه غبن وأسف حتى مرض ومات ، وأمــا الملك الأشرف فانه تمكن من أموال حلب ورجالها وقوي بذلك على الموصــل حتــى مرض ، وعظم عند ملوك الشرق .

الملك العادل

كان أصغر الأخوة وأطولهم عمرا ، وأعمقهم فكرا ، وأنظرهـم في العواقب وأشدهم امساكا وأحبهـم للدراهــم ، وكان فيه حلم وأناة وصبر على الشدائد ، وكان سعيد الجد علي الكعب مظفرا بــالأعداء من قبل السماء ، وكان أكولا نهمــا يحــب الطعـــام واختـــلاف الوانه ، وكان أكثر أكله في الليل كالخيل ، وله عندما ينام آخر الأكل رضيع ، ويأكل رطل بــالدمشقي خبيص الســكر يجعـــل هـــذا كالجوارش ، وكان كثير الصلاة ويصـــوم الخميس وله صـــدقات في كثير من الأوقات وخاصة عندما تنزل به الآفــات ، كان كريمــا على الطعام يحب من يؤاكله ، وكان قليل الأمراض قال لي طبيبه بمصر أني آكل خبز هذا السلطان سنين كثيرة ولم يحتــج الي ســوى يوم

واحد أحضر اليه من البطيخ أربعــون حمــلا ، فــكسر الجميع بيده وبالغ في الأكل منه ومن الفواكه والأطعمة فعرض له تخمة ، فأصبح فأشرت عليه بشرب الماء الحار وأن يركب طويلا ففعل وآخر النهــار تعشى وعاد الى صـــحته ، وكان نكاحـــا يكثـــر مـــن اقتناء السراري ، وكان غيورا لايدخــل داره خصي الا دون البلوغ ، وكان يحب ان يطبخ لنفسه مــع أن في كل دار مــن دور حــظاياه مـــطبخ دائر ، وكان عفيف الفرج لايعرف له نظر الى غير حلائله ، نجب له أولاد مـــن الذكور والأناث ســـلطن الذكور وزوج البنات بملوك الأطراف ، آخر ماجرى من ذلك بعــد وفــاته أن ملك الروم كيقبــاذ خطب الى الملك الكامل أخته واحتفل احتفالا شــديدا ، واجتمــع في العرس ملوك وملكات ، وكان العادل قد أوقع الله بغضــته في قلوب رعاياه والمخامرة عليه في قلوب جنده ، وعملوا في قتله اصــنافا مــن الحيل الدقيقة مرات كثيرة ، وعندما يقال ان الحيلة قد تمت تنفســخ وتنكشف وتحسم موادها ، ولولا أولاده يتولون بلاده لما ثبــت ملكه بخلاف أخيه صلاح الدين فانه انما حفــظ ملكه بــالمحبة له وحســن الطاعة ، ولم يكن رحمه الله بالمنزلة المكروهة ، وانما كان الناس قد ألفوا دولة صـــلاح الدين وأولاده فتغيرت عليهــم العـــادة دفعـــة واحدة ، ثم أن وزيره ابن شكر بالغ في الظلم وتفنن ، ومــن نياتــه الجميلة أنه يعـــرف حـــق الصـــحبة ولايتغير على اصـــحابه ولايضجر ، وهـم عنده في حــظوة ، وكان يواظــب الى خــدمة أخيه صلاح الدين ، يكون أول داخل وآخر خارج وبهــذا خلبــه ، فــكان يشاوره في أمور الدولة لما جرب من نفوذ رأيه .

ولما تسلطن الأفضل بــدمشق والعــزيز بمصر قصـــد العـــزيز دمشق ، وذاق جنده عليها شدائد فرحل عنها ثم حاصرها نوبة ثانية ومعه عمه العادل ، فــأخذها وعوض الأفضــل بصرخــد ، ولم يزل العادل يفتل في الذروة والسنام حتى أقطعه العزيز دمشــق ، وهـــي السبب في أن تملك البلاد كلها وأعطى ابن أبي الحجاج يعني كاتــب الجيش لما جاءه بمنشورها ألف دينار ، ثم أخذ يدقــق الحيلة حتـــى يستنيبه العـــزيز على مصر ويقيم هـــو بـــدمشق يتمتـــع في

بساتينها ، ففطن بعض اصحابه فرمى قلنسوته بين يديه وقال ألم يكفك أنك اعطيته دمشق حتى تعطيه مصر فنهض العزيز لوقته على غرة ولحق بمصر ، ثم شغب الجند وجرت أمور الى أن اجتمع الأفضل والعادل وقصدا مصر، وخامر جميع الأجناد على العزيز وصاروا الى الأفضل والعادل ، حتى خلت مصر والقاهرة منهم وتهدمت دولة العزيز ، ثم اصبحت وقد عادت احسن مما كانت ، وصار معه كل من كان عليه ، ورجع الملك العادل في خدمته؛ ورد الأفضل الى الشام ، ثم إن العادل توجه الى الشام وحشد وعبر الفرات ونازل قلعة ماردين يحاصرها وبذل الأموال ، وأخذ الربض.ثم إن الملك الأفضل وجد فرصه ونزل هو وأخوه الملك الظاهر صاحب حلب على دمشق يوم الثلاثاء فأصبح الملك العادل خارجا من أبواب دمشق فانقطعت قلوبهم وتعجبوا متى وصل ، وكان لما سمع بنزولهم استناب ابنه الكامل وسار على النجائب في البرية فلحق دمشق قبل نزولهم بليلة ، ومع هذا فضايقوه ، وكان أكثر أهل المدينة معهم عليه الى أن اختلف الأخوان ايهما يملكها وتنافسا فتقاعسا ، ورحل الملك الظاهر وضعف الأفضل ورحل ، وبلغت نفقة العادل عليها وعلى ماردين ألف ألف دينار .

وسعد العادل بأولاده فمن ذلك أمر خلاط فان ملكها شاه ارمن ملك مملوكه بكتمر ومات بعد صلاح الدين بنحو شهرين قتلته الملاحدة ، وملك بعده هزارديناري مملوكه وبقي قليلا ومات ، وتملك بعده ولده بكتمر وكان جميل الصورة حديث السن فاجتمع اليه الأراذل والمفسدون وحسنوا له طرقهم ، ففار الأخيار وملكوا عليهم بلبان مملوك شاه ارمن وقتل ولد بكتمر أو حبسه ، وكانت أخته بنت بكتمر مزوجة بالملك المغيث طغرل بن قلج ارسلان صاحب أرزن الروم ، وبين بلبان والمغيث معاقدة ومعاضدة ، ولابن بكتمر جماعة يهوونه ، فكاتبوا الملك الأوحد بن العادل صاحب ميافارقين ، فقصد خلاط فسار المغيث لينصر بلبان فانكف الأوحد وطمع المغيث في خلاط فاغتال بلبان ، قتله ابن حق باز ، وتسلم المغيث خلاط فحصل لأهلها غبن اذ غدر بملكهم فمنعوه ، ثم أنه قبض يده عن

الاحسان المذي الضغائن ، وقال له بعض الأمراء أبذل قدر ألف دينار وأنا ضامن بحصول البلد ، قال : أخاف ان لايحصل ويضيع مالي فعلموا أنه صغير الهمة ، فتفرقوا عنه وكاتبوا الأوحد فجاء وملكها ، ثم اختلفوا عليه وذكذوا فبذل فيهم السيف ، وانهزمت طائفة ، فقال لي بعض خواصه انه قتل في مدة يسيرة ثمانية عشر الف نفس من الخواص ، وكان يقتلهم ليلا بين يديه ويلقون في الآبار ، ومالبث الا قليلا واختل عقله ومات ، وتوهم أبوه أنه جن فسير اليه ابن زيد المعزم وصدقة الطبيب من دمشق ، وتملك خلاط بعده أخوه الأشرف .

ومات الظاهر قبله بسنتين فلم يتهن بالملك بعده ، وكان كل واحد منهما ينتظر موت الآخر ، فلم يصف له العيش لأمراض لزمته بعد طول الصحة والخوف من الفرنج بعد طول الأمن ، وخرجوا الى عكا وتجمعوا على الغور فنزل العادل قبالتهم على بيسان وخفي عليه ان ينزل على عقبة فيق ، وكانوا قد هدموا قلعة كوكب وكانت ظهرهم ، ولم يقبل من الجواسيس ماأخبروه بما عزم عليه الفرنج من الغارة فاغتر بما عودته المقادير من طول السلامة ، فغشيت الفرنج عسكره على غرة ، وكان قد أوى اليهم خلق من أهل البلاد يعتصمون به ، فركب مجدا ورماح الفرنج في أثره حتى وصل دمشق على شفا ، وهم بدخولها فمنعه المعتمد وشجعه وقال : المصلحة أن تقيم بظاهر دمشق ، وأما الفرنج فاعتقدوا ان هزيمته مكيدة فرجعوا من قريب دمشق بعدما عاثوا في البلاد قتلا واسرا ، وعادوا الى بلادهم وقصدوا دمياط في البحر ونازلوها ، وكان قد عرض له قبل ذلك ضعف ورعشة وصار يعتريه ورم الأنثيين ، فلما هربت الخيل على خلاف العادة ودخله الرعب لم يبق الا مدة يسيرة ومات بظاهر دمشق .

وكان مع حرصه يهين المال عند الشدائد غاية الاهانة ويبذله ، وشرع في بناء قلعة دمشق فقسم أبرجتها على أمرائه وأولاده ، وكان الحفارون يحفرون الخندق ويقطعون الحجارة فخرج

- ٦٣٣ -

من تحته خرزة بئر فيها ماء معين ، ومن نوادره ان عنتر العاقد بلغه ان شاهدا شهد على القاضي زكي الدين الظاهر بقضية مزوره ، فتكلم عنتر في الشاهد وجرحه ، فبلغ العادل فقال : من عابة عنتر الجرح ، وتوضأ مرة فقال : اللهم حاسبني حسابا يسيرا ، فقال له رجل ماجن : يامولانا ان الله قد يسر حسابك ، قال : ويلك وكيف ذلك ؟ قال اذا حاسبك فقل له المال كله في قلعة جعبر لم أفرط في قليل ولا كثير ، وكانت خزانته بالكرك ثم نقلها الى قلعة جعبر وبها ولده الملك الحافظ ، فسول له بعض اصحابه الطمع فيها فأتاها الملك العادل ونقلها الى قلعة دمشق فحصلت في قبضة المعظم ، فلم ينازعه فيها أخوته ، وقيل ان المعظم هو الذي سول لأخيه الحافظ الطمع والعصيان ففعل ولم يفطن بأنها مكيدة لترجع الأموال اليه ، ثم انه أخرج سراري ابيه من دمشق واستصفى أموالهن وحليهن ، وشرع يضع على املاك دمشق القطائع والخراجات الثقيلة ، الخمس على البساتين والثمن على المزدرعات .

الوزير ابن شكر

هو رجل طوال تام القصب فخما ذي اللون مشرب بحمرة ، له طلاقة محيا ، وحلاوة لسان ، وحسن هيئة ، وصحة بنية ، ذو دهاء في هرج ، وخبث في طيش مع رعونه مفرطة وحقد لاتخبو ناره ، ينتقم ويظن أنه لم ينتقم ، لاينام عن عدو ، ولايقبل منه معذرة ولا إنابة ويجعل الرؤساء كلام أعداءه ، ولا يرضى لعدوه بدون الاهلاك ، ولاتأخذه في نقماته رحمة ولايتفكر في آخرة ، وهو من دميرة ضيعة بديار مصر ، واستولى على العادل ظاهرا وباطنا ، ولم يمكن أحدا من الوصول إليه حتى الطبيب ، وأي وكيل والفراش عليهم عيون ، فلا يتكلم أحد منهم فضل كلمة خوفا منه ، ولما عزل دخل الطبيب والوكيل وغيرهما فانبسطوا وبكوا وضحكوا فأعجب السلطان ذلك ،

وقال : ما منعكم أن تفعلوا هذا فيما مضى ؟ قالوا : خوفا من ابن شكر ، قال فأنا كنت في حبس وأنا لا أشعر ، وكان غرضه إبادة أرباب البيوتات وتقريب الأراذل وشرار الفقهاء ، مثل الجمال المصري الذي صار قاضي دمشق ، ومثل ابن كسا البلبيسي ، والمجد البهنسي الذي وزر للأشرف ، وكان هؤلاء يجتمعون حوله ويوهمونه أنه أكتب من القاضي الفاضل ، بل ومن ابن العميد والصابي ، وفي الفقه أفضل من مالك ، وفي الشعر أكمل من المتنبي وأبي تمام ، ويحلفون على ذلك بالطلاق وأغلظ الأيمان ، وحلف لايأكل من الدولة ولا فلسا ويظهر أمانه مفرطة ، فإذا لاح له مال عظيم احتجنه ، وعملت له قبسة العجلان فأمركاتبه أن يكتبها ويردها وقال : لانستحل أن نأخذ منك ورقا ، وكان له في كل بلد من بلاد السلطان ضيعة أو أكثر في مصر والشام إلى خلاط ، وبلغ مجموع ذلك مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار ، وكان يكثر الادلال على العادل ويسخط أولاده وخواصه ، والعادل يترضاه بكل ما يقدر عليه ، وتكرر ذلك منه إلى أن غضب منه على حران ، فلما سار إلى مصر وغاضبه على عادته فأقره العادل على الغضب وأعرض عنه ، ثم ظهر منه فساد وكثرة كلام ، فأمر بنفيه عن مصر والشام ، فسكن آمد وأحسن إليه صاحبها ، فلما مات العادل عاد إلى مصر ووزر للكامل وأخذ في المصادرات وكان قد عمر •

ورأيت منه جلدا عظيما أنه كان لايستكين للنوائب ولايخضع للنكبات ، فمات أخوه ولم يتغير ، ومات أولاده وهو على ذلك ، وكان يحم حمى قوية ، ويأخذه النافض ، وهو في مجلس السلطان ينفذ الأشغال ولايلقي جنبه إلى الأرض ، وكان يقول ما في قلبي حسرة إلا أن ابن البيساني - يعني القاضي الفاضل - ما تمرغ على عتباتي ، وكان يشتمه وابنه حاضر فلا يظهر منه تغير وداراه أحسن مداراة ، وبذل له أموالا جمة في السر •

وعرض له أسهال دمور ورخية وأنهكه حتى انقطع ويئس منه الأطباء ، فاستدعى من حينه عشرة من شيوخ الكتاب فقال أنتم

تشمتون بي وركب عليهم المعاصيروهو يزجر وهم يصيحون إلى أن أصبح وقد خف ما به ، وركب في ثالث يوم ، وكان يقف الرؤساء والناس على بابه من نصف الليل ومعهم المشاعل والشمع ، ويركب عنه الصباح فلا يراهم ولايرونه . لأنه إما ان يرفع رأسه إلى السماء تيها وإما أن يعرج على طريق أخرى والجنادرة تطرد الناس . وكان له بواب اسمه سالم يأخذ من الناس أموالا عظيمة ويهينهم إهانة مفرطة ، واقتنى عقارا وقرى .

الحاجب لؤلؤ

كان شيخا أرمنيا في الاصل من أجناد القصر ، وخدم مع صلاح الدين مقدما للاسطول ، وكان حيثما توجه فتح وانتصر وغنم ، ادركته وقد ترك الخدمة وكان يتصدق كل يوم اثني عشر الف رغيف مع قدور الطعام وكان يضعف ذلك في رمضان ، ويضع ثلاثة مراكب كل مركب طوله عشرون ذراعا مملوة طعاما ، ويدخل الفقراء أفواجا وهو مشدود الوسط قائم بنفسه وبيده مغرفة ، وفي الأخرى جرة سمن وهو يصلح صفوف الفقراء ويقرب اليهم الطعام ، ويبدأ بالرجال ثم بالنساء ثم بالصبيان ، ومع كثرتهم لايزدحمون لعلمهم أن المعروف يعمهم ، فإذا فرغوا بسط سماطا للاغنياء يعجز الملوك عن مثله ، ولما كان صلاح الدين على حران توجه فرنج الكرك والشوبك لينبشوا الحجرة النبوية وينقلوه اليهم ويأخذوا من المسلمين جعلا على زيارته ، فقام صلاح الدين لذلك وقعد ولم يمكنه أن يتزحزح من مكانه ، فأرسل إلى سيف الدولة بن منقذ نائبه بمصر أن جهز لولو الحاجب فكلمه في ذلك ، فقال حسبك ، كم عددهم ؟ قال : ثلاثمائة ونيف كلهم أبطال ، فأخذ قيودا بعددهم وكان معهم طائفة من مرتدة العرب ولم يبق بينهم وبين المدينة الا مسافة يوم فتداركهم وبذل الأموال فمالت اليه العرب للذهب فاعتصم الفرنج بجبل عال فصعد

- ٦٣٣٦ -
اليهم بنفسه راجلا في تسعة أنفس فخارت قوى الملاعين بأمر الله تعالى ، وقويت نفسه بالله فسلموا أنفسهم فصفدهم وقدم بهم القاهرة ، وتولى قتلهم الفقهاء الصالحون والصوفية .

الأمير سيف الدين يازكوج الأسدي

له قصة عجيبة ، وهي أنه كان به حمى ربع أقامت به سبع سنين ، فلما حضر حال السابع وضع بين أرجل الخيل وضرب بالدبابيس حتى أثخن ، فأقلعت الحمى عنه .

أخو القاضي الفاضل

كان له هوس مفرط في تحصيل الكتب وكان عنده زهاء مائتي كتاب من كل كتاب نسخ

أبو الفضل محمد بن محمد بن بنان القاضي الكاتب الأنباري المصري

كان رقيقا طوالا أسمر عنده أدب وترسل وخط حسن وشعر لابأس به ، وكان صاحب ديوان مصر في زمن المصريين والفاضل ممن يغشي بابه ويمتدحه ويفتخر بالوصول اليه ، فلما جاءت الدولة الصلاحية قال القاضي الفاضل هذا رجل كبير القدر يصلح أن يجري عليه ما يكفيه ويجلس في بيته ففعل ذلك .

ثم أنه توجه إلى اليمن ووزر لسيف الاسلام ، وأرسله الى الديوان العزيز ، فعظم ببغداد وبجل ، ولما صرت إلى مصر وجدت ابن بنان في ضنك من العيش شديد ، وعليه دين ثقيل وأدى أمره إلى

- ٦٣٣٧ -

أن حبسه الحاكم بالجامع الازهر ، وكان ينتقص بالقاضي الفـاضل ويراه بالعين الاولى ، والفاضل يقصر في حقه فيقصر الناس مراعاة الفاضل ، وكان بعض من له عليه دين المجبى جـاهلا ، فصـعد إليه إلى سطح الجامع وسفه عليه وقبض على لحيته وضربه ، ففر وألقى بنفسه من سطح الجامع فتهشـم ، فحمـل إلى داره وبقـي أيامـا ومات ، فسير القاضي الفاضل بجهازه خمسة عشر دينارا مـع ولده ، ثم إن القاضي مات فجأة بعده بثلاثة أيام رحمه الله •

الفصل الثاني

في حوادث سنة سبع وتسعين وخمس مائة

ودخلت سنة سبع مفترسة اسباب الحياة ، وقد يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الاسعار واقحطت البلاد واشعر أهلها البلاء وهرجوا من خوف الجوع ، وضوى أهل السواد والريف الى أمهات البلاد ، وانجلى كثير منهم الى الشام والمغرب والحجاز واليمن ، وتفرقوا في البلاد ايادي سبأ ، ومزقوا كل ممزق ، ودخل الى القاهرة ومصر منهم خلق عظيم ، واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموت ، وعند نزول الشمس الحمل وبيء الهواء ، ووقع المرض والموتان ، واشتد بالفقراء الجوع حتى اكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والارواث ، ثم تعدوا ذلك الى ان اكلوا صغار بني آدم فكثيرا ما يعثر عليهم

ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون فيأمر صاحب الشرطة باحراق الفاعل لذلك والآكل ، ورأيت صغيرا مشويا في قفة وقد أحضر الى دار الوالي ومعه رجل وامرأة زعم الناس أنهم أبواه فأمرباحراقهما ووجد في رمضان بمصر رجل وقد جردت عظامه عن اللحم فأكل ، وبقي قفصا كما يفعل الطباخون بالغنم ، ومثل هذا أعوز جاليذوس مشاهدته ولذلك تطلبه بكل حيلة كل من آثر الاطلاع على علم التشريح .

وحين ما اذشم الفقراء في أكل بني آدم كان الناس يتناقلون أخبارهم ويفيضون في ذلك استفظاعا لامره وتعجبا من وقوعه ، ثم اشتد قرمهم اليه وضراوتهم عليه بحيث اتخذوه معيشة ومطيبة ومدخرا وتفننوا فيه ، وفشا عنهم ووجد بكل مكان من ديار مصر ، فسقط حينئذ التعجب والاستبشاع ، واستهجن الكلام فيه والسماع

له ، ولقد رأيت امرأة مشججة يسحبها الرعاع في السوق ، وقد ظفر معها بصغير مشوي تأكل منه وأهل الســوق ذاهلون عنهــا مقبلون على شؤونهم ، لـم أر فيهم من يعجب لذلك أو ينكره ، فعاد تعجبي منهم اشد ، وما ذلك الا لكثرة تكرره على احساسهم حتى صــار في حكم المألوف الذي لايستحق ان يتعجب منه .

ورأيت قبل ذلك بيومين صبيا نحو الرهاق مشويا ، وقد أخذ بــه شابان أقرا بقتله وشيه وأكل بعضه .

وفي بعض الليالي بعيد صلاة المغرب كان مع جارية فطيم تلاعبه لبعض المياسير فبينما هو الى جانبها اهتبلت غفلتها عنه صــعلوكة فبقرت بطنه وجعلت تأكل منه نيا ، وحكى لي عدة نساء أنه يتــوثب عليهم لاقتناص أولادهن ويحامين عنهم بجهدهن .

ورأيت مع امرأة فطيما فاستحسنته وأوصيتها بحفظة فحكت لي انها بينما تمشي على الخليج انقض عليها رجل جلف ينازعها ولدهــا فترامت على الولد نحو الارض حتى أدركها فارس فـطرده عنهــا ، وزعمت أنه كان يهم بكل عضو يظهر منه أن يأكله ، وأن الولد بقــي مدة مريضا لشدة تجاذبه المرأة والمفترس .

ونجد اطفال الفقراء وصبيانهم ممن لم يبــق له كفيل ولا حــارس منبثين في جميع اقطار البلاد ، وازقــة الدروب كالجــراد المنتشر ، ورجال الفقراء ونساؤهم يتصيدون هـؤلاء الصغار ويتغــذون بهــم ، وإنما يعثر عليهم في الندرة واذا لم يحسنوا التحفظ ، واكثر ما كان يطلع من ذلك مع النساء ، وما أظن العلة فيه الا ان النساء أقل حيلة من الرجال وأضعف عن التبــاعد والاســتتار ، ولقــد احــرق بمصر خاصة في ايام يسيرة ثلاثون امرأة كل منهن تقر أنها أكلت جماعة ، ورأيت امرأة قــد أحضرت الى الوالي وفي عنقهــا طفــل مشــوي ، فضربت اكثر من مائتي سوط على أن تقر فلا تحير جوابا بل تجدهــا قد انخلعت عن الطباع البشرية ، ثم سحبت فماتت على المكان ،وإذا

احرق آكل اصبح وقد صار مأكولا لأنه يعود شواء ويستغني عن طبخه .

ثم فشا فيهم أكل بعضهم بعضا حتى تفانى أكثرهم ، ودخل في ذلك جماعة من المياسير والمساتير ، منهم من يفعله حاجة ومنهم يفعله استطابة ، وحكى لنا رجل انه قد كان له صديق ادقع في هذه النازلة فدعاه صديقه هذا الى منزله ليأكل عنده ما جرت به عادتهما قبل فلما دخل منزله وجد عنده جماعة عليهم رثاثة الفقر وبين ايديهم طبيخ كبير اللحم وليس معه خبز فرابه ذلك وطلب المرحاض فصادف عنده خزانة مشحونة برمم الادمي وباللحم الطري ، فارتاع وخرج فارا .

وظهر من هؤلاء الخبثان من يتصيد الناس باصناف الحبائل ويجتابونهم الى مكامنهم بأنواع المخاتل وقد جرى ذلك لثلاثة من الاطباء ممن ينتابني ، أما أحدهم فان اباه خرج فلم يرجع ، وأما الآخر فان امرأة اعطته درهمين على أن يصحبها الى مريضها فلما توغلت به مضايق الطرق استراب وامتنع عنها وشنع عليها ، فتركت درهميها وانسلت .

واما الثالث فان رجلا استصحبه الى مريضة في الشارع بزعمه وجعل في اثناء الطريق يصدق بالكسر ويقول اليوم يغتنم الثواب ويتضاعف الأجر ، ولمثل هذا فليعمل العاملون ثم كثر حتى ارتاب منه الطبيب ، ومع ذلك فحسن الظن يغلبة وقوة الطمع تجذبه حتى ادخله دارا خربة ، فزاد استشعاره وتوقف في الدرج وسبق الرجل فاستفتح فخرج اليه رفيقه يقول له هل مع ابطائك حصل صيد ذفع ، فجزع الطبيب لما سمع ذلك والقى نفسه الى اصطبل من طاقة صادفها لسعادته ، فقام اليه صاحب الاصطبل يسأله عن قضيته فأخفاها عنه خوفا منه أيضا ، فقال : قد علمت بأن اهل هذا المنزل يذبحون الناس بالختل .

ووجد باطفيح عند عطار عدة خوابي مملوءة بلحم الادمي وعليه

الماء والملح فسألوه عن علة اتخانه والاستكثار منه ، فقال : خفت اذا دام الجدب ان يهزل الناس ، وكان جماعة من الفقراء قد اودى الى الجزيرة وتستروا ببيوت طين يتصيدون فيها الناس ، ففطن لهم وطلب لهم قتلهم فهربوا ووجد في بيوتهم من عظام آدم شيء كثير ، وخبرني الثقة أن الذي وجد في بيوتهم أربع مائة جمجمة ، ومما شاع وسمع من لفظ الوالي ان امرأة أتته سافرة مذعورة تذكر انها قابلة ، وأن قوما استدعوها وقدموا لها صحنا فيه سكباج محكم الصنعة ، مكمل التوابل فالفتة كثير اللحم مباينا اللحم المعهود فتقززت منه ، ثم وجدت خلوة ببنت صغيرة فسألتها عن اللحم فقالت : ان فلانة السمينة دخلت لتزورنا فذبحها ابي وهاهي معلقة اربا فقامت القابلة الى الخزانة فوجدتها انابير لحم ، فلما قصت على الوالي القصة أرسل معها من هجم الدار وأخذ من فيها ، وهرب صاحب المنزل ، ثم صانع عن نفسه في الخفية بثلاثمائة دينار ليحقن بذلك دمه .

ومن غريب ما حدث من ذلك ان امرأة من نساء الاجناد ذات مال ويسار كانت حاملا ، وزوجها غايب في الخدمة ، وكان يجاورها صعاليك فشمت عندهم رائحة طبيخ فطلبت منه كما من عادة الحبالى ، فالفته لذيذا فاستزادتهم فزعموا انه نفد فسألتهم عن كيفية عمله ، فأسروا اليها أنه لحم بني آدم فواطأتهم على أن يتصيدوا لها الصغار وتجزل لهم العطاء فلما تكرر ذلك منها وضريت وغلبت عليها الطباع السبعية وشى بها جواريها خوفا منها ، فهجم عليها فوجد عندها من اللحم والعظام ما يشهد بصحة ذلك ، فحبست مقيدة وأرجىء قتلها احتراما لزوجها وابقاء على الولد في جوفها .

ولو اخذنا نقص كل ما نرى ونسمع لوقعنا في التهمة أو في الهدر . وجميع ما حكيناه مما شاهدناه لم نتقصده ولا تتبعنا مظانة وانما هو شيء صادفناه اتفاقا ، بل كثيرا ما كنت افر من رؤيته لبشاعة منظره .

وأما من يتحيزذلك بدار الوالي فانه يجد منه اصنافا تحضر مع اناء الليل والنهار وقد يوجد في قدر واحدة اثنان واكثر ، ووجد في بعض الايام قدر فيها عشر ايد كما تطبخ اكارع الغنم ، ووجد مرة اخرى قدر كبيرة وفيها رأس كبير وبعض الاطراف مطبوخا بقمح واصناف من هذا الجنس تفوت الاحصاء ، وكان عند جامع ابن طولون قوم يتخطفون الناس ووقع في حبالهم شيخ كتبي بدين ممن يبيعنا الكتب فافلت بجريعة الذقن ، وكذلك بعض قوام جامع مصر في حباله قوم آخرين بالقرافة فتداركه الناس فخلص من الوهق وله خصاص ، واما من خر ، عن اهله فلم يرجع اليهم فخلق كثير .

وحكى لي من اثق به انه اجتاز على امرأة بخربة وبين يديها ميت قد انتفخ وتفجر وهي تأكل من افخاذه ، فانكر عليها فزعمت أنه زوجها وكثيرا ما يدعي الآكل ان المأكول ولده أو زوجه أو نحو ذلك ، ورؤي مع عجوز صغير تأكله فاعتذرت بان قالت انما هو ولد ابنتي وليس بأجنبي مني ولأن آكله أنا خير من أن يأكله غيري ، وأشباه هذا كثير جدا حتى أنك لاتجد احدا في ديار مصر الا وقد رأى شيئا من ذلك ، حتى ارباب الزوايا والنساء في خدورهن .

ومما شاع ايضا نبش القبور ، وأكل الموتى ، وبيع لحومهم ، وهذه البلية التي شرحناها وجدت في جميع بلاد مصر ليس بلد الا وقد اكل فيه الناس أكلا ذريعا من أسوان وقوص ، والفيوم ، والمحلة ، والاسكندرية ، ودمياط ، وسائر النواحي .

وخبرني بعض اصحابي وهو تاجر مأمون حين ورد من الاسكندرية بكثرة ما عاين بها من ذلك ، واعجب ماحكى لي انه عاين رؤوس خمسة صغار مطبوخة في قدر واحدة بالتوابل الجيدة ، وهذا المقدار من هذا الاقتصاص كاف وان كنت قد اسهبت اعتقد أني قد قصرت .

وأما القتل والفتك في النواحي فكثير فاش في كل فج ولا سيما طريقي الفيوم والاسكندرية ، وقد كان بطريق الفيوم ناس في مراكب

يرخصون الأجرة على الركاب ، فإذا توسطوا بهم الطريق ذبحـوهـم وتساهموا أسلابهم ، وظفر الوالي منهم بجماعة فمثل بهم ، وأقـر بعضهم عندما أوجع ضربا ان الذي خصه دون رفقـائه سـتة آلاف دينار .

وأما موت الفقراء هـزالا وجـوعا فـأمر لايطيق علمـه الا الله سبحانه وتعالى ، وانما نذكر منه كالانموذج يستدل بـه اللبيب على فظاعة الامر فالذي شاهدنا بمصر والقاهرة وما تأخر ذلك أن الماشى اين كان لايزال يقع قدمه أو بصره على ميت ، أو من هو في السـياق او على جمع كثير بهذه الحال ، وكان يرفع من القاهرة خـاصة الى الميضأة كل يوم ما بين مائة الى خمس مـائة ، وامـا مصر فليس لموتاها عدد ويرمون ولا يوارون ثم بآخره عجز عن رميهم فبقوا في الاسواق وبين البيوت والدكاكين وفيها ، والميت منهم قد تقطع والى جانبيه الشواء والخباز ونحوه ، واما الضواحي والقرى فـانه هلك اهلها قاطبة الا ماشاء الله ، وبعضهم انجلى عنها اللهم الا الامهات والقرى والكبار كقوص والاشمونين والمحلة ونحـو ذلك ومـع هـذا ايضا فلم يبق فيها الا تحلة القسم ، وان المسافر ليمر بالبلدة فلا يجد فيها نانخ ضريـة ، وتجد البيوت مفتحـة واهلهـا مـوتى متقـابلين بعضهم قد رم وبعضهم طري وربما وجد في البيت أثاثه وليس له من يأخذه ، حدثني ذلك غير واحد كل منهم يحـكي مايعضد بـه قـول الآخر ، قال أحـدهم : دخلنا مـدينة فلم نجـد فيهـا حيوانا في الارض ولا في السماء ، فتخللنا البيوت فالفينا اهلها كما قال الله عز وجل:(جعلناهم حصيدا خامدين) (الانبياء ١٥) فتجد سـكن كل دار موتى فيها الرجل وزوجته واولاده ، قال:ثم انتقلنا الى بلد آخـر ذكر لنا انه كان فيه اربع مائة دكان للحياكة فوجدناها كالتي قبلها في الخراب وان الحـايك في بير حياكتـه ميت واهله مـوتى حـوله ، فحضرني قول الله تعالى (إن كانت الا صـيحة واحـدة فـاذا هـم خامدون) (يس ٢٩) قـال : ثـم انتقلنا الى بلد آخـر فـوجدناه كالذي قبله ليس به أنيس ، وهـو مشـحون بمـوتى أهله ، قـال : واحتجنا الى الاقامة به لاجل الزراعة فاستأجرنا من ينقـل الموتـى

مما حولنا الى النيل كل عشرة بدرهم ، قال : ولكن قد بذلت البلاد بالذئاب والضباع ترتع في لحوم أهلها ، ومن عجيب ما شاهدت أني كنت يوما مشرفا على النيل مع جماعة فاجتاز علينا في نحو ساعة نحو عشرة موتى كأنهم القرب المنفوخة هذا من غير ان نتقصد رؤيتهم ولاأحطنا بعرض البحر ، وفي غد ذلك اليوم ركبنا سفينة فرأينا اشلاء الموتى في الخليج وسائر الشطوط كما شبهها ابن حجر بانابيش العنصل ،وخبرت عن صياد بفرضه تنيس أنه مر به في بعض نهار اربع مائة غريق يقذف بهم النيل الى البحر الملح ، وأما طريق الشام فقد تواترت الاخبار أنها صارت مزرعة لبني آدم بل محصدة ، وأنها عادت مأدبة بلحومهم للطير والسباع ، وأن كلابهم التي صحبتهم من منجلاهم هي التي تأكل فيهم ، واول من هلك في هذه الطريق اهل الحوف عندما انتجعوا الى الشام وانتشروا في هذه المسافة مع طولها كالجراد المحسوس ولم تزل تتواصل هلاكاهم الى الآن وانتهى انتجاعهم الى الموصل وبغداد وخراسان والى بلاد الروم والمغرب واليمن ومزقوا في البلاد كل ممزق ، وكثيرا ما كانت المرأة تتملص من صبيتها في الزحام فيتضورون جوعا حتى يموتوا ، وأما بيع الاحرار فشاع وساع عند من لايراقب الله حتى تباع الجارية الحسناء بدراهم معدودة ، وعرض علي جاريتان مراهقتان بدينار واحد ، ورأيت مرة أخرى جاريتين احداهما بكر ينادى عليهما احد عشر درهما ، وسألتني امرأة أن أشتري ابنتها .وكانت جميلة دون البلوغ بخمسة دراهم فعرفتها ان ذلك حرام ، فقالت خذها هدية ، وكثيرا ما يترامى النساء والولدان الذين فيهم صباحة على الناس بأن يشتروهم او يبيعوهم ، وقد استحل ذلك خلق عظيم ، ووصل سبيهم الى العراق واعماق خراسان وغير ذلك ، واعجب من جميع ما اقتصصناه ان الناس مع ترادف هذه الآيات عاكفون على اصنام شهواتهم لايرعوون ، منغمسون في بحر ضلالاتهم كأنهم هم المستثنون ، فمن ذلك اتخاذهم بيع الاحرار متجرا ومكتسبا ومنه عهارهم بهؤلاء النسوة حتى ان منهم من يزعم انه افتض خمسين بكرا ، ومنهم من يقول سبعين كل ذلك بالكسر ، وأما خراب البلاد والقرى وخلو المساكن والدكاكين فهو مما يلزم

هذه الجملة التي اقتصصناها ، وناهيك ان القرية التي كانت تشتمل على زهاء عشرة آلاف نسمة تمر عليها فتراها دمنة وربما وجد فيها ذفر وربما لم يوجد وأما مصر فخلا معظمها ، وأما بيوت الخليج وزقاق البركة وحلب والمقس وما تاخم ذلك فلم يبق فيها بيت مسكون اصلا بعد ما كان كل قطر منها قدر مدينة في زحمة من الناس ، حتى أن الرباع والمساكن والدكاكين التي في سرة القاهرة وخيارها اكثرها خال خراب ، وأن ربعا في اعمر موضع بالقاهرة فيه نيف وخمسون بيتا كلها خالية سوى اربعة بيوت اسكنت من يحرس الموضع . ولم يبق لأهل المدينة وقود ، تنانيرهم وافرانهم وبيوتهم إلا خشب السقوف والابواب والزروب ، ومما يقضى منه العجب ان جماعة من الذين مازالوا محدودين يتبعوا في دنياهم هذه السنة ، فمنهم من اثرى بسبب متجره في القمح ، ومنهم من أثرى بسبب مال انتقل اليه بالارث ، ومنهم من حسنت حاله لابسبب معروف فتبارك من بيده القبض والبسط ولكل مخلوق من عنايته قسط .

وأما خبر النيل في هذه السنة فانه احترق في برمودة احتراقا كثيرا وصار المقياس في ارض جزر وانحسر الماء عنه نحو الجيزة ، وظهر وسطه جزيرة عظيمة طويلة ومقطعات ابنية وتغير الماء في ريحه وطعمه ثم تزايد التغير ، ثم انكشف امره عن خضرة طحلبية كلما تطاولت الايام ظهرت وكثرت كالتي ظهرت في أبيب من السنة الخالية ، ولم تزل الخضرة تتزايد الى آخر شعبان ، ثم تناقصت الى ان ذهبت وبقي في الماء أجزاء نباتية منبتة فقط ، وطاب طعمه وريحه ، ثم أخذ في رمضان ينمو وتقوى جريته الى اليوم السادس عشر منه فقاس فيه ابن ابي الرداد قاع البركة فكان ذراعين ، واخذ في زيادة ضعيفة أضعف منها من السنة الخالية ، ولم يزل في زيادة ضعيفة الى ثامن ذي القعدة وهو السابع عشر من مسري ، فزاد اصبعا ، ثم وقف ثلاثة ايام فايقن الناس بالبلاء واستسلموا للهلكة ، ثم اخذ في زيادات قوية اكثرها ذراع الى ثالث ذي الحجة وهو السادس من توت فبلغ خمسة عشر ذراعا وست عشرة اصبعا ، ثم انحط من يومه وانهزم على فوره ومس بعض البلاد تحله القسم

فكانما زارها طيف خياله في الحلم ، وانما انتفع به ماكان من البلاد مطمئنا فأروى المنخفضات كالغربية ونحوها غير ان القرى عالية عن فلاح او حراث أصلا فهم كما قال الله تعالى (فاصبحوا لايرى الا مساكنهم) (الاحقاف ٢٥) وإنما ارباب الجدات يجمعون شذاذهم ويلتقطون افرادهم ، وقد عز الحراث والبقر جدا ، حتى يباع الثور الواحد بسبعين دينارا والهزيل بدون ذلك ، وكثير من البلاد ينحسر عنها الماء بغير حقه ولغير وقته اذ ليس بها من يمسك الماء ويحبسه فيها فتبور لذلك مع ريها ، وكثير مما روي يبور لعجز اهله عن تقاويه والقيام عليه ، وكثير مما زرع اكلته الدودة وكثير مما سلم منهااضوى وعطب ،ونهاية سعر القمح في هذه السنة خمسة دنانير الاردب والفول والشعير باربعة دنانير ، وأما بقوص والاسكندرية فبلغ ستة دنانير ، ومن الله سبحانه يرجى الفرج ، وهو المتيح للخير بمنه وجوده .

الفصل الثالث

في حوادث سنة ثمان وتسعين وخمس مائة

ودخلت هذه السنة والاحوال التي شرحناها في السنة الخالية على ذلك النظام أو في تزيد الى زهاء نصفها ، فتناقص موت الفقراء لقلتهم لا لارتفاع السبب الموجب ، وتناقص أكل بني آدم ثم انقطع خبره اصلا ، وقل خطف الأطعمة من الاسواق ، وذلك لفناء الصعاليك وقلتهم من المدينة وانحطت الأسعار حتى عاد الاردب بثلاثة دنانير لقلة الآكلين لالكثرة المأكول ، وخفت المدينة بأهلها ، واختصرت واختصر جميع ما فيها على تلك النسبة ، والف الناس الغلاء واستمروا على البلاء حتى عاد ذلك كأنه مزاج طبيعي ، وحكي لي انه كان بمصر تسع مائة منسج للحصر ، فلم يبق الا خمسة عشر منسجا ، وقس على هذا سائر ما جرت العادة ان يكون بالمدينة من باعة وخبازين وعطارين وأساكفة وخياطين وغير ذلك من الاصناف ، فانه لم يبق من كل صنف من هؤلاء الا نحو ما بقي من الحصريين أو أقل من ذلك ، وأما الدجاج فعدم رأسا لولا أنه جلب منه شيء من الشام ، وحكي لي أن رجلا مصريا شارف الفقر فألهم أن اشترى من الشام دجاجا بستين دينارا وباعها بالقاهرة على القماطين بنحو ثماني مائة دينار ، ولما وجد البيض بيع بيضة بدرهم ثم بيضتين ثم ثلاثا ثم اربعا واستمر على ذلك ، وأما الفراريج فبيع الفروج بمائة درهم ولبث برهة يباع الفروج بدينار فصاعدا ، وأما الافران فانما توقد باخشاب الدور فيشتري الفران الدار بالثمن البخس ويقد زروبه وأخشابه أياما ، ثم يشتري آخر وربما كان فيهم من تنشطه نذالته فيخرج ليلا يجوس خلال الديار فيحتطبها ولا يجد ذاعرا وربما تقفر الدار بمالكها ولايجد لها مشتريا فيفصل اخشابها وابوابها وسائر آلاتها فيبيعها ثم يطرحها

مهدومة وكذلك ايضا يفعلون بدور الكراء ، واما الهلالية ومعظم الشارع ودور الخليج وحارة الساسة والمقس وما تاخم ذلك فلم يبق فيها انيس ، وانما ترى مساكنهم خاوية على عروشها ، وكثيرا من اهلها موتى فيها ، ومع ذلك فالقاهرة بالقياس الى مصر في غاية العمارة واهلها في غاية الكثرة ، وأما الضواحي وسائر البلاد فيباب رأسا ، حتى ان المسافر يسير في كل جهة أياما لايصادف حيوانا الا الرمم ما خلا البلاد الكبار كقوص واخميم والمحلة ودمياط والاسكندرية فان فيها بقايا ما عدا هذه وامثالها فان البلد الذي كان يحتوي على ألوف خال أو كالخالي .

وأما الاملاك ذوات الأجر المعتبر فان معظمها خلا ولم يبق دأب أهلها الا حراستها بسد أبوابها وتحصين مسالقها أو اسكانها من يحرسها باجره ، اللهم الا ما كان من الملك في قبضة المدينة فان بعضه مسكون باخف اجرة ، وأعرف ربعا في اعمر موضع بالمدينة كانت أجرته في الشهر مائة وخمسين دينارا ، فعادت في هذه السنة الى نحو عشرين دينارا وآخر في مثل موضعه كانت أجرته في الشهر ستة عشر دينارا فعادت الى فويق الدينار ، وجميع مالم نذكره على هذا القياس افهمه ، والذي دخل تحت الاحصاء من الموتى ممن كفن وجرى له اسم في الديوان وضمته الميضأة في مدة اثنين وعشرين شهرا اولها شوال من سنة ست وتسعين وآخرها رجب من سنة ثمان وتسعين مائة الف نفس وأحد عشر ألفا آحادا ، وهذا مع كثرته نزر في جنب الذين هلكوا في دورهم وفي أطراف المدينة واصول الحيطان ، وجميع ذلك نزر في جنب من هلك بمصر ، وما تاخمها ، وجميع ذلك نزر في جنب من أكل في البلدين وذلك نزر جدا في جنب من هلك او اكل في سائر البلاد والنواحي والطرقات ، وخاصة طريق الشام فانه لم يرد أحد من ناحيته فسألته عن طريق الا ذكر أنها مزروعة بالاشلاء والرمم ، وهكذا وهكذا ما سلكته منها .

ثم انه وقع بالفيوم والغربية ودمياط والاسكندرية موتان عظيم ووباء شديد ، ولاسيما عند وقت الزراعة فلعله يموت على المحراث

الواحد عدة فلاحين ، حكي لنا أن الذين بـذروا غير الذين حـرثوا ، وكذلك الذين حصدوا. وباشر زراعة لبعض الرؤساء ، فـارسل مـن يقوم بأمر الزراعة فجاء الخبر بموتهم أجمعين ، فـأرسل عوضـهم فمات أكثرهم هكذا مرات في عدة جهات .

وسمعنا من الثقات عن الاسكندرية أن الامام صلى يوم الجمعـة على سبع مائة جنازة ، وان تركة واحـد انتقلت في مـدة شـهر إلى أربعة عشر وارثا وان طائفة كبيرة من اهلها تزيد على عشرين الفـا انتقلوا الى برقة وأعمالها فعمروها وقطنوها وهذه برقة كانت مملكة عظيمة وخربت في زمن اليازوري ، وعلى يديه وكان وزيرا ظـالما ، فجلا عنها أهلها وسكن كثير منهم بالاسكندرية وكأن هذا الحـادث تقاصي في الطبيعة .

ومن عجيب ما اتفق لشيخ من أطباء يهـود مصر ممـن ينتـابني سوى من سبق ذكرهم أن استدعاه رجل من زبونه ذو شارة وشهرة بستر ودين وجدة ، فلما حصـل في المنزل اغلق البـاب ووثـب عليه فجعل في عنقه وهقا ، وضربه المريض ، غير أنه لم يكن لهما معـرفة بالقتل فطالت المناوشة وعلا ضـجيجه فتسـامع ودخلوا فخلصـوا الشيخ مرتثا وبه رمق يسير ، وقد وجئت خصيتاه وكسرت ثنيتـاه وحمل الى منزله مغشيا عليه ، وأحضر الفاعل الى الوالي فسأله ما حملك على ما فعلت ؟ فقال : الجوع فضربه ونفاه .

واتفق سحرة يوم الاثنين السادس والعشرين من شـعبان وهـو الخامس والعشرين من بشنس أن حدثت زلزلة عظيمة اضطرب لهـا الناس وهبوا من مضاجعهم مدهوشين ، وضجوا الى الله سـبحانه ولبثت مدة طويلة ، وكانت حركتها كالغربلة أو كخفـق جناح الطير ، وانقضت على ثلاث رجفات قـوية مـادت بهـا الابنية واصـطفقت الابواب ، وصرصرت السقوف والاخشاب وتداعى من الابنية ماكان واهيا أو مشرفا عاليا ثم عاودت في نصف نهار يوم الاثنين الا انها لم يحس بها اكثر الناس لخفائها وقصر زمانها وكان في هـذه الليلة

برد شديد يحوج الى دثار خلاف العادة ، وفي نهار ذلك اليوم تبدل بحر شديد وسموم مفرط يضيق الانفاس ويأخذ بالكظم ، وقلما تحدث زلزلة بمصر بهذه القوة .

ثم أخذت الاخبار تتواتر بحدوث الزلزلة في النواحي النائية والبلاد النازحة في تلك الساعة بعينها ، والذي صح عندي انها حركت في ساعة واحدة طائفة من الارض من قوص الى دمياط ، والاسكندرية ، ثم بلاد الساحل بأسرها والشام طولا وعرضا ، وتعفت بلاد كثيرة بحيث لم يبق لها اثر ، وهلك من الناس خلق عظيم ، وامم لاتحصى ، ولا أعرف في الشام بلدا احسن سلامة من القدس ، فانها لم تنل منه الا مالا بال به وكانت نكاية الزلزلة في بلاد الافرنج اكثر منها في بلاد الاسلام كثيرا وسمعنا ان الزلزلة وصلت الى اخلاط وتخومها والى جزيرة قبرس وأن البحر ارتطم وتموج وتشوهت مناظره فانفرق في مواضع ، وصارت فرقة كالاطواد ، وعادت المراكب على الارض ، وقذف سمكا كثيرا على ساحله .

ثم وردت كتب من الشام ومن دمشق وحماه تتضمن خبر الزلزلة ، ومما اتصل بي كتابان اوردتهما بلفظهما.نسخة الكتاب الوارد من حماه « ولما كان سحرة يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان ، حدثت زلزلة كادت الأرض تسير سيرا والجبال تمور مورا ، وما ظن أحد من الخلق الا أنها زلزلة الساعة ، وأتت دفعتين في ذلك الوقت ، اما الدفعة الاولى فاستمرت ساعة أو تزيد عليها ، وأما الثانية فكانت دونها ، ولكن أشد ، وتأثر منها بعض القلاع فأولها قلعة حماه مع اتقانها وعمارتها ، وبارين مع اكتنازها ولطافتها ، وبعلبك مع قوتها ووثاقتها ، ولم يرد عن البلاد الشاسعة والقلاع البازخة الى الآن ما أذكره ، ثم حدث في يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه عند صلاة الظهر زلزلة استوى في عملها اليقظان والنائم ، وتزعزع لها القاعد والقائم ، ثم حدثت في هذا اليوم ايضا وقت صلاة العصر ، ووصل الخبر من دمشق بان الزلزلة أفسدت

فيها منارة الجامع الشرقية وأكثر الكلاسة والبيمارستان جميعه ، وعدة مساكن تساقطت على اهلها فهلكوا » .

نسخة الكتاب الوارد من دمشق :« والمملوك ينهي حدوث زلزلة ليلة الاثنين سادس وعشرين شعبان ، وقت انفجار الفجر ، وأقامت مدة قال بعض الاصحاب انها مقدار ماقرأ سورة الكهف ، وذكر بعض المشايخ بدمشق انه لم يشاهد مثلها فيما تقدم ومما اثرت في البلد سقوط ست عشرة شرافة من الجامع ، واحدى المواذن وتشقق أخرى ،وقبة الرصاص ، يعني النسر وانخساف الكلاسة ومات فيها رجلان ، ورجل آخر على باب جيرون وتشقق بالجامع مواضع كثيرة ، وسقط بالبلد عدة ادؤر ، وذكر عن بلاد المسلمين أن بانياس سقطت بعضها ، وصفد كذلك ، ولم يبق بها الا من هلك سوى السمرة ، ويذكر ان القدس سالم والحمد لله .

اما بيت جن فلم يبق منه ولا اساس الجدران الا وقد اتى عليه الخسف ، وكذلك اكثر بلاد حوران غارت ، ولم يعرف لبلد منها موضع يقال فيه هذه القريةالفلانية ، ويقال ان عكة سقط اكثرها ، وصور ثلثها وعرقه خسف بها وكذلك صافيتا وأما جبل لبنان ففيه موضع يدخل الناس اليه بين جبلين يجمع منه الريباس الاخضر فيقال الجبلين انطبقا على من بينهما ، وكانت عدتهم تناهز مائتي رجل ، وقد اكثر الناس في حديثها ، واقامت بعد ذلك اربعة ايام تحدث في النهار والليل ، ونسأل الله لطفه وتدبيره وهو حسبنا ونعم الوكيل ..

ومن عجيب ماشاهدنا أن جماعة من ينتابني في الطب وصلوا الى كتاب التشريح ، فكان يعسر افهامهم وفهمهم لقصور القول عن العيان فاخبرنا ان بالمقس تلاعليه رمم كثيرة فخرجنا اليه فرأينا تلا من رمم له مسافة طويلة يكاد يكون ترابه أقل من الموتى ،به بحدس ما يظهر منهم للعيان بعشرين الفا فصاعدا ، وهم على طبقات في قرب العهد وبعده فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية

اتصالها وتناسبها واوضاعها ما افادنا علما لانستفيده من الكتب ، وإما أنها سكتت عنها اولا يفي لفظها بالدلالة عليه ، او يكون ما شاهدناه مخالفا لما قيل فيها ، والحس اقوى دليلا من السمع ، فان جاليذوس وان كان في الدرجة العليا من التحري والتحفظ فيما يباشره ويحكيه ، فان الحس اصدق منه ، ثم بعد ذلك يتخيل لقوله نخرج ان امكن ذلك عظم الفك الاسفل فان الكل قد اطبقوا على انه عظمان بمفصل وثيق عند الحنك ، وقولنا الكل انما نعني به هاهنا جاليذوس وحده هو الذي باشر التشريح بنفسه وجعله دأبه ، ونصب عينيه وصنف فيه عدة كتب معظمها موجود لدينا ، والباقي لم يخرج الى لسان العرب ، والذي شاهدنا من حال هذا العضو انه عظم واحد ليس فيه مفصل ولادرز اصلا ، واعتبرناه ما شاء الله من المرات في اشخاص كثيرة تزيد على الفي جمجمة باصناف من الاعتبارات فلم نجده الا عظيما واحدا من كل وجه ، ثم اننا بجماعة متفرقة اعتبروه بحضرتنا وفي غيبتنا ، فلم يزيدوا على ما شاهدناه منه وحكيناه ، وكذلك في أشياء أخر غير هذه ولئن مكنتنا المقادير بالمساعدة وضعنا مقالة في ذلك نحكي فيها ماشاهدناه وما علمناه من كتب جاليذوس ، ثم اني اعتبرت هذا العظم بمدافن بوصير القديمة المقدم ذكرها فوجدته على ماحكيت ليس فيه مفصل ولادرز،ومن شأن الدروز الخفية والمفاصل الوثيقة اذا تقادم عليها الزمان ان تظهر ، وتتفرق وهذا الفك الاسفل لايوجد في جميع احواله الا قطعة واحدة ، واما العجز فقد ذكر جاليذوس انه مؤلف من ستة اعظم ، ووجدته انا عظما واحدا ، واعتبرته بكل وجه من الاعتبار فوجدته عظما واحدا ، ثم اني اعتبرته في جثة أخرى فوجدته ستة اعظم كما قال جاليذوس ،

وكذلك وجدته في سائر الجثث على ما قال الا في جثتين فقط فاني وجدته فيهما عظما واحد ،وهو في الجميع موثق المفاصل ،ولست واثقا بذلك كما انا واثق باتحاد عظم الفك الأسفل ، ثم اننا دخلنا مصر فرأينا فيها دروبا وأسواقا عظيمة كانت مغتصة بالزحام ، والجميع خال ليس فيه حيوان الا عابر سبيل في الاحايين ، وأن المار فيها ليستوحش ، ومع ذلك فقلما يذفك قطر منها عن جثة او عظام متفرقة ، حتى خرجنا الى موضع يسمى اسكرجة فرعون ، فرأينا

الاقطار كلها مغتصة بالجثث والرمم وغلبت على الآكام بحيث جللتها وكادت تغلب تـــــــــــــــــرابها ، ورأينا في

هذه الاسكرجة ، وهي وهدة عظيمة حين ماأشرفنا عليها الجمــاجم بيضا وسودا ودكنا بعضها على بعض طبقات ، وقد اخفض كثرتها وتراكمها سائر العظام ، حتى كأنهــا رؤوس لم يكن معهــا أبــدان يشبهها من ينظرها ببطيخ قد قطع وجمع ، حتى صــار كالبيدر ثــم رايتها بعد أيام وقد حرقتها الشمس وابيضت فشبهتها ببيض النعام المتراكب ، ولما رأيت خلو تلك الحارات والاسواق من الناس وامتلاء تلك الصحارى والآكام خيل الي انه سفر ارتحل فأخلى مكانا وشــغل آخر ، هذا مع انه اي جهة نحاها القاصد صادف فيهــا مــا حــكينا واضعافه ، ووجد في ذي الحجة بمصر امرأة ذبحت صــبيا لتــأكله ، فاخذت وغرقت وقد ارتفعت هذه الحال وانقطع خبرها ومشاهدتها ، ولم يوجد سوى هذه المرأة .

ومن عجيب الكائنات في هذه المدة ان مولودا في سنة سبع وتسعين ولد برأسين ، وولد مولود آخر ابيض الشعر ، ورأيتــه وليس هــو كبياض الشيب بل يميل الى صهوبة ما ، وولدت في الســنة بغلة ولدا ميتا ، وبقى في دار الوالي اياما كثيرة .

وفي سنة ثمان وتسعين وجدت سخلة ذات لبــن كان يخــرج مــن حلمتها كأنه خيط دقيق وأحضرت بدار الوالي مــرات ، وآخــر مــا احضرت وعمرها اربعة اشهر .

واما خبر النيل في هذه السنة فنحن نسوقه بــاختصار أمــا اولا فانه احترق في طوبة ، ثم تزايد حتى صار مخاضات للناس والدواب وظهرت الخضرة فيه في جمادى الآخرة الكائن في برمهات وتــزايدت جدا في رجب حتى ظهرت في لونه وطعمه وريحه ، ثم تناقصت حتــى ذهبت اصلا وانتهى احتراقه في رمضان ، وانحسر عن المقياس نحو ثماني اذرع وطالع ابن ابي الرداد باستقرار الماء يوم الثلاثاء لخمس بقين من بؤونة وأربع بقين من رمضان من سنة ثمان وتسعين فكان

- ٦٣٥٤ -

القاع ذراعا ونصـفا وكان في السـنة الخـالية ذراعين ، وابتـدأ بالزيادة في السنة الخالية هذا اليوم ، فاما في هذه السنة فان زيادته تأخرت الى الخامس والعشرين من أبيب لم يزد في هذه المدة سـوى أربع اصابع حتى سـاءت ظنون الناس وشـملهم اليأس فـظنوا ان حادثا وقع بفوهته وعند مبدأ جريته ، ثم أخذ في الزيادة حتى انسلخ ابيب ، وهو على ثـلاث اذرع ووقـف يومين ، فـاشتد هلع الناس لخروجه في التوقف عن المعتاد ، ثم انه اندفع بقـوة قـوية وزيادات متداركة ، وجبال من المياة متدافعة فزاد ثماني اذرع في مـدة عشرة ايام منها ، ثلاث اذرع متوالية ، وانتهى في رابع توت وهـو الثـاني عشر من ذي الحجة الى سـت عشرة ذراعا تنقص اصـبعا واقـام يومين ثم اخذ ينحط متباطئا وينصرف رويدا .

فهذا ما قصد اقتصاصه من أحوال هذه الكائنة فليكن آخر المقالة ومنهى الكلام .

والحمد الله رب العالمين وصلى الله على سيد المرسلين محمد النبي الامي وعلى آله الطيبين الطـاهرين ، كتبـه مـؤلفه الفقير الى الله تعالى عبد اللطيف بن يوسف بن محمد البغدادي في رمضـان سـنة ستمائة بالقاهرة .

الباهر في الدولة الاتابكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ذي النعم الباهرة ، والآلاء الظاهرة ، والمنن الزاهرة ، الذي امتن على عباده (بالاهتداء)(١) ، وبتمليك الملوك وتامير الامراء ، فجعلهم سببا لكف القوي عن الضعيف ، والاخذ للمشروف من الشريف ، نحمده على ما انعم فأجزل ، وأحسن فأفضل ، ونصلي على (سيدنا محمد وعلى آله وصحبه) .

اما بعد : والذي غمرنا من إنعام هذه الدولة العزيزة القاهرة (٢) ، والايام الاتابكية الزاهرة ، وشملنا من إحسانها ، وانالتنا من عز سلطانها ، فقد اشتهر خبره ، وطاب مخبرة ، وطار ذكره في الافاق ، وتحدثت به الرفاق ، لم يخل من مبرة تسديها ، ونعمة توليها ، ودرجة في العلا ترفع بضبعنا اليها ، ومرتبة في الفخار تشرف بنا عليها ، وحالة من القرب تتضاءل دونها درجات المقربين ، ومنزلة من الوثوق بنا تقاصر عنها منازل المخلصين . وكان اكثر الموالى السعداء — قدس الله أرواحهم — إنعاما علينا ، وإحسانا إلينا ، المولى السعيد الملك العادل نور الدين ارسلان شاه(٣) رضي الله عنه وأرضاه ، وأكرم في الاخرة نزله ومثواه .

والبس الله هاتيك العظام وإن
بلين تحت الثرى عفوا وغفرانا
سقى ثرى أودعوه رحمة ملأت
مثوى قبورهم روحا وريحانا

فانه طال ما انعم علينا وأعطانا ، ووصلنا وحبانا ، وقربنا واصطفانا ، وإلى أعلى مراتب الكرامة أعلانا ، مازال يوالينا الجميل ، ويولينا الجليل ، ويقربنا الى حضرته العلية ، ويدنينا من سدته السنية ، وباسراره يخصنا ، ولمشورته يستخلصنا ، لم يخل يوما من بر رغيب ، وإنعام لنفاسته غريب ، وكان ما يمدنا به من

طوله بحرا ، يقذف بالغنى ، ويجود بما لايبلغه المنى . فلهـذا كانت حياتنا من سيب أنعمـه غدق الحياض ، مـونقة الرياض ، ولم نزل نقابل قديم إنعامهم وحـديثه بـاخلاص الدعاء ، وصـدق العبـودية والولاء ، وإظهار الشكر والثناء ، ونصحه بمحضه ، ونؤدى مسنونه ومفترضه . كل ذلك صادر عن نيات في العبودية صادقة ، وطويات في الولاء غير مماذقة . وكنت عازما على أن أدون أخبـارهم ، وأجمـع آثارهم ، وأذكر ما من الله سبحانه على الاسـلام والمسـلمين ومـا حفظ من ثغورهم بجلادهم ، وما صب بهم على الفرنج من العـذاب بايديهم ، وا ستنقذه من ممالكهم بجهادهم ، وأخلد محاسن اعمالهم على ممر الدهور ، وتعاقب السنين والشـهور ، جـزاء لاحسـانهم المستمر ، وطولهم الثابت المستقر ، وكانت الاعذار تحول بيني وبين ما أؤمله من هذا الغـرض ، والعـوائق تحيل جـواهر أمـكاني الى العرض ، ولما استاثر الله تعالى بالمولى السعيد نور الدين – تغمده الله الكريم برضوانه ، وأسكنه فسيح جنانه – وقام بالملك بعه ولده المولى المالك الملك القاهر العادل العـالم المؤيد المنصـور ، عز الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، ابو الفتح مسعود بن ارسلان شاه بن مسعود بن مـودود بـن زنكي بـن آقسـنقر ، ناصر أمير المؤمنين – نسب كأن عليه من شـمس الضـحى نورا ، ومـن فلق الصباح عمورا ، لازالت الاقدار جارية على وفق اختياره ، ومقتضى إيثاره ، ولابرحت الحوادث عن جنابـه الشريف مصروفـة ، وأعين الكوارث عن دولته القاهرة مطروفة – ومـلأ ذلك الدسـت ، وشرف ذلك الصدر ، وظهرت هذه الشمس بعد أفول ذلك البدر ، ولاغرو إذا أشبه الوالد الولد ، وقام الشبل في عزيمة الاسد :

وأنت من القوم الذين هم هم
إذا زال منهم سيد قام صاحبه
نجوم سماء كلما غاب كوكب
بدا كوكب تأوي إليه كواكبه
أضاءت لهم احسابهم ووجوههم
دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

- ٦٣٥٩ -

وما زال منهم حيث كانت مهالك

تسير المنايا حيث سارت كتايبه

وحيث كانت الحال هذه ، تجدد ذلك العـزم ، واحببـت أن أجلو مناقب الموالي الملوك السعداء من آبائه عليه ، وأزف عقيلة محاسنهم إليه ، وأذكر مـن مشـاهدهم في نصرة الدين ، وذبهـم عن حـوزة المسلمين ، ما انتهى اليه علمي ، وأثبته قلمي : شعر

أخبار قوم بذوا وما نقضوا

فالذكر يحيا وإن هم قبضوا

جادوا فما قصرت اكفهم

عن غاية في الندى ولا عرضوا

وانتهزوا فرصة التمكن إذ

تصوروا أن مكثها عرض

في دولة القاهر الملك عز الـ

دين عن كل من مضى عوض

قال : ليعلم قدر نعمة الله تعالى عنده أولا وآخرا ، ويقتدى بافعالهم واردا وصـادرا ، وليتيقنن أنه لم يكن لاحـد مـن الملوك المتقـدمين والخلفاء الراشدين ، منقبة دينية ودنيوية وتجربه في حفـظ الممـالك والرعايا شرعية وسياسية ، إلا وفي بيته الشريف ـ ثبت الله تعالى قواعده ، وشد من عزه معاقده ـ ما يضاهيها ، وظهـر عنهـم مـا يماثلها ويناويها ، « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضـل العظيم(٤) . لابل والله من قاس غيرهم بهم قاس الثمد الى البحر ، والمخشلب(٥) إلى الدر ، والهشيم بخضرة الربيع ، والارض الجرز (٦) بنضرة الروض المريع ، ولكان القائل إياهم أراد بقوله :

لم تحمل الارض ملوكا مثلهم

ولا اظلتها السماوات العلى

- ٦٣٦٠ -

معاد كل راغب وراهب
إذا أتى ديارهم ألقى العصى
لاينطق العوراء في ناديهم
ولا يحلون الى الجهل الحبى
لايصطلى بنارهم عند اللقا
ويصطلى بنارهم عند القرى
هم النجوم طالع وآفل
يعلولهم غرس إذا غرس ذوى
هم الجبال امتنعت أن ترتقى
هم البحور ليس يعلوها القذى
إن سئلوا لم يبخلوا أو عاهدوا
لم يغدروا أو ذكروا طاب الثنا

ونقلت أكثره عن والدي رحمه الله تعالى ، فانه كان راوية حسناتهم ، وعين الخبر بحركاتهم وسكناتهم ، وقد فاتني كثير مما سمعته منه ، لانني جمعت هذا القدر من حفظي بعد وفاته ، ولم أثبته بقلمي في حياته ، ومع هذا فانني تعمدت ترك الاكثار ، لميل الناس في زماننا الى الاختصار ، وابتدأت بذكر المولى الشهيد الكبير قسيم الدولة آقسنقر رضي الله عنه ، لانه اول من ملك منهم فيما علمناه ، وذكرت ما حضره من الحروب قبل ملكه وبعده ، وكذلك ولده المولى الشهيد عماد الدين زنكي قدس الله روحه ، ولم اذكر أحدا غير ملوك هذا البيت الشريف ، إلا وفاة خليفة واستخلاف آخر ، وموت سلطان سلجقي وولاية غيره ، إذ الضرورة تدعو إليه ، وبالله التوفيق وهو المستعان وهو حسبي ونعم الوكيل .

في ذكر ابتداء حال قسيم الدولة آقسنقر رضي الله عنه

قال صاحب التاريخ(٧) . كان قسيم الدولة تركيا من اصحاب

السلطان جــلال الدولة ركن الدين(٨) ملكشــاه بــن الب ارســلان واترابه ، وممن ربي معه في صغره وصحبه الى حين كبــره ، فلمــا افضت السلطنة بعد أبيه إليه ، وأفاضت تاجها عليه ، رعى لقســيم الدولة صحبته ، فجعله من اعيان امرائه ، وأخص أوليائه ، فصادف الاحسان أهله ، فرفع قدره واعلى محله ، واعتمد عليه الســلطان في مهماته ، وافضى اليه باسراره في خلواته وجلواته ، ووثق به وثــوقا حسده عليه سائر امرائه واجناده ، لما راى مــن شــجاعته وحــزمه وسداده ، وتقدم عنده تقــدما فــاق فيه ســائر الناس ، واختصــــه السلطان للقرب والايناس ، وزاد قدره علوا الى أن صار يتقيه مثل نظام الملك مع تحكمه على السلطان ، وتمكنه من المملكة بعلو المنصب وكثرة الاعوان ، فــاشار على الســلطان بــان يوليه مــــدينة حلب واعمالها ، ويحكمه في عساكرهــا وامــوالها ، ويضــيف إلى حــكمه غيرهــا من البلاد الشامية ، وكان قصده أن يتخــذ عند قســيم الدولة يدا ، ويبعده عن خدمة السلطان . ومن أعظم الدلائل على علو منزلته وسمو مرتبته لقبــه ، وهــو قســيم الدولة ، وكانت الالقــاب حينئذ مصونة لاتعطى الا لمستحقيها ، حتى ان الســلطان ـ مــع جــلالة قــدره ـ لم يكن يعــرف الا بجــلال الدولة ولم يكن لقبــــه في الدين مشهورا . وكان قسيم الدولة ايضا يقف الى جانب تخــت الســلطنة عن يمينه ولا يتقدمه احد ، وصار ذلك ايضا لعقبه من بعده . وهكذا كان سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي رضي الله عنهمــا يقــف

عند السلطان غياث الدين مسعود ، ولما توجه المولى الســعيد شرف الدين ابن المولى المعــظم قــطب الدين قــــدس الله روحهمــــا الى همذان ـ وبها حينئذ السلطان الب ارسلان بن طغرل بن محمــد ، واتابكه البهلوان ، هو أخو السلطان لأمه ، والبلاد له وبحكمه ليس للسلطان معه غير اسمه ـ وكان البهلوان يقف عن يمين التخــت ، فلما حضر شرف الدين انتقل البهلوان يقف عن يمين التخت ، فلمــا حضر شرف الدين انتقل البهلوان عن مقامة ، وقــال لشرف الدين : هذا لكم من قديم الزمان ليس لاحد غيركم أن يقف فيه مع حضوركم وكل هذا يدل على ماذكرناه من جلالة قدر قسيم الدولة وعلو محله ٠

-٦٣٦٢-

ذكر مسير قسيم الدولة

مع فخر الدولة بن جهير الى الموصل بـامر السـلطان ملكشاه

في سنة سبع وسبعين واربعمائة ، سير السلطان ملكشاه الوزير فخر الدولة بن جهير وزير الخليفة الى ديار بكر ليتملكها ويجلي عنها بني مروان على ما ذكرناه في المسـتقصى في التـاريخ ، وسـير عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير — وكان زوج ابنة نظـام الملك — الى الموصل ، وكانت لشرف الدولة مسلم بن قريش بن بـدران العقيلي ، وسير معه جيشا عظيما ، وجعل المقـدم على الجيش قسـيم الدولة اقسنقر ، وتقـدم الى عميد الدولة ليكون فعله في حـروبه وحصـاره برأي قسيم الدولة ، لمعرفته بتدبير الجيوش وحصر البلاد وشجاعته في حروبه كلها ، فساروا نحو الموصـل ، فلقيهـم في الطـريق الامير أرتق بن أكسب التركماني — جد ملوك الحصن (٩) ومـاردين يومنا هذا — ومعه خلق كثير من التركمان فـاستصحبوه معهـم — وكان مشهورا بالعقل والدين — فلمـا وصـلوا الى الموصـل حصروهـا وضيقوا على من بها وأرسل أرتق الى من بها يشير عليهم بـالدخول في طاعة السلطان وترك العصيان عليه ، وخوفهم عاقبـة فعلهـم إن امتنعوا واصروا على الخلاف ، فقبلوا نصحه واذعنوا له واطـاعوا وسلموا البلد ، فأخذ عميد الدولة ما كان به مـن مـال شرف الدولة وأهله وذخائره . وكان السلطان عازما على اخذ جميع البلاد التـي لشرف الدولة واستئصال ملك العرب ، فـأتاه الخبـر بخـروج اخيه تكش عن طاعته بخراسان واجتماع العساكر عليه ، فـارسل مـؤيد الملك بن نظام الملك الى شرف الدولة فطيب قلبـه ، وذكر له ان أبـاه نظام الملك قد شفع فيه الى السلطان فأجاب شفاعته ، وامره بالمسير معه الى خدمة السلطان ، فسار صحبته ولقي السـلطان بـالبوازيج (١٠) فخلع عليه ورد عليه الموصل وجميع ما اخذ له من اهل ومال ، وسار السلطان نحو خراسان فظفر باخيه .

ذكر ملك قسيم الدولة مدينة حلب وغيرها

كانت حلب لشرف الدولة مسلم وكانت انطاكية للروم قد ملكوها سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة . ولم يزالوا بها الى سنة سبع وسبعين وأربعمائة ، وكان صاحبها حينئذ روميا يسمى الفردروس (١١) فسار عنها الى بلاد الروم ، فكتب اهلها الى سليمان بن قتلش – وهو جد هذا الملك غياث الدين كيخسرو صاحب قونية وغيرها – وراسلوه ليحضر عندهم ليسلموا إليه أنطاكية ، فسار إليهم وتسلم البلد وملكه ، وقتل من أهله خلقا كثيرا ، وأخذ منهم مالا عظيما . وكان لشرف الدولة على صاحب أنطاكية الرومي جزية يأخذها منه كل سنة ، فلما ملك البلد سليمان ، أرسل إليه شرف الدولة يطلب منه ماكان يأخذه من الروم ، وتهدده وخوفه عاقبة ، معصية السلطان ، فأعاد الجواب : إنني في طاعة السلطان وهذا الفتح بسعادته ، والخطبة والسكة له في ، ولست بكافر حتى أعطيك ماكنت تأخذه من الروم ، فأعاد شرف الدولة الجواب يتهدده ويلزمه بالمال ، فأخذت سليمان الحمية فسار إلى بلد شرف الدولة ونهبه ، فقصده الذين نهبهم واستغاثوا إليه ، فقال لهم : صاحبكم أحوجني إلى مافعلته ، وإلا فليس من عادتي اخذ مال مسلم ورد عليهم ماأخذ منهم.فجمع شرف الدولة العرب والتركمان عن بكرة أبيهم وسار نحو أنطاكية ، فلقيه سليمان في أول أعمالها ممايلي حلب في صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، فاقتتلوا أشد قتال فانهزمت العرب والتركمان عن شرف الدولة فاضطر إلى الهزيمة فقتل منهزما وذاق عاقبة بغيه وكان ملكه من السندية بالعراق على نهر عيسى إلى منبج ومابينهما من البلاد الفراتية : كهيت ، والانبار وغيرهما ، وملك الموصل ، وديار ربيعة ، والجزيرة بأسرها ، وملك مدينة حلب . وكان عادلا حسن السيرة عظيم السياسة.ولما قتل شرف الدولة قصد سليمان مدينة حلب فحصرها فارسل اليه اهلها : اذا انفصل الامر بينك وبين تاج الدولة تتش ، سلمنا اليك البلد . وكان تاج الدولة له

مدينة دمشق ونواحيها قد اقطعه اياها اخوه السلطان ملكشاه ، وقد سار نحو حلب بعد قتل شرف الدولة ليملكها ، وكان معه أرتق بن أكسب – وقد اقطعه تاج الدولة البيت المقدس – فلما ارسل اهل حلب الى سليمان ماذكرناه ، سار نحو تاج الدولة فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا صبر فيه الفريقان ، وانجلت الحرب عن هزيمة عسكر سليمان ، وثبت هو فقتل . وسار تاج الدولة الى حلب فحصرها فملك المدينة وحصر القلعة ، فكاتب اهلها السلطان ملكشاه ليسلموها اليه وهو بالرها ، وكان سبب مسيره اليها ، ان ابن عطير النميري كان قد باعها من الروم بعشرين الف دينار وسلمها اليهم ، فدخلوها واخربوا المساجد واجلوا المسلمين عنها ، فسار ملكشاه اليها هذه السنة فحصرها وفتحها واقطعها الامير بزان ، فلما اتاه رسل اهل حلب بالتسليم اليه ، سار اليهم فلما بلغ خبر مسيره الى تاج الدولة رحل عن حلب الى دمشق ، ووصل السلطان الى حلب ، وبالقلعة سالم بن مالك بن بدران العقيلي – وهو ابن عم شرف الدولة – فسلمها الى السلطان بعد قتال ، واعطاه السلطان عوضا عنها قلعة جعبر ، وكان قد ملكها هذه السفرة من صاحبها جعبر القشيري وكان شيخا كبيرا أعمى ، فبقيت بيد سالم واولاده الى ان اخذها منهم الملك العادل نور الدين ابو القاسم محمود بن زنكي رضي الله عنهما ، على مانذكره ان شاء الله تعالى . فلما ملك السلطان حلب ، ارسل اليه الامير نصر بن علي بن المقلد بن منقذ الكناني صاحب شيزر ر ودخل في طاعته وسلم اليه لاذقية ، وفامية ، وكفر طاب فاجابه ملكشاه الى الصلح وترك قصده .

ثم إن نظام الملك اشار على السلطان بتسليم حلب واعمالها ، وحماه ، ومنبج ، ولاذقية ، ومامعها الى قسيم الدولة اقسنقر فأقطعه الجميع ، فبقيت بيده الى ان قتل سنة سبع وثمانين واربعمائة ، على مانذكره ان شاء الله تعالى .

واقطع السلطان مدينة انطاكية ياغي سيان ، وهو صاحب صلاح

الدين محمد الياغسياني الذي صار امير حاجب المولى الشهيد عماد الدين زنكي .

ولما استقر قسيم الدولة في الشام ، ظهرت كفايته وحمايته وهيبته في جميع بلاده ، وان السلطان استدعاه الى العراق فقدم اليه في تجمل عظيم لم يكن في عسكر السلطان من يقاربه ، فاستحسن ذلك منه ، وعظم محله عنده ، ثم أمره بالعود إلى حلب فعاد إليها ، ولما مات السلطان ملكشاه سير قسيم الدولة جيشا الى تكريت فملكها •

معرفة حسنة

يذكر اهل التواريخ انه ليس من مشهور العرب من قتل هو وابوه وجده وجد أبيه ، غير عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد ، فان عبد الله قتله الحجاج ، والزبير رضي الله عنه قتل يوم الجمل ، وقتل العوام وخويلد في الجاهلية ، وليس مشهور الترك من هو هكذا ، غير قليج ارسلان فقد قتله جاولي سقاووا بالخابور غريقا ، وهذا سليمان قتله تاج الدولة تتش كما ذكرناه . واما ابوه قتلمش بن ارسلان يبغو بن سلجق فقتله صاحب مدينة استوا (١٣) لانه جمع خلقا كثيرا من الاتراك وخرج عن السلطان الب ارسلان ، فلقيه صاحب استوا فقاتله ، فانهزم قتلمش وسقط عن فرسه فمات . واما ابوه ارسلان يبغو بن سلجق ، فان صاحب غزنة من اولاد محمود بن سبكتكين (١٤) اخذه فقتله ، واخذ ابن قتلمش حتى خلصه الملك داود والد السلطان الب ارسلان لما ملك خراسان .

ذكر قتل نظام الملك وزير السلطان ملكشاه رحمه الله

في عاشر رمضان سنة خمس وثمانين واربعمائة ، قتل الوزير نظام الملك ابو علي الحسن بن اسحاق ، قتله صبي ديلمي بعد الافطار ،

وقد تفرق عن طعامه الفقهاء والامراء والفقراء وغيرهم من اصناف الناس ، وحمل في محفة لذقرس كان به الى خيمة الحرم ، فلقيه صبي ديلمي مستغيثا به فقربه منه ليسمع شكواه فقتله ، وقتل الصبي ايضا ، فعدمت الدنيا واحدها الذي لم تر مثله . وكان تلك الليلة قد حكى له بعض الصالحين ، انه رأى النبي صلى الله وعليه وسلم في المنام كانه أتاه واخذه من محفته ، فاستبشر نظام الملك بذلك ، واظهر السرور به ، وقال : هذا أبغي واياه اطلب ، وبلغ من الدنيا مبلغا عظيما لم يذله غيره .

وكان عالما ، فقيها ، دينا ، خيرا ، متواضعا عادلا يحب اهل الدين ويكرمهم ويجزل صلاتهم . وكان اقرب الناس منه واحبهم اليه العلماء ، وكان يناظرهم في المحافل ، ويبحث عن غوامض المسائل ، لانه اشتغل بالفقه في حداثته مدة .

واما صدقاته ووقوفه فلا حد لها ، ومدارسه في العالم مشهورة ، لم يخل بلد من شيء منها ، حتى جزيرة ابن عمر - التي في زاوية من الارض لايؤبه لها - بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة ، وهي الان تعرف بمدرسة رضي الدين .

واعماله الحسنة ، وصنائعه الجميلة مذكورة في التواريخ ، لم يسبقه من كان قبله ولاادركه من كان بعده ، رحمه الله ورضي عنه .

وكان من جملة عباداته انه لم يحدث الا توضا ، ولاتوضأ الا وصلى.
وكان يقرأ القرآن حفظا ، ويحافظ على اوقات الصلوات محافظة لايتقدمه فيها المتفرغون العبادة ، حتى انه اذا اغفل المؤذن أمره بالاذان ، واذا سمع الاذان امسك عن كل ماهو فيه ، واشتغل باجابته ثم الصلاة .

واما ابتداء امره ، فانه كان يحب التصرف ، فاتصل بامير كان صاحب بلخ يعرف بالامير ياخر - وكان مقدم عسكر الملك جغري

بك داود جد السلطان ملكشاه – وكان ياخر لايعطيه الا مايقوم بـه حسب ، وفي اخر كل سنة يصادره بما يفضل معه فضجر من هذه الحال ، واخفى اولاده – وكان له فخر الملك ومـؤيد الملك – وركب فرسه وهرب . وكان فرسه بطيئا ، فدعا الله تعالى ان يرزقه فـرسا يخلصه عليه ، فلم يسر الا قليلا حتى لقيه تركماني تحته فـرس جيد فسلمه اليه واخذ فرسه عوضه ، وقال له : ياحسن اذكر هذه . قـال نظام الملك : فلما ركبت الفرس قويت نفسي ، وعلمت ان السعادة قـد جـاءت ، ووصـلت الى مـرو ، ودخلت على الملك داود فـاخذ بيدي وسلمني الى و لده الملك عضد الدولة الب ارسـلان وقـال : تسـلمه واتخذه والدا لاتخالفه • ثم ان الامير ياخر سأل عني فلم يجدني واخبر بهربي ، فسار بنفسه في طلبـي حتـى دخـل على الملك داود فطلبني منه ، وقال : اخذ مالي وهرب ، فقال له داود : حـديثك مـع ولدي ألب أرسـلان ، فلم يجسر يخـاطبه فيه . ووزر نظـام الملك السلطان الب ارسلان قبل ان يلي السلطنة في حياة عمـه السـلطان طغرلبك ، فلما توفي طغرلبك سـعى نظـام الملك في أخـذ السـلطنة لصاحبه الب ارسـلان ، وقـام المقـام الذي تعجـز عنه الجيوش والكثرة ، واستقرت السلطنة له ، وبقي معه الى ان تـوفي . ثـم وزر بعده لابنه السلطان ملكشاه الى ان قتل . وكان قد تحكم عليه الى حد لايقدر السلطان على خلافه لكثرة مماليكه ومحبة الامراء والعسـاكر له ، وميل عامة الناس وخاصتهم اليه بحسن سيرته وعدله.

ذكر وفاة السلطان ملكشاه بن ألب أرسـلان رضي الله عنه

في منتصف شوال سنة خمس وثمانين واربعمائة توفي السلطان ركن الدين ملكشاه رضي الله عنه . وسبب وفاته انه اكل لحم صيد فـاكثر منه ، فأخذته حمى حادة فتوفي منها (١٥) وكان مولده في جمادى الاولى سنة سبع واربعين واربعمائة ، فكان عمره ثمـانيا وثـلاثين سنة وستة اشهر . وكان ملكه نحو عشرين سنة .

وكان احسن الناس صورة ومعنى ويكفيه ان من جملة حسناته ، نظام الملك ، وكانت سعادتهما متقاربة . حكى لي والدي رحمه الله تعالى - ثم اني رأيت ماحكاه بعد ذلك مذكورا في كتب التاريخ - قال : ان السلطان ملكشاه عتب على نظام الملك في شيء فعله بعض أولاده ، وقال له في جملة عتبه : ان كنت شريكي في الملك فعرفني ، وان كنت وزيري فاسلك مايسلكه الوزراء والا طبقت دواتك وعزلتك ، فقال للرسول : قل للسلطان عني : ان كنت ماتعلم انني شريك فاعلم ، واذكر مافعلت معك حين خرج عليك اعمامك واخوتك ونازعوك في الملك وكادوا يقهرونك ، فتوليت ردهم بنفسي ، وقمت المقام الذي تعلمه حتى صفا لك الملك والسلطنة ، وذكر له عدة مواقف جزع فيها ملكشاه وخاف ، فردها نظام الملك بالرأي والحرب ، فان كان هذا كلامه ذلك الوقت . واما قوله انه يطبق الوقت دواتي فقل له : اعلم ان هذه الدواة متعلقة بزر قلنسوته التي على رأسه ، فمتى اطبق هذه سقطت تلك.فيقال ان هذا كان سبب قتل نظام الملك ، وان السلطان وضع ذلك الديلمي حتى قتله ، وصح قول نظام الملك ، لما طبقت دواته لم يعش السلطان غير خمسة وثلاثين يوما ومات . وكان هذا كالكرامة لنظام الملك .

وكانت مملكة السلطان ملكشاه قد اتسعت اتساعا عظيما ، اطاعته البلاد جميعها وملكها ، وخطب له من حدود الصين الى الداروم من ارض الشام ، واطاعه اليمن والحجاز ، وكان يأخذ خراج ملك القسطنطينية كل سنة ، واطاعه صاحب طراز واسبيجاب ، وكاشغر ، وبلاساغون وغيرهما من الممالك البعيدة ، وملك سمرقند وجميع ماوراء النهر . ثم ان صاحب كاشغر عصى عليه فسار السلطان اليه ، فلما قارب كاشغر هرب صاحبها منه فسار في طلبه ، ولم يزل حتى ظفر به واحسن اليه واستصحبه معه الى اصفهان .

وعمل السلطان من الخيرات وابواب البر كثيرا ، منها مااصلحه وعمله من المصانع بطريق مكة ، وحفر من الانهار ، وبنى مدرسة عند قبر الامام ابي حنيفة رضي الله عنه ، وبنى الجامع الذي بظاهر بغداد عند دار السلطنة . وهو الذي بنى منارة القرون في طرف البر

ثم سار الى نصيبين فحصرها ، فسبه اهلها ففتحها عنوة وقهـرا ، وقتل بها خلقا كثيرا ، واستناب بها محمد بن شرف الدولة العقيلي .

وراسل ناصر الدولة ابراهيم بن قريش بن بدران – وهو صـاحب الموصل حينئذ – يأمره بالخطبة له وان يعطيه طـريقا الى بغـداد ، فامتنع عليه ، وسار كل واحد منهما الى صاحبه ، فالتقيا بـالمضيع مـن بلد الموصـل ، وكان على ميمنة تـاج الدولة ، قسـيم الدولة اقسنقر ، وعلى ميسرته بوزان ، فحملت العرب على بوزان فانهزم ، وحمل قسـيم الدولة على العـرب ممـا يليه فهـزمهم ، أسر ابراهيم وجماعة من أمراء العرب ، فقتلهم تاج الدولة صـبرا وملك بلادهم جميعها ، الموصل وغيرهما .

وسار في ربيع الآخر من هذه السنة الى ميافارقين فملكهـا وسـائر بلاد ديار بكر .

ثم سار منها الى اذربيجان فقصـده الملك ركن الدين بـركياروق – وكان قد ملك كثيرا من البلاد منها : الري وهمذان ومابينهما – فلما تقارب العسكران ، قال قسيم الدولة لبوزان : انما اطعنا هذا الرجل لننظر مايكون من أولاد صـاحبنا ، والان فقـد ظهـر بـركياروق ، والرأي والمروءة تقتضي بأننا نقصده ونكون معه ، ففارقا تاج الدولة وسارا إلى بركياروق وصار معه ، فلما رأى تاج الدولة ذلك ، رجـع الى الشام ، وأقام قسيم الدولة عند بركياروق ، فخـرج عليه خـاله اسماعيل بن ياقوتي ثم اطاعه ، فخـلا بـه قسـيم الدولة وبـوزان وبسطوه في الحديث فاعلمهم انه يريد السـلطنة وقتـل بـركياروق ، فوثبا عليه فقتلاه محافظة على صاحبهما ، ثـم امـرهما ركن الدين بالعود الى الشام ليمنعا تاج الدولة عن البلاد ان قصدها فعادا .

مما يلي الكوفة بمكان يعرف بالسبيع وبنى مثلها بسمر قند ايضا . ولما مات ضبطت زوجته تركان خاتون العسكر ، وكتمت موته فلم يلطم احد وجها ، ولم يشق عليه ثوب ، ولم يسمع بسلطان مثله توفي فلم يصل احد عليه . ولم يجلس اصحابه للعزاء سواء . وارضت زوجته العسكر وحلفتهم لولدهما محمود ، وعمره اربع سنين ، وسارت الى اصفهان .

وظهر الملك بركياروق بن ملكشاه ـ وهو الاكبر ـ فطلب السلطنة فأخذها وتوفي محمود . ثم ظهر السلطان محمد بن ملكشاه ، فنازع اخاه بركياروق ، وجرت بينهما حروب كثيرة دامت حوالي اثنتي عشرة سنة ، الى ان توفي بركياروق واستقرت السلطنة لمحمد .

وفي مدة تلك الحروب ظهر الفرنج الى الساحل ، وملكوا انطاكية اولا ثم غيرها من البلاد ، وقد استوفينا ذلك في المستقصى في التاريخ

ذكر صلح قسيم الدولة اقسنقر

وتاج الدولة تتش بن الب ارسلان وما شهده من الحروب معه

قد ذكرنا ان السلطان ملكشاه كان قد اقطع اخاه تاج الدولة مدينة دمشق واعمالها وماجاورها كطبرية والبيت المقدس وغيرهما ، فلما توفي ملكشاه واختلف اولاده وهم صغار ، جمع تاج الدولة العساكر وسار نحو حلب وبها قسيم الدولة اقسنقر ، فعلم قسيم الدولة ان اولاد صاحبه صغار ، وان الملك لايستقيم لهم لصغرهم وللخلف الواقع بينهم ، ولم يكن له طاقة بتاج الدولة ، فصالحه وخطب له بحلب ، وراسل نور الدين بوزان صاحب حران وياغي سيان صاحب انطاكية يشير عليهما بطاعة تاج الدولة فملكها ، وخطب لنفسه بالسلطنة في محرم سنة ست وثمانين واربعمائة .

- ٦٣٧١ -

ذكر وفاة امير المؤمنين المقتدى بامر الله وولاية ابنه المستظهر بالله

في المحرم من سنة سبع وثمانين واربعمائة ، توفي الامام المقتـدي بامر الله امير المؤمنين رضي الله عنه فجأة . واسمه ابو القاسم عبد الله بن الامير محمد بن القائم بامر الله . وعمره تسع وثلاثون سـنة وثمانية اشهر وسبعة ايام .

وكانت خلافته تسع عشرة سنة وخمسة اشهر .
وانشأ ببغداد عدة محال ، منها : البصلية ، والبساتين التـي كانت بباب الازج ، والحلبة ، والاجمة ، ودرب القيار ، والمقتدية ، وخرابة ابن جردة ، والخاتونية .

وهو استوزر فخر الدولة ابا نصر محمد بن محمد بـن جهير ، وهـو من الموصل .

وكانت خلافته بعهد من جده القائم بـامر الله امير المؤمنين ، وامـه تركية .
وكان لين الجانب ، كثير الحلم . وعاش وادعا مرفها .

وتوفي وقد علم على منشور السلطان بركياروق بـالسلطنة . وكتمـت القهر مانة شمس النهـار مـوته ، واحضرت الوزير واعيان الدولة وجددت البيعة لولده ابي العبـاس احمـد المسـتظهر بـالله امير المؤمنين ، فلما بايعوا اظهرت وفاة المقتدي .

ولما بويع المستظهر بالله ارسـل الى السـلطان بـركياروق لاخـذ البيعة ــ وكان ببغداد ــ فانفذ بركياروق وزيره عز الملك بن نظام الملك والامير برسق وكوهرائين شحنة بغداد ، فبايعوا ، ثـم بـايع هو ، فلما تمت بيعة السلطان احضر الغزالي والشاشي وغيرهما من

العلماء فبايعوا . ثم ارسل الى غرنة ، وماوراء النهـر ، وكرمـان ، والشام لاخذ البيعة .
ولما استخلف اقر عميد الدولة بن جهير على وزارته .

ذكر نسب المستظهر بالله

هو المستظهر بالله ابو العباس أحمد بـن المقتـدي بـأمر الله أبـي القاسم عبد الله بن الأمير الذخيرة محمد بن القائم بـأمر الله أبـي جعفر عبد الله بن القادر بالله أبي العباس أحمد بن الأمير أبي أحمد الموفق بن المتوكل على الله أبي الفضل جعفـر بـن المعتصـم أبـي اسحاق بن محمد الرشيد أبي جعفر هارون بن المهدي أبي عبـد الله محمد بن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبـد الله ابن العباس بن عبـد المطلب رضي الله عنهـم ، بينه وبين العبـاس عشرة خلفاء ووليا عهد ، وأربعة لم يلوا الخلافة ولا ولاية العهد .

فاما الخلفاء : فـالمقتدى ، والقـائم ، والقـادر ، والمقتـدر ، والمعتضد ، والمتوكل ، والمعتصم ، والرشيد ، والمهدي ، والمنصور .
واما وليا العهد : فالذخيرة محمد بن القائم — وهو والد المقتدي بامر الله — والموفق الناصر لدين الله ابو احمد بن المتوكل — وهو جد المقتدر بالله .

واما الذين لم يلوا الخلافة ولا ولاية العهـد : فـاسحاق — والد القادر بالله — ، ومحمد — والد المنصور — ، وابوه علي ، وعبد الله بن العباس .

وقد ولي الخلافة من بنى العباس من غير اباء المسـتظهر سـبعة عشر خليفة ، وهم : ابو العباس عبد الله بن محمد السـفاح — اول خلفاء بني العباس — ، والهادي موسى بن المهدي ، والامين محمـد والمأمون عبد الله ابنا الرشيد ، والواثق — وهو أخو المتوكل . ثـم

المستعين بالله احمد بن محمد بن المعتصم - وهو ابن اخي المتوكل - ثم المهتدي محمد بن الواثق بن المعتصم. وولي المكتفي علي بن المعتضد بالله وأخوه القاهر بالله. ثم ولي الراضي بالله أبو العباس أحمد بن المقتدر بالله، وأخوه المتقي بالله أبو إسحاق إبراهيم. ثم ولي المكتفي بالله عبد الله بن المكتفي بالله بن المعتضد بالله. ثم ولي المطيع لله ابو القاسم الفضل، وولده الطائع لله ابو بكر عبد الله.

ذكر قتل قسيم الدولة آقسنقر رضي الله عنه

في جمادى الأولى من سنة سبع وثمانين وأربعمائة، قتل قسيم الدولة آقسنقر وبوزان صاحب حران. وكان سبب قتلهما، ان تاج الدولة تتش لم يزل يجمع العساكر بعد عوده من اذربيجان الى الان، فكثر جمعه، وعظم حشده، وسار عن دمشق نحو حلب، فاجتمع قسيم الدولة وبوزان وامدهما السلطان ركن الدين بركياروق بالامير كربوقا - وهو الذي صار فيما بعد صاحب الموصل - فلما اجتمعوا وبلغهم مسير تاج الدولة عن دمشق، تقدموا نحوه والتقوا برويان على نهر سبعين بالقرب من تل السلطان، بينه وبين حلب نحو ستة فراسخ، واقتتلوا واشتد القتال، فخامر بعض عساكر قسيم الدولة وانهزموا وتبعهم الباقون، وثبت قسيم الدولة فاخذ أسيرا وأحضر عند تاج الدولة، فقال له: لو ظفرت بي ماكنت صنعت. قال: كنت اقتلك. قال: فانا احكم عليك بما كنت تحكم علي فقتله صبرا. وسار نحو حلب، وكان قد دخل اليها الامير كربوقا وبوزان فحفظاها منه، ولج في قتالها حتى ملكها واخذهما اسيرين، وأرسل الى حران والرها ليملكهما - وكانتا لبوزان - فامتنع من بهما من التسليم لبوزان اليه - فقتل بوزان وأنفذ رأسه وتسلم البلدين. واما كربوقا فانه أرسله الى حمص فسجنه بها إلى أن أخرجه الملك رضوان بعد قتل ابيه تاج الدولة.

وكان قسيم الدولة أحسن الأمراء سياسة لرعيته وحفظا لهم . وكانت بلاده بين عدل عام ، ورخص شامل ، وامن واسع ، وكان شرط على أهل كل قرية في بلاده ، متى اخذ عند احدهم قفل او احد من الناس ، غرم أهلها جميع مايؤخذ من الأموال من قليل وكثير ، فكانت السيارة إذا بلغوا قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا ، وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا ، فأمنت الطرق ، وتحدث الركبان بحسن سيرته .

واما وفاؤه وحسن عهده فيكفيه فخرا انه قتل في حفظ بني صاحبه وولي نعمته .

ذكر حال ولده عماد الدين زنكي بعد والده رضي الله عنهما

لما قتل قسيم الدولة اقسنقر ، لم يخلف من الاولاد غير ولد واحد ، وهو المولى الشهيد عماد الدين زنكي ، وكان حينئذ صبيا له من العمر نحو عشر سنين ، فاجتمع عليه مماليك والده واصحابه ،وفيهم زين الدين علي ، وهو صبي ايضا .

ثم ان الامير كربوقا خلص من السجن بحمص بعد قتل تاج الدولة سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، وتوجه الى حران ـ وقد اجتمع معه عسكر صالح ـ فملكها . ثم صار الى نصيبين فملكها ايضا . ثم الى الموصل فملكها وازال عنها علي بن شرف الدولة العقيلي ، فانه كان مالكا لها وسار نحو ماردين فملكها ايضا .

وعظم شأنه وهو في طاعة ركن الدين بركياروق فلما ملك البلاد احضر مماليك قسيم الدولة اقسنقر وامرهم باحضار عماد الدين زنكي . وقال : هو ابن أخي وأنا أولى الناس بتربيته فأحضروه عنده ، فاقطعهم الاقطاعات السنية وجمعهم على عماد الدين زنكي ،

واستعان بهم في حروبه وكانوا من الشجاعة في أعلى درجاتها ، فلم يزالوا معه .

ثم ان كربوقا توجه إلى آمد وصاحبها من امراء التركمان ، فاستنجد صاحبها بمعين الدولة سقمان بن أرتق - جد صاحب الحصن يومنا هذا - ، فجمع من التركمان خلقا كثيرا وسار نحو امد وتصاف هو وقوام الدولة كربوقا ، فرأى كثرة التركمان فخافهم ، فاخذ عماد الدين زنكي وألقاه بين مماليك والده ، وقال لهم : قاتلوا عن ابن صاحبكم ، فحينئذ اشتد قتالهم وحمى الوطيس فهزموا سقمان وأسروا ياقوتي ابن أخيه ، فحبسه كربوقا ثم أطلقه • وكان هذا أول مصاف حضره الشهيد عماد الدين زنكي بعد قتل والده . ولم يزل عماد الدين مع كربوقا الى ان توفي سنة اربع وتسعين واربعمائة .

وملك بعده موسى التركماني من اصحابه ، فلم تطل ايامه وقتل . وملك الموصل شمس الدولة جكرمش - وهو ايضا من مماليك السلطان ملكشاه واخذ الشهيد عماد الدين وقربه واحبه ، واتخذه ولدا لمعرفته بمكانة والده ، فبقي الى ان قتل سنة خمسمائة . ولاجرم ان الشهيد قدس الله روحه ، رعى هذا لجكرمش لما ملك الموصل وغيرهما من البلاد ، فانه أخذ ولده ناصر الدين كوري ، فاكرمه وقدمه واقطعه اقطاعا كثيرا ، وجعل منزلته أعلى المنازل عنده واتخذه صهرا .

ثم ملك الموصل بعد جكرمش جاولي سقاووا فاتصل به عماد الدين زنكي وقد كبر فظهرت عليه امارات السعادة والشهامة ، ولم يزل معه حتى عصى على السلطان محمد ، وكان جاولي قد عبر الى الشام ليملكه من الملك رضوان ، فأرسل السلطان الى الموصل الأمير مودود وأقطعه أياها سنة ثنتين وخمسمائة، فلما اتصل الخبر بجاولي فارقه الشهيد وغيره من الأمراء ، وفيهم الأمير التونتاش الأبري ، وهذا كان سبب المعرفة بينه وبين الشهيد ، فلما ملك

أكرمه وأعظمه وأكثر اقطاعه ، فحكى لي والدي قال : كنت أراه الى جانب المولى الشهيد لايتقدم عليه أحد من الأمراء ، وله عقب بالموصل الى الآن في خدمة الدولة القاهرة .

فلما استقر الأمير مودود بالموصل ، واتصل به الشهيد عماد الدين عرف له ذلك ، مضافا الى منزلة أبيه ، ولما رأى منه من العقل والشجاعة ، فزاد في اقطاعه وشهد معه حروبه ، فمما بلغني منها ، ان الأمير مودودا سار الى الغزاة بالشام ففتح في طريقه قلاعا من شبختان وكانت للفرنج وقتل من بها منهم ، ثم سار الى الرها فحصرها ولم يقدر على فتحها ، وكانت عقيلة ومكرمة وفضيلة قد ادخرها الله سبحانه وتعالى للمولى الشهيد .

فاستوضحت سبل الآمال حايدة
عن الملوك الى أعلاهم حسبا

ابهرهم فضلا ، أغمرهم بذلا
أفخرهم أبدا فعلا ومنتسبا

أشم أشوس مضروبا سرادقه
على الممالك مرخى دونها الحجبا

ممتنع العز ، معمور الفناء به
مظفر العزم ؛ والآراء منتخبا

من معشر طالما شبوا بكل وغى
نارا يظل أعاديهم لها حطبا

ثم ان الأمير مودودا رحل عنها وعبر الفرات الى الشام ، فحصر تل باشر خمسة وأربعين يوما ولم يبلغ منها غرضا ، ثم سار عنها الى معرة النعمان فحصرها ، وجاء اليه الأمير طغدكين صاحب

دمشق ، فلما رأى كثرة عسكره خاف ان يأخذ منه دمشق فشرع في صلح الفرنج سرا من مودود فصالحوه ، وكانوا قد ضعفوا عن قتال المسلمين لكثرتهم فان السلطان محمدا ، كان قد أمد الأمير مودودا بعسكر مقدمهم الأمير سكمان القطبي صاحب تبريز وغيرها ، فمرض سكمان واشتد مرضه فعاد ، فأدركه الموت ببالس فأخذ اصحابه تابوته وقصدوا بلاده ، فاعترضهم إيلغازي بن أرتق ليأخذهم ، فصافوه وجعلوا تابوت سكمان في القلب كما كان حيا ، وقاتلوا فظفروا ، وانهزم ايلغازي وعادوا الى بلادهم .

فلما رأى مودود تفرق العساكر ، وصلح طغدكين للفرنج ضعفت نفسه وعاد عن الفرنج ، ولم يكن في عسكره من ظهر اسمه غير الشهيد ، وأذن لعسكره في العود والاستراحة ثم الاجتماع لقتال الفرنج فتفرقوا .

وراسل مودود طغدكين وأصلحه وجمع العساكر وعاد الى الشام ، وحضر عنده اتابك طغدكين وساروا جميعا الى طبرية وحصروها وقاتلوها قتالا شديدا وظهر من أتابك الشهيد رضي الله عنه شجاعة لم يسمع بمثلها فمنها : أنه كان في نفر وقد خرج الفرنج من البلد ، فحمل عليهم هو ومن معه ، وهو يظن انهم يتبعونه فتخلفوا عنه وتقدم وحده ، وقد انهزم من بظاهر البلد من الفرنج فدخلوا البلد ، ووصل رمحه الى الباب فأثر فيه وقاتلهم عليه ، وهو ينتظر وصول من كان معه ليقاتلوا الفرنج ويتقدم باقي العسكر فيملكون البلد ، فحيث لم ير أحدا حمى نفسه وعاد سالما ، فعجب الناس من اقدامه اولا ومن سلامته آخرا ، وهذه الحادثة مشهورة بالشام لاسيما عند الفرنج .

وجمع الفرنج فرسانهم ورجالتهم وملوكهم وقمامصتهم ، فيهم الملك بردويل صاحب القدس ، وعكا وصور وغيرها ، وجوسلين صاحب تل باشر والرها وغيرها ، فتصافوا ثالث عشر محرم (سنة ٥٠٧) عند بحيرة طبرية ، فظفر المسلمون وانهزم

الفرنج لعنهم الله . ووصلوا الى مضيق دون طبرية فاجتمعوا به ولم يكن فيه سعة ، فتبعهم المسلمون ، فلما كان من الغد وصل الى الفرنج عسكر قوي من انطاكية وغيرها ، فقويت نفوسهم واحتموا ، وحصرهم المسلمون وهم على رأس جبل والمسلمون في الغور ، وصابروهم ستة وعشرين يوما ، وا شتد الحر على المسلمين لمقامهم في الغور ، فرحلوا نحو بيسان ، فنزل اليهم الفرنج وتوا قفوا خمسة ايام ، وانقطعت المادة عن المسلمين لبعدهم عن بلادهم ، فعادوا الى مرج الصفر ، وأذن الأمير مودود للعسكر في الرجوع الى بلادهم والاجتماع اليه في الربيع ، فلما تفرقوا دخل دمشق وأقام بها ، فخرج يوما يصلي الجمعة، فلما صلاها وخرج الى صحن الجامع ويده بيد طغدكين ، وثب عليه انسان فضربه بسكين معه فجرحه أربع جراحات وكان صائما فحمل إلى دار طغدكين وأجتهد به ليفطر فلم يفعل ، وقال : لالقيت الله الا صائما فإنني ميت لامحالة سواء أفطرت أو صمت ، وتوفي في بقية يومه رحمه الله .فقيل ان الباطنية بالشام خافوه فقتلوه ، وقيل بل خافه طغدكين فوضع عليه من يقتله .

وكان خيرا عادلا حسن السيرة ، فحدثني والدي رحمه الله تعالى قال : كتب ملك الفرنج الى طغدكين يقول له : ان أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها ، لحقيق على الله أن يبيدها فلما قتل الأمير مودود ، أقطع السلطان محمد الموصل وغيرها للأمير جيوش بك ، وسير معه ولده الملك مسعودا الى الموصل ، ثم انه جهز آقسنقر البرسقي في العساكر وسيره الى قتال الفرنج ، وكتب الى عساكر الموصل وغيرها يأمرهم بالمسير معه ، فساروا وفيهم الشهيد عماد الدين زنكي ، وكان يعرف في عساكر العجم بزنكي الشامي ، وكان قد ظهر عنه من الشجاعة مالا يوصف ، ولاسيما بعد مافعله بطبرية ، فلما اجتمعت العساكر على البرسقي ، سار الى الرها في خمسة عشر الف فارس ، فحصرها وقاتل من بها من الفرنج والأرمن ، فضاقت الميرة عن العسكر ، فرحل الى سميساط وهي ايضا للفرنج ، فأخرب بلدها وبلد سروج وعاد الى شبختان

فأخرب ما فيه الفرنج ، وأبلى عماد الدين زنكي في هذه المواقف كلها بلاء حسنا ، وعادت العساكر تتحدث بما فعله عماد الدين وماظهر له من الشجاعة ، وعاد البرسقي الى بغداد ، وأقام عماد الدين بالموصل مع الملك مسعود والأمير جيوش بك الى سنة اربع عشرة وخمسمائة ، وقد علا قدره وظهر اسمه .

وفي سنة احدى عشرة وخمسمائة (ولد الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله) (١٧) .

قال : وفيها غرقت سنجار من سيل المطر وهلك منها خلق كثير ، ومن أعجب مايحكى ان السيل حمل مهدا فيه طفل ، فعلق المهد في شجرة ونقص الماء ، فسلم ذلك الطفل ، وغرق غيره من الماهرين بالسباحة .

وفيها ايضا زلزلت اربل وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلة عظيمة .

ذكر وفاة السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه وجلوس ولده مغيث الدين محمود في السلطنة

في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة احدى عشرة وخمسمائة ، توفي السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه وكان مرضه في شعبان من هذه السنة ، وكان مرضه السل ، فلما كان يوم النحر جلس للناس تجلدا ، وكانت الأراجيف قد كثرت وأكل الناس الطعام بحضرته ثم ضعف بعد ذلك ، فلما كان في اليوم الثالث والعشرين من ذي الحجة ايس من نفسه ، فأحضر ولده الملك محمودا ــ وكان عمره حينئذ أربع عشرة سنة ــ فلما رآه قبله وبكى ، فبكى ولده ، فأمره ان يجلس على تخت السلطنة وينظر في أمور الناس ، فقال : انه يوم غير مبارك ــ يعني من طريق النجوم ــ فقال : صدقت ، ولكن على ابيك ، وأما عليك فمبارك هو

بالسلطنة ، فخرج وجلس على التخت ، ولبس التاج ، وتوفي السلطان محمد من ليلته ، وأظهرت وفاته من الغد ، وقرئت وصيته على ولده يأمره بالعدل والاحسان ، وكان مولد السلطان محمد ثامن عشر شعبان سنة أربع وسبعين وأربعمائة ، وكان عمره سبعا وثلاثين سنة وأربعة أشهر وستة أيام ، وأول ماخطب له بالسلطانة ببغداد في ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، وقطعت خطبته عدة مرار ، ولقي من المشاق والأخطار مالم يلقه أحد ، الى أن توفي أخوه السلطان ركن الدين بركيارق فحينئذ استقرت له السلطنة وصفت له ، ودانت البلاد وأصحاب الأطراف لطاعته، وكان اجتمع الناس عليه بعد موت أخيه اثنتي عشرة سنة وستة اشهر .

وكان عادلا حسن السيرة ، شجاعا ، واطلق المكوس والضرائب في جميع البلاد ، ومن عدله انه اشترى عدة مماليك من بعض التجار وأمر أن يوفى الثمن من عامل خوزستان ، فأوصل البعض ومطل بالباقي ، فحضر التاجر مجلس الحكم ، وأخذ غلام الحاكم ووقف بطريق السلطان واستغاث اليه ، فأمر من يستعلم حاله ، فلما سأله عن حاجته ذكرها له ، وأعلمه أنه قد حضر مجلس الحكم وأخذ غلام الحاكم ووقف بطريق السلطان ليطالب بماله، فعاد الحاجب وأعلم السلطان حاله ، فعظم عليه وضاق صدره ، وأمر في الحال ان يحضر عامل خوزستان ، ويلزم بمال التاجر ، وألزمه مصادرة على ذلك لئلا يمطل هو ولا غيره بمال يحال عليهم ، ثم انه ندم على تأخره عن مجلس الحكم وكان يقول كثيرا : لقد ندمت على تركي الحضور بمجلس الحكم ، ولو فعلته لاقتدى بي غيري ، ولم يمتنع أحد عن اداء الحق ، وهذه الفضيلة ايضا مما دخرها الله تعالى لهذا البيت الشريف الاتابكي ، فان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي ، فعل ماندم السلطان محمد على تركه ، ولما علم الأمراء وغيرهم (أن) من خلق السلطان محبة العدل واداء الحق وكراهة الظلم ومعاقبة من يفعله ، اقتدوا (به) وأمن الناس ، وظهر العدل .

ثم ان السلطان محمودا أقام بالسلطنة، وجرى بينه وبين عمه السلطان سنجر حرب ، انهزم فيها محمودا وعاد الى عمه بغير عهد ، فأكرمه وأقطعه من البلاد من حد خراسان الى الداروم بأقصى الشام ، وهي من الممالك : همذان ، واصفهان وبلد الجبال جميعه ، وبلاد كرمان ، وفارسن وخوزستان والعراق وأذربيجان وأرمينية وديار بكر وبلاد الموصل والجزيرة وديار مصر وديار ربيعة والشام وبلد الروم الذي بيد أولاد قلج ارسلان ومابين هذه الممالك من البلاد.ورأيت منشورة بذلك .

ولم يكن لعماد الدين في هذه الحرب أثر ، ولا شهدها ليستقصى ذكرها فلهذا أعرضنا عن شرحها وأشرنا اليها لتعرف .

ذكر وفاة أمير المؤمنين المستظهر بالله
وخلافة المسترشد بالله

قال ، وفي سادس عشر شهر ربيع الآخر من سنة اثنتي عشرة وخمسمائة ، توفي الامام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله من تراقي ظهرت به (١٨)

وكان عمره إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام .
وخلافته أربعا وعشرين سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوما .
ومضى في ايامه ثلاثة سلاطين خطب لهم ببغداد ، وهم : تاج الدولة تتش (١٩) ، وركن الدين بركيارق بن ملكشاه ، وأخوه غياث الدين محمد بن ملكشاه .

وكان رضي الله عنه كريم الاخلاق ، لين الجانب، مشكور المساعي ، يحب العلم والعلماء ، وصنفت له التصانيف الكثيرة في الفقه والأصول وغيرها .

وكان يسارع الى أعمال البر والمثوبات ، ولايرد مكرمة تطلب منه ، كثير الوثوق الى من يوليه الاعمال ، لايصغي الى سعاية ساع .

وكانت أيامه ايام سرور وأمن للرعية ، وكان اذا بلغه ذلك فرح به وسره ، واذا تعرض سلطان أو غيره الى أذى أحدهم بالغ في انكار ذلك والزجر عنه .

وكان حسن الخط ، جيد التوقيعات لايقاربه فيها أحد ، تدل على فضل غزير وعلم واسع ، ولما توفي صلى عليه ابنه المسترشد بالله ، ودفن في حجرة كانت له يألفها ، ولما فرغ من الصلاة عليه ودفنه جلس للبيعة ، فبايعه أولاد الخلفاء والأمراء والفقهاء والقضاة ومشايخ الصوفية ، وكان المتولي لأخذ البيعة قاضي القضاة علي بن محمد الدامغاني ، وممن بايعه الشيخ أبو النجيب السهروردي ، ووعظه موعظة بليغة تتضمن العدل والاحسان .

ذكر الحرب بين السلطان محمود واخيه الملك مسعود وما أثر عن عماد الدين فيها

قال: لما ولي السلطان محمود السلطنة ، اقر أخاه الملك مسعود على الموصل مع اتابكه جيوش بك ، فبقي مطيعا لاخيه الى سنة اربع عشرة وخمسمائة ، فحينئذ خرج عن طاعته ، وكان سبب ذلك ان دبيس بن صدقة الاسدي ، كان في عسكر السلطان محمد ، وقد اخذ بلد الحلة منه ، فلما ملك السلطان محمود اقطعه الحلة واعاده اليها ، فلما وصل الى الحلة كاتب الأمير جيوش بك

وحسن له العصيان على السلطان محمود ، ووعده المساعدة على طلب السلطنة للملك مسعود ، وكان غرضه أن يختلفوا ، فينال من التمكن والجاه ، ما ناله ابوه سيف الدولة صدقة فاختلاف السلطانين بركيارق ومحمد ، وقد ذكرناه في المستقصي - وكان الاستاذ أبو اسماعيل الحسين بن علي الطغرائي الأصفهاني قد اتصل بالملك مسعود فاستوزره وأشار بذلك ايضا ، وكان لجيوش بك مع الموصل ، ولاية اذربيجان ، فلما شرع في جمع الجيوش بلغ ذلك الى السلطان محمود ، فأرسل اليه والى اخيه مسعود يرغبهما ويعدهما الاحسان أن عاودا الطاعة ، ويتهددهما أن أصرا على المعصية ، فلم يرجعا ، وقوي طمعهما لما بلغهما تفرق العساكر عن السلطان محمود ، وأظهرا العصيان ، وخطب للملك مسعود بالسلطنة ، وكان عماد الدين زنكي يشير بطاعة السلطان وترك الخلاف عليه ، ويحذرهم عاقبة العصيان ، فلم يرجعا الى قوله ، وبلغ قوله الى السلطان فعرفه له .

ثم إن الملك مسعودا وجيوش بك سارا في العساكر نحو السلطان ، ينتهزان الفرصة بقلة عسكره وتفرقهم ، فجمع من قرب اليه من عساكره فبلغت عدتهم نحو خمسة عشر الف فارس ، والتقوا عند عقبة اسد آباد في ربيع الأول ، فدام القتال بينهم الى الليل ، ثم انهزم الملك مسعود وجيوش بك ومن معهما ، واسر جماعة من امراء عسكرهما والأعيان ، منهم الأستاذ ابو اسماعيل الطغرائي وزير مسعود ، فقتله السلطان وقال: قد صح عندي فساد اعتقاده ودينه ، وكان قد جاوز ستين سنة .وكان حسن الكتابة جيد الشعر ، فمن شعره :

تمنيت ان القاك في الدهر مرة
فلم أك في هذا التمني بمرزوق
سوى ساعة التوديع دامت فكم مني
أنالت وما قامت بها أملا سوقي

فياليت ان الدهر كل زمانه
وداع ولكن لا يكون بتفريق

فأما الملك مسعود ، فإنه سار منهزما إلى مكان بينه وبين الوقعة اثني عشر فرسخا فاختفى فيه ، وارسل ركابيا كان معه إلى أخيه يطلب الأمان ، فأرسل إليه البرسقي بأمانة وتطييب قلبه ، فأحضره معه عند السلطان ، فأمر الناس كلهم بلقائه وأكرمه واحسن اليه ، ولما لقيه بكى كل واحد منهما الى صاحبه ، واعتذر مسعود فقبل عذره وخلطه بنفسه في كل اموره .

وأما جيوش بك فانه سار وانتظر الملك مسعودا فلم يره ، فسار إلى الموصل وجمع الغلات والعساكر ليمتنع بها فلما بلغه خبر اتصال مسعود بأخيه السلطان محمود علم انه لامقام له ، فسار جريدة الى السلطان فأمنه وأكرمه ، وأخذ الموصل منه واقره على اذربيجان .

ذكر ولاية البرسقي الموصل

ثم ان السلطان اقطع آقسنقر البرسقي بلد الموصل واعمالها، كالجزيرة ، وسنجار ، ونصيبين وغيرها في صفر سنة خمس عشرة وخمسمائة وسيره إليها ، وامره بحفظ عماد الدين زنكي وتقديمه والوقوف عند اشارته ، فسار الى الموصل ، وفعل مع عماد الدين ما أمره به السلطان ، وزاد على ذلك لمكانه من العقل والشجاعة ، وتقدم والده في الأيام الركنية وكانت سيرة ملكشاه عندهم كالشريعة المتبعة ، فأعظم الناس عندهم اكثرهم اتباعا لسيرته .

ذكر اقطاع عماد الدين زنكي مدينة واسط

في سنة ست عشرة وخمسمائة ، اقطع اتابك عماد الدين مدينة واسط وولي شحنكية البصرة ، وكان سبب ذلك ان الامير دبيس بن صدقة الأسدي صاحب الحلة ، كان قد تقدم منه مع الملك مسعود والأمير جيوش بك ما ذكرناه ، فبلغ ذلك السلطان (محمود) وانضاف إلى ذلك شكوى أمير المؤمنين المسترشد بالله منه الى السلطان ، فأرسل إلى البرسقي يأمره بالانحدار إلى بغداد بعساكر الموصل ومحاربة دبيس ، فانحدر اليها في عساكره ومعه عماد الدين زنكي ، وسار عن بغداد نحو الحلة فلقيه دبيس عند نهر بشير ، فانهزم عسكر البرسقي من غير قتال ، وسبب ذلك انه رأى خللا في مسيرته وبها الأمراء البكجية ، فأمر أن تلقى خيمته وتنصب عند الميسرة لتقوى قلوبهم ، فحين القيت الخيمة رأت الميسرة ذلك فظنت الهزيمة فانهزموا وتبعهم الناس والبرسقي ، وقيل بل اعطي رقعة فيها أن جماعة من العسكر يريدون الفتك به ، فخاف على نفسه وساء ظنه ، وانصرف من مكانه وانهزم الناس ، وعاد الى بغداد ثاني ربيع الآخر ، فلما انهزم البرسقي لم يعرض دبيس لنهر ملك ولا غيره ، وأرسل الى الخليفة انه على الطاعة ، ويطلب أن يخرج الذواب الى الأعمال .

ثم أن السلطان ولى البرسقي شحنكية العراق جميعه ، وزوجه خاتون بهشت جهان والدة اخيه الملك مسعود ، واقام البرسقي ببغداد الى شعبان من هذه السنة ، وترددت الرسل بينه وبين دبيس في الصلح فلم يتم ذلك ، فأرسل دبيس عسكرا الى واسط ـ وكان من بها من العساكر قد كاتبوا البرسقي فصاروا معه ـ فلما سمع من بها بمسير عسكر دبيس اليهم ، أرسلوا يطلبون المدد من البرسقي ، فأمدهم بالأمير التونتاش الابري وبعماد الدين زنكي واقطعه البلد ، وامرهم بطاعته ، فصافوا عسكر دبيس فهزموهم واسروا أكثرهم ، وعاد الباقون منهزمين إلى دبيس .

وأقام عماد الدين زنكي بواسط ، وارسل البرسقي إليه أيضا فولاه شحنكية البصرة وأمره بحمايتها ، فوليها وحماها ، وانتقل إليها وأقام بها لحفظها لكثرة تطرق العرب اليها والاغارة عليها مرة بعد اخرى ، فلما سكنها لم يتعرض إليها أحد ، وسكن ما كان بها من الفتن ، وظهر من كفايته في البلدين ما لم يظنه احد ، فازداد شأنه عظما .

وتجنب دبيس قصد ولايته لعلمه انه لا ينال منها غرضا ، وأنفذ عسكرا نحو المدائن ، فخاف اهل بغداد ، وعبر البرسقي إلى الجانب الغربي عازما على قصد دبيس ، وناهيك هذا شرفا لعماد الدين ، حيث يترك دبيس ولايته مع بعدها عن بغداد ويقصد المدائن وهي إلى جانب بغداد والبرسقي في العساكر قريب منها .

وبطل الحج هذه السنة من العراق لهذا السبب .

ذكر هزيمة دبيس وعسكر بغداد
وما ظهر لعماد الدين زنكي من الشجاعة

لما ورد دبيس وعساكره الى المدائن وعبر البرسقي الى الجانب الغربي ليسير اليه ، أرسل الخليفة المسترشد بالله الى دبيس ينهاه عن العصيان ، ويتهدده ان اصر على المخالفة بقصد بلده ، فغضب دبيس وحلف ليقصدن بغداد وليخربنها ويقتل اهلها ، وجمع العرب واطمعهم في نهب بغداد فكثر جمعه . فلما علم الخليفة بما كان منه ، سار عن بغداد ومعه العسكر ، وعليه قباء اسود وعمامة سوداء وطرحة ، وعلى كتفه بردة النبي صلى الله عليه وسلم ، وبيده القضيب ، وعبر في الزبزب ومعه وزيره نظام الملك احمد بن نظام الملك ، ونقيب النقباء وشيخ الشيوخ صدر الدين اسماعيل ، وقاضي القضاة الزينبي وغيرهم ، فلما سمع البرسقي

بمسير الخليفة ركب وعاد الى لقائه ، فحين رأى الشمسية ترجل هو ومن معه وقبلوا الارض ، فلما نزل الخليفة في الخيمة ، أحضر البرسقي والأمراء واستحلفهم ، ثم سار نحو الحلة - وقد تأخر دبيس عن المدائن - فالتقوا بالمباركة من أعمال النيل ، ورتب البرسقي عسكره ، فجعل في الميمنة عماد الدين زنكي في عسكره ، والأمير أبا بكر الياس البكجي ، ووقف الخليفة في موكبه خلف العسكر بحيث يرونه والقراء بين يديه ، والمصاحف منشورة وتقدم إلى أهل بغداد بقراءة القرآن والدعاء له ، فختموا ذلك اليوم الف ختمة ودعوا له بالنصر .

فلما تواقفت العساكر ، حملت ميسرة دبيس - ومقدمها عنتر بن ابي العسكر - على الأمير أبي بكر الياس ومن معه ، فتراجعوا على اعقابهم ، ثم حمل عليهم عنتر ايضا حملة ثانية ، فكان حالها كالأولى ، واشرفوا على الهزيمة ، فلما رأى عماد الدين زنكي ذلك ، حمل في عسكر واسط على عنتر وأصحابه ، وأطبقوا (عليه) من خلفه ، وعاد الأمير ابو بكر ، فبقي عنتر ومن معه في الوسط ، فأخذوا باليد ، وقتل منهم الكثير ، وكان البرسقي قد جعل له كمينا ، فلما اشتدت الحرب ، ظهر الكمين من وراء عسكر دبيس ، فانهزمت العرب ومن معهم ودبيس ، فألقوا نفوسهم في النيل ، فغرق منهم خلق كثير سوى من قتل وأسر .

ولما رأى المسترشد بالله فعل عنتر بميمنة البرسقي ، وأن من بها قد اشرف على الهزيمة ، جرد سيفه وتقدم وهو يكبر ، وقد عزم على أن يباشر الحرب بنفسه ، فكفاه عماد الدين زنكي فلما تم الظفر ، قدمت الأسرى إلى المسترشد بالله ، فأمر بقتلهم صبرا .

وكان عسكر دبيس عشرة آلاف فارس واثني عشر الف راجل ، وعسكر الخليفة والبرسقي ثمانية آلاف فارس وخمسة آلاف راجل ، ولم يقتل من عسكرهما غير عشرين فارسا .

ووقع نساء دبيس وسراريه في الأسر ، غير زوجته ابنة ايلغازى ابن ارتق وابنة عميد الدولة ابن جبير ، فإنهما كانتا بمشهد الحسين عليه السلام .

وكانت الوقعة في اول المحرم سنة عشرة وخمسمائة وعاد المسترشد الى بغداد فدخلها يوم عاشوراء .

وثار العامة ببغداد ، فنهبوا مشهد باب التين وما عند الضريحين ، وقلعوا أبواب المشهد ، فشكا العلويون ذلك إلى الخليفة فأذكره ، وسير نظر الخادم أمير الحاج إلى المشهد لتأديب من فعل ذلك والتنكيل به ، ففعل بهم ماأمر ، واسترد من النهيب ماأمكنه ورده على أصحابه .

وأما دبيس فإنه لما انهزم ، التحق بالملك طغرل بن السلطان محمد وصار معه من خواص أصحابه ، وكان عاصيا على أخيه السلطان محمود .

ذكر مفارقة الشهيد عماد الدين البرسقي
واتصاله بالسلطان محمود

قال : ولما فارق دبيس العراق ولحق بطغرل ، أمنت البلاد ، فأرسل السلطان محمود إلى البرسقي يأمره بالعود إلى الموصل والاشتغال بجهاد الافرنج ، وولى شحنكية بغداد يرنقش الزكوي ، فعاد البرسقي في ستة سبع عشرة وخمسمائة .

وكان أتابك عماد الدين زنكي حينئذ بالبصرة ، فأرسل البرسقي إليه يعلمه الحال ، ويستدعيه ليسير معه إلى الموصل . فحدثني والدي قال : حدثني جماعة ممن كان مع الشهيد ، قالوا : جمع

الشهيد أصحابه وقال لهم : قد ضجرنا مما نحن فيه . وتارة بالموصل ، وتارة ببلاد الجزيرة ، وتارة بالشام فبم تشيرون أصنع ؟

فقال له زين الدين علي بن بكتكين — وكان أوثق أصحابه عنده وأكثرهم صحبة له — فقال : يامولانا ، التركمان تقول في أمثالها : إذا أاراد الانسان (أن) يضع على رأسه حجرا فليكن من جبل كبير ، ولكن نحن إذا كنا لابد وأن نخدم الناس ، فلأن نخدم السلطان أولى ، فقبل رأيه ، وسار من البصرة إلى السلطان محمود ، وأقام عنده ، فلم ير منه ماكان يرجوه ، وأنفق ماكان معه من مال . وكان كلما ضاق به الأمر ، يقول لزين الدين : ياعلي ، قد وضعنا على رؤوسنا حجرا عظيما كما أردت . إلا أنه كان يقف إلى جانب تخت السلطان لايتقدمه أحد . فلما كان بعض الأيام ، ركب السلطان ليلعب بالكرة ، فدخل الميدان فأخذ الجو كان بيده ، واستدعى عماد الدين زنكي وناوله إياه ، وقال له : إلعب معنا ثم قال السلطان للأمراء معاتبا لهم وموبخا : أما تستحيون ، يجيء إليكم فلان — وهو من عرفتموه وعرفتم محل والده في الدولة — فلم يكن فيكم من يحمل له شيئا ولا يعمل له دعوة ، والله لقد تركته لم أرسل إليه نفقة ولاأعطيته إقطاعا لأنظر فعلكم . وبالغ في لومهم ، ثم قال له : قد زوجتك إمرأة الأمير كند غدي ، وأمر له بمال . وكان هذا كند غدي من أكابر أمراء السلطان محمد والسلطان محمود ، فجعله(السلطان محمود) مع اخيه الملك طغرل اتابكا له ومدبرا لدولته فحسن له العصيان على اخيه السلطان محمود وجمع له العساكر الكثيرة وعظم

شأنه ، فاتفق أنه مات في تلك السنة ، وخلف ولدا صغيرا وزوجة ، ومن الأموال والبرك (٢) والسلاح مالا يقدر عليه إلا سلطان ، فلما كان الآن ، وقال لعماد الدين ليتزوجها ، أرسل إليها يقول لها : إنني قد زوجتك بعماد الدين زنكي ، فامتنعت ثم أجابت . فقال . فركب زنكي من غد دخوله بها ومعه ولد كند غدي ، وهو في موكب عظيم من أصحابه وأصحاب كند غدي ، وأخرجت له زوجته من الخيام والبرك ماليس لأحد في العسكر مثله .

ذكر إقطاعه البصرة من السلطان

ثم إن السلطان أتاه في ذلك الوقت الخبر بأن العرب قد اجتمعت ونهبت البصرة ، فأمر أتابك عماد الدين بالمسير إليها ، وأقطعه إياها لما كان بلغه عنه من الحماية لها في العام الماضي - وقت اختلاف العساكر والحروب - وأمره بالحفظ والاحتياط .

وكان قد قيل للسلطان إن الخليفة .قد باشر الحرب وأحب جمع العساكر ، وخوف ناحيته ، فتقدم إلى عماد الدين بمراعاة أحوال واسط والتطلع إلى معرفة حالها ، فإن قصدها عسكر من الخليفة يسير إليها ويحفظها ، فسار إلى العراق وأقام بالبصرة ، وأحسن السياسة لأهلها والحماية لهم من العرب وغيرهم ، فصار يرسل طوائف من عسكره فيوقعون بالأعراب ، فأمنت البلاد والطرق ، وواصل السلطان بأخبار العراق حتى لم يخف عليه منها شيء ، فعظم ذلك عند السلطان وزاد محله عنده .

ذكر ولايته شحنكية بغداد

كان قد جرى بين يرنقش الزكوي شحنة بغداد وبين الخليفة المسترشد بالله نفرة ، فتهدده المسترشد ، فسار عن بغداد إلى السلطان في رجب سنة تسع عشرة وخمسمائة ، شاكيا من المسترشد بالله ، وحذر السلطان جانبه ، وأعلمه أنه قد جمع العساكر عازما على منعه عن العراق ،

وقال له : إن تاخرت عن العراق إزداد قوة ومنعك عن البلاد . فتجهز السلطان الى العراق ، فأرسل إليه الخليفة يطلب منه أن لا يأتي بغداد هذه الدفعة لخراب البلاد والغلاء الذي بها ، وبذل له على تأخره مالا كثيرا ، فلما سمع السلطان الرسالة لم يجب إلى التأخر عن العراق وصمم العزم على الحركة .

فلما بلغ الخبر الى الخليفة عبر هو واهله وحرمه وأرباب المناصب الى الجانب الغربي في ذي القعدة . مظهرا الغضب والانتزاح عن بغداد إن قصدها السلطان . فلما خرج من داره بكى الناس بكاء عظيما ، واتصل الخبر بالسلطان فعظم عليه ، وأرسل إليه يستعطفه ويسأله العود إلى داره ، فاعاد الجواب : إنني أمرتك بالتاخر لخراب البلاد وهلاك الناس وعدم الاقوات ، ويقول له : إن قصدت العراق فنحن راحلون عنه بالاهل والمال . فاغتاظ السلطان من ذلك ورحل الى بغداد ، فلما كان عيد النحر ، أمر المسترشد بالله بأن تنصب السرادقات والمنبر ، واحضر خواصه وأرباب المناصب وأعيان الدولة ، وصلى هو بالناس يوم العيد وخطبهم ، فبكى الناس لخطبته بكاء عظيما .

ثم إنه أرسل عفيفا الخادم في عسكر الى واسط ، وبها عماد الدين زنكي ، وكان قد سار من البصرة لحفظها والذب عنها ، فلما وصل عفيف ، أرسل إليه عماد الدين يحذره القتال ويأمره بالعود ، فلم يلتفت إليه ، وجاء حتى نزل بالجانب الغربي من واسط ، فعبر إليه الشهيد وقاتله قتالا شديدا ، فانهزم عسكر عفيف ، وقتل منهم جماعة كثيرة وأسر مثلهم ، وتجاوز عن عفيف حتى نجا ، ولو شاء لأخذه .

ثم إن الخليفة جمع السفن جميعا إليه ، وسد أبواب الخلافة سوى باب النوبي ، وأمر حاجب الباب ، ابن الصاحب ، بالمقام فيه يحفظ الدار ، ولم يبق من حواشي الخليفة بالجانب الشرقي سواه . ووصل السلطان الى بغداد في عشرين من ذي الحجة ، ونزل بالشماسية ، ودخل بعض عسكره الى بغداد ونزلوا في دور الناس ، ولم يزل السلطان يراسل الخليفة بالعود ويطلب الصلح وهو يمتنع ، وكان يجري بين العسكرين مناوشة ، والعامة من الجانب الغربي يسبون السلطان أفحش سب .

ثم إن جماعة من عسكر السلطان دخلوا دار الخلافة في المحرم

سنة عشرين وخمسمائة ، ونهبوا التاج وحجر الخليفة ، وضج اهل بغداد . فلما رآهم الخليفة ينهبون داره ، خرج من السرادق والشمسية على رأسه والوزير بين يديه ، وأمر بضرب الكوسات والبوقات ، ونادى باعلى صوته : يآل هاشم ، وأمر بتقديم السفن ونصب الجسر وعبر العسكر دفعة واحدة . وكان في الدار الف رجل مختفين في السراديب فظهروا — وعسكر السلطان قد اشتغلوا بالنهب — فاسروا جماعة من الامراء . ونهب العامة دار وزير السلطان ودور جماعة من الامراء ، ودار عزيز الدين المستوفي ، ودار حكيم اوحد الزمان الطبيب ، وقتل منهم خلق كثير في الدروب . ثم عبر الخليفة الى الجانب الشرقي ومعه ثلاثون الف مقاتل من أهل بغداد والسواد ، وحفروا الخنادق في الليل ، وحفظوا بغداد من عسكر السلطان ، واشتد الغلاء عند العسكر ، وعظم القتال كل يوم على أبواب البلد وعلى شاطىء دجلة .

وعزم عسكر الخليفة على تبييت عسكر السلطان ، فغدر بهم الامير أبو الهيجاء الكردي الهذباني صاحب إربل ، وخرج كأنه يريد القتال والتحق هو وعسكره بالسلطان .

وكان السلطان قد ارسل الى عماد الدين زنكي يامره ان يحضر بنفسه ، ومعه المقاتلة في البر والماء ، وان يكثر من السفن مهما أمكنه ، فجمع السفن من البصرة وواسط والبطائح ، ولم يترك ما بين بغداد والبصرة سفينة الا استصحبها وشحنها بالمقاتلة ، وأصعد في البر والسفن سائرة في الماء ، فلما قارب بغداد نشر الاعلام ، واظهر السلاح ، وأخرج بعض من في السفن الى البر فامتلات الارض والماء رجالا وسلاحا ، فرأى لناس منظرا عجيبا وعظم ذلك في أعينهم ، وركب السلطان والعساكر فرأوا ماملأ قلوبهم وعيونهم ، وازداد عماد الدين عند السلطان منزلة ، واستدل على كفايته ونهضته وحسن سياسته ، لان البلاد التي كانت بيده لم يكن عسكرها يقدر يفارقها ليحفظوها ، فاخرج منها هذا الخلق الكثير ، ولم يتعرض اليها أحد باذى .

وكان الخليفة — لما هرب الامير ابو الهيجاء وبلغه مجيء عماد الدين — قد ضعفت نفسه ، وعلم أن عماد الدين يجيء ويقاتلهم في الماء ويمنع الميرة عنهم ، ويقاتلهم السلطان في البر فيعظم عليه الخطب ، فحينئذ راسل السلطان طلبا في الصلح ، وترددت الرسل بينهما فاصطلحا وعادا الى ما كانا عليه ، واعتذر السلطان مما جرى . وكان حليما يسمع سبه باذنه ولايعاقب عليه . وعفا عن أهل بغداد جميعهم . وكان بعض أصحابه يشيرون عليه أيام الحصار باحراق بغداد فلم يفعل ، وقال : لاتساوي العراق بعض هذا .
ولما تم الصلح ، أقام السلطان ببغداد الى عاشر ربيع الاخر ، وحمل الخليفة اليه كل ما استقرت القاعدة عليه من المال ، والسلاح ، والخيل وغير ذلك .

فلما اراد السلطان الرحيل ، نظر في من يصلح أن يلي شحنكية بغداد والعراق ، يأمن معه من الخليفة ويضبط الامور ، فلم ير في امرائه وأصحابه من يصلح لسد هذا الباب العظيم ، ويرقع هذا الخرق ويمنعه من الاتساع ، وتقوى نفسه على ركوب هذا الخطر ، غير عماد الدين زنكي ، فولاه شحنكية العراق مضافا الى ما بيده من الاقطاع ، وسار السلطان عن بغداد وقد اطمأن قلبه من جهة العراق ، حيث اسنده إلى الكافي القيم بأمره .

ذكر قتل البرسقي وشيء من سيرته رحمه الله تعالى

في سنة عشرين وخمسمائة ، قتل آقسنقر البرسقي بالجامع العتيق بالموصل بعد الصلاة يوم الجمعة ، قتله باطنية . وكان رأى تلك الليلة في منامه أن عدة من الكلاب ثاروا به ، فقتل بعضها ، ونال منه الباقون أذى شديدا ، فقص رؤياه على أصحابه ، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدة ايام ، فقال : لااترك الجمعة لشيء أبدا ، وكان يشهدها في الجامع مع العامة ، فحضر الجامع على عادته ،

فثار به من الباطنية ما يزيد على عشرة أنفس ، فقتل بيده منهم ثلاثة ، وقتل رحمه الله .

وكان خيرا عادلا ، لين الاخلاق ، حسن العشرة مع اصحابه . حكى لي والدي رحمه الله تعالى ، قال : حكى بعض الغلمان الذين يخدمون البرسقي ، قال : كان يصلي كل ليلة صلاة كثيرة ، وكان يتوضأ هو بنفسه ولايستعين بأحد ، قال : فرأيته بعض ليالي الشتاء بالموصل ، وقد قام من فراشه ، وعليه فرجية وبر صغيرة وبيده ابريق نحاس وقد قصد دجلة ليأخذ ماء يتوضأ به ، فلما رأيته قمت إليه لآخذ الابريق من يده ، فمنعني وقال : يا مسكين إرجع الى مكانك فإنه برد ، فاجتهدت به لآخذ الابريق من يده فلم يفعل ، ولم يزل حتى ردني الى مكاني . ثم توضأ ووقف يصلي . وذكر لي من أحواله الحسنة أشياء لم أطول بذكرها .

ذكر ولاية ابنه عز الدين مسعود ووفاته

لما قتل البرسقي ، قام بالموصل بعده ابنه عز الدين مسعود ، وارسل الى السلطان يطلب ان يقرر البلاد عليه ، فاجابه الى ذلك واقره على ما كان لابيه من الاعمال ، فضبط البلاد وقام فيها المقام المرضي ، وكان شابا عاقلا ، فجمع عساكر أبيه وأحسن إليهم ، وكان يدبر الامر بين يديه الامير جاولي – وهو مملوك تركي من مماليك أبيه – وكان أيضا عاقلا حسن السيرة ، فجرت الامور على أحسن نظام ، فلم تطل أيامه ، وأدركه في عنفوان شبابه حمامه وتوفي سنة إحدى وعشرين وخمسمائة ، فولى بعده أخوه الاصغر ، وقام بتدبير دولته جاولي أيضا ، وأرسل إلى السلطان يطلب أن يقرر البلاد عليهم ، وبذل أموالا كثيرة .

- ٦٣٩٣ -

ذكر ولاية المولى الشهيد عماد الدين زنكي الموصل وسائر بلاد الجزيرة

نبتدىء قبل ذكر ملكه البلاد ، بذكر الحال التي كان عليها المسلمون من الوهن والضعف ، والمشركون من القوة ، فنقول : لما ملك المولى الشهيد البلاد ، كان الفرنج قد اتسعت بلادهم ، وكثرت أجنادهم وعظمت هيبتهم ، وزادت صولتهم ، وتضاعفت سطوتهم ، وعلا شرهم ، واشتد بطشهم ، وامتدت إلى بلاد الاسلام أيديهم ، وضعف اهلها من كف عاديتهم ، وتتابعت غزواتهم ، وساموا المسلمين سوء العذاب ، وركبوهم بالتبار والتباب ، واستطار في البلاد شرر شرهم ، وعم أهلها شديد حيفهم وعظيم قهرهم ، فنجوم سعد المسلمين مذكدرة ، وسماء عزهم منفطرة ، وشمس إقبالهم مكورة ، ورايات المشركين خلال ديار الاسلام منشورة ، وأنصارهم على أهل الايمان منصورة .

وكانت مملكة الفرنج حينئذ قد امتدت من ناحية ماردين ، وشبختان الى عريش مصر ، لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب ، وحمص ، وحماه ، ودمشق ، وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر الى آمد ، فلم يبقوا على موحد ولا جاحد . ومن ديار الجزيرة الى نصيبين ورأس العين ، فاستاصلوا ما لأهلها من آثاث وعين .

وأما الرقة وحران ، فقد كان أهلها معهم في ذل وصغار ، واستضعاف واقتسار ، كل يوم قد أذاقوهم البوار ، ومنعوهم القرار ، وألصقوا بهم الصغار ، فهم ينادون بالويل والثبور ، ويودون لو أنهم من ساكني القبور .

وانقطعت الطرق الى دمشق الا على الرحبة والبر ، فكان التجار والمسافرون يلقون من المخاوف ، وركوب المفازة تعبا ومشقة ونصبا ، ويخاطرون بالقرب من العرب بأموالهم وأنفسهم .

ثم زاد الأمر ، وعظم الشر ، حتـى جعلوا على كل بلد جـاورهم خراجا وأتاوة ، يأخذونها منهم ليكفوا أيديهم عنهم ، ثم لم يقنعـوا بذلك ، حتى أرسلوا الى مدينة دمشق واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والارمن وسائر بلاد النصرانية ، وخيروهم بين المقام عند أربابهم أو العود الى أوطانهم ، والرجوع إلى أهليهم وأخـوانهم ، فمن اختار المقام تركوه ، ومن آثر العود إلى أهله اخـذوه ، وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغارا ، وللكافرين قدرة واقتسارا .

واما حلب فانهم اخذوا مناصفة اعمالها حتى في الرحا التي على باب الجنان ، وبينها وبين المدينة نحو عشرين خطوة .

واما باقي بلاد الشام ، فكان حالها أشد من هذين البلدين .

فلما نظر الله تعـالى الى ملوك البـلاد الاسـلامية وأمـراء الملة الحنيفية ، وما هـم فيه مـن العجـز عن نصرة الدين ، والوهـن في حماية الموحدين ، ورأى قهر عدوهـم لهـم وشـدة صـوله ، وما نصب عليهم من ظل نكاله وويله ، إرتاع للاسلام واهله ، واذف لهم من ذلال عدوهم لهم واسره وقتله ، فحينئذ اراد ان يسـلط على الفرنج من بسوء افعالها يجازيها ، ويرسل على شياطين الصـلبان رجوما منه تهلكها وتفنيها ، فنظر في جريدة شجعان أوليائه ، وذوي الراي والنجدة والشهامة من اصفيائه ، فلم ير فيها أقوى على هـذا الامر من المولى الشهيد عماد الدين زنكي ولا أثبت جنانا ، ولا امضى عزما ، ولا أنفذ سنانا ، فولاه الثغور ، ورعاية الجمهور ، كما يقول القائل :

رماها بحرب منه حتى كانما
بدعوة نوح في العصاة رماها
اخي الحرب يصليها بنفس كانما
تزاحم في ضنك الوغى بسواها
كتائب تزهى بالفتوح كأنما
تباري النجوم الطالعات قناها

فغزا الفرنج في عقر ديارهم ، وأخذ للموحدين منهم بثأرهم فأصبحت أهله الاسلام مبدرة بعد سرارها ، وشموس الايمان منيرة بعد طموس أذوارها ، ومآ س المسلمون في حال من النصر فضفاضة ، ووردوا مناهل من الظفر فياضة ، واستنقذوا من أهل التثليث حصونا ومعاقل ، وجازوهم بما اسلفوا من الدخول والطوايل ، وألقى التوحيد بالديار الجزرية والشاميةجرانه ، وبث فيها أنصاره واعوانه ، وفرح بنصر الله واستبشر ، وقال ، ياأهل الشرك لاعاصم اليوم من أنصاري ولا وزر . فعبس الكفر وبسر ، ثم أدبر خاضعا ولم يستكبر ، فيالها نعمة عمت التوحيد وأهله ، ونقمة مزقت من الشرك شمله ، وسترى ما أجملناه مفصلا ، وما اختصرناه مطولا ، هذا سوى مكارم أخلاق أدرع جلبابها ، وحسن سياسة إعتلق بمحكم أسبابها ، يرد ذكرها عند قتله قدس الله روحه ونور ضريحه .

وأما ملكه البلاد ، ففي شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين وخمسمائة . قال : تولى عماد الدين زنكي بن آقسنقر الموصل ، وديار الجزيرة ، ونصيبين وما كان بيد البرسقي . وكان سبب ذلك أن عز الدين مسعود بن البرسقي لما توفي وقام بالبلاد بعده اخوه ، وتولى أمره جاولي ، أرسل إلى السلطان محمود يطلب أن يقرر البلاد عليه ، كما ذكرنا . وكان واسطة ذلك القاضي بهاء الدين أبا الحسن على بن الشهر زوري وصلاح الدين محمد الياغيسياني ، فحضرا بغداد ليخاطبا السلطان في ذلك ، وكانا يخافان جاولي ولايرضيان بطاعته والتصرف بحكمه ، فاجتمع صلاح الدين ونصير الدين جقر ـ الذي كان أعظم اصحاب اتابك زنكي منزلة ـ وكان بين نصير الدين وصلاح الدين مصاهرة ، فذكر له صلاح الدين ما قدم له ، فخوفه نصير الدين ، من جاولي وتحكمه على صاحبه ، وقال له : إن رأيت أن تطلب البلاد لعماد الدين فهو الراي ، لان السلطان صورة وأنا وأنت معنى ، فأجابه إلى ذلك وأخذه إلى القاضيبهاء الدينابن الشهروزري وتحدثا معه ووعده نصير الدين ومناه ، وضمن

له عن عماد الدين من الأملاك والاقطاع والوقوف على اختياره ماجاوز أمله ، فأجاب بهاء الدين أيضا ، وركب هو وصلاح الدين الى دار الوزير – وهو حينئذ أنو شروان بن خالد – فقال له : قد علمت أنت والسلطان أن بلاد الجزيرة والشام قد استولى الفرنج (عليها) وتمكنوا منها وقويت شوكتهم ، وقد كان البرسقي يكف بعض عاديتهم فمذ قتل ازداد طمعهم ، وهذا ولده طفل ، ولابد للبلاد من شهم شجاع يذب عنها ويحمي حوزتها ، وقد أنهينا الحال إليك ، لئلا يجري خلل أو وهن على الاسلام والمسلمين ، فنحصل نحن بالاثم من الله ، واللوم من السلطان ، فأنهى الوزير ذلك الى السلطان، فقال : من تريان يصلح لهذه البلاد ، فقد نصحتما لله تعالى والمسلمين ، فذكروا جماعة فيهم عماد الدين زنكي ، وعظما محله أكثر من غيره فمال السلطان الى توليته ، لما علم من شهامته وكفايته وعقله ولما تولاه ، وأمرهما بالحضور عنده ، وفصل الحال في خدمة يحملها ، واستقر الحال وولاه البلاد جميعها ، وكتب منشوره الى بغداد .

وسار زنكي الى البوازيج ليملكها ويتقوى بها ، ويجعلها ظهره إن صده جوالي عن البلاد ، فلما استولى عليها سار عنها الى الموصل ، فحين أن اتصل خبر وصوله بجاولي ، خرج إلى لقائه ومعه العسكر جميعه ، فلما رأى الشهيد ، نزل عن فرسه وقبل الأرض ، ثم قبل يده وعاد في خدمته ، فأقطعه الشهيد الرحبة وأعمالها وسيره إليها ، وأقام هو بالموصل إلى أن يصلح أمورها ويقرر قواعدها ، فولى نصير الدين دزدارية الموصل وفوض إليه أمر الولاية جميعها ، وجعل الدزدارية في البلاد لنصير الدين أيضا وجعل صلاح الدين الياغيسياني أمير حاجب ، وجعل بهاء الدين قاضي قضاة بلاده جميعها ومايفتحه من البلاد ، ووفى لهم بما وعدهم ، وكان بهاء الدين أعظم الناس عنده منزلة وأكثرهم انبساطا معه وقربا منه ، ورتب الأمور على أحسن حال وأحكم قاعدة .

ذكر ملكه جزيرة ابن عمر

لما فرغ الشهيد رضي الله عنه من أمر الموصل ، وتقرير قواعدها (حشد) الجنود وأقطع العساكر (ثم) سار نحو جزيرة ابن عمر ، فحصرها وبها بعض مماليك البرسقي ، فامتنع بها ثقة بحصانتها وظنا منه أنها تحميه ، فراسله عماد الدين وبذل له ورغبه فلم يصغ الى ذلك ، فحينئذ جد الشهيد في قتالها ، وبينه وبين البلد الدجلة فأمر الناس فألقوا أنفسهم في دجلة ، بعضهم سباحة ، وبعضهم في السفن ، وتكاثروا على أهل الجزيرة ، وكانوا قد خرجوا عن البلد إلى أرض بين البلد وبين دجلة تعرف بالزلاقة ، ليمنعوا من يريد عبور دجلة ، فاقتتلوا هم والعساكر قد عبروا الماء ، فانهزم عسكر الجزيرة ، وملك عسكر عماد الدين ، فلما رأى من بالبلد ذلك ، ايقنوا أن البلد يؤخذ عنوة إن لم يأمنوهم ، فأرسلوا الى عماد الدين — وكان قد عبر دجلة أيضا مع عسكر — وطلبوا منه الأمان وقاعدة تقرر بينهم ، فأجابهم الى ذلك ، وتسلم البلد ودخله هو وعسكره ، فاتفق أن دجلة زادت تلك الليلة زيادة عظيمة ، حتى التصق الماء بسور البلد وصعد فيه أكثر من قامة ، واستترت الزلاقة بالماء ، فلو تأخر دخول الشهيد الى البلد يومهم ذلك ، لغرقهم الماء عن آخرهم ولم ينج منهم أحد ، فلما رأى ذلك الناس ، أيقنوا بسعادته وعلموا أن أمورا — هذه بدايتها — لعظيمة •

ذكر ملكه البلاد الجزرية بقوة واقتدار

قال : فلما فرغ من أمر جزيرة ابن عمر ، سار عنها الى نصيبين — وكانت لحسام الدين تمرتاش بن ايلغازي صاحب ماردين وغيرها — فلما نازلها الشهيد ، سار حسام الدين الى ابن عمه ركن الدولة داود بن سقمان صاحب حصن كيفا يستنجده على

دفع أتابك عن نصيبين ، فوعده النجدة وجمع عساكره ، وعاد حسام الدين الى ماردين ، وسير رقاعا على أجنحة الطيور الى نصيبين ، يعلم من بها من الأجناد أنه وابن عمه ركن الدولة سائران في العساكر الكثيرة ، ويأمرهم بحفظ البلد ثلاثة أيام ، فبينما أتابك الشهيد في خيمته إذ رأى طائرا قد سقط على خيمة تجاورها ، فأمر بصيده فاصطيد ، فرأى فيه رقعة ففتحها ، واذا هي الرقعة المذكورة ، فأمر فكتب غيرها ، يقول فيها : من حسام الدين ، إنني قد قصدت ابن عمي ، وقد وعدني بالنصرة والمسير في العساكر ، ومايأتخر وصوله الينا أكثر من عشرين يوما ، ويأمرهم بحفظ البلد في هذه المدة ، وشدها على جناح الطائر وأرسله ، فلما رأى من فيه الرقعة ، خافوا على نفوسهم ، وعلموا أنهم يعجزون عن حفظ البلد هذه المدة ، فأرسلوا إلى الشهيد وصانعوه وسلموا إليه القلعة ، فبطل على داود وتمرتاش ماكانا عزما عليه ، وقد جرى مثلها للمولى السعيد نور الدين أرسلان شاه على نصيبين أيضا سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، ونحن نذكرها إن شاء الله تعالى في موضعها .

قال : فلما تسلم الشهيد نصيبين ، سار عنها إلى سنجار فامتنعت عليه وقاتله من بها ، ثم إنهم سلموها إليه واتصلوا بخدمته ، وسير منها الشحن الى الخابور فملكه جميعه ، ثم سار إلى حران — وكانت الرها وسروج وغيرهما من ديار الجزيرة للفرنج لعنهم الله — وأهل حران معهم في ضيق عظيم ، لخلو البلاد من حام يذب عنها أو سلطان يمنعها فلما سمعوا بملك الشهيد البلاد واستيلائه عليها ، واذعان من بها إليه ، قويت نفوسهم ، وعلموا أنهم قد أتاهم نصر من الله وفتح قريب ، فسرا سلوه بالطاعة ، واستحثوه على الوصول إليهم ، فسار نحوهم مجدا حتى نزل بساحتهم ، فاستبشروا بقدومه وخرجوا إلى لقائه ، فوعدهم ومناهم .

وأرسل الى جوسلين صاحب الرها وغيرها من البلاد التي بيد

الفرنج بالجزيرة وهادنه مدة يسـيرة ، يعلم أنه يفـرغ فيهـا مـن الاستيلاء ، على مابقي له من البلاد الشامية والجزرية ، واصـلاح شأنها ، والفراغ من اقطاع بلادها لجند يختبرهم ويعرف نصحهم وشجاعتهم .

وكان أهم الأشياء عنده عبور الفرات وملك مدينة حلب وغيرهـا من البلاد الشامية ، فاستقرت قاعدة الصلح بينه وبين جوسلين على مااختاره .

ذكر ملكه مدينة حلب وحماة

كان الفرنج خذلهم الله تعالى قـد اسـتضعفوا بـلاد الشـام الاسلامية ، فتابعوا الغارات على أهلها وقصدوا محـاصرين لهـا لخلوها من حام ومانع ، وقـد قـوي طمعهـم في ملك مـابقي في يد المسلمين من البـلاد ، لايعلمـون مـاأعده الله سـبحانه في سر الغيب ، وماقدره من الانتقام منهم وادالة المسلمين عليهم ،ليذهب (غيظ قلوبهم) (ويشف صدور قوم مؤمنين) (التوبة ١٤ ـ ١٥)

وكان الفرنج يقاسمون أهل حلب على رحا بباب الجنان، بينهـا وبين المدينة أذرع يسيرة ، فلما سمع من بهـا بعمـاد الدين وقـربه منهم ، راسـلوه يسـتغيثون بـه ويسـتنصرونه ، وأذعنوا له بالطاعة ، فسار إليهم فلمـا عبـر الفـرات ، ملك مـدينة منبج ، وحصن بزاعة وسار الى حلب ، فالتقاه أهلها وأظهروا من الفرح والسرور به مالايعلمه إلا الله سبحانه تعـالى ، وكان ملكه لها سنة اثنين وعشرين وخمسمائة ،

ولولا أن الله تعالى من على المسـلمين بـولاية الشـهيد ، لكان الفرنج قد استولوا على الشام جميعه ، فإنهم كانوا لهم من أتـابك طغدكين شاغل ومانع عن بعض أغراضـهم ، وكانوا متـى حصروا

حلب وغيرها جمع طغدكين عسكره وسار نحوهم فيرحلون ، فقدر الله تعالى أنه توفي سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة فخلت البلاد بالمرة ، وصح قول النبي صلى الله عليه وسلم : لم تخل البلاد من قائم لله بنصر دينه ، ولطف الله بالمسلمين بعده ، وولى الشهيد قدس الله روحه ، ولما ملكها أقام بها ليقرر قواعدها ، ويصلح امورها ، ويعمر ماخرب من بلدها بتوالي غارات الفرنج عليها ، ففرغ من جميع ماأراده .

وفي سنة ثلاث وعشرين (وخمسمائة) سار الى حماة فملكها .

ذكر الحرب بين الشهيد أتابك وبين الملوك الأرتقية وملك مدينة سرجة ودارا وما إليهما .

وفي سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، اجتمع ركن الدولة داود بن سقمان صاحب الحصن وغيره ، وحسام الدين تمرتاش بن ايلغازي – وهو ابن عم داود – وانضم اليهما صاحب آمد وغير من ذكرنا ، وجمعوا من الأمراء من انتهت قدرتهم الى جمعه ومن العساكر والتركمان، وكان داود مطاعا في التركمان ، حتى أن ذشابته كانت اذا وصلت حلة منهم ، تبرك بها رجالهم ونساؤهم فاستمدهم واستنجدهم ، فجاءوه على الصعب والذلول ، فاجتمعوا في نحو عشرين ألف مقاتل ، وسار إليهم الشهيد ولقيهم بالقرب من دارا – وهي لهم أيضا – فاقتتلوا قتالا شديد ، صبر (فيه) عسكر الشهيد – وهم نحو أربعة آلاف فارس – لشجاعتهم ، وصبر عسكر الأرتقية لكثرتهم ، ثم انجلت الوقعة عن هزيمة الارتقية ، فلما انهزموا حصر سرجة فملكها وانتقل إلى دارا فملكها أيضا • فحكى لي والدي ، قال : لما انهزموا سار ركن الدولة داود من المعركة ومعه من سلم من عسكره ، فقصد بلد جزيرة ابن عمر فنهبه وأخربه ، وبلغ الخبر إلى أتابك فسار نحو الجزيرة ، وأراد

-٦٤٠١-
أن يتبعه إلى ديار بكر ، فلم يمكنه لضيق المسالك وخشونة الطريق بها ، ومع هذا فجميعها لداود ، فخاف أن يمسك عليه المضايق ويناله أذى ، ثم إنه صالح القوم وعاد عنهم •

ذكر فتح حصن الأثارب من الفرنج

لما فرغ الشهيد قدس الله روحه ، من أمر الملوك الأرتقية وصالحهم وأمن ناحيتهم وسار إلى الشام وقد جمع واحتشد وأعد واستعد ، وصمم العزم على الجهاد ، وإجلاء أهل الزيغ والعناد ، وإعلاء كلمة الله تعالى ، وإدحاض كلمة الشيطان ، وتسليط أهل الحق على عباد الطاغوت وأتباع الصلبان ، وقصد إلى حصن الأثارب ونازله ، وأنزل بأهله التثريب ، وعم بلادهم بالنهب والاحراق والتخريب • وكان هذا الحصن أضر شيء على أهل حلب ، وكانوا مع من فيه من الفرنج مابين حزب وحرب ، وقد اجتمع فيه من فرسان الفرنج وذوي البأس ، كل معروف بشدة المراس ، إذ هو من أخطر ثغورهم ، وهو من المسلمين في نحورهم ، فتابع الشهيد ، وأدمن نزالهم ، وصب عليهم العذاب من كل مكان ، ولاذ من به من سطوته وبأسه بالجدران ، وعمهم الرعب فصاروا يحسبون كل صيحة أنى يسلكون ، وسقط في أيديهم وضل عنهم ماكانوا يفترون ، ومع هذا فقد حفظوا حصنهم وأحسنوا الذب عنهم وعنه . فلما علم ملك الفرنج الحال ، جمع الفرسان الفرنجية واستشارهم في الذي يصنعون ، وبأي حيلة في دفعه عن بلادهم يدافعون فأما أهل الغرة والجهل فهو نوا حاله ، وبذلوا من انفسهم قتاله ، ظنا منهم أنه كمن تقدم من الملوك ، لايستعملون غير الفرار من الزحوف ، والاحتماء بعريض الأسوار لابحداد الأسنة ورقاق السيوف ، فعارضهم بعض من حضر من شياطينهم وذوي الرأي والتجربة من طواغيتهم ، وقال : إني أرى شرار سيكون له ضرام ، ودخانا تحته شواظ ، أليس هذا الغضنفر الذي أثر في طبرية بمفرده ماأثر ، فكيف به اليوم وهو في عدة وعديد ، ومتطوعة وجنود ، فالقوا قناع التواني ،

ولاتسيروا إلى دفعه سير السواني(٢٣) ، فلابد لهذا العارض أن يملأ بسيله الوادي ، ولهذه النار أن تعم بشررهـا النادي ، ولهـذا الاقدام أن يصل ضرره إلى الحاضر والبادي ، ولئن لم نلقه بجمـوع ننتصف منه بها ، ونلحقه بمن تقدمه من مقـدمي الجيوش ، ليكونن لنا منه يوم عصيب ، وليأخذن المسلمين منا بأوفر نصـيب ، فحينئذ إهتموا بجمع الفرسان والأجناد ، وأحضروا من في أطراف البلاد ، وجمعوا الداني والقاصي ، والمطيع والعـاصي ، وأقبلوا في جمـوعهم المحشورة ، وعساكرهم المجرورة ، وأعلامهم المنشورة ، وصلبانهم وبنودهم ، وملوكهم وفرسانهم وكنودهم ، وجاءوا إليه وقد غص بهم من الأرض جنوبها ، وامتلأ منهم شمالها وجنوبها ، هذا والرعب قد ألقاه الله في قلوبهم فهم منه وجلون ، والخـوف قـد عم رئيسـهم ومرؤوسهم فهم منه خائفون ، يقدمون في مسيرهم رجلا ويؤخـرون أخرى ، ويعتقدون أن المقام بهم أولى وأحرى ، لكن آجالهم تسوقهم إلى مصارعهم ، فهم نحوها يبرزون ، وكأنمـا يسـاقون إلى الموت وهم ينظرون .

فلما تدانى الزحفان استشار المولى الشـهيد وزراءه وأمـراءه ، فأشار أكثرهم بالعود إلى حلب ، ومطاولة الفرنج إلى أن يتفرقوا ، فقال : هذه خطة خسف تجرئهم علينا ، وتطمعهم فيمـا لدينا ، لكن الرأي أن نستعين بالله عليهـم ونلقـاهم ، فإمـا لنا وإمـا علينا ، وتأهب للقائهم ، وسار إلى تلقائهم ، فلم يبعد حتـى وافـاهم ، ولم يغب الحصن عنه حتى أتـاهم ، ونشـبت الحـرب بين الفـريقين ، واشتد الطعن والضرب بين الطائفتين ، وحمـي الشـهيد للاسـلام وانتصر ، ولبس لأعدائه جلد النمر ، وصال عليهم وزأر ، وقال لهـم ذوقوا من سقر ، وظل يوسعهم بحملاته حطما ، ويستأصل أركانهم هدما ، ويحرض أصحابه ويدمنهـم وبتتـابع الحمـلات عليهـم يأمرهم .

فحيث رأى الفرنج ماقد أحاط بهم من البلاء ، وعمهم من الشدة واللاواء ، علموا أن الهزيمة أصلح لهم من العطب ، وأنى لهم ذلك

وقد علقت معالقها وصر الجندب (٢٤) وحيل بينهم وبين مايشتهون ، كما فعل بأشياعهم من قبل ، وكثر فيهم الأسر والقتل .

فلما تعذرت عليهم الهزيمة ، حموا انفسهم اللئيمة ، وأمرهم ملوكهم بالصبر والثبات ، والجلاد عن البنين والبنات ، والآباء والأمهات ، والاخوان والأخوات ، فحينئذ صدقوا القراع ، وأحسنوا المصاع ، وصال ملوكهم وقمامصتهم وفرسانهم وداويتهم وقاتلوا قتال من أيس من النجاة بالانهزام ، فطالبهم بصدق القتال والاقدام ، ولقيهم الشهيد لقاء محتسب للآخرة .

فأثبت في مستنقع الموت رجله
وقال لها من تحت أخمصك الحشر

ففلق هو وأصحابه الهام ، وبروا العظام ، وأجلت الوقعة عن رؤوس بلا غلاصم ، وأيد بغير معاصم ، وأخذت سيوف الله من أعناق أعدائه أغمادا ، وأدركت خيله منهم ثأرا وأحسنت جلادا ، وأمر الشهيد فيهم بالاثخان ، ومنع من الأسر واعطاء الأمان ، فملأت جثث القتلى تلك الصحراء في الطول والعرض ، وتأول قوله تعالى (ماكان لنبي ان يكون له اسرى حتى يثخن في الأرض (٢٥) وقصد ان يملأ قلوبهم رعبا ، ويذعرهم عن البلاد سربا سربا ، فلم ينج من المعركة إلا من اتخذ الليل جملا أو ابتغى بالاختفاء بين القتلى موئلا. فلما استمر له النصر ، وآل به الى الظفر الصبر ، رجع الى الحصن فملكه عنوة وقهرا ، وعم كل من فيه قتلا وسبيا وأسرا ، ولقد سمعت من يحكي ان عظام القتلى لم تزل بتلك الأرض مدة طويلة ، ولما ملك الحصن أخرب به ومحا أثره ، وأزال من تلك الأرض ضرره ، كما قال فيه الشاعر حيث يقول :

ماربع مية معمورا يطيف به
غيلان أبهى ربي من ربعها الخرب

ولاالخدود وأن أدمين من خجل
اشهى الى ناظري من خدها الترب (٢٦)

قال : ثم رحل الى حصن حارم فحصره ، فأنفذ من لم يحضر المعركتين من الفرنج ومن نجا منهما يسألون الصلح ، ويبذلون له المناصفة على ولاية حارم ، فأجابهم الى ذلك، لأن عسكره كان قد كثر فيهم الجراحات والقتل ، فأراد أن يستريحوا ويريحوا ، فهادنهم وعاد عنهم وقد ايقن المسلمون بالشام بالأمن وحلول النصر ، وسيرت البشائر الى البلاد ، وأعلنت في الحاضر والبادي .

ذكر وفاة السلطان الملك مغيث الدين محمود بن محمد بن ملكشاه

في سنة خمس وعشرين وخمسمائة توفي السلطان محمود بهمذان ، وكان عمره نحو ثمانية وعشرين سنة ، وكانت ولايته ماتقارب أربع عشرة سنة ، وكان حليما كريما عاقلا عادلا كثير الاحتمال ، ووزر له أبو القاسم الأنسابا ذي ، وهو الذي سعى بالعزيز المستوفي حتى قبض وسلم الى بهروز شحنة العراق فسجنه بتكريت ثم قتل سنة ست وعشرين .

ولما توفي السلطان محمود ، طلب السلطان مسعود بن محمد السلطنة ، وطلبها أخوه سلجوق شاه بن محمد ، والملك داود بن السلطان محمود ، وكان بينهم حروب كثيرة ، نذكر منها ما كان للشهيد عماد الدين – قدس الله روحه – فيها اثر وفعل ، ونترك الباقي اذ هو خارج عن غرضنا .

ذكر ملك السلطان الملك العادل مسعود والحروب الحادثة الى ان ملك

لما مات السلطان محمود ، اتفق الوزير الأنساباذي وأتابك سنقر الاحمديلي على (تولية) ولده الملك داود بن محمود ، وخطبوا له في جميع بلاد الجبل وأذربيجان ، وساروا الى زنجان .

وكان السلطان مسعود بكنجة ـ وهي له ـ فلما بلغه موت أخيه سار الى تبريز فملكها ، فسار إليه الملك داود فحصره بها ، ثم افرج عنه حتى خرج منها وقصد بلاد الأمير قفجاق ، فاجتمعت العساكر عليه بها سنة ست وعشرين وخمسمائة ، وسار إلى بغداد وهو في عشرة آلاف فارس ، وسار قراجة الساقي صاحب خوزستان وفارس إلى بغداد ، ومعه الملك سلجوق شاه ابن السلطان محمد ، وقراجة يريد أن يأخذ السلطنة لسلجوق شاه ، وقد اجتمع معه عسكر عظيم ، وأتاه جماعة من الأمراء الكبار ، منهم يوسف جاووش وغيره ، فسبق سلجوق شاه أخاه السلطان مسعودا الى بغداد ونزل بدار السلطنة ، وارسل السلطان مسعود الى الشهيد عماد الدين ـ قدس الله روحه ـ يستميله ويستنجده ، فأجابه الى ما طلب منه ، وسار عن الموصل الى بغداد ، فبلغ تكريت ليجتمع بالسلطان مسعود ، وكان السلطان مسعود قد وصل عباسية الخالص قريب بغداد .

فلما سمع قراجة وسلجوق شاه بوصول الشهيد إلى تكريت ، عبر قراجة الى الجانب الغربي ، وأسرى الى تكريت في عسكره جميعه ، ولم يخاف ببغداد مع سلجوق شاه غير عدد يسير ، ولم يزل يسير حتى وصل تكريت في يوم وليلة ، فواقعه الشهيد فهزمه قراجة وأسر اكثر أصحابه ، وعاد إلى بغداد .

وأما الشهيد ، فإنه عاد من الهزيمة الى الموصل فجمع العساكر وأذفق الأموال فعادوا كأنهم لم يصابوا .

وأما السلطان مسعود ، فإنه تقدم من العباسية ، وجرى بينه وبين أخيه سلجوق شاه مناوشة ، فلما بلغه خبر الهزيمة الكائنة على الشهيد ، فت ذلك في عضده ، وأضعف نفسه فعاد إلى ورائه .

وكان قد وصل الخبر بوصول السلطان سنجر الى نواحي همذان ـ وكان قد خرج في عساكر لا تحصى من خراسان ، ومعه الملك طغرل ابن السلطان محمد ليرتبه في السلطنة ـ فلما اتصل خبر وصوله ارسل الخليفة المسترشد بالله الى السلطان سنجر ، فأقام وترددت الرسل واستقر الصلح على ان تكون السلطنة ، لمسعود ويكون سلجوق شاه ولي عهده وعاد السلطان مسعود الى بغداد ونزل بدار السلطنة ، وحضر اخوه سلجوق شاه في خدمته .

وسارا جميعا الى قتال عمهما السلطان سنجر ، والزما المسترشد بالله بالمسير معهما فامتنع ، فتهدده قراجة الساقي ، فخرج مكرها منها وسار بعدهما .

وأرسل السلطان سنجر الى الشهيد يأمره ان يقصد بغداد هو ودبيس بن صدقة ملك العرب ـ وكان دبيس عند الشهيد على ما نذكره ان شاء الله تعالى ـ ويستوليا عليها ، ويخطبا له ببغداد وبعده للملك طغرل .

ذكر الحرب بين السلطان سنجر والسلطان مسعود

لما سار السلطان مسعود وأخوه سلجوق شاه ابنا محمد إلى حرب عمهما السلطان سنجر ، جعلا على المقدمة يرنقش بازدار ، ويوسف جاووش ، وحسين أوزبك ، وهم من اكابر

الأمراء ، فلقيتهم طلائع السلطان سنجر بداي مرج ، فرجعوا الى كرمان شاه ، وكان على مقدمة السلطان سنجر ، الملك طغرل بن محمد ، وخوارزمشاه ، والأمير قماح ، ورحل السلطان سنجر من همذان يريد السلطان مسعودا ، فعاد مسعود عن طريقه ، فتبعه السلطان سنجر فالتقيا قرب الدينور ، وكان العسكران كالبحرين كثرة وكان على ميمنة السلطان سنجر طغرل وقماح ، وعلى ميسرته خوارزمشاه ، وعلى ميمنة السلطان مسعود ، قراجة الساقي ، والأمير قزل ، وكان قد واطأ خوارزمشاه على الهزيمة بين يديه ، ليقع الوهن في عسكر السلطان مسعود ، فلما التقى العسكران ، حمل خوارزمشاه على قزل فانهزم ، واختلطت العساكر ، وارتفع العجاج ، وكان يوما مشهودا ، وحمل قراجة الساقي على القلب ـ وفيه السلطان سنجر في عشرين الف فارس ، هم اعيان العسكر وشجعانهم وبين يديه الأفيلة ـ فلما تقدم الى القلب ، حمل طغرل وخوارزمشاه فيمن معهما ، فأتوه من وراء ظهره فصار في الوسط ، فقاتل إلى أن جرح ، وقتل كثر من أصحابه وأخذ اسيرا ، وانهزم السلطان مسعود ، وقتل يوسف جاووش ، وحسين أوزبك في المصاف ، وكان ذلك ثامن رجب .

ونزل السلطان سنجر ، وأرسل بعض خواصه الى السلطان مسعود ، وقد بلغ خونج ، وأمنه واستدعاه اليه ، فحضر عنده وعاتبه على اقدامه عليه ، فاعتذر ونسب ذلك الى ايتكين الخادم ، فأمر به فضربت عنقه .

وأمر السلطان بالمسير الى كنجة . فحكى لي والدي عن جماعة حضروا ذلك المصاف ، قال : أحضر السلطان سنجر قراجة الساقي وعاتبه على فعله ووبخه ، وقال له : اذا حاربني اولاد اخي فليس يبعد ان يطلبوا السلطنة ، وأما انت ، فما كنت تريد حتى تجمع العساكر وتوكب الناس على قتالي ، أكان يصير لك من الملك أكثر من بلاد فارس وخوزستان . قال : كنت أرجو أن أظفر بك وأقتلك ويكون أولاد أخيك بحكمي ، أقيم من أريد وأعزل من أريد . فغضب

السلطان سنجر منه وامر بقتله ، فقتل ، وأمر ان يشق صدره عن فؤاده فما رأى اكبر منه ، فألقى عليه حجرا كبيرا فلم يبعجه ، فقال : من يكون هذا فؤاده يحدث نفسه بما قال .

وخطب لطغرل ابن اخيه بالسلطنة في همذان ، واصفهان ، والري ، وسائر بلاد الجبل .

وجعل في وزارته ابا القاسم الانساباذي وزير السلطان محمود .

ذكر وصول الشهيد الى بغداد وهزيمته

ولما سار المسترشد بالله عن بغداد مع السلطان مسعود ، أقام بخانقين ينظر ما يكون من مسعود ، فلما سمع بهزيمته وقتل قراجة ، رجع الى الدسكرة ، فأتاه الخبر بوصول اتابك الشهيد عماد الدين زنكي ودبيس بن صدقة الى بغداد ، فأسرع العود اليها ، وعبر الى الجانب الغربي فيمن معه من العساكر ، وكان فيهم كثرة ، فالتقوا لثلاث بقين من رجب سنة ست وعشرين وخمسمائة ، فحكى لي والدي عن جماعة من أصحاب الشهيد ممن حضر المصاف ، قالوا : اشتد القتال وظهرنا على عسكر الخليفة ، ولم يبق غير أن ينهزموا ، فرأينا خيمة سوداء قد نصبت عند المعركة ، وخرج المسترشد بالله منها راكبا بسواده وبيده سيف مسلول ، فكلهم قالوا لما رأيناه : لحقنا دهشة ورعدة حتى كاد السلاح يسقط من أيدينا ، فكانت الهزيمة علينا ، ولم نطق الثبات فانهزمنا ونحن لا نعقل ، وكان ابتداء الهزيمة من دبيس فانه قصد نحو الحلة ، وجمع جمعا وسار إليها، وبها جمال الدولة اقبال المسترشدي ، فالتقوا واقتتلوا فانهزم دبيس أيضا .

ذكر السبب في مصير دبيس عند الشهيد رضى الله عنه

كان دبيس بن صدقة بن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد (٥٣) ملك العرب صاحب الحلة ، قد جرى بينه وبين المسترشد بالله نفرة ووحشة غير مرة ، أوجبت شكوى المسترشد بالله منه الى السلطان محمود والسلطان سنجر ، وجرى له أقاصيص طويلة اقتضت الحال أخيرا إبعاده عن العراق .

وكان شريرا خبيث الطوية ، وكان من أشد الناس عداوة للشهيد عماد الدين وأكثرهم وقيعة فيه . فسار عن العراق سنة خمس وعشرين وخمسمائة ، عازما على قصد الشام ، الى حصن صرخد ليملكه . وسبب ذلك ان صرخد كانت بيد امير اسمه مكتوم ، فتوفي وخلف زوجة حدثت نفسها انها تملك الحصن ، فقال لها بعض اصحابها : إن هذا لا يتم لك الا برجل يتزوجك من الأمراء الأكابر ، وحسن لها الاتصال بدبيس ، فأرسلت اليه تدعوه ليتزوجها وتسلم إليه صرخد . فسار إلى الشام فلقيه سوء نيته . فضل في البر فأسره قوم من بني كلب ، وسلموه الى تاج الملوك (بوري) بن طغدكين أتابك ، صاحب دمشق ، فلما حصل عنده ، أرسل إليه الشهيد يطلبه منه وبذل فيه مالا ، فامتنع من تسليمه ، فتهدده أتابك بقصد بلاده ومحاصرتها ، فسلمه اليه . فلما صار عنده ، جازى اساءته باحسان ، وأنعم عليه وخوله واعطاه المال والخيام والسلاح والخيل وكل ما يحتاج اليه الملوك ، وبالغ في اكرامه إلى غاية لا مزيد عليها .

ولما اتصل خبر مصير دبيس إلى دمشق بالمسترشد بالله ، أرسل الى تاج الملوك مع سديد الدولة بن الأنباري صاحب ديوان الانشاء ببغداد ، يطلب منه ان يسلم دبيسا اليه ، فلما وصل دمشق وعلم بمصير دبيس عند الشهيد ، تسمح وذكره بما يكرهه ، فاتصل ذلك

بالشهيد ـ وكان له في كل بلد من يطالعه بالأخبار ـ فامتعض لذلك ، وأرسل الى البرية وشحنها بالرجال ، وأمرهم بأخذ ابن الانباري وحمله ، فلما عاد أخذ بنواحي الرحبة وحمل الى الشهيد فحبسه بالموصل ، فأرسل الخليفة المسترشد بالله يشفع فيه ، فأطلقه وأحسن إليه .

وهذه كانت عادة الشهيد في حزمه واحتياطه ، لا يمكن رسول ملك يعبر في بلاده بغير امره ، واذا استأذنه رسول في العبور في بلاده ، أرسل اليه من يسيره ولا يتركه يجتمع بأحد من الرعية ولا غيرهم ، فكان الرسول إليه يدخل بلاده ويخرج منها ، ولم يعلم من أحواله شيئا البته .

وفي هذه السنة ـ اعني سنة ست وعشرين وخمسمائة ـ ملك الشهيد قلعة بهمرد من ديار بكر . فانظر الى هذه الهمة ، قد كان في هذه السنة من الامور العظيمة واختلاف السلاطين وانهزامه دفعتين . ولم يشغله ذلك عن زيادة في ملكه ، بمثل هذا الحصن العسير .

ذكر حصر المسترشد بالله امير المؤمنين الموصل

في ربيع الأول من سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، برز المسترشد بالله من بغداد الى الرحبة ، فنزلها وجمع العساكر ، وكان قد قصده عدة أمراء من العساكر السلطانية للخلف الواقع بينهم ، فقوي بهم المسترشد واستبد بالعراق وجبى الأموال ، وأرسل الامام ابا الفتوح الاسفرائيني الواعظ الى الشهيد ، فأغلظ له في القول ، فأهانه الشهيد غاية الاهانة وعاد إلى المسترشد بالله ، فعند ذلك سار الى الموصل في ثلاثين الفا ، فلما بلغ الخبر إلى الشهيد ، رحل عن الموصل في بعض عسكره ، وترك الباقي بالموصل مع نائبه بها نصير الدين جقر ، ونزل أتابك الشهيد

بظاهر سنجار ، فحدثني والدي قال : نزل المسترشد بالله على الموصل في عسكر عظيم ، وحفظها نصير الدين احسن حفظ ، وقام فيها المقام المرضي . وكان الشهيد يرسل السرايا يقطع الميرة عن عسكر الخليفة محاصرا لها نحو ثلاثة اشهر فلم يظفر منها بشيء ، ولم يظهر له من العسكر بالبلد ما يدل على وهن وضعف ، فعاد إلى بغداد ولم يبلغ غرضا ، فقيل كان سبب عوده أن السلطان مسعودا أرسل إليه مع نصر الخادم – أمير الحاج – يشير بالعود ، فعاد وقيل بلغه عزم السلطان على قصد العراق ، فعاد وقيل غير ذلك ، وبالجملة فلو رأى أمارة ظفر وفتح لم يرحل. وكان عوده في الشباره ورأسل أتابك الشهيد فصالحه وسير إليه الشهيد الخدم والهدايا .

ذكر ملك الشهيد قلاع الحميدية

وفي هذه السنة وهي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ، استولى الشهيد رضي الله عنه على سائر قلاع الاكراد الحميدية وولاياتهم ، منها قلعة العقر وقلعة شوش وغير ذلك وسبب قصدها أنه لما ملك الموصل وأعمالها ، أقر الأمير عيسى الحميدي على ولايته ، ولم يعترضه في شيء مما بيده ، فلما حصر المسترشد بالله الموصل ، حضر الأمير عيسى عنده في جنده وجموعه ، وأمده بالأقوات وغيرها مما يحتاج اليه ، فلما عاد المسترشد بالله عن الموصل ، أمر الشهيد بحصر قلاع الحميدية ، فحوصرت مدة طويلة ، وقوتلت قتالا شديدا إلى أن فتحت في هذه السنة ، وأطمأن أهل سواد الموصل المجاورون لهؤلاء القوم ، فانهم كانوا معهم في خطة خسف.

وفي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ، سار الشهيد الى مدينة آمد فحصرها وضيق عليها واستوزر ضياء الدين بن الكفرتوثي .ثم رحل

عن آمد الى الشام فحصر مدينة دمشق . وفيها توفيت والدة الشهيد بالموصل .

في ذكر قتل امير المؤمنين الخليفة المسترشد بالله وخلافة الراشد .

كان السلطان مسعود سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ببغداد ، وقد ضعف امره وقوي امر اخيه الملك طغرل وملك سائر بلاد الجبل. فراسل السلطان مسعود ، المسترشد بالله يستميله ويطلب منه المساعدة على أخيه طغرل ، فاجيب إلى ذلك ، وأمده بالأموال والرجال فضعفت نفس السلطان مسعود عن المسير ، لان عمه السلطان سنجر ، كان يقوي أمر الملك طغرل ويشد منه . فلما رأى الخليفة تأخر السلطان مسعود عن المسير ، أرسل إليه يأمره بتعجيل الحركة ودفع اخيه عن البلاد ، فلم يفعل . فأعاد الامر ثانيا وكرر ذلك ، فلم يتحرك ، فأرسل إليه أخيرا جاولي القسيمي ، شحنة بغداد ، مضايقا له على المسير إلى بلد الجبل وإزاحة أخيه عن البلاد ، وأمره إن رأى من السلطان مدافعة ان يلقي خيمه . فلما علم السلطان حقيقة الامر ، عظم عليه ونادى في العسكر ليتجهزوا للرحيل . فبينما هم في التجهيز ليرحلوا ، واذ قد ورد الخبر بوفاة السلطان طغرل . وكانت وفاته في المحرم سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، فأسرع السير الى همذان ، واجتمعت عليه العساكر . واستوزر شرف الدين أنو شروان بن خالد.

ثم وقع الخلف في عسكره واستوحش منه جماعة من الأمراء منهم الامير قزل آخر ، ويرنقش بازدار ، وسنقر الخمار تكيني والي همذان ، وعبد الرحمن بن طغايرك وغيرهم ، وانفردوا عنه في عدد كثير وساروا نحو البشير لموافقة كانت بينهم وبين برسق بن برسق صاحب خوزستان ، واقاموا ينتظرونه وكانوا في سبعة آلاف فارس ، فسار اليهم السلطان مسعود جريدة في ثلاثة آلاف وكبسهم وهزمهم وفرق شملهم ، وولوا مدبرين نحو بغداد ، فوصلها منهم

يرنقش بازدار ، وقزل آخر ، وسنقر الخمارتكيني ، وأخبروا المسترشد بالله عن سوء ضمير السلطان له ، ووعدوه النصر والمساعدة عن انفسهم وعن جماعة من أكابر الامراء ، وحسنوا له قتال السلطان ، فأجابهم الى ذلك ، وقطع خطبة السلطان ببغداد ، وسار عنها في شعبان من هذه السنة . واتاه في الطريق برسق بن برسق ، فاجتمعوا في سبعة آلاف فارس ، واستخلف في بغداد جمال الدولة اقبال في ثلاثة آلاف فارس ، وراسل أصحاب الاطراف ، المسترشد بالله يبذلون له الطاعة ، فتريث في الطريق ، فاستصلح السلطان مسعود أكثرهم فمالوا إليه وساروا نحوه . وكان قبل اصلاحهم في نحو ثلاثة آلاف فارس ، فصار في خمسة عشر ألفا ، وأرسل إليه أتابك الشهيد نجدة فوصلت بعد المصاف .

وسار الخليفة الى داي مرج ، فلما علم السلطان وصوله ، استعد لقتاله وسار إليه فعبأ الخليفة عسكره ، وكان في الميمنة يرنقش بازدار ، وسنقر الخمار تكيني ، وبرسق بن برسق والغلمان الدارية . وكان في ميسرته جاولي وغيره . ووقف الخليفة في القلب ، والتقوا عاشر رمضان ، والتحم القتال ، فغدرت ميسرة الخليفة ومالت الى السلطان ، وأحاطت عساكر السلطان بالخليفة وعساكره ، وكثر القتل والأسر في عسكر الخليفة ، وأفضى الأمر إلى أن أخذ بعنان فرسه وأنزل وقبض عليه ، وقبض ايضا الوزير شرف الدين الزينبي ، وقاضي القضاة ، وكمال الدين بن طلحة صاحب المخزن ، وابن الانباري كاتب الانشاء ، وخلق كثير ورفعوا الى قلعة سرجهان بقرب زنجان ، وغنموا كل ما في العسكر .

وأنفذ السلطان (بك ابه المحمودي) (٢٨) شحنة إلى بغداد ، فوصلها سلخ رمضان ومعه عبيد ، فقبض جميع أملاك الخليفة ، وثارت الفتنة ببغداد ووثب العامة على الشيعة ، فقتل الشحنة منهم جماعة ، وجرى يوم العيد فيها فتنة ، وقتل جماعة ونهبت الأموال ، وبقى الخليفة المسترشد بالله في القبض إلى سادس عشر ذي القعدة ، فاتفق أن رسول السلطان سنجر وصل الى السلطان

مسعود ، فخرج الى لقائه واشتغل الناس بذلك ، فهجم على الخليفة أربعة عشر نفرا من الباطنية ، وبقي خارج الخيمة عشرة رجال ، فضربوه بالسكاكين فجرحوه خمسا وعشرين جراحة ، وقطعوا رأسه ، وشقوا جوفه ، وجدعوه ، واخذوا ثيابه وتركوه عريانا . وكانت خيمته خارج العسكر ، وقتل إمامه ابن سكينة ، وإنسان هاشمي . ووقع الخبر في العسكر ، فركبوا في السلاح وقتلوا عشرة من الباطنية وهرب اربعة عشر . وبقي المسترشد بالله مطروحا يوما وليلة ، فجاء أهل مراغة فحملوه الى البلد وكفنوه ودفنوه بمقبرة سنقر الاحمديلي .

وكتب السلطان مسعود الى شحنة بغداد ـ وهو الامير بك ابه ـ ، يأمره بالبيعة للأمير أبي جعفر المنصور بن المسترشد بالله ، فبايعه يوم الاثنين السادس والعشرين من ذي القعدة .

وحضر بيعته عشرون رجلا من أولاد الخلفاء : أولاد المقتدي بأمر الله عم والده ، وأولاد المستظهر بالله عمومته ، وأولاد المسترشد بالله أخوته . ثم بايعه الهاشميون ، ثم القضاة ، والعلماء والأمراء وغيرهم . وتلقب الراشد بالله ، واستقرت الخلافة له .

ذكر عمر المسترشد بالله وشيء من سيرته رحمه الله تعالى

قال . كان مولده في شعبان سنة ست وثمانين وأربعمائة . وكان عمره ثلاثا وأربعين سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام . وكانت خلافته سبع عشرة سنة وسبعة وأشهر . وأمه أم ولد . وكان شهما شجاعا ، مقداما ، فصيحا .

وتمكن في خلافته تمكنا عظيما ، لم يره احد ممن تقدم من الخلفاء من عهد المنتصر بالله الى خلافته ، إلا أن يكون المعتضد بالله والمكتفي بالله ، لأن المماليك كانوا قديما يخلعون الخلفاء ويحكمون عليهم ،

ولم يزالوا كذلك الى ملك الديلم واستيلائهم على العـراق ، فـزالت هيبة الخلافة بالمرة إلى انقراض دولة الديلم ، فلمـا ملك السـلجقية جددوا من هيبة الخلافة ماكان درس لا سيما في وزارة نظـام الملك ، فانه أعاد الناموس والهيبـة إلى أحسـن حـالاتها ، إلا أن الحـكم والشحن بالعراق كان للسلطان وكذلك العمداء وضمان البـلاد ، ولم يكن للخلفاء إلا اقطاع يأخذون دخله ، وأما المسـترشد بـالله فـانه استبد بالعراق بعد السلطان محمود ، ولم يكن للسلطان معه في كثير من الأوقات سوى الخـطبة ، واجتمعـت عليه العسـاكر ، وقـاد الجيوش وباشر الحروب . وقـد أتينا على ذكر ذلك في المسـتقصى في التاريخ .

ذكر مسير الراشد بالله أمير المؤمنين إلى الموصل مـع أتابك

في سنة ثلاثين وخمسمائة ، سار الراشد بالله الى الموصل صحبة أتابك عماد الدين زنكي ملتجئا إليه . وكان سبب ذلك ، أن العسـاكر السلطانية اختلفـت على السـلطان مسـعود ، وكذلك أصـحاب الأطراف ، وتراسلوا في الاجتمـاع على قتـاله وإقـامة سـلطان يرتضونه ، واستقر بينهم الاجتماع ببغداد ، فسار أتابك الشهيد من الموصل الى بغداد ، وقدمها الملك داود بن السلطان محمود في عسكر أذربيجان ، وورد إليها يرنقش بازدار في عسكر قـزوين . وكان مـع الملك داود الأمير عنتر بن أبي العسكر الحلواني يدير امـره ، فلمـا اجتمعت العساكر ببغداد حسنوا للراشد الخروج معهم عن بغداد إلى السلطان مسعود ومحاربته ، فأجابهم الى ذلك ، وكان وزيره حينئذ جلال الدين أبا الرضى محمد بن أحمد بن صـدقة الذي صـار وزيرا لأتابك الشهيد فيما بعد . واجتمعوا على العزم في صفر سنة ثـلاثين وخمسمائة . وظهر من الراشد بـالله تنقـل في الأحـوال ، وتلون في الأراء ، وقبض على جماعة من أعيان اصحابه ، منهم : استاذ الدار

ابو عبد الله الحسين بن جهير ، وجمال الدولة إقبال المسترشدي ، واراد القبض على وزيره جلال الدين بن صدقة ، فركب في موكبه إلى أتابك الشهيد ، فنزل في خيمه ، فأجاره وأمنه ، فركب الشهيد ووقف مقابل التاج ، وأرسل يشفع في الذين قبض عليهم الراشد شفاعة تحتها إلزام وحكم ، فأطلقوا إقبال ، وسلم إقبال المسترشدي إلى الشهيد ، لأنه أظهر من العناية بأمره أكثر من غيره . فلما وصل إلى خيمه أكرمه واحترمه وأحسن أليه ، ولم يجازه على ماكان منه قديما من عداوته . ثم إن قاضي القضاة الرينبي خاف من الخليفة أيضا ، فالتجأ إلى الشهيد فأمنه وأحسن إليه ، وقرر مع الملك داود أن يستوزر جلال الدين بن صدقة ، فاستوزره في ربيع الاخر .

ثم ورد الخبر ، ان الملك سلجوق شاه بن السلطان محمد وصل الى واسط في جمادى الأولى في عسكر كثير ، فانحدر أتابك الشهيد أليه ليحاربه ، فوقع الخلف بين سلجوق شاه وبين أتابكه البقش ، وراسل البقش فاستماله وحذره من سلجوق شاه فمال إيه ، وسار هو وجماعة من الأمراء إلى عسكره وفارقوا سلجوق شاه .

وعاد الشهيد وأصلح أمر الوزير ومعه البقش وجماعة الأمراء ، فازداد أتابك الشهيد عظمة وعلو محل وكانوا لايصدرون الا عن امره ورأيه .

ثم عاد الشهيد وأصلح أمر الوزير جلال الدين بن صدقة مع الراشد ، وإعادته إلى وزارته . وكثر الفساد في العراق ، وتطرق المفسدون والعساكر إلى نهبه ، فنهبوا الحريم الظاهري ، وشارع دار الرقيق ، وكثيرا من بلد دجيل ، وبعض طريق خراسان ونهبت الاموال ايضا ببغداد علانية لامانع لهم من ذلك .

ثم أن السلطان مسعودا سار نحو العراق ، فبلغ الشماسية في عسكر كثير ،فأراد من ببغداد من الملوك والامراء قتاله ، ثم خافوا لما راوا ماعندهم من الخلاف وتلون الخليفة الذي معولهم عليه ، وتقدم

السلطان مسعود إليهم فحصرهم نيفا وخمسين يوما ، فتسال عسكره وقلوا ، فعاد إلى النهروان عاز ماعلى العود إلى بلد الجبل ، فوصله بالنهروان طرنطاي صاحب واسط ، واخبره بما معه من السفن والمقاتلة في الماء ، فسار السلطان مسعود اليها وعبر فيها تحت بغداد ، وعبرت العساكر التي كانت ببغداد الى الجانب الغربي لمنعه فسبقهم . فلما رأوا ذلك علموا قوته فعاد كل منهم الى بلده وولايته .

وخرج الراشد بالله من دار الخلافة ، ونزل على أتابك الشهيد ملتجئا إليه ، ومعه وزيره ابن صدقة وجماعة من الخدم والأتراك وسار معه إلى الموصل ، واستقر السلطان مسعود ببغداد في ذي القعدة .

وأقام أتابك الشهيد للخليفة كل مايريدوه ، وبالغ في ذلك ، وأرسل إليه من الأموال والعروض والآلات مالا حد عليه . وأقام بالموصل إلى أن سار على مانذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر خلع الراشد بالله أمير المؤمنين وخلافة المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين رضي الله عنهما اجمعين

لما سار الراشد بالله عن بغداد إلى الموصل صحبة أتابك الشهيد ودخلها السلطان مسعود عزم على خلع الراشد والبيعة لغيره بالخلافة ، ووافقه على ذلك الأمراء وأرباب المناصب فاحضر القضاة والشهود والفقهاء ، وأثبتوا محضرا شهدوا فيه بما أوجب خلعه ، فافتى الفقهاء أن من هذه صفته لايصلح للخلافة وحكم القاضي ابن الكرخي قاضي الحريم بخلعه فخلعوه حينئذ .

وسأل السلطان مسعود عمن يصلح للخلافة ، فأشار عليه شرف الدين الزينبي ، بابي عبد الله بن المستظهر بالله ، واشار غيره

بالعدول عنه ، وقال : انه رجل كبير قد جرب الامور وعرفهـا ، وان من الرأي للسلطان ان يبايع فتى صغيرا ليست له تجـربة ولا سـن عليه ،(ويأبي الله إلاأن يتم نوره ولوكره الكافرون) ، فوقع الاتفاق على أبي عبد الله ، فبايعه السلطان والأمراء ، والقضاة ، والفقهاء ، وسائر الناس ، وبايعه فيهم الشيخ أبـو النجيب الفقيه الصـوفي ، ووعظه موعظة بليغة . ولقب المقتفـي لامـر الله ، فلمـا اسـتقر في الخلافة ، أرسل إليه السلطان مـع وزيره كمـال الدين الدركزيني ، يسأله مايحتاج أليه ليقام به ، فقال للوزير : ماادري قدر مـانحتاج إليه ، لكن لنا ثمانون بغلا تنقل الماء من دجلة ـ مع قربها منا ـ من بكرة إلى آخر النهار للشرب لايستعمل منه في غيره شيء ، فـانظروا حينئذ ماوراء هذا فقوموا لنا به ، فعاد الوزير وقال للسـلطان : قـد كان الرأي في العدل عن هذا الرجل ، ولكن الامور مقدرة ، وقد رأيت من هذا الرجل مادل على وفور العقل وحسن التوصل إلى أغراضـه وعلى غاية المعرفة ، وذكر قوله . فلم يبق مـن الحـاضرين إلا مـن استحسن ذلك .

ولما اتصل خبر بيعته إلى الراشد بالله وأتابك الشـهيد ، أرسـلا رسولين إلى السلطان ، وأرسل الشهيد رسالة إلى الديوان العزيز ، فاما رسول الراشد فلم تسمع رسالته ، وأما رسول الشـهيد فـأنه أكرم كثيرا ، وكان الرسول عنه ، كمال الدين أبا الفضل محمد بـن عبد الله بن القاسم الشهرزوري ، فحكى لي والدي عنه انه قال : لما حضرت الديوان ، قيل لي تبايع امير المؤمنين . قـال ، فقلت : أمير المؤمنين عندنا بالموصل ، وقد بايعناه نحن وانتم والناس قـاطبة في شرق الارض وغربها ، وقد علمتم ماقيل في من يبايع آخـر ، وطـال الكلام وعدت الى منزلي ، فلما كان الليل ، جـاءتني امـرأة عجـوز سرا ، وابلغتني عن المقتفي لامر الله رسالة ، مضمونها العتاب على ماكان من الامتناع عن البيعة ، ومعها جملة صـالحة مـن التحـف والمال ، قال ، فقلت : غدا يظهر أثـر خـدمتي . فلمـا كان الغـد حضرت ، وقيل لي في أمـر البيعـة فقلت : إن الراشـد له في اعناقنا بيعة ، ولايجوز النكث إلا بما يوجب خلعـه ، وانا فقيه لايجـوز لي

فعل ماينافي الشرع ، فتثبتون مايوجب خلعه حتى أخلعه ، وأبايع عني وعن صاحبي ، فلما سمعوا هذا أحضروا المحضر المذكور ، فلما رآه وشهد به الشهود ، خلع الراشد وبايع المقتفي لأمر الله ، وقال : هذا أمير المؤمنين قد صار اليه خلافة الله في ارضه ، والسلطان فقد استراح ممن كان يقصده ويجمع عليه الجموع ، ونحن فلا بد لنا من هذا الدعوى نصيب ، فرفع قوله الى الخليفة (٣٠) فامر الخليفة ان يجري في اقطاع الشهيد من خاصه صريفين و« درب هارون » ويزاد في القابه ، وقال : هذه قاعدة لم يسمح بها لاحد من زعماء الاطراف ، ان يكون له في العراق اقطاع . واستحلف القاضي كمال الدين السلطان للشهيد ، واستنزله عما في نفسه منه .

وأما الراشد ، فإن السلطان سنجر أرسل إلى أتابك الشهيد يأمره بإخراجه عن بلده ، فسار إلى أذربيجان ثم إلى همذان ، واجتمع هو والملك داود ، ومنكبرس صاحب فارس ، وبوزابه صاحب خوزستان ومعهم عساكر كثيرة ، وسار السلطان أليهم فتصافوا واقتتلوا ، فقتل منكبرس وانهزم الراشد وقصد اصفهان ، فقتله الباطنية سابع وعشرين رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، ودفن باصفهان .

ذكر خروج ملك الروم ألى الشام ومافعله الشهيد

في سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، خرج ملك الروم من القسطنطينية ومعه خلق عظيم لايحصون كثرة من الروم والفرنج وغيرهما من أنواع النصارى ، فقصد الشام ، فخافه الناس خوفا عظيما ، وكان الشهيد مشغولا بما تقدم ذكره لايمكنه مفارقة الموصل ، فقصد ملك الروم مدينة بزاعة وحصرها - وهي على مرحلة من حلب - وفتحها عنوة ، فقتل المقاتلة وسبى الذرية في شعبان .

ثم سار عنها إلى شيزر – وهي حصن منيع على مرحلة من مدينة حماة – فحصرها منتصف شعبان ، ومعه من في الشام من الفرنج ، وهم الذين أشاروا عليه بقصد شيزر ، وقالوا له : إنها ليست لأتابك فلا يهتم بحفظها والذب عنها ، وكانت حينئذ للامير أبي العساكر سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني المنقذي ، فقصدها الروم وحصروها ونصبوا عليها ثمانية عشر منجنيقا ، وأرسل سلطان بن منقذ إلى الشهيد يستنجده – وكان على عزم المسير إلى الشام لما بلغه خبر خروجهم إليه – فجد السير في عساكره فنزل على حماة ، وكان يركب كل يوم في عساكره ويسير إلى شيزر بحيث يراه ملك الروم ، ويرسل السرايا تتخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب ، ثم يعود اخر النهار ، وكان الروم والفرنج قد نزلوا على جبل شرقي شيزر ، فأرسل إليهم الشهيد يقول لهم : إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال ، فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي ، فان ظفرتم أخذتم لشيزر وغيرها ، وأن ظفرت بكم ارحت المسلمين من شركم – ولم يكن له بهم قوة لكثرتهم ، وإنما كان يفعل هذا ترهيبا لهم – فأشار الفرنج على ملك الروم بلقائه وقتاله وهونوا أمره ، فقال لهم ملك الروم : أتظنون أن معه من العساكر من ترون ، وله البلاد الكثيرة ، وإنما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا فيه وتصحروا له ، فحينئذ ترون من كثرة عسكره مايعجزكم .

وكان أتابك مع هذا يراسل افرنج الشام ويحذرهم ملك الروم ، ويعلمهم انه إن ملك بالشام حصنا واحدا أخذ البلاد التي بايديهم منهم . وكان يراسل ملك الروم يتهدده ويوهمه ان الفرنج معه ، فاستشعر كل واحد من الفرنج والروم من صحبته ، فرحل ملك الروم عنها في رمضان . وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوما ، وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها . فلما سمع الشهيد برحيلهم سار خلفهم ، فظفر بطائفة منهم في ساقه العسكر فغنم منهم وقتل واسر ، واخذ جميع ماخلفوه ورفعه الى قلعة حلب (وكفى الله المؤمنين القتال) (٣١)

وكان المسلمون بالشام قد اشتد خوفهم ، وعلموا ان الروم ان ملكوا حصن شيزر ، لايبقى لمسلم معهم مقام ، لاسيما بمدينة حماة لقربها .

ولما يسر الله تعالى هذا الفتح ، مدح الشعراء الشهيد فأكثروا ، وممن مدحه المسلم بن الخضر بن قسيم الحموي فقال من قصيدة اولها :

بعزمك أيها الملك العظيم
تذل لك الصعاب وتستقيم

ويقول فيها
الم تر ان كلب الروم لما
تبين أنك الملك الرحيم

فجاء يطبق الفلوات خيلا
كأن الجحفل الليل البهيم

وقد نزل الزمان على رضاه
ودان لخطبه الخطب الجسيم

فحين رميته بك في خميس
تيقن أن ذلك لايدوم

وأبصر في المفاضة منك جيشا
فأحرن لايسير ولا يقيم

كأنك في العجاج شراب نور
توقد وهو شيطان رجيم

-٦٤٢٢-

أراد بقاء مهجته فولى
وليس سوى الحمام له حميم (٣٢)

وهي طويلة .

ومن عجيب ما يحكى في هذه الحادثة ، ان الخبر لما وصل بقصد الروم شيزر ، قال الامير مرشد بن علي ـ أخو صاحبها ـ وهو ينسخ مصحفا فرفعه بيده ، وقال : اللهم بحق من انزلته عليه ، إن قضيت بمجيء الروم فاقبضني إليك فتوفى بعد أيام ، ونزل الروم بعد وفاته .

ولما عاد الروم الى بلادهم ، سار أتابك إلى حصن عرقه ـ وهو من اعمال طرابلس ـ فحصره وفتحه عنوة ونهب ما فيه ، وأسر من به من الفرنج وأخربه وعاد سالما غانما .

وفيها توفي القاضي بهاء الدين علي بن القاسم الشهر زوري ، قاضي الممالك الأتابكية . وكان أعظم الناس منزلة عنده .

ذكر ملك الشهيد قلعة شهر زور

وأعمالها وما يجاورها من البلاد والجبال من يد قفجاق بن أرسلان تاش التركماني

وكان مالكا لها ، نافذ الحكم على قاصي التركمان ودانيهم ، يرون طاعته فرضا حتما ، فتحامى الملوك قصد ولايته ولم يتعرضوا لها لحصانتها ، فعظم شأنه وازداد جمعه ، وقصده التركمان من كل فج عميق .

فلما كان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، أبلغ أتابك الشهيد عنه

ما اقتضى أن يقصد بلاده ، فحذره أصحابه من ذلك وأشاروا بتركه ، علما منهم أن الحماة والذابين عن بلاده كثير ، وأنه إن ضـيق عليه سلم الولاية إلى السلطان مسعود ، فيصير مجاورا لولاية الشهيد فلم يرجع عن عزمه ، وسير إليه عسكرا كثيفا ، فجمع قفجاق مـن التركمان من يقدر على حمل السلاح ، فاجتمع عنده من الكثـرة مـا سد بهم الفضاء ، وتلقاهم عسكر الشهيد وقاتلهم ، وصبر عسـكره وتابعوا الحملات على التـركمان حتـى هـزموهم واسـتباحوا عسـكرهم ، فمضـوا منهـزمين لا يلوي أخ على أخيه ولا والد على ولده ، وسار العسكر عقب الهزيمة ودخلوا بـلادهم ، فملكوا شـهر زور وغيرها من البلاد وأضافوها إلى مملكتـه ، وأصـلح الشـهيد أحوال أهلها ، وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان .

ثم إن الشهيد عزم على المسير إلى الشام ، فإنه كان لايرى المقام بل لازال ظاعنا إما لرد عدو يقصده ، وإما لقصد بـلاد عدو ، وإمـا لغزو الفرنج وسد الثغور ، فكانت مياثر(٣٣) السروج آثر عنده من وثير المهاد ، والسهر في حراسة المملكة أحب إليه من عرض الوسـاد وأسد ، وأصوات السلاح الذ في سمعه مـن غناء القينات ، وإلقـاء القرن أشهى إليه من إضجاع الغانيات ، وفيما ذكرتـه وأذكره دليل على صحة ذلك .

ذكر حصار دمشق وبعلبك

وفي هذه السنة أيضا ، وهي سنة أربع وثلاثين وخمسـمائة ، سـار الشهيد في جنوده بعد ما ملك شهر زور إلى مدينة دمشق فحصرها ، وصاحبها حينئذ جمال الدين محمد بن بوري بن طغدكين .

وكان محمد محكوما عليه ، والغـالب على أمـره معين الدين أنر مملوك جده طغدكين ، وكان أتابك قد أمر كمال الدين أبا الفضل بـن الشهر زوري بمكاتبة جماعة مـن مقـدمي أحـداثها وزناطـرتها ،

واستمالتهم وإطماعهم في الرغائب والصلات ، ففعل ذلك ، فأجابه منهم خلق كثير إلى تسليم البلد ، وخرجوا متفرقين إلى كمال الدين وجدد عليهم العهود ، وتواعدوا يوما يزحف فيه الشهيد إلى البلد ليفتحوا له الباب ويسلموا البلد إليه ، فاعلم كمال الدين ، أتابك بذلك ، فقال : لا أرى هذا رأيا ، فإن البلد ضيق الطرق والشوارع ، ومتى دخل العسكر إليه لا يتمكنون من القتال فيه لضيقه ، وربما كثر المقاتلون لنا والمحاربون ، فنعجز عن مقاومتهم لأنهم يقاتلونا على الأرض والسطوحات ، وإذا دخلنا البلد اضطررنا إلى التفرق لضيق المسالك فيطمع فينا أهله ، وعاد عن ذلك العزم بحزمه وحذره ، ومن العجب ان محمد بن بوري صاحب دمشق توفي واتابك يحاصره ،

فضبط أنر الأمور وساس البلد ، فلم يتغير بالناس حال ، وأرسل إلى بعلبك وأحضر مجير الدين أبق بن محمد بن بوري ورتبه بالملك مكان أبيه – وكان صغيرا – فمشى الحال بتمكن معين الدين أنر وقوته . فلما وصل مجير الدين إلى دمشق ، أقطع بعلبك لمعين الدين أنر ، فأرسل إليها وتسلمها ، فلما علم الشهيد ذلك ، سار إلى بعلبك وحصرها عدة شهور فملكها عنوة وقهرا ، وترك بها نجم الدين أيوب دزدارا ، وعزم على العود عنها إلى دمشق ، فجاءه رسل صاحبها ببذل الطاعة والخطبة له فأجابه إلى ما بذل ، وعاد عن قصد دمشق وقد خطب له فيه وصار أصحابه (٣٤) في طاعته وحكمه .

ذكر فتح حصن بارين وهزيمة الفرنج

في هذه السنة ، وهي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، سار أتابك الشهيد رضي الله عنه ، إلى بلاد الفرنج وأغار عليها ، واجتمع ملوك الفرنج وقمامصتهم وكنودهم وفرسانهم ورجالتهم وساروا إليه . فلقيهم بالقرب من حصن بارين(٣٥) – وهو المسمى حينئذ بعرين – وهو للفرنج ، فالتقوا عنده ، فجمع الشهيد عساكره وحثهم على الجهاد ، وأشلاهم على الكفرة الاوغاد ، ورتب أطلابه ، وحرض أصحابه ، وحزب أحزابه ، وناوشهم القتال ، وأعملوا

الرماح والنبال ، ولم يزل هذا دأبهم حتى حمى الوطيس ، فحينئذ حملت الفرنج حملة اختلط فيها المرؤوس والرئيس ، وارتفع القتام ، واشتد اللزام ، وعظم الزحام ، وأديرت مترعة كؤوس الحمام ، وبطل العامل(٣٦) وعمل الحسام ، فمن ضربة تقط ، وأخرى تقد ، وثارت عجاجة كادت تحجب الشمس ، وخفت الاصوات فلا تسمع إلا الهمس ، وصبر الفريقان صبرا لم يسمع بمثله في سالف الدهور إلا مايحكي عن ليلة الهرير(٣٧) ، ونصر الله المسلمين نصرا عزيزا ، وأحلهم من عارفته محلا حريزا ، وأجلت الوقعة عن هزيمة الفرنج ، وأخذتهم سيوف المسلمين من كل ناحية وهرب ملوكهم وفرسانهم فدخلوا حصن بارين واحتموا به ، لأنه كان من أقرب حصونهم ، وسلموا عدتهم وعتادهم ، وكراعهم وأزوادهم ، وكثر فيهم القتل فهم بين الجريح بحد الصفاح ، ونصول السهام والرماح ، (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا (٣٨))

ثم سار الشهيد بعد الهزيمة إلى بارين وبه الفرنج ليحصره ، فحين نازله طاف به وقابله ، فرأى حصنا محلقا في الهواء ، مقارنا هامة الجوزاء ، قد فاق الجبال الراسيات وجازها سموا ، وقد تشمخ بأنفه عن أن يرام ، ونأى بجانبه عن أن يضام ، فلا ترمقه الابصار إلا عادت حسيرة ، ولاتؤمه الطيور إلا أضحت أجنحتها مهيضة كسيرة ، ومن به من ملوك الفرنج وفرسانهم ، وكهولهم وشبانهم ، واثقين بحصانته ، معتزين بعلو مكانه ومكانته ، متيقنين أن الحوادث لاتنالهم وهم به معتصمون ، وأن الأيام لاتنفذ سهامها فيهم وهم به مقيمون ، وقد وعدهم الشيطان النجاة (ولات حين مناص)(٣٩) ، وحقق عندهم السلامة وحيل بينهم وبين الخلاص ، (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا)(٤٠) ، وأنى يكون ذلك وقد أحدقت بهم الأسد في عرينها ، الذابة عن دين الله تعالى ودينها ، فحين رأى الشهيد هذا الحصن وارتفاعه ، ومن اجتمع به من شجعان الفرنج وفرسانهم ، المحامين عن أنفسهم وأهليهم وأموالهم وصلبانهم ، علم أنه لاينال بالتواني ،

ولايبلغ قتله بسير السواني ، فأعد واستعد ، وشمر في قتاله عن ساق الجد ، ونازله بعزم أعظم منه ، وقوة لاتعجز عنه ، وحصره وأحاط به كإحاطة الهالة بالقمر ، وبياض العين بسواد البصر . ورماه بسهام شهامته وضيق على من به الخناق ، وتابع الزحف إليهم ووالى القتال عليهم ، وأكثر من إرسال السهام وحجارة المجانيق حتى كادت تحجب الهواء ، وتحول بينهم وبين السماء ، وكانت فوق من به كسحاب لمعان نصولها برقه المتألق ، ووقع الاحجار رعدة المتبعق ، إلا أنه سحاب يمطر المنايا ، وينبت الحتوف والرزايا ، فحينئذ استخذى الحصن وانخذل ، واستسلم لصولة هذا الهمام البطل ، وألقى إلى الاستسلام بيده ، ولم يذفعه حصانته وكثرة عدده وعدده ، كما قال فيه بعضهم :

بادي المعالم أطرقت شرفاته
إطراق منجذب القرينة عان
أغضى كمستمع الهوان تغيبت
أنصاره وخلا عن الخلان

ولا عار على من افترسه الغضنفر ، ولانقيصة على من أذعن لصولة الموت الاحمر ، فما كل غانية هند ، ولا كل ذات سوار دعد ، ولما عاين من به الهلاك راسلوا في طلب الامان ليسلموا ، وسألوا في حقن دمائهم ليستسلموا ، وهو لايصغى الى مقالتهم ، ولايسمع رسالتهم ، وقد قوى عزمه على أخذه قهرا ليملك بهم سائر بلادهم ، ويريح المسلمين بعد هذه الوقعة من قراعهم وجلادهم . فبينما هم كذلك ، بلغه أن من بالساحل من الفرنج الناجين من المعركة ، السالمين من الهلكة ، قد ساروا الى بلاد الفرنج والروم في البحر يستجدونهم ويستنصرونهم ، وينهون إليهم ما دهمهم وبلادهم ، وما فيه ملوكهم وقمامصتهم من الحصر وأكنادهم ، وأن أولئك قد جمعوا وحشدوا ، وإلى المسير نحوه فقصدوا ، فحينئذ جد في الحصار وأذكى العيون ، وعمل على التضييق ، على من بالقلعة ومنع كل شيء عنهم حتى الاخبار ، وأقبلت الامداد من سائر انواع النصرانية إلى

الساحل من كل حدب ينسلون ، وإلى تلبية من بـه مـن إخـوانهم يهرعون .

هذا ومن بالحصن لايعلمون بشيء من ذلك ، وقد تيقنوا أنهـم عن قريب ما بين مأسور وهالك ، فـأعادوا لمراسـلته في طلب الامـان ، فأجابهم إليه بعد أن علم وصول الامداد إلى السـاحل واجتمـاعهم على من به من أهله فلما أجابهم إلى الامان وتسليم الحصـن منهـم سلموه وهم لايصدقون بـالنجاة ، وسـاروا عن الحصـن يومـا ، فلقيتهم أمداد النصرانية ، فسألوهم عن حالهم فـأخبروهم بتسـليم الحصن ، فلاموهم ووبخوهم وعنفوهم ، وقالوا : عجزتم عن حفظه يوما أو يومين .

فحلفوا لهـم أننا لم نعلم بـوصولكم ، ولم يبلغنا عنكم خبـر منذ حصرنا إلى الان ، فلما عميت الاخبـار عنا ظننا أنكم قـد أهملتـم أمرنا ، وقعدتم عن نصرنا فحقنا دماءنا بتسليم الحصن وافتدينا به ماوراءه . وكان حصن بارين من أضر بلاد الفرنج على المسـلمين ، فان أهله كانوا قد خربوا ما بين حماة وحلب مـن البـلاد ونهبـوها وتقطعت السبل ، فأزال الله بالشهيد ـ رضي الله عنه ـ هذا الضرر العظيم .

وفي مدة مقامه على حصار بارين ، سير جندا إلى المعـرة وكفـر طاب وتلك الولاية جميعها فاستولى عليها وملكها ، وهي بلاد كثيرة وقرايا عظيمة .

ذكر حصار الروم والافرنج مدينة حلب

لما وصل الروم والفرنج الى الشـام لازالة الشـهيد عن حصـار بارين ومن بها من ملوك الفرنج ورأوا الامر قـد فـات ، لم يروا أن يخلو سفرتهم من أثر يؤثرونه في حمـاية دينهـم ويرجعـوا بخفـي

حنين ، فاتفقوا على قصد بعض بلاد المسلمين ومحاصرته ، لعلهم يظفرون بما يذهب عنهم غم مصيبتهم ويجبر كسرهم ، فساروا ونازلوا مدينة حلب وحصروها ، وهم في جمع لم يشاهد الناس مثله كثرة ، وهم مع ذلك موتورون ، فلم ير الشهيد أن يخاطر بالمسلمين ويلقاهم ، فانحاز عنهم ونزل قريبا منهم يمنع عنهم الميرة ، ويحفظ أطراف البلاد من انتشار العدو فيها والاغارة عليها ، وأرسل القاضي كمال الدين بن الشهر زوري الى السلطان مسعود ينهي إليه حال البلاد وكثرة العدو ، ويطلب منه النجدة وإرسال العسكر .
فحكى لي والدي عن كمال الدين ، قال : قلت للشهيد لما أرسلني : أخاف أن تخرج البلاد من أيدينا ، ويجعل السلطان هذا حجة وينفذ العساكر ، فاذا توسطوا البلاد ملكوها . فقال الشهيد : إن هذا العدو قد طمع في البلاد ، وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام ، وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار . قال : فلما وصلت إلى بغداد وأديت الرسالة ، وعدني السلطان باذفاذ العساكر ، ثم أهمل ذلك ولم يتحرك فيه شيء ، وكتب الشهيد متصلة الى يحثني على المبادرة بإنفاذ العساكر ، وأنا أخاطب ولا أزاد على الوعد ، فلما رأيت قلة اهتمام السلطان بهذا الآمر العظيم ، أحضرت فلانا — وهو فقيه وكان يذوب عنه في القضاء ، وكان حاضرا عند حكاية كمال الدين هذا لوالدي — قال : فقلت له : خذ هذه الدنانير وفرقها في جماعة من أوباش بغداد والأعاجم ، واذا كان يوم الجمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا وأنت معهم واستغاثوا بصوت واحد ، واإسلاماه ، وادين محمداه ، ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطان مستغيثين ، ثم وضعت إنسانا آخر مثل ذلك في جامع السلطان . فلما كانت الجمعة ، وصعد الخطيب المنبر ، قام ذلك الفقيه وشق ثوبه والقى عمامته عن راسه وصاح ، وتبعه اؤلئك الذفر بالصياح والبكاء ، فلم يبق بالجامع الامن قام يبكي ، وبطلت الجمعة . وسار الناس كلهم الى دار السلطان ، وقد فعل اولئك الذين بجامع السلطان مثلهم ، واجتمع أهل بغداد وكل من بالعسكر قاطبة عند دار السلطان يبكون ويصرخون ويستغيثون ، وخرج الامر عن الضبط ، وخاف السلطان في داره ، وقال : ما الخبر . فقيل :

إن الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر الى الغزاة . فقال : أحضروا ابن الشهر زوري . قال : فحضرت عنده وانا خائف منه ، إلا أنني قد عزمت على صدقه وقول الحق ، فلما دخلت (عليه) قال : ياقاضي ما هذه الفتنة ، فقلت : إن الناس قد فعلوا هذا خوفا من القتل والشرك ، ولا شك أن السلطان ما يعلم بينه وبين العدو ، إنما بينكم نحو اسبوع ، وأن أخذوا حلب انحدروا إليك في الفرات وفي البر ، وليس بينكم بلد يمنعهم عن بغداد ، وعظمت الأمر عليه حتى جعلته كانه ينظر إليهم . فقال : اردد هؤلاء العامة عنا وخذ من العساكر ماشئت وسر بهم والامداد تلحقك . قال : فخرجت إلى العامة ومن انضم إليهم وعرفتهم الحال ، وأمرتهم بالعود فعادوا وتفرقوا ، وانتخبت من عسكره عشرين الف فارس . وكتبت إلى الشهيد أعرفه الخبر ، وأنه لم يبق غير المسير ، واجدد استئذانه في ذلك . فامر بتسييرهم والحث على ذلك ، فعبرت العساكر الى الجانب الغربي ، فبينما نحن نتجهز للحركة ، واذا قد وصل نجاب من الشهيد ، يخبر أن الروم والفرنج رحلوا عن حلب خائبين لم ينالوا منها غرضا ، ويأمرني بترك استصحاب العساكر ومخاطبة السلطان في إقامتهم . فلما خوطب السلطان في ذلك ، أصر على إنفاذ العساكر إلى الجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها منهم وإزاحتهم عنها ، وكان قصده بذلك ان تطأ عساكره البلاد بهذه الحجة فيملكها . قال : فلم أزل اتوصل مع الوزير وأكابر الدولة حتى أعدت العساكر إلى الجانب الشرقي وسرت إلى الشهيد . فأنظر الى هذا الرجل الذي هو خير من عشرة الآف فارس ، رحم الله الشهيد ، فلقد كان ذاهمة عالية ، ورغبة في الرجال ذوي الرأي والعقل ، يرغبهم ويخطبهم من البلاد ، ويوفر لهم العطاء . حكى لي والدي ، قال : قيل للشهيد ، إن هذا كمال الدين يحصل له كل سنة منك ما يزيد على عشرة الآف دينار أميريه ، وغيره يقنع منك بخمسمائة دينار ، فقال لهم : بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي ، إن كمال الدين يقل له هذا القدر ، وغيره يكثر له خمسمائة دينار ، فإن شغلا واحدا يقوم فيه كمال الدين خير من مائة الف دينار ، وكان كما قال رضي الله عنه .

- ٦٤٣٠ -

ذكر ملك الشعباني وبناء العمادية ببلد الهكارية

في سنة سبع وثلاثين وخمسمائة سار اتابك الشهيد إلى بلد الهكارية ، وكان بيد الاكراد وقد اكثروا في البلاد الفساد ، إلا أن نصير الدين جقر كان قد ملك كثيرا من بلادهم واستولى عليها . فلما بلغها أتابك الشهيد حصر قلعة الشعباني – وهي من أعظم قلاعهم واحصنها – فملكها وأخربها . وأمر ببناء قلعة العمادية(٤١) عوضا عنها . وكانت هذه العمادية حصنا كبيرا عظيما ، يقل في حصون الجبال ما يقاربه ، فأخربه الاكراد لعجزهم عن حفظه لكبره . فلما ملك الشهيد البلاد التي لهم ، قال : اذا عجز الاكراد عن هذا الحصن فانا لا أعجز عنه ، فامر ببنائه . وكان رحمه الله تعالى ذا عزم ونفاذ امر ، فبناه وسماه العمادية ، نسبة إلى لقبه عماد الدين .

وفيها ايضا خطب لأتابك الشهيد بآمد ، وكان قد أرسل إلى صاحبها يطلب منه الانفصال عن موافقة ركن الدولة داود صاحب الحصن والانتماء إلى خدمته والخطبة له ، فان أجاب وإلا قصدها وحصرها ، فأجابوه وخطبوا له وصاروا في طاعته .

وفيها ايضا ملك الشهيد مدينة حديثة وعانة(٤٢) .

ذكر الوحشة بين السلطان مسعود وأتابك الشهيد رضى الله عنهما

قال كان السلطان مسعود لما أفضت السلطنة اليه ، لايزال الأمراء الأكابر وأصحاب الأطراف يخرجون عن طاعته ، تارة مجتمعين وتارة متفرقين ، وقد تقدم ذكر بعض ذلك ، وكان كلما

انفتق عليه فتق نسبه الى الشهيد ، وظن أنه هو أشار به وسعى فيه ، لعلمه أن جماعة الأمراء يعرفون محل الشهيد من العقل والتدبير والسياسة وكثرة البلاد والأموال والعساكر ، وكان ظن السلطان فيه صادقا ، فإنه كان يفعله لئلا يخلو وجه السلطان من شاغل ليتمكن هو من فتح البلاد والتمكن في الملك ، فلما كان هذه السنة - وهي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة - زالت الشواغل عن السلطان وتفرغ باله ، فجمع العساكر فأكثر وأظهر العزم على قصد الموصل وبلاد الشهيد ، فترددت الرسل بينهما حتى استقرت الحال على مائة ألف دينار إمامية يحملها إلى السلطان ، وطلب السلطان أن يحضر الشهيد في خدمته ، فامتنع واعتذر باشتغاله بالفرنج وتمكن العدو وقربه من البلاد التي بيده ، فعذره السلطان وشرط عليه فتح الرها ، وكان من أعظم الأسباب في تأخر السلطان عن قصد الموصل ، إنه قيل له أن تلك البلاد لايقدر على حفظها من الفرنج غير اتابك عماد الدين ، فانها قد وليها قبله مثل جاولي سقاووا ، ومودود ، وجيوش بك ، والبرسقي وغيرهم من الأمراء ، وكان السلاطين يمدونهم بالعساكر الكثيرة ولايقدرون على حفظها ، ولايزال الفرنج يأخذون منها البلد بعد البلد الى أن وليها أتابك ، فلم يمده أحد من السلاطين بفارس واحد ولا بمال ، ومع هذ فقد فتح من العدو عدة حصون وولايات ، وهزمهم غير مرة واستضعفهم ، وعز الاسلام به ، ومن الأسباب المانعة له أيضا ،ان الشهيد رحمه الله كان لايزال ولده الاكبر سيف الدين غازي في خدمة السلطان مسعود بأمر والده ، وكان السلطان يحبه ويقربه ويعتمد عليه ويثق به ، فأرسل اليه الشهيد يأمره بالهرب والمجيء إلى الموصل ، وأرسل إلى نائبه بالموصل - وهو نصير الدين جقر - يأمره بمنعه من دخول الموصل ، ومن المسير إليه أيضا ، فهرب سيف الدين وجاء الى الموصل ، فلم يمكنه نصير الدين من دخولها ، وأراد المسير الى والده فمنعه ايضا ، وقال له : ترسل الى والدك تستأذنه في الذي تفعله ، فأرسل اليه فأعاد جوابه : إنني لاأريدك مهما كان السلطان ساخط عليك والزمه بالعود ، وأعاده ومعه رسول الى السلطان

يقول له : إنني بلغني أن ولدي فارق الخدمة بغير اذن فلم اجتمع به ورددته الى بابك ، فحل هذا عند السلطان محلا كبيرا وأجاب الى ما أراد الشهيد ، ولما استقر المال حمل منه عشرين الف دينار ، أكثرها أجناس وعروض ، ثم ان الامور تقلبت وعاد أصحاب الأطراف وخرجوا عليه ، فاضطر الى مداراة الشهيد وأطلق له الباقي استمالة له واستصلاحا لقلبه .

ذكر ملكه عدة بلاد وحصون من ديار بكر

في سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، سار الشهيد الى ديار بكر قاصدا فتحها ومحاصرا لها ، ففتح عدة بلاد ، منها : مدينة طنزة ، واسعرد وملك مدينة المعدن الذي يعمل منه النحاس من أرمينية ومدينة حيزان وملك ايضا حصن الزوق وحصن فطليس ، وحصن باتاسا، وحصن ذي القرنين .

وأخذ من أعمال ماردين عدة مواضع ، ورتب امور الجميع ، وترك فيها من يحفظها إذا سار عنها وقصد مدينة آمد ، ومدينة حاني فحصرهما وملك مدينة حاني فدوخ البلاد ، وأقام على آمد محاصرا لها ، وقصده استطلاع حال الرها على مانذكره إن شاء الله تعالى في :

ذكر فتح الشهيد مدينة الرها

وفي جمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، فتح الشهيد رضي الله عنه مدينة الرها من الفرنج ، وكانت لجوسلين عاتيهم وشيطانهم ، والمقدم على رجالتهم وفرسانهم ، وكلهم قد اذعن له بالنهاية في الشجاعة ، فهم يخضعون له ببذل الطاعة ، وكانت مدة حصارها ثمانية وعشرين يوما ، وأعادها الى

حكم الاسلام ، ونفذت فيها أحكام أهل الايمان ، وهذه الرها هـي من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محـلا ، وهـي إحـدى الكراسي عندهم ، فأشرفها البيت المقدس ، ثم أنطاكية (ثم رومية) والقسطنطينية ، والرها، وكان هذا فتح الفتوح حقا ، واشـبهها ببدر صدقا ، ومن شهده فقد تمسك من الجهاد بـأوثق سـبب ، ولو عاصره الطائي (٤٤) لعلم إنه أولى بقوله :

السيف أصدق أنباء من الكتب

لأن ضرر من بهذه المدينة مـن الفـرنج على المسـلمين لقـربها عظيم ، وشرهم اليهـا جسـيم ، إذ كانت مـن الديار الجـزرية عينها ، ومن البلاد الاسلامية حصنها ، وانضـاف اليهـا عدة مـن البلاد فاتسعت مملكتهم واشتدت على أهلهـا وطـأتهم فملكوا مـن نواحي ماردين والموزر والقرادي وسن ابـن عطير وغير ذلك،وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر ، ومـاردين ونصـيبين ورأس عين والرقة وأما حران فكانت في الخـزي ، كل يوم قـد صـبحوها بالغارة، فلما رأى الشهيد الحال هكذا ، أنف لدولته ان يترك مـن بالرها من الكفار يجوسون من مملكة الاسلام خـلال الديار ، وكان يعلم أنه لاينال منها غرضا ، ولايمكنه أن يحيل جوهر الكفـار بهـا عرضا مادام بها جوسلين وفرسانه ، وجنوده وأعوانه ، وأنه متـى قصدها محاصرا لها اجتمعت الفرنج لحفظها منه فعدل الى إعمـال الحيل والخداع ، إذ كان أنجع في هذه الحادثة من المصاع .

والرأي قبل شجاعة الشجعان
هو أول وهي المحل الثاني (٤٥)

فعدل عن قصدها الى ماجاورها من ديار بكر التي بيد المسلمين ، كحاني وجبل جور وآمد على ماتقدم ذكره فكان يقاتل من بها قتـالا فيه ابقاء وهو يسر حسوا في ارتغاء (٤٦) فهـو يخـطبها وعلى غيرها يحوم ، ويطلبها وسواها يروم ، ووكل بها من يخبـره بخلو عرينها من أساده ، وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده ، فلما رأى

جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ، ظن أنه لا فراغ له إليه ، وأنه لايمكنه الاقدام عليه ، ففارق الرها إلى بلاده الشامية ليلاحظ أعماله ، ويتعهد ذخائره وأمواله فأتت الشهيد عيونه فأخبرته بمسيره مع عساكره وذويه ، وخلو البلد عن حافظه وحاميه ، فحينئذ أمر بالنداء في العسكر بالتجهيز والتشمير ، والجد في المسير وتهدد لمن عن صحبته تأخر ، وأعلمهم أنه لايقبل عذر من اعتذر ، وأقبل مسرعا كالسهم الصادر عن وتره ، والسيل الصائر الى مستقره ، وتبعته العساكر يتلو بعضها بعضا ، عازمين على أن يؤدوا من الجهاد سنة وفرضا ، وأقبلوا زمرا مجدين كقطع السحاب تحتها الجنائب ، وقد استعانوا على السرعة بركوب النجائب ، فلما علم من بها من العدو إقباله ، سرى الرعب في أحشائهم واختلط الخوف بدمائهم وسقط في أيديهم ، ورأوا أنهم قد ضلوا وقالوا (« لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين (٤٧) ») فأبى الله الا أن ينتقم منهم بسيف الشهيد ، ويجمع في جهنم بين الغائب منهم والشهيد ، وجزاء بغيهم الشنيع ، وقتلهم الفظيع ، فصبه الله عليهم عذابا ، وساقه إليهم عقابا فضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم نفوسهم ، ونكست لشدة هيبته رؤوسهم ، ووافى البلد في حده وحديده ، وعده وعديده ، وبمواكبه المنصورة ، وجموعه المحشورة ،وبنوده المنشورة وكما قال فيه :

بجيش جاش بالفرسان حتى
ظننا بحرا من سلاح

وألسنة من العذبات حمر
تخاطبنا بأفواه الرياح

وأرع جيشه ليل بهيم
وغرته عمود الصباح

صفوح عند قدرته ولكن
قليل الصفح مابين الصفاح

وكان ثباته للقلب قلبا
وهيبته جناحا للجناح

وزحف بهم نحو البلد يقدمه ، والشجاعة تقدمه ، فكادت الأرض تزلزل والنهار بسواد الليل يسربل،وصار الفرنج مع علمهم بأنهم صائرون إلى البوار ، يتهافتون إلى القتال تهافت الفراش في النار ، وأخذا بقول (من) يقول :

تأخرت استبقي الحياة فلم أجد
لنفسي حياة مثل أن أتقدما

فلما رأى الشهيد البلد ، رأى بلدا جمع بين الحصانة والحسن ، فراسل أهله يبذل لهم الأمان والأمن ، ليسلموه سليما من إخراب أسواره ، وإخلاء دياره ، وضنا منه على مثله ان يصبح خاويا على عرشه ، وأن يلتحق سماؤه بفرشه ، فأبوا قبول الأمان ، وامتنعوا من الاذعان ، فاستخار الله تعالى في قتاله ، وقدم الشجعان لنزاله ونصب المجانيق وقدم النقابين ، وألح على من به القتال ، خوفا أن يجتمع الفرنج فيزحزحونه عنه ويستنقذونه منه ، وبلغ الخبر الى الفرنج فقاموا وقعدوا ، وأبرقوا وأرعدوا ، وجمعوا فارسهم وراجلهم ، وشابهم وكهلهم ، وحرصوا على السرعة خوف الفوات وعاد جوسلين عند سماعه الخبر الى شرق الفرات ، لعله يجد فرصة ليدخل اليها ، ولم يزل (الشهيد) يزحف اليها مرة بعد أخرى ، حتى وصل النقابون الى سورها فنقبوه ، فألقوا النار فيه فأحرقوه ، وملك البلد عنوة وقهرا ، وأوسع كل من فيه نكالا ، وشرا ، فلما ملكها استباحها ، وأذل لقاحها ، ونكس صلبانها ، وأباد قسوسها ورهبانها ، وقتل شجعانها وفرسانها ، فهم معه بين قتيل

وأسير ، وجريح وكسير ، وملأ الناس أيديهم من النهب والسبي ، ومن كل مال نفيس وغلام رائق وبكر كالظبي عاتق ، وأصابهم من النكال ماهو لهم عتيد (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه اليم شديد (٤٨)) ثم أنه دخل البلد فراقه منظره ، وشاقه مخبره ، وأخلاه من أهله، غير مستحسن من مثله ، فأمر باعادة ماأخذ منه من أثاث ومال ، وسبي ورجال ، وجوار وأطفال ، فردوا عن آخرهم لم يفقد منهم الا الشاذ النادر ، فعاد البلد عامرا بعد أن كان داثرا ، وآهلا وآمنا بعد ان كان للذئاب والخامع (٤٩) مسكنا ، ورتب فيه من العساكر من يحفظه ، وسار عنه فاستولى على ماكان بيد الفرنج في هذه الناحية من المدن والحصون والقرايا، كسروج وغيرها وأخلى الديار الجزرية من معرة الفرنج وشرهم ، وأراح أهلها من كيدهم وضرهم ، وأصبح أهلها بعد الخوف آمنين ، وعلى مهاد الأمن وادعين ، وأجفل الكفر وحزبه بين يدي الايمان وأهله ، وهم على آثارهم يكسعون ادبارهم ، ويوحشون منهم ديارهم ، والكفرة يجدون في الهرب ، خوف العطب وكلهم من الرعب لاه ذاهل ، ومنادى التوحيد ينادي : (جاء الحق وزهق الباطل (٥٠)) وألقى الاسلام بهذه البلاد جرانه ، وبث فيها أنصاره وأعوانه ، وصدق وعد الله في قوله (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض (٥١))

فهي لهم الى يوم العرض وكان فتحا عظيما لم ينتفع المسلمون بمثله ، وطار في الآفاق ذكره ، وطاب بها نشره ، وسارت به الرفاق ، وامتلأت به المحافل في الآفاق ، وشهده خلق كثير من الصالحين والأولياء ، واستبشر به الأبرار والاصفياء. حكى لي جماعة أعرف صلاحهم أنهم رأوا يوم فتح الرها الشيخ أبا عبد الله ابن علي بن مهران الفقيه الشافعي ـ وكان من العلماء العاملين ، والزاهدين في الدنيا المنقطعين عنها ، وله الكرامات الظاهرة ـ ذكروا عنه أنه غاب عنهم في زاويته يوم ذلك ، ثم خرج عليهم وهو مستبشر مسرور ، عنده من الارتياح مالم يروه

أبدا ، فلما قعد معهم قال لهم : حدثني بعض اخواننا ، أن أتـابك زنكي فتح مدينة الرها ، وأنه شهد معـه فتحهـا يومنا هـذا ، ثـم قال : مايضرك يازنكي مافعلت بعد اليوم ، وبقي يردد هـذا القـول مرارا ، فضبطوا ذلك اليوم فكان يوم الفتح ، ثم إن نفرا من الأجناد حضروا عند الشيخ ، وقالوا : منذ رأيناك على الســور تـكبر أيقنا بالفتح ، وهـو يذكر حضوره وهـم يقسمون أنهم رأوه عيانا .

وحكى لي ايضا بعض العلماء بالأخبار والأنساب - وهـو أعلم من رأيت بها - قال : كان ملك جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحـت الرها ، وكان بها بعض العلماء الصالحين من المغاربة من المسلمين ذكر اسمه وأنسيته ، وكان الملك يحضره ويكرمه ،ويرجع إلى قوله ويقدمه على من عنده من الرهـبان والقسيسين ، فلمـا كان الوقـت الذي فتحت فيه الرها ، قد سير هذا ملك الفرنج جيشا في البحر إلى إفريقية ، فنهبوا وأغاروا وأسروا ، وجاءت الأخبار الى الملك وهـو جالس ، وعنده هذا العالم المغـربي ، وقـد نعس وهـو شـبه النائم ، فأيقظه الملك وقال له : يافقيه قد فعل أصحابنا بـالمسلمين كيت كيت ، اين كان محمد عن نصرهـم ؟ فقال : كان قد حضر فتـح الرها ، فتضاحك من عنده من الفرنج فقال لهم الملك : لاتضـحكوا، فـوالله ماقال عن غير علم واشتد هذا على الملك فلم يمض غير قليل ، حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين ، فأنساهم شدة هذا الوهن ، رجاء ذلك الخبر ، لعلو منزلة الرها عند النصرانية .

وحكى لي أيضا غير واحد أثـق بـه : أن رجـلا مـن الصالحين ، قـال : رأيت الشـهيد بعـد قتله في المنام في أحسـن حال ، فقلت له : مـافعل الله بـك ؟ فقـال : غفـر لي ، فقلت : بماذا ؟ قال : بفتح الرها .

ذكر محاصرة الشهيد قلعة ألبيرة

لما فرغ الشهيد من أخذ الرها واصلاح حالها ، والاستيلاء على ماوراءها من البلاد والولايات سار الى قلعة ألبيرة ، وهو حصن حصين مطل على الفرات ، وهو لجوسلين أيضا فحصره وضيق على من به ، وغاداهم القتال وراوحهم ، وقطع عنهم الميرة حتى اشرفوا على تسليمها ، فأتاه خبر قتل نصير الدين جقر نائبه بالموصل والبلاد الشرقية ، فرحل عنها خوفا أن يحدث بعده في البلاد فتق يحتاج الى المسير إليها ، فلما رحل عنها ، سير إليها حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي صاحب ماردين عسكرا ، فسلمها الفرنج اليهم ، خوفا من الشهيد ان يعود اليهم فيأخذها .

ذكر قتل نصير الدين جقر على يد الملك الب ارسلان

في ذي القعدة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، قتل نصير الدين جقر بن يعقوب ، نائب الشهيد بالموصل وسائر البلاد الشرقية ، وكان سبب قتله ، ان الملك ألب أرسلان المعروف بالخفاجي ولد السلطان محمود بن محمد كان عند الشهيد وهو أتابكه ومربيه ، وكان يظهر للخلفاء وللسلطان مسعود وأصحاب الأطراف أن البلاد التي بيده ، إنما هي للملك ألب أرسلان ، وأنه نائبه فيها ، فكان اذا ارسل رسولا ، أو أجاب عن رسالة ، فإنما يقول ، قال : الملك كذا وكذا ، وكان ينتظر وفاة السلطان مسعود ليجمع العساكر باسمه ويخرج الأموال ويطلب السلطنة ، فعاجلته المنية قبل ذلك ، وكان هذا الملك بالموصل هذه السنة ، وبها نصير الدين ـ وهو ينزل اليه كل يوم يخدمه (ويقف) عنده ساعة ثم يعود ـ فحسن المفسدون للملك قتله ، وقالوا له : إنك إن قتلته

ملكت الموصل وغيرها ، ويعجز أتابك أن يقيم بين يديك ، ولا يجتمع معه فارسان عليك . فوقع هذا في نفسه وظنه صحيحا ، فلما دخل نصير الدين إليه على عادته ، وثب عليه جماعة في خدمة الملك فقتلوه وألقوا رأسه إلى أصحابه ، ظنا منهم ان اصحابه إذا رأوا رأسه تفرقوا ويملك الملك ألب أرسلان البلاد ، فكان الأمر بخلاف الذي ظنوا . فإن أصحابه وأصحاب (أتابك) الذين معه ، لما رأوا رأسه قاتلوا من بالدار مع الملك واجتمع معهم الخلق الكثير وكانت دور الشهيد مملوءة بالرجال الأجلاد ذوي الرأي والتجربة ، فلم يتغير عليه بهذا الفتق شيء ، وكان من جملة من حضر ، القاضي تاج الدين يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري ، فدخل إلى السلطان وخدعه حتى أصعده إلى القلعة ، وهو يحسن له الصعود إليها ليملكها ، وحينئذ يستقر له ملك البلد ، فلما صعد إلى القلعة سجنوه بها ، وقتل الغلمان الذين قتلوا نصير الدين ، وأرسلوا إلى أتابك يعرفونه الحال ، فسكن جأشه واطمأن قلبه ، إلا أنه لم يستقر جنانه حتى أقام بها الذواب ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر ولاية زين الدين علي قلعة الموصل

لما قتل نصير الدين ، أرسل اتابك الشهيد ، شرف الدين ابن اخت نصير الدين إلى الموصل ليتولى ما كان خاله يتولاه ، ولم يعطه علامة التسليم ولا كتب له منشورا ، وقال له : كل من هناك غلمانكم ، وتقدم إليه بما يفعل ، فسار حتى وصل إلى الموصل ، وكان بقلعة الموصل نقيب اسمه حسن ، فلما قتل نصير الدين ، أغلق باب القلعة وجمع الأجناد عنده في حفظها ، فلما وصل ابن اخت نصير الدين ، أرسل إليه النقيب يقول له : أرسل إلي منشور المولى أتابك بولاية القلعة ، فإذا رأيت علامته اذنت لك في الدخول ومعك من يخدمك حسب ، ثم أرسل أنا إلى أتابك من أثق إليه أستأذنه في تسليم الأمر اليك ، فإذا أذن فعلت ، وإن لم يأذن أخرجتك منها ، فترددت الرسل بينهما حتى أذن له في دخول القلعة

على القاعدة المذكورة ، فبينما هو يريد دخول البلد ، إذ رأوا غبـرة مقبلة من طريق الشهيد فأقاموا ينتظرونها ، وإذ قـد انكشـفت عن زين الدين علي (ابن بكتكين(٥٢))قد جاء مجدا ليكون نائبـا في القلعة . وكان سبب ذلك أن الشهيد تغير عزمـه عن الأول لأسـباب يطول ذكرها ، فأرسل زين الدين ـ وكان كثير الثقة به والاعتمـاد عليه ـ فوصل الموصل في تلك الحال ، فقال له النقيب حسـن مثـل قوله لشرف الدين ابن اخت نصـير الدين ، فـأجاب زين الدين إلى ذلك ، ودخل القلعة في نفر يسير ، وأرسل النقيب إلى الشـهيد مـن يثق إليه يسـتأذنه ، فـأمره بتسـليم القلعـة إلى زين الدين ففعل . واستقر زين الدين وتمكن ، وسلك بالناس غير الطريق التي سلكها نصير الدين وسهل الأمر . فـأطمأن الناس وأمنوا وازدادت البلاد معه عمارة .

حصر حصن فنك

هذا الحصن هو مجاور جزيرة ابن عمر ، وهو للأكراد البشنوية إلى زماننا هذا ، وله معهم مدة طويلة ، يقولون نحو ثلاثمائة سـنة وهو من أمنع الحصون ، مطل على دجلة ، وله سرب إلى عين ماء لا يمكن أن يحـال بين أهله وبينهـا ، فلمـا كان سـنة أربعين وخمسمائة ، تقدم أتابك إلى زين الدين علي بإرسـال عسـكر إليه يحصره ، فسير خلقـا كثيرا مـن الفـرسان والرجـالة فحصروه ، وأقاموا عليه يحصرونه إلى أن قتل الشهيد ، وضـيقوا على أهله ومنعوهم الميرة وهم صابرون ، فلما قتل الشهيد زال عنهم الحصر ، وانكشف ما بهم مـن الضر ، وكان لأصـحابه معـه عدة حصون أخذها منهـم الشـهيد ، كالهيثـم ، وجـديدة نصيبين ، وشاروا ، وغيرها من قلاع الزوزان (٥٣) .

ذكر حصار قلعة جعبر

قال,كانت هذه قلعة جعبر قد سلمها السلطان ملكشاه الى الأمير سالم بن مالك العقيلي على ماذكرنا عند ملك قسيم الدولة مدينة حلب ، فلم تزل بيده ويد أولاده إلى هذه السنة — وهي سنة احدى وأربعين وخمسمائة — فسار الشهيد إليها فحصرها ، وكان الباعث على حصرها وحصر فنك أن لايبقى في وسط بلاده ماهو لغيره — وإن قل — الحزم الذي عنده والاحتياط ، وأقام عليها يحصرها بنفسه • ومن أعجب موافقة الأقوال للأقدار ، ما حكى لي والدي قال : أرسل الشهيد الأمير حسان إلى صاحب القلعة لمودة بينهما في معنى تسليمها اليه ، وقال له : تضمن له عني الاقطاع الوافر والعطاء الكثير ، فإن أجاب إلى التسليم والا فقل له : والله لأقيمن محاصرا لك إلى أن أملكها عنوة ، ثم لاأبقي عليك ، ومن الذي يمنعك مني فصعد إليه حسان وأخبره برسالة أتابك ، وأشار عليه بالتسليم اليه ، فامتنع ، فقال له فهو يقول لك ، إن سلمت وإلا فعلت وصنعت ، ومالذي يمنعك مني فقال : قل له ، يمنعني منه الذي منعك يا حسان من الأمير بلك ، فعاد حسان وأخبر الشهيد بامتناعه وكتم عنه هذا ، فلم يمض غير قليل ، حتى قتل الشهيد وفرج الله عن صاحبها

قال وكانت قصة حسان مع بلك ، ان حسان كان صاحب منبج فحصره بلك وهو ابن اخي ايلغازي بن ارتق — وضيق عليه ، فبينما هو في بعض الأيام يقاتله ، اذ جاءه سهم لا يعرف من اين جاء ، فقتله وخلص حسان منه .

ذكر قتل الشهيد زنكي رضي الله عنه

قد ذكرنا حصار قلعة جعبر وملازمة الشهيد قتالها ، فلم يزل

كذلك إلى أن مضى من شهر ربيع الآخر خمس ليال ، فبينما هو نائم دخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه غيلة ولم يجهزوا عليه وهربوا من ليلتهم الى القلعة (ولم يشعر اصحابه بقتله ، فلما صعد اولئك النفر الى القلعة)(٥٤) صاح من بها الى العسكر يعلمهم بقتله ، فبادر اصحابه اليه ، فأدركه اوائلهم وبه رمق

حدثني والدي عن بعض خواصه ، قال : ادركته وهو في السياق ، فحين رآني ظن اني أريد قتله ، فأشار إلى بإصبعه السبابة ، فوقفت من هيبته ، وقلت له: يا مولانا من فعل بك هذا حتى اقتله ، فلم يقدر على الكلام ، وختم الله بالشهادة أعماله ، وفاظت (٥٥)منه نفسه وسكن رمسه ، وأصبح معدوما كأن لم يغن بالأمس ، وزال عنه الملك ، واستولى عليه الهلك ، ولم يغن عنه اصحابه وعساكره ، ولاحماة أمواله ودساكره ، ولا أخر الأجل مماليكه وأجناده ، ولازحزح عنه الفناء حصونه وبلاده ، كما قال فيه بعض الشعراء ، حيث يقول :

فاعجب لمن قاد الجيوش ونفسه
قسمان بين الكر والاقدام

يلقى الكتايب مفردا بكتايب
من نفسه وليوم يكدر حامى

لا يرعوي عن ان يقارع وحده
ألفا بأبيض صارم صمصام

يأتي الفتوح على الفتوح بسيفه
وبرأيه وبعزمه المقدام
حتى اذا الأجل انقضى مستكملا
ماخط في الألواح بالأقلام

- ٦٤٤٣ -

لاقى الحمام ولم أكن مستيقنا
ان الحمام سيبتلى بحمام

وأضحى وقد خانه الأمـل ، وأدركه الأجـل ، وتخلى عنه العبيد والخول ، فأى بدر مكارم غرب ، وأي أسد افترس ، ولم ينجـه قلة حصن ولا صهوة فـرس ، فـكم أتعـب نفسـه لتمهيد الملك وسياسته ، وكم أذابها في حفظه وحراسته ، فحين بلغ من ذلك مـا أراد ، واستكمل في سعة الملك وشـدة الهيبـة وزاد ، وهـانت عليه المصاعب ، وزالت المتاعب ، واستكانت لصولته القروم ، وخضعت لهيبته الترك والفرنج والروم ، أتاه مبيد الأمم ومفنيهـا في الحـدث والقدم ، ومهلك العرب والعجـم ، فـأخذ مـن العـالم سره وروحه ، وسقاه بكأسه غبوقه وصبوحه ، وزال عنه سلطانه ، وبعد عنه حماته وأعوانه ، وفارقه أنصاره وخلانه ، وأخذه من جميع ما يملك وحيدا ، وجعله فريدا ، واصـاره بعـد القهـر للخـلائق مقهورا ، وبعد وثير المضاجع في التراب معفرا مقبورا ، رهين جدث لا يدفعه الا ماقدم ، ولا يقبل من سـاكنه فيه الندم ، وقـد طـويت صحيفة عمله ، ونشرت جريدة أجره ، ونسخت آية عمـره ، وبليت سورة ذكره ، فلو شوهدت وقعاته لم تذكر وقعة الهباء ، ولا سطرت حرب الالاء ، ولو نظرت فتكاته لأنسيت البراض والجحاف ، أو عد صرعى سـيفه لكاثـرت هلكى الجحـاف (٥٦) وحين اختـرمته المنية ، وخانته الأمنية ، اضـحى الاسـلام لفقـد ناصره عبـوسا ترحا ، والكفرلعدم خاذله جذلا مرحا ، وما علما ان لهما مـن الملوك أبنائه جابرا وكاسرا ، ومؤيدا وقاهرا ، بل من يربو نصره للتوحيد عليه ، ويزيد في هدم منار التثليث وتعجل الثأر اليه :

زاد على ما قام آباؤه
به وقد شاد الذي أثلوه

أقصر أهل العصر عن شأوه
حسرى وطال الكل اذ طاولوه

-٦٤٤-
وسيرد من فتوحهم وجهادهم ما يرقع هذا الخرق ، ويجبر هذا الوهن .

ولما قتل دفن بصفين (٥٧) عند أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام . ولقد بلغني انه اجتاز بهاوزار مشاهدها ثم قال : وددت أني شهدت صفين بعسكري مع أمير المؤمنين علي عليه السلام ، حتى كنت اريه القتال الذي يعجز اصحابه عنه ، ولكل امرىء ماذوى

فإن والدي حكى لي ، قال : كان حسن الصورة أسمر اللون ، مليح العينين ، قد وخطه الشيب ، طويلا ، وليس الطويل البائن ، قال : وأشبه من رأيت به ، حفيده السعيد عز الدين أتابك مسعود بن مودود بن زنكي ، إلا أن الشهيد كان أتم قامة منه ، وخلف من الأولاد : سيف الدين غازي — وهو الذي ولي الملك بعده — ونور الدين محمود الملك العادل ، وقطب الدين مودود أبو الملوك الآن بالموصل ، ونصرة الدين أمير ميران ، فانقرض عقب سيف الدين من الذكور والاناث ، وعقب نور الدين من الذكور ، ولم يبق الملك الا في عقب قطب الدين ، وخلف الشهيد أيضا بنتا ، ولقد أنجب رحمه الله ، فإن اولاده الملوك لم يكن مثلهم.وسنذكر من اخبارهم ما يعلم صحة ما قلناه .

ذكر بعض سيرة الملك الشهيد رضي الله عنه

كانت سيرته من أحسن سير الملوك وأكثرها حزما وضبطا للأمور ، كانت رعيته في امن شامل لعجز القوي عن التعدي على الضعيف ، ونحن نذكر من سياسته وآرائه وانصافه وشجاعته وغير ذلك ما يعلم به محله من العقل ، وحسن قيامه بأمر الملك واضطلاعه به ، وان من تقدمه من الملوك لم يصلوا إلى ما أوتيه من ذلك ، وحينئذ تقول : كم ترك الأول للآخر .

فمن ذلك انصافه بين القوي والضعيف . حدثني والدي رضي الله عنه ، قال : قدم الشهيد - قدس الله روحه - إلينا بجزيرة ابن عمر بعض السنين - وكان الزمان شتاء - فنزل بالقلعة ونزل العسكر في الخيام ، وكان في جملة أمرائه الأمير عز الدين أبو بكر الدبيسي - وهو من أكابر أمرائه ، ومن ذوي الرأي عنده - فدخل الدبيسي البلد ونزل بدار انسان يهودي وأخرجه منها . واستغاث اليهودي إلى الشهيد وهو راكب ، فسأل عن حاله فأخبر به ، وكان الشهيد واقفا والدبيسي إلى جانبه ليس فوقه أحد ، فلما سمع أتابك الخبر ، نظر إلى الدبيسي نظر مغضب ولم يكامه كلمة واحدة ، فتأخر القهقرى ودخل البلد وأخرج خيامه وأمر بنصبها خارج البلد .

ولم تكن الارض تحتمل وضع الخيام عليها لكثرة الوحل والطين . قال : فلقد رأيت الفراشين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته ، فلما رأوا كثرته جعلوا على الارض تبنا ليقيموها وينصبوا الخيام ، وخرج إليها من ساعته . وناهيك بهذا سياسة وإنصافا .

قال : وكان ينهى أصحابه عن إقتناء الاملاك ويقول : مهما البلاد لنا فاي حاجة بكم إلى الاملاك ، فإن الاقطاعات تغني عنها ، وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الاملاك تذهب معها ، ومتى صارت الاملاك لاصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليهم وغصبوهم أملاكهم . رحمه الله ورضي الله عنه ، فلقد كان ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق ، فما أحسن هذا الخلق ، وأحسن هذا النظر للرعايا ، وأكثر هذه الشفقة عليهم والرحمة لهم ، لاخلاف في أن عمارة البلاد من ثمرات العدل وكف الايدي المتطاولة إلى اهلها .

ومن علم حال هذه البلاد قبل ملكه عرف مقدار ما عمر منها . حكى لي والدي قال : رأيت الموصل التي هي أم البلاد في اول أيام الشهيد وأكثرها خراب ، فكان الخراب من محلة الطبالين إلى القلعة وإلى دور السلطنة ، وكانت العرصة ترى من قريب مسجد التركماني ، وهو قريب من الطبالين ، وكان الجامع العتيق أيضا بلا

عمارة البتة . وكانت جميع المحال المجاورة للسور من سائر جهاته غير معمورة ، وكان أدنى العمارة من السور ما يكون رمية حجر ، وكان الناس لايقدرون على المشي الى الجامع غير يوم الجمعة لبعده عن العمارة . وأول من بنى بالقرب من دار المملكة الامير ناصر الدين كوري بن جكرمش ، فانه طلب من الشهيد أن ياذن له ليبني دارا قريبا من خدمته ، فأجابه إلى ذلك ، وأمره أن يبني بمكان يكون بينه وبين القلعة مقدار حجر المنجنيق ، فبنى داره الاولى ، وهي اليوم مدرسة وقفتها أم الملك الصالح ، ثم بنى بعد ذلك داره الاخرى أقرب إلى دار المملكة . وهذا الذي ذكرناه عن خراب البلد كثيرا جدا ، فلما طالت الايام الشهيدية ، وحمى البلاد ومنع المفسدين وكف أيدي الاقوياء ، سارت سيرته في البلاد ، فقصده الناس واتخذوا بلاده دارا ، فانه من أكرم ارتبط . فلم تزل العمارة تكثر بالموصل وغيرها ، حتى ذهب كثير من المقابر وبنيت دورا . وهو الذي أمر ببناء دور المملكة بالموصل ، ولم يكن بها للسلطان غير الدار المعروفة بدار الملك مقابل الميدان ، فبنى هذه الدور جميعها ، ثم أمر بالزيادة في علو سور الموصل فزيد فيه مايقارب مثله ، وأثره ظاهر إلى يومنا هذا في السور . وأمر أيضا بتعميق خندقها ، فعمل على ما هو عليه اليوم . وكانت الموصل اولا بغير سور ، فأول من عمل لها سورا شرف الدولة مسلم بن قريش ، ولم يعمل له فصيلا ولا خندقا ، وكان قليل العلو . فلما ملكها جكرمش بنى فصيلها وحفر لها خندقا وليس بالعميق ، فلما ملكها الشهيد وحصرها المسترشد بالله على ما ذكرناه سنة سبع وعشرين وخمسمائة ثم عاد عنها ، أتم سورها وخندقها ، ففعل ذلك وتولاه نائبه نصير الدين ، فهذا السور ، وهذا الخندق هو على الحال التي عملت في الايام الشهيدية . وهو الذي فتح الباب العمادي وإليه ينسب .

قال المؤرخ : وكانت الموصل اقل بلاد الله فاكهة ، فكان الذي يبيع الفواكه يكون عنده مقراض يقص به العنب لقلته إذا أراد أن يزنه . فلما عمرت البلاد ، عملت البساتين بظاهرها وفي ولايتها ، فهي اليوم أكثر البلاد فاكهة ، فالرمان يبقى إلى ان يدرك العتيق

الجديد ، وكذلك الكمثري ، وقريب منه العنب ، وأما التفاح فيجمع العتيق والجديد .

ومن ذلك حسن رأيه رحمه الله

فمن آرائه الصائبة ، أنه كان شديد العناية بأخبار الاطـرا ف ومـا يجري لاصحابها حتى في خلواتهم ، ولا سـيما دركاه السـلاطين . وكان يخسر على ذلك المال الجزيل . وكان يطالع ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره من حرب وسلم ، وهـزل وجـد وغير ذلك . فكان يصل إليه في كل يوم من عيونه عدة قاصدين .

قال والدي رحمه الله : وكان مع ا شتغاله بـالامور الكليات مـن أمور الدولة لايهمل الاطـلاع على الصـغير . وكان يقـول : إذا لم يعرف الصغير ليمنع صار كبيرا . قال : فمن ذلك ، أنني وصلت الى عسكره بقلعة جعبر قبل قتله بـأيام ، وقصـدت خيام جمـال الدين الوزير ، فحين وصلت أدخلني إليه ، فبينما أنا عنده ، وهـو يسألني عن طريقي ، وإذ قد جاءه مملوك تركي مـن عند الشـهيد وقـال له بالعجمية كلاما لا أعلمه . فقال لي جمـال الدين : متـى وصـلت ؟ فقلت : الساعة . فقال : هذا عجب تجيء السـاعة ويسـمع أتـابك بوصولك ، ولا شك قد علم بك قبل وصولك إلي ، وقد أرسل يقـول : سله عن فنك وحصارها وأحوال الجند عليها ، وما يصل اليهم مـن الجامكيات والسلاح وجميع الأحوال . قال : فحـدثته بجلية الحـال كأنه يشاهده فمضى وعاد ، وقال : يقول لك ، إن كنت تعلم أن هناك نقصا في شيء مما يحتاج إليه المحاصر فعرفنا حتى نزيله وندفعل مـا يجب ؟ فقلت : ليس هناك الا ما يحب المولى وزدته شرحا ، فـانظر الى هذه الهمة ، وإلا فاي محـل لفنك في سـعة مملكتـه الطـويلة العريضة .

قال : وأصغر من هذا أنه بلغه أن جمـاعة مـن فـلاحي مـدينة

الموصل رحلوا الى بلد ماردين ، فأرسل إلى حسام الدين يطلب منه أن يعيدهم ، فرد الجواب : إننا نحن نحسن إلى الفلاحين ونخفف عنهم ، ونأخذ منهم في القسمة من الغلال العشر ، فلو فعلتم انتم مثل فعلنا لم يفارقوكم . فقال الشهيد لرسوله : قل لصاحبك ، إذا أخذت أنت من كل مائة سهما واحدا كان كثيرا لك ، لأنك مشغول بلذتك في رأس ماردين . وأما أنا فاذا أخذت الثلثين كان قليلا ، لما أنا بصدده من قصد الاعداء والجهاد ، ولولاي لطال عليك أن تشرب الماء آمنا في ماردين ، ولكان الفرنج ملكوها ، ولئن لم تعد الفلاحين وإلا أخذت كل فلاح في بلد ماردين إلى بلد الموصل ، فأعادهم . فهذا مالا مزيد عليه في معرفة أحوال المملكة .

قال : ومن جملة رأيه الحسن ، أنه كان يتعهد أصحابه ويمتحنهم ، فلا يرفع أحدا فوق قدره الذي يستحقه ولايضعه دونه ، ويثق إلى أحدهم على قدر ما يعلم منه ، فمن ذلك أنه كان له طشت دار يسمى سبلتوه فسلم اليه يوما خشكنانكة(٥٨) وقال : إحفظ هذه ، فبقي نحو سنة لاتفارقه الخشكنانكة خوفا أن يطلبها منه ، فلما كان بعد ذلك قال له : أين تلك الخشكنانكة . فأخرجها في منديل وقدمها بين يديه ، فاستحسن ذلك منه ، وقال : مثلك ينبغي أن يكون مستحفظا لحصن ، وأمر له بدز دارية قلعة كواشي ، فبقي فيها إلى أن قتل أتابك .

ومن آرائه : أنه كان لايمكن أحدا خدمه من مفارقة بلاده ، وكان يقول : إن البلاد كبستان عليه سياج ، فمن هو خارج السياج يهاب الدخول ، فاذا خرج منها من يدل على عورتها ويطمع العدو فيها زالت الهيبة وتطرق الخصوم اليها . فمن ذلك انه (٥٩) هرب منه امير كبير يقال أبو بكر – وكان مقدم البكجية ، وهو مقطع نصيبين – فهرب منه الى حسام الدين تمرتاش بماردين ، فأرسل الشهيد يطلبه فلم يسلمه إليه ، فنازل ماردين وحصرها ، فلما عجز حسام الدين عن منعه سيره الى دركاه السلطان مسعود ، فلما بلغ

الشهيد الخبر أرسل الهدايا للسلطان والوزير فسلم اليه فسجنه وكان آخر العهد به .

ومن صائب الرأي الجيد ما فعله من نقل طائفة من التركمان الايوانية مع الامير اليارق الى الشام واسكنهم بولاية حلب ، وأمرهم بجهاد الفرنج ، وملكهم كل ما استنقذوه من البلاد التي للفرنج وجعله ملكا لهم ، فكانوا يغادون الفرنج القتال ويرا وحونهم ، وأخذوا كثيرا من السواد ، وسدوا ذلك الثغر العظيم ، ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم الى نحو سنة ستمائة .

ومن آرائه أنه لما اجتمع له الاموال الكثيرة أودع بعضها بالموصل ، وبعضها بسنجار ، وبعضها بحلب ، وقال : إن جرى على بعض هذه الجهات خرق ، أو حيل بيني وبينه ، استعين على سد الخرق بالمال الذي في غيره .

ومن ذلك شجاعته وهيبته الهيوبة

واما شجاعته واقدامه فإليه النهاية ، وبه كان يضرب المثل . أما قبل ان يملك فمشاهده معروفة مشهورة ، منها حملته على الفرنج بطبرية ووصوله الى بابها ، وقد تقدم ذلك . ومنها ايضا حملته على اصحاب قلعة عقر الحميدية وصعوده في جبلها الى سورها ، ومقامه هناك مشهور إلى الآن إلى أشباه كثيرة لهذا ، وأما بعد أن ملك ، فمن عرف حاله واحاطة الاعداء والمنازعين له ببلاده ، وصبره واستيلائه مع هذا على بلادهم ، علم محله من الشجاعة والصبر والاقدام . والذي حكى لي والدي من ذلك ، قال : كان الشهيد – قدس الله روحه – قد أحدق الاعداء بولايته والمنازعون له ، فمنهم امير المؤمنين المسترشد بالله ، قد كان الحال بينهما ظاهرا ، حتى أن المسترشد بالله سار إلى الموصل وحصرها ، ومنهم السلطان مسعود في أعمال الجبال وأذربيجان قد

جاور أعمال الشهيد بتلك النواحي ، وهو أقوى الخلق ، وأكثرهم عساكر ، وأشدهم كراهة للشهيد ، ثم الى جانبه أعمال أرمينية - وهي لبيت سكمان - ولهم العساكر الكثيرة والبلاد الواسعة ، وهم أعداؤه ، وقد جاورهم في حيزان ، والمعدن وغيرهما . ثم الى جانب بيت سكمان ، ركن الدولة داود بن سقمان ابن أرتق صاحب حصن كيفا وديار بكر ، وابن عمه حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين ، وقد جاورا كثيرا من ولايته ، منها : جزيرة ابن عمر ونصيبين . ومع هذا فأخذ من بلادهما كثيرا ، ثم الى جانبهما الفرنج من قريب ماردين إلى باب دمشق ، قد جاوروا بلاده من رأس عين ، وحران ، وحلب ، وحماه ، وحمص ، وبعلبك ، وهم أشد ما كانوا قوة واكثر جمعا . ومع هذا فهو يملك بلادهم ويهزمهم مرة بعد أخرى . ثم صاحب دمشق قد جاوروه بها ، ومع هذا فهو يأخذ أيضا من بلاده ، فكان لايستقر بل يغزو كلا منهم في عقر داره - ما عدا السلطان مسعود - فإنه كان لايباشر قصده ، بل كان يضع أصحاب الاطراف على الخروج عليه ، فإذا فعلوا ، عاد السلطان اليه ، وطلب منه أن يجمعهم على طاعته ، فيصير كالحاكم على الجميع ، وكلهم يداريه ويخضع له ، ويطلب منه أن تستقر القواعد على يده . فانظر الى هذه الشجاعة وهذا الرأي والتدبير . ولو لم يكن في زمانه غير ركن الدولة داود صاحب الحصن لكفى به ، فإنه كان بعيد الصوت في التركمان يجمع منهم كل من حمل السلاح . وكان أيضا مع هذا شجاعا مقداما لاتضره الهزائم شيئا ، بل يفارق المعركة مهزوما ، ثم يعاود الحرب بعد ايام .

وأما الفرنج ، فقد كانوا لما ملك البلاد قد قهروا المسلمين ، وملكوا بلادهم واكثروا فيهم القتل ، ولهم فيهم الصوت العظيم والهيبة التي تحملهم على مفارقة بلادهم خوفا منهم ، فلما ملك البلاد فعل بهم ما ذكرنا بعضه ، ولو لم يكن له فيهم نكاية غير فتح الرها لكان عظيما . وحكي لي عنه ، أنه لما عزم على المسير إلى الرها حين فتحها ، أحضر طعاما وقال لأصحابه : لايتقدم إلي ،

ولاياكل معي الا من يحمل غدا معي على الرها ، فلم يتقدم اليه غير رجلين ، أحدهما شاب حسن ، أول ما تكاملت لحيته ، فمنعه أصحابه ، فقال : اتركوه فإنني اتوسم فيه شجاعة ، فكان ذلك الشاب أول الناس ومقدمها الى سور الرها .

واما صدقاته رضي الله عنه

فكان يتصدق كل جمعة بمائة دينار أميري ظاهرة ، ويتصدق في ما عداه من الأيام سرا مع من يثق إليه . حكي لي : انه ركب يوما فعثرت به دابته ، فكاد يسقط عنها فاستدعى أميرا كان معه اسمه بليمان ، فقال له كلاما لم يفهمه بليمان ولم يتجاسر على ان يستفهم منه ، فعاد عنه الى بيته فودع أهله عازما على الهرب . فقالت له زوجته : ما ذنبك ، وما الذي حملك على هذا الهرب ؟ فذكر لها الحال . فقالت له : إن نصير الدين له بك عناية ، فأذكر له قصتك وأفعل ما يأمرك به ، فقال : أخاف أن يمنعني عن الهرب وأهلك ، فلم تزل زوجته تراجعه وتقوي عزمه على القول لنصير الدين فرجع الى قولها ، وقصد نصير الدين وعرفه حاله ، فضحك وقال : خذ هذه الصرة الدنانير وأحملها إليه فهي التي أراد . فقال بليمان : الله الله في دمي ونفسي . فقال : لابأس عليك ، فإنه ما أراد غير هذه الصرة ، فحملها إليه فحين رآه قال : أمعك شيء . قال نعم ، فأمره أن يتصدق به . فلما فرغ بليمان من الصدقة ، قصد نصير الدين وشكره وقال له : من أين علمت أنه أراد الصرة فقال له : إنه يتصدق كل يوم بمثل هذا القدر ، يرسل إلي يأخذه من الليل . وفي يومنا هذا لم يأخذه ، ثم بلغني أن دابته عثرت به حتى كاد يسقط الى الارض وأرسلك إلي ، فعلمت أنه ذكر الصدقة فأرسلتها معك إليه . فانظر إلى هذه السعادة حيث قدر الله تعالى له مثل هذا النائب في شدة ذكائه وفطنته ، والى هذه الهيبة الشديدة التي منعت ذلك الامير عن المراجعة ، وبها امتنع القوي عن الضعيف

وحكى لي والدي من شدة هيبته ما هو اشد من هذا ، قال والدي : خرج يوما الشهيد من قلعة الجزيرة من باب السر خلوة ، وملاح له نائم ، فأيقظه بعض الجاندارية وقال له : أقعد ، فحين رأى الشهيد سقط إلى الارض فحركوه فوجدوه ميتا .

واما قوة عزمه ، وقلة تلونه ، وعلو همته

قال لي والدي رحمه الله : كان الشهيد رضي الله عنه قليل التلون والتنقل ، بطيء الملل والتغير ، شديد العزم لم يتغير على أحد من اصحابه مذ ملك إلى أن قتل ، إلا بذنب يوجب التغير ، والأمراء والمقدمون الذين كانوا معه أولا ، هم الذين بقوا أخيرا من سلم منهم من الموت ، فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له . قال والدي : كنت أرى من جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الوزير في الأيام الشهيدية من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها ، والمحاققة فيها ما يدل على تمكنه من الكفاية ، فلما وصل الأمر الى الملك قطب الدين مودود بن أتابك الشهيد وجمال الدين وزيره حينئذ ، وقد تمكن زين الدين علي بن بكتكين في الدولة تمكنا عظيما ، وتقدم عند قطب الدين جماعة من أصحابه ، فكان جمال الدين مع تمكنه وعلو محله يهمل بعض الأمور ، قال ، فقلت له يوما : أين تلك الكفاية التي كنا نراها منك في الأيام الشهيدية ، ما أرى منها الآن شيئا ؟ فقال لي : الآن ما عندي كفاية ؟ فقلت : ما هذا العمل من ذلك بشيء . فقال : أنت صبي غر ، ليست الكفاية عبارة عن فعل واحد في كل زمان ، إنما الكفاية ان يسلك الانسان في كل زمان ما يناسبه ، ذلك الوقت كان لنا صاحب متمكن قوي العزم لايتجاسر أحد على الاعتراض عليه ، ولايتلون بأقوال أصحابه فحفظناه ، وكان ما أفعله كفاية . وأما الآن فلنا سلطان غير متمكن وهو محكوم عليه ، فهذا الذي أفعله هو الكفاية .

قال : وكان له جماعة كثيرة خراسانية في الركاب لهم الجامكيات

الوافرة ، وكان في الديوان من يجمعونها من جهاتها ويقسمونها عليهم كل ثلاثة أشهر مرة ، ففي بعض السنين تأخرت جامكياتهم تأخرا يسيرا ، فاجتمعوا ووقفوا بحيث يراهم مجتمعين ، فعلم أنهم يشكون شيئا ، فأرسل إليهم وسألهم عن حالهم فذكروه له ، فقال لهم : اشكوتم إلى الديوان ؟ قالوا : لا . قال : فهل ذكرتم حالكم لصلاح الدين أمير حاجب ؟ قالوا : لا . قال : فلاي شيء أعطي الديوان مائة ألف دينار ، وأعطي الأمير حاجب أكثر من ذلك ، إذا كنت أنا أتولى الأمور صغيرها وكبيرها ، كنتم شكوتم حالكم الى الديوان ، فإن اهملوا أمركم كنتم قلتم لصلاح الدين ، فإن أهمل أمركم كنتم شكوتم الجميع إلي حتى كنت أعاقبهم على اهمالكم ، وأما الآن فالذنب لكم . ثم أمر بتاديبهم وقطع جامكياتهم حتى شفع فيهم بعض الأمراء ، فعفا عنهم . ثم أحضر الديوان وصلاح الدين وقال لهم : إذا كنتم تهملون أمر جندي الذين تحت ركابي ومن هو ملازمي في سفري وإقامتي ، وبهم من الحاجة الى الذفقات في اسفارهم ما تعلمونه ، فكيف يكون حال من بعد عني ، واذكر عليهم ، فخرجوا من عنده وفرقوا في الاجناد من أموالهم حتى وصلت جامكياتهم ، فأخذوا عوض ما أخرجوه . فرحمه الله فلقد كان حسن السياسة والضبط للامور ، فإنه بهذه الحالة الواحدة أصلح الجند لطاعة الديوان ، وأصلح الديوان للنظر في مصالح الجند ، وعظم نفسه عن أن يخاطب في هذا الأمر الحقير ، وسهل عليه بذل المبلغ الكثير لمن يقوم بأموره .

وكان ديوانه يقاس بدواوين السلاطين السلجقية لكثرة التجمل ونفاذ الأمر وعظم الحاشية والخرج . قال والدي : كان الانسان إذا قدم عسكره لم يكن غريبا ، فإن كان جنديا اشتمل عليه الاجناد وأضافوه ، وقاموا بما يحتاج إليه لكثرة أموالهم . وإن كان القادم صاحب ديوان ، قصد منزلة الديوان فراى من توفرهم عليه ، ونظرهم في مصالحه ما يكون كأنه في أهله . وان كان عالما ، فيقصد خيام القضاة بني الشهر زوري وجماعتهم والمتعلقين بهم من قضاة البلاد ، فيحسنون اليه ويؤنسون غربته فيعود أهلا ، وسبب ذلك

جمعية إنه كان يخطب الرجال ذوي الهمم العلية ، والاراء الصائبة ، والأنفس الأبية ، ويوسع عليهم في أرزاقهم فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف .

واما غيرته

فكان الشهيد رحمه اله تعالى شديد الغيرة على الحريم ، ولا سيما نساء الأجناد ، فان التعرض اليهن كان من الذنوب التي لايغفرها ، وكان يقول : أن جندي لايفارقوني في اسفاري ، وما يقيمون عند أهليهم ، فإن نحن لم نمنع من التعرض الى حرمهم هلكن وفسدن . فمن شدة غيرته وتعظيمه لهذا الذنب ، أنه كان قد أقام دزدارا بقلعة الجزيرة اسمه حسن ولقبه ثقة الدين ويعرف بالبربطي ، وكان من خواصه واقرب الناس اليه ، وكان غير مرضي السيرة ، فبلغه عنه أنه يتعرض للحرم ، فأمر حاجبه صلاح الدين الياغيسياني ان يسير مجدا ويدخل الجزيرة بغتة ، فإذا دخلها أخذ البربطي وقطع ذكره وقلع عينيه عقوبة لنظره بهما إلى الحرم ثم يصلبه ، فسار صلاح الدين مجدا ، فلم يشعر البربطي الا وقد وصل الى البلد ، فخرج الى لقائه ، فأكرمه صلاح الدين ودخل معه البلد ، وقال له : المولى أتابك يسلم عليك ، ويريد ان يعلي قدرك ويرفع منزلتك ، ويسلم إليك قلعة حلب ، ويوليك جميع البلاد الشامية لتكون هناك مثل نصير الدين هاهنا ، فتجهز وتحدر مالك في الماء إلى الموصل وتسير إلى خدمته ، ففرح ذلك المسكين ولم يترك له قليلا ولاكثيرا الا نقله الى السفن ليحدرها الى الموصل في دجلة ، فحين فرغ من جميع ذلك ، اخذه صلاح الدين وأمضى فيه ما أمربه ، وأخذ جميع ماله لم يعدم منه الحبة الفرد ، فلم يتجاسر بعده احد على سلوك شيء من افعاله ، فأعجب من حزم هذا السلطان واحتياطه حيث أرسل أكبر من في دولته ، وأخفى أمره خوفا من جهل ذلك الدزدار ان يحمله على العصيان ، أو على أمر يتعب في تلافيه . ثم انظر من صلاح الدين ، كيف خدع ذلك المسكين باكرامه ووعده بالاعمال السنية حتى أخرج

ذخائره وأمواله ، ولم يبق منها شيئا . ولو سلك غير هذا لعدم من ماله الكثير .

وما فعله جمال الدين الوزير إلى أن ملك

لما قتل أتابك الشهيد رحمه الله ، هرب جمال الدين واختفى عند أمير يعرف بأميرك الجاندار خوفا من صلاح الدين الياغيسياني لعداوة كانت بينهما ، وفي تلك الليلة ركب الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمود ـ وكان مع الشهيد ـ واجتمعت العساكر عليه وخدموه ، فأرسل جمال الدين إلى صلاح الدين يقول له : إن المصلحة أن نترك ماكان بيننا وراء ظهورنا ، ونسلك طريقا يبقى به الملك في أولاد صاحبنا ، ونعمر بيته جزاء لاحسانه إلينا ، فإن الملك قد طمع في البلاد واجتمعت عليه العساكر ، ولئن لم نتلاف هذا الامر في أوله ، ونتداركه في بدايته ليتسعن الخرق ولايمكن رقعه ، فأجابه صلاح الدين الى ذلك ، وحلف كل واحد منهما لصاحبه ، فظهر حينئذ جمال الدين من الاختفاء ، وركب إلى الملك وخدمه وضمن له فتح البلاد وأطعمه فيها ومعه صلاح الدين ، وقالا له : إن أتابك كان نائبا عنك في البلاد وباسمك كنا نطيعه ، فقبل قولهما وظنه حقا ، وقربهما طمعا في ان يكونا عونا له على تحصيل غرضه ، وأرسلا الى زين الدين بالموصل يعرفانه قتل الشهيد ، ويأمرانه بالارسال الى سيف الدين غازي ـ وهو ولد زنكي الاكبر ـ واحضاره الى الموصل ، وكان بشهرزور ـ وهي اقطاعه من أبيه ـ ففعل زين الدين ذلك . وكان نور الدين محمود بن الشهيد قد سار لما قتل والده الى حلب فملكها ، وقال جمال الدين للملك : إن من الرأي ان يسير صلاح الدين الى مملوكك محمود بحلب يدبر أمره ، فأمره بذلك ، وكان هذا أمرا تقرر بين جمال الدين وصلاح الدين ، وهيأ مسير صلاح الدين الى الشام ، وتقرير أمر نور الدين ، وحفظ البلاد هناك لئلا يطمع الفرنج في شيء منها ، وكانت مدينة حماة اقطاع صلاح الدين ، فرغب

بالشام لهذا السبب ، وأنه ظن أن أمر الملك يقوى ويملك البلاد ولايبقى لاولاد الشهيد شيء شرقي الفرات . وكان أحب الاشياء إلى جمال الدين بعد صلاح الدين أيضا ، لأنه لم يأمن منه . فلما أمر الملك بمسير صلاح الدين الى الشام سار ، وبقي جمال الدين وحده مع الملك ، فأخذه وقصد الرقة ، فحسن له جمال الدين الاشتغال بشرب الخمرة والخلوة بالنساء ، وارسل اليه عدة جوار كن للشهيد ، وشيئا من المال يهبه المغنيات ، وهون عليه أمر ملك البلاد ، وقوى طمعه فيها حتى ظن أنها في يده فاشتغل الملك بذلك ، وأراد أن يعطي الامراء ، فمنعه خوفا من أن تميل قلوبهم إليه ، وقال : لهم منك الاقطاع الجزيل والنعم الوافرة . وشرع جمال الدين يستميل العسكر ويحلف الامراء لسيف الدين بن اتابك الشهيد واحدا بعد واحد ، وكل من يحلف يأمره بالمسير الى الموصل هاربا من الملك ، وأقام بالملك في الرقة عدة أيام ، ثم سار الى ماكسين (٦٠) ، فتركه بها عدة أيام أيضا ، وقد شغله جمال الدين بلذاته عن طلب الملك ، ثم سار به نحو سنجار ، وكان سيف الدين قد دخل الموصل فاستقر بها ، فقوي حينئذ جنان جمال الدين (ووصل هو والملك الى سنجار) (٦١) وارسل الى دزدارها وقال له : لاتسلم البلد ولاتمكن أحدا من دخوله ، ولكن أرسل إلى الملك وقل له : أنا تبع الموصل ، فمتى دخلت الموصل سلمت إليك . ففعل الدزدار ذلك.

فقال جمال الدين للملك : المصلحة انا نسير إلى الموصل ، فإن مملوكك غازي إذا سمع بقربنا منه خرج الى الخدمة وحينئذ تقبض عليه وتتسلم البلاد ، فساروا عن سنجار ، وكثر رحيل العسكر هاربين من الملك فبقي في قلة من العسكر ، فساروا الى مدينة بلد (٦٢) وعبر الملك دجلة من هناك ، فلما عبرها ، سار جمال الدين الى الموصل فدخلها ، وأرسل الامير عز الدين أبا بكر الدبيسي في عسكر الى الملك ، وهو في نفر يسير ، فأخذه وأدخله الموصل ، فكان أخر العهد به . واستقر أمر سيف الدين ، وأقر زين الدين علي على ماكان إليه من ولاية الموصل ، وجعل جمال الدين وزيره ، وارسلوا إلى السلطان مسعود فاستحلفوه لسيف الدين فحلف ، وأقره على البلاد وأرسل له الخلع . وكان هذا سيف الدين لازم

السلطان مسعود أيام أبيه سفرا وحضرا . وكان السلطان يحبه كثيرا ويأنس به ويذشطه ، فلما خوطب في اليمين وتقرير البلاد لم يتوقف ، فانظر إلى فعل جمال الدين وحسن عهده ، وكمال مروءته ، ورعايته لحقوق مخدومه واحسانه ، وهذا المقام الذي ثبت فيه يعجز عنه عشرة آلاف فارس ، فلقد قال من قال : الناس ألف منهم كواحد ، وهو معذور فانه لم ير مثل جمال الدين . ولما استقر سيف الدين في الملك اطاعته جميع البلاد ، ماعدا ماكان بديار بكر : كالمعدن ، وحيزان وأسعرد وغير ذلك ، فإن المجاورين لها تغلبوا عليها .

ذكر عصيان أهل الرها واستيلاء المسلمين عليها ثانيا

لما قتل الشهيد كان جوسلين الفرنجي – الذي كان صاحب الرها – في ولايته غربي الفرات في تل باشر وماجاورها ، فراسل أهل الرها – وكان عامتهم من الأرمن – وواعدهم يوما يصل إليهم فيه ، فأجابوه الى ذلك ، فسار في عساكره إليها وملكها ، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين ، وقاتلهم وجد في قتالهم ، فبلغ الخبر الى نور الدين – وهو حينئذ بحلب قد ملكها بعد قتل والده – فسار مجدا اليها في العسكر الذي عنده ، فلما سمع جوسلين بوصوله خرج عن الرها إلى بلده ، ودخل نور الدين المدينة ونهبها وسبى اهلها وفي هذه الدفعة نهبت وخربت وخلت من اهلها ولم يبق منهم بها الا القليل. وكان من بالقلعة قد ارسلوا الى الموصل يعرفون سيف الدين الخبر ، فوصل القاصد الى ولاية الموصل ، فلقي عز الدين أبا بكر الدبيسي وقد سار الى الجزيرة ليتسلمها اقطاعا ، فسلك طريق البقعاء (٦٣) متصيدا ، فلقي القاصد فاخبره خبر الرها ، فترك عز الدين قصد الجزيرة وسار نحو الرها ، وأرسل إلى سيف الدين قاصدا مسرعا ينهي إليه الحال ، ويطلب منه المدد ، فجهزت العساكر من الموصل ، وجد عز الدين في السير ، فوصلها وقد ملكها نور الدين واستقر

فيها ، ونهبها وأجلى من كان بها من الفرنج ، وكان هذا فتحا ثانيا ، وبقيت الرها بيد نور الدين لم يعارضه فيها سيف الدين .

نادرة عجيبة

لما ملك نور الدين الرها ونهبها المسلمون ، أرسل من غنائمها إلى الامراء وغيرهم ماجرت به العادة . وكان زين الدين علي من جملة من أرسل إليه منها ، وفي جملة ماارسل اليه عدة من الجواري فحملن الى داره ، ودخل لينظر إليهن ، وقال لمن عنده من أصحابه : مكانكم حتى أعود إليكم ، فغاب عنهم قليلا ثم خرج ، وقد اغتسل ، وهو يضحك ، فلما قعد قال : قد جرى لي اليوم أعجوبة ، وهي أننا لما فتحنا الرها مع الشهيد رحمه الله كان في جملة ماغنمت جارية مالت نفسي إليها ، فعزمت على أن أبيت معها ، فسمعت منادي الشهيد وهو يأمر باعادة السبي والغنائم ، وكان مهيبا مخوفا ، فلم أجسر على إتيانها وأطلقتها ، فلما كان الآن ، أرسل إلى نور الدين سهمي من الغنيمة وفيه تلك الجارية ، فوطئتها خوفا من العود .

ذكر اجتماع سيف الدين ونور الدين ابني زنكي

لما فرغ سيف الدين من أصلاح أمر السلطان وتحليفه وتقرير أمر البلاد ، عبر إلى الشام لينظر في تلك النواحي ، ويقرر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين وهو بحلب ، وقد تأخر عن الحضور عند أخيه وخافه ، فلم يزل يراسله ويستميله ، وكلما طلب شيئا أجابه إليه إستمالة لقلبه ، فاستقرت الحال بينهما على أن يجتمعا خارج المعسكر السيفي ، ومع كل واحد منهما خمسمائة فارس ، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس ، فلم يعرف نور الدين سيف الدين حتى قرب منه ، فحين رآه عرفه ، فترجل له وقبل

الارض بين يديه وأمر أصحابه بالعود عنه فعادوا ، وقعد نور الدين وسيف الدين بعد أن اعتنقا وبكيا ، فقال له سيف الدين : لم امتنعت من المجيء إلي ، كنت تخافني على نفسك ؟ والله لم يخطر ببالي ماتكره ، فلمن أريد البلاد ومع من اعيش ، وبمن اعتضد إذا فعلت السوء مع اخي وأحب الناس إلي ؟!

فاطمأن نور الدين وسكن روعه ، وعاد الى حلب فتجهز ، وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين فأمره سيف الدين بالعود ونزل بعسكره عنده ، وقال له : لاغرض لي في مقامك عندي ، وإنما غرضي أن تعلم الملوك والفرنج اتفاقنا ، فمن يريد السوء بنا يكف عنه ، فلم يرجع نور الدين ولزمه الى ان قضيا ماكانا فيه . وعاد كل واحد منهما إلى بلده .

ذكر نزول الفرنج على دمشق وحصرها ومافعله سيف الدين حتى رحلوا عنها

في سنة ثلاث واربعين وخمسمائة ، خرج ملك الألمان من بلاد الفرنج في جيوش عظيمة لاتحصى كثرة من الافرنج إلى بلاد الشام ، واتفق هو ومن بساحل الشام من الفرنج ، واجتمعوا وقصدوا مدينة دمشق ونازلوها ، ولايشك ملك الالمان أنه يملكها وغيرها لكثرة جموعه وعساكره . وهذا النوع من الفرنج هم أكثر الفرنج عددا وأوسعهم بلادا ، وملكهم اكثرهم عددا وعددا ، وأن كان غير ملكهم اشرف منه عندهم واعظم محلا ، « والسيف اصدق أنباء من الكتب » . فلما حصروا دمشق وبها صاحبها مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين ، وليس له من الامر شيء ، وإنما كان الأمر إلى معين الدين أنر مملوك جده طغتكين ، فهو كان الحاكم والمدبر للبلد والعسكر ، وكان عاقلا خيرا دينا حسن السيرة ، فجمع العسكر وحفظ البلد ، وحصرهم الفرنج وزحفوا إليهم سادس ربيع الاول ، فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم عن القرب منه ، وكان فيمن

خرج معهم ، الفقيه حجة الدين يوسف بن دوناس الفندلاوي المغربي ، وكان شيخا كبيرا زاهدا عابدا ، خرج راجلا فرآه معين الدين فقصده وسلم عليه ، وقال له : يا شيخ أنت معذور ونحن نكفيك ، وليس بك قوة على القتال ، فقال : قد بعت واشترى ، فلا نقيله ولانستقيله يعني قول الله تعالى : (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم) (٦٤) الآية . وتقدم وقاتل الافرنج حتى قتل رضي الله عنه عند النيرب شهيدا (٦٥) . وقوي أمر الفرنج وتقدموا ، فنزلوا بالميدان الأخضر وضعف أهل البلد عن ردهم عنه ، وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين ، يستغيث ويستنجده ، ويسأله القدوم عليه ، ويعلمه شدة الأمر الذي قد دفعوا إليه ، فجمع سيف الدين عساكره وحشد ، وسار مجدا إلى مدينة حمص ، وأرسل إلى معين الدين يقول له : قد حضرت ومعي كل من يطيق حمل السلاح من بلادي ، فأنا إن جئت اليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوابي وأصحابي وكانت الهزيمة علينا ، لايسلم منا أحد لبعد بلادنا عنا ، وحينئذ يملك الفرنج دمشق وغيرها ، فإن أردت أن القاهم واقاتلهم ، فتسلم البلد الى من أثق إليه ، وأنا أحلف لك ، إن كانت النصرة لنا على الفرنج إنني لاأخذ دمشق ، ولاأقيم بها إلا مقدار مايرحل العدو عنها وأعود إلى بلادي ، فماطله معين الدين لينظر مايكون من الفرنج .

وارسل سيف الدين الى الفرنج الغرباء يتهددهم ، ويعلمهم انه على قصدهم إن لم يرحلوا ، وارسل معين الدين إليهم أيضا يقول لهم : قد حضر ملك الشرق ومعه من العساكر مالا طاقة لكم به ، فإن أنتم رحلتم عنا وإلا سلمت البلد إليه ، وحينئذ لاتطمعون في السلامة منه . وأرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من اولئك الفرنج الخارجين الى بلادهم ، ويقول لهم : أنتم بين أمرين مذمومين ، إن ملك هؤلاء الفرنج الغرباء بدمشق لايبقون عليكم مابايديكم من البلاد ، وإن سلمت أنا دمشق إلى سيف الدين فانتم تعلمون انكم لاتقدرون على منعه عن البيت المقدس ، وبذل لهم أن يسلم إليهم بانياس إن رحلوا ملك الالمان عن دمشق ، فأجابوه الى ذلك وعلموا صدقه ، واجتمعوا

بملك الألمان وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع امداده ، وأنه ربما ملك دمشق فلا يبقى لهم معه مقام بالساحل ، فأجابهم الى الرحيل عن دمشق وسار عنها . ورحل فرنج الساحل وتسلموا حصن بانياس من معين الدين ، وبقى حصن بانياس مع الفرنج حتى فتحه نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله تعالى . ذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر في تاريخ دمشق ، قال : حكى لي بعض الائمة العلماء ، أنه رأى الفندلاوي في المنام ، فقال له اين انت . قال : في جنات عدن (على سرر متقابلين .) (٦٦).

ذكر فتح نور الدين حصن العريمة

لما رحل الفرنج عن دمشق ، سار معين الدين أنر الى بعلبك ، وأرسل إلى نور الدين وهو مع أخيه سيف الدين ، فسأله أن يحضر عنده فيجتمع به ، فسار إليه واجتمعا فوصل إليهما حينئذ كتاب القمص صاحب طرابلس ، يشير بقصد حصن العريمة وأخذه ممن فيه من الفرنج . وكان سبب ذلك ، أن ولد الفنش صاحب طليطلة ، خرج مع ملك الالمان الى الشام وتغلب على العريمة واخذه من القمص ، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس منه أيضا . وجد هذا الذي ملك العريمة ، هو الذي غزا افريقية وفتح مدينة طرابلس الغرب فلما استولى هذا على العريمة ، كاتب القمص نور الدين ومعين الدين في قصده ، فسار [illegible]يه مجدين فصبحاها ، وكتبا الى سيف الدين وهو بحمص يستنجد[illegible]ه ويطلبان المدد ، فامدهما بعسكر جرار ، وجعل مقدمه عز الدين أبا بكر الدبيسي ، فحصروا الحصن وبه ابن الفنش ، فامتنع ب[illegible] حماه ، فزحف المسلمون اليه ، وتقدم النقابون الذين مع نور الدي[illegible] نقبوا السور ، فلما رأوا الفرنج ذلك ، اذعنوا واستسلموا ، والقوا مابايديهم فملك المسلمون الحصن ، وأخذوا كل من فيه من رجل وصبي وامرأة وفيهم ابن الفنش ؛ وأخربوا الحصن وعادوا الى سيف الدين .

ذكر ملك سيف الدين قلعة دارا

قد ذكرنا أن أتابك الشهيد رضي الله عنه ملك دارا (٦٧) وبقيت بيده إلى أن قتل ، فلما قتل أخذها حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين ، فلما كان في سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، سار سيف الدين اليها وحصرها ، وقاتل من بها وضيق عليهم فملك الحصن ، واستولى على كثير من بلد ماردين بسببها .

ذكر حصار قلعة ماردين الشهباء

ثم إن سيف الدين سار إلى ماردين وحصرها ، عازما على أن يدخل ديار بكر ويستعيد ماأخذ من البلاد بعد قتل والده الشهيد رضي الله عنه ، فأقام عليها يحاصرها ، وتفرق العسكر في بلدها ينهبون ويخربون ، فلما نظر حسام الدين صاحبها إلى مايفعل العسكر في بلاده ، قال : كنا نشكو من أتابك الشهيد وأين أيامه ، فلقد كانت أعيادا ، قد حصرنا غير مرة فلم يتعد هو وعسكره حاصل السلطان ، ولاأخذوا كفا من التبن بغير ثمنه .

رب يوم بكيت فيه فلما
صرت في غيره بكيت عليه

ثم أنه راسل سيف الدين وصالحه على ماأراد ، وزوجه ابنته الخاتون ، ورحل سيف الدين عن ماردين وعاد إلى الموصل ، وجهزت خاتون وسيرت اليه ، فوصلت الى الموصل وهو مريض قد أشرف على الموت ، فتوفي ولم يدخل بها . فلما توفي تزوجها أخوه الملك قطب الدين مودود ، فكان أولاده الملوك منها .

ذكر غزو الفرنج بيغرى وما جرى لهم فيها

في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة : سار نور الدين محمود بن الشهيد رضي عنهما إلى بيغرى ، وقد اجتمع بها الفرنج في قضهم وقضيضهم ، وقد عزموا على قصد بلاد الاسلام . فلما سمع نور الدين خبرهم سار نحوهم ، فالتقوا هنالك واقتتلوا اشد قتال ، ثم أنزل الله تعالى نصره على المسلمين ، وإنهزم الفرنج واخذتهم سيوف المسلمين ، فكانوا بين قتيل واسير وإما السالم منهم من المعركة فقليل ، ولهذا يقول القيسراني (٦٩) في هذه الوقعة من قصيدة في اولها :

ياليت ان الصد مصدود
اولا فليت اليوم مردود

الى متى يعرض عن مغرم
في خده للدمع اخدود

ومنها في ذكره :
وكيف لانثني على عيشنا ال
محمود والسلطان محمود

وصارم الاسلام لاينثني
الا وشلو الكفر مقدود

مناقب لم تك موجودة
الا ونور الدين موجود

وكم له من وقعة يومها
عند ملوك الشرك مشهود

والقوم اما مرهق صرعة
أو موثق بالقد مشدود

ذكر وفاة سيف الدين غازي بن اتابك عماد الدين زنكي

في أواخر جمادى الاخرة من سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، توفي سيف الدين غازي بن أتابك عماد الدين زنكي بن اقسنقر . وكان مرضه حمى حادة ، فأرسل إلى بغداد وأحضر أوحد الزمان الطبيب ، ولم يكن في زمانه أعرف منه بالطب فلما رأى شدة مرضه علم أن الاغلب عليه العطب ، فأعلم جمال الدين وزين الدين حاله ، وقال لهما : ليس له علاج غير شيء واحد ، وهو خطر فعالجه ، فتوفي . وكان عمره نحو اربعين سنة . وكان من أحسن الناس صورة ، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بالموصل ، وخلف ولدا ذكرا اخذه عمه نور الدين محمود ورباه واحسن تربيته ، وزوجه بابنة عمه قطب الدين مودود ، فلم تطل أيامه وأدركه أجله في عنفوان شبابه فتوفي . وانقرض عقب سيف الدين رحمه الله تعالى .

في ذكر بعض سيرته وأخلاقه رحمه الله

كان رحمه الله تعالى كريما شجاعا ، عاقلا ، ذا حزم وعزم ، ولما توفي والده الشهيد ، استوزر جمال الدين أبا جعفر المقدم ذكره ، وحكمه وأعطاه عشر دخل بلاده ، وأقر زين الدين علي على ولاية قلعة الموصل ، وكان له إربل ، فزاد اقطاعه واعلى محله ، واقطع عز الدين أبا بكر الدبيسي جزيرة ابن عمر وجميع قلاع الزوزان وغيرهما ، وقرر أمر المملكة فلم يتغير شيء بقتل والده .

حكى لي والدي : أنه كان راتبه كل يوم لسماطه مائة شاة بكرة ، ينزل الجند في خدمته كل يوم ويأكلون الطعام ، وكان له سماط آخر

النهار ، يذبح له كل يوم ثلاثون رأسا من الغنم الجيد ، سوى الخيل والبقر .

وهو أول من حمل على رأسه سنجق من اصحاب الاطراف ، فانه لم يكن فيهم من يفعله لاجل السلاطين السلجوقية .

وهو أول من أمر عسكره أن لايركب أحدهم الا والسيف في وسطه والدبوس تحت ركابه سفرا وحضرا ، ولم يكن يفعل قبل ذلك في سائر البلاد إلا في السفر ، فلما أمر هو عسكره ، اقتدى به غيره من أصحاب الاطراف .

وبنى بالموصل المدرسة الاتابكية العتيقة ، وهي من أحسن المدارس وإوسعها ، وجعلها وقفا على الفقهاء الشافعية والحنفية نصفين .

وبنى أيضا رباطا للصوفية بالموصل وهو الرباط المجاور لباب المشرعة ، ووقف عليها الوقوف الكثيرة .

قال : وكان جمال الدين ، وزين الدين ، وعز الدين الدبيسي ، قد اتفقت كلمتهم في ايامه ، واضطر الى مداراتهم ، لانهم كانوا يخوفونه السلطان ، فلما طال ذلك عليه ، عزم على المسير الى السلطان مسعود وقال لهم : أنا كنت من اقرب الناس الى السلطان ، ومنزلتي عنده مشهورة ، ولابد من المسير اليه ، فخافوه إن هو سار إليه ، أن يعود وقد أمن جانبه فلا يبقي عليهم ، فكانوا لايزالوا يمنعونه عما يريده من ذلك إلى أن أدركه أجله .

وكان كريما ، قصده شهاب الدين الحيص بيص وامتدحه بقصيدته المشهورة التي أولها يقول « شعر »

الام يراك المجد في زي شاعر
وقد نحلت شوقا فروع المنابر

وهي من جيد شعره ، فأعطاه جائزته ألف دينار أميري ، سوى الاقامة والتعهد مدة مقامه ، وسوى الخلع والثياب من سائر الأنواع

في ذكر ملك اخيه قطب الدين

لما توفي سيف الدين غازي ، كان أخوه قطب الدين مودود بالموصل ، فاتفقت كلمة جمال الدين وزين الدين على تمليكه طلبا للسلامة منه ، فانه كان لين الجانب ، حسن الاخلاق ، كثير الحلم ، كريم الطباع ، فأحضروه من داره وحلفوه لهم وحلفوا له ، ونزل بدار المملكة وحلف له الأمراء والأجناد ، واستقر في الملك ، واطاعه جميع ماكان لاخيه سيف الدين ، لان المرجع كان في جميع المملكة الى جمال الدين وزين الدين ، ولما ملك واستقر في الملك ، تزوج الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش التي كان سيف الدين تزوجها ولم يدخل بها ، فولدت لقطب الدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعده على مانذكره . ولم يملكها من اولاد قطب الدين احد من غير اولادها

في ذكر فاطمة ابنة عبد الملك

معرفة حسنة تذكر

قد ذكر أصحاب التواريخ والمعارف ، أن فاطمة بنت عبد الملك بن مروان بن الحكم ، وامها عاتكه بنت يزيد بن معاوية بن ابي سفيان – جد امها وابيها – ، وابنه يزيد – وهو جدها لامها – ، ومعاوية بن يزيد – وهو خالها – ، ومروان بن الحكم – وهو جدها لابيها – ، وعبد الملك بن مروان – وهو أبوها – ، والوليد ، وسليمان ويزيد ، وهشام أولاد عبد الملك – وهم أخوتها – ، وعمر ابن عبد العزيز – وهو زوجها – والوليد بن يزيد بن عبد الملك – وهو ابن أخيها – ، ويزيد وابراهيم ابنا الوليد بن عبد

الملك ـ وهما ابنا اخيها ـ ايضا . ولم يبـق مـن بني أمية الذين ولوا الأمر ، من كان يحرم عليها ان تضع خمارها عنده ، الا مروان ابن محمد ، المعروف بالحمار لاغير . وهذه الخاتون كان يحل لها أن تضع خمارها عند خمسة عشر ملكا ، وهم : نجم الدين ايلغازي بـن أرتق ـ وهو جدها لابيها ـ ، وسـقمان بـن أرتـق ـ وهـو عم أبيها ـ ، وحسام الدين تمرتاش ـ وهو أبوها ـ ، ونجم الدين ألبي ـ وهو أخوها ـ ، وقطب الدين ايلغازي بن ألبـي ـ وهـو ابن أخيها ـ وحسـام الدين ، وناصر الدين ـ وهمـا أولاد قـطب الدين ـ وسيف الدين غازي ، وقـطب الدين مـودود ابنا الشـهيد زنكي ـ وهما زوجـاها ـ وعمـاد الدين الشـهيد ـ وهـو حموها ـ وولداها سيف الدين غازي ، وعز الدين مسـعود ـ ابنا قطب الدين مـودود ـ ونور الدين أرسـلان شـاه بـن عز الدين مسعود ـ وهو ابن ابنها ـ وابنه الملك القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين ومعز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي ـ وهو ابن ابنها ـ وابنه معز الدين محمود ، وعماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود ـ وهو ابن زوجها ـ وولده قطب الدين محمد .

ذكر ملك نور الدين محمود بن الشهيد مدينة سنجار وماكان بينه وبين أخيه قطب الدين

لما ملك قطب الدين الموصل والبلاد الجزرية بعد وفاة أخيه سـيف الدين غازي ، كان نور الدين محمود بحلب ـ وهو أكبر مـن قـطب الدين ـ فكاتبه بعض الأمراء وطلبوه اليهم ، وكأنهم حسـدوا زين الدين وجمال الدين ، وأرادوا أن يحكم عليهم ابن صـاحبهم ، وكان فيمن كاتبه ، المقدم والد شمس الدين ابن المقدم ـ وهو حينئذ دزدار سنجار ـ واستدعاه ليسلم إليه سنجار ، فسار نور الدين جريدة في سبعين فارسا في أكابر دولته ، منهم ، أسد الدين شيركوه ، ومجـد

الدين أبو بكر بن الداية وغيرهما ، فوصل الى ماكسين في ستة أنفس في يوم شديد المطر وعليهم اللبابيد ، فلم يعرفهم الذين بالباب ، وأرسلوا إلى الشحنة وأخبروه بوصول نفر من الأجناد وكأنهم تركمان ، فلم يستتم القاصد كلامه حتى وصل نور الدين ، فحين رآه الشحنة قبل يده وخرج عن الدار ، فنزلها نور الدين حتى لحق به أصحابه ، وسار مجدا إلى سنجار ، فوصلها وليس معه غير نفر يسير ، فنزل بظاهر البلد وألقى نفسه على محفور صغير من شدة تعبه وأرسل إلى المقدم بالقلعة يعرفه وصوله ، وكان المقدم قد استدعي إلى الموصل ، لأن خبره مع نور الدين بلغ من بها ، فأرسلوا إليه وأحضروه فتوقف عدة أيام فلم يصل نور الدين ، فسار الى الموصل وترك ابنه شمس الدين بسنجار ، وقال له : أنا أتأخر في الطريق ، فإن وصل نور الدين فأرسل من يعلمني فلما فارق سنجار وصل نور الدين ، فلما علم شمس الدين بوصوله أرسل قاصدا مجدا إلى أبيه بالخبر ، وأنهى الحال إلى نور الدين فسقط في يده وخاف فوات الأمر ، ووصل القاصد الذي سيره ابن المقدم إلى أبيه ، فأدركه بتليعفر ، فعاد إلى سنجار وسلمها الى نور الدين ، فكاتب نور الدين فخر الدين قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن يستنجده ، وبذل له قلعة الهيثم ، فسار إليه بجنده ولما سمع أتابك قطب الدين الخبر ، جمع عساكره وسار عن الموصل نحو سنجار ومعه جمال الدين وزين الدين ، ونزلوا بتل يعفر وأرسلوا إلى نور الدين يذكرون عليه اقدامه وأخذه ماليس له ، ويهددوه بقصده واخراجه عن البلاد قهرا ان لم يرجع اختيارا فأعاد الجواب : إنني أنا الأكبر وإني أحق ان أدبر أمر أخي منكم ، وماجئت الا لما تتابعت الي كتب الأمراء يذكرون كراهيتهم لولايتكما عليهم ـ يعني زين الدين وجمال الدين ـ فخفت أن يحملهم الغيظ والأنفة على اخراج الأمر عنأيدينا وأما تهديدكم إياي بالحرب والقتال ، فأنا لاأقاتلكم إلا بجندكم ـ وكان قد هرب إليه جماعة من أجنادهم ـ فخافوا أن يلقوه لئلا يخامر عليهم باقي العسكر ، ودخل الأمراء في الصلح وأشار به جمال الدين ، وقال : نحن نظهر للسلطان والخليفة أننا تبع نور الدين ، ونور الدين يظهر

للفرنج أنه يحكمنا ويتهددهم بنا ، فإن كاشفناه وحاربناه فإن ظفر بنا طمع فينا السلطان ، وإن ظفرنا به طمع فيه الفرنج ، ولنا بالشام حمص وقد صار له عندنا سنجار ، فهذه أنفع لنا من تلك ، وتلك انفع له من هذه ، والرأي ان نسلم إليه حمص ونأخذ سنجار ، وهو في ثغر بإزاء الفرنج ويتعين مساعدته ، فاتفق الجماعة على هذا الرأي وسار إليه جمال الدين فأكرمه نور الدين وبالغ في تعظيمه وأكرامه وعاتبه جمال الدين وقال : كنت أرسلت إلي في شيء تريده من البلاد حتى كنت أفعل ماتريد ولا تطمع فيك الأعداء وفينا ، وطال الحديث بينهما ، وأجاب نور الدين إلى ماطلب منه ، واستقر الصلح على ذلك ، وتسلم نور الدين حمص ، وسلم سنجار إلى أخيه وعاد نور الدين إلى الشام ، وأخذ ماكان بسنجار من المال ، ولما أراد العود ، قال لجمال الدين : لابد من أن تكون عندي ، فلي من الحق مثل مالأخي ، وأنا أحوج اليك منه ، فقال له جمال الدين : أنت فيك من الكفاية ماتستغني به عن وزير ومشير ، وليس عندك من الأعداء مثل ماعند أخيك ، لأن عدوك كافر فالناس يدفعونه ديانة ، وأعداء أخيك مسلمون فيحتاج من يقوم بدفعهم ، وإذا كنت عند أخيك فالنفع عائد إليك ، وأريد من بلادك مثل مالي من بلاد أخيك معونة على كثرة خرجي ، فأجابه إلى ذلك ، فقال له جمال الدين : انت عليك خرج كثير لأجل الكفار ويجب مساعدتك ، وأنا أقنع منك بعشرة آلاف دينار كل سنة ، فأمر له بها ، فكان نائب جمال الدين يقبضها ، كل سنة ويشتري بها أسرى من الفرنج ويطلقهم .

ولما تسلم قطب الدين سنجار أقطعها زين الدين ، لأن حمص كانت لأخيه وهو مقيم بها ، واتفقت كلمتهم ، واتحدت آراؤهم فكان كل واحد منهما لايصدر إلا عن أمر أخيه .

ذكر قضية قلعة سنجار

قال : فلما مات سيف الدين وتولى أخوه قطب الدين ، أحضر شمس الدين محمد بن المقدم عبد الملك من سنجار - وكان هذا شمس الدين خصيصا بسيف الدين - وسبب وصلته به أنه لما قصد سيف الدين خدمة السلطان مسعود السلجوقي ، رتب في خدمته عشرة من الجندارية ، وكان عبد الملك واحدا منهم ، ومعه ولد له مليح الصورة ، فكلف به وأحبه واستصحبه معه إلى الموصل ، ولما انفرق عبد الملك من الجندارية وتبع سيف الدين الى الموصل استخلف سيف الدين ، عبد الملك في سنجار .

فلما توفي سيف الدين وتملك قطب الدين ، أرسل إلى سنجار واستطلب إليه شمس الدين ابن عبد الملك فاستحضره وحلفه على أنه لايمكن والده من تسليم سنجار الى غيره ، فحلف له ثم هرب من عند قطب الدين إلى سنجار ، فعندما استوثق أمر قطب الدين بالموصل واستقرت له المملكة كتب عبد الملك لنور الدين أن يسلمها اليه ، ويعلمه ان خزائن بيت أتابك جميعها في سنجار فلما بلغ قطب الدين ذلك ، سير اليهما ولاطفهما ودخل لهما في كل ماا قترحا عليه ، وحلفا له بمحضر من قاضيها وأعيان شهودها ، واقترح الرسول أن يستصحب معه شمس الدين إلى الموصل فأبى عليه ، وادعى الحياء من قطب الدين لكونه خرج هاربا منه ، فاتفق إلى خروج والده عن سنجار مرحلة ، قدمها نور الدين من حلب في مائتي فارس ، فنفذ شمس الدين الى والده المقدم عبد الملك يعرفه بوصوله ، فخرج ولم يقدر الرسول على منعه .

وكان شمس الدين عند قدوم نور الدين قد فتح الخزائن ، واختار منها من نفائس الجواهر وأخاير الذخائر مايعز وجوده ، وكتب إلى نور الدين في تسليم البلد اليه ، على أن لايطالبه بشيء مما

- ٦٤٧١ -

أخــذه ، فــأجابه إلى ذلك ، وتســـلم البلد يوم الاثنين عاشر رجب ، وحصل ابن المقدم على مافي يده من الذخائر .

ولما بلغ قطب الدين مااتفق بعث وزيره جمــال الدين الأصــفهاني ليفرغ ماكان في الخزائن من الأموال والأقمشة والجـواهر ، ومعــه جريدة مايتضمن ذلك المال (وعند لقائه بنور الدين (٧١)) قــال له : هذا مال المســلمين ولايحــل لك اطــلاق شيء منه ، فقــال نور الدين : إن كان أخذ شيئا من مال المسلمين بالغدر ففي عنقه .

ثم إن جمال الدين قرر الصــلح بين نور الدين وبين أخيه قــطب الدين ، على أن يأخذ نور الدين الخزائن التي في سنجار ، ويأخــذ الرقة والرحبة وحمص ويعطيه سنجار وتبقى الرهــا في يد نور الدين على ماكانت أولا .

ثم رحل نور الدين وترك نائبه فيها حتى يتسلم البلاد ، وعاد إلى حلب ، ومعه خزائن سنجار على ســتمائة جمــل ، مــاخلا البغــال ومافرقه على أولاد الملوك والأمراء ــ وستة وتســعين بغــلا محملة ذهبا (٧٢) .

ذكر قتل البرنس صاحب انطاكية

في سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، ســار نور الدين إلى حصــن حارم وهو للفرنج ، فحصره وخرب ربضه ونهب سواده .

ثم رحل عنه إلى حصن إنب فحصره ، فــاجتمعت الفــرنج مــع البرنس صاحب انطاكية وساروا اليه ليرحلوه عن إنب فلم يرحل بل لقيهم ، وتصاف الفريقان واقتتلوا وصبروا ، وظهر مــن نور الدين من الشجاعة والصبر في الحرب على حداثة سنه مــا تعجــب الناس منه . فانجلت الحرب عن هزيمة الفرنج وقتل المسلمون منهم خلقــا

كثيرا وفيمن قتل ، البرنس صاحب انطاكية ، وكان عاتيا من عتاة الفرنج وذوي التقدم فيهم والملك .

ولما قتل البرنس خلف ابنا صغيرا وهو بيمند ، فبقي مع أمه بأنطاكية ، فتزوجت أمه بابرنس آخر ، وأقام معها بانطاكية يدبر الجيش ويقودهم ويقاتل بهم إلى أن يكبر بيمند ابن المقتول .

ثم إن نور الدين غزا بلد الفرنج غزوة اخرى ، فلقيه فرسان الفرنج وقاتلوا ، فهزمهم وقتل منه وأسر فكان في الأسرى البرنس الثاني زوج أم بيمند ، فلما أسره تملك بيمند انطاكية بلد أبيه وتمكن منه ، وبقي بها إلى أن أسره نور الدين بحارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة على مانذكره إن شاء الله تعالى . فأكثر الشعراء مدح نور الدين وتهنئته بهذا الفتح وقتل البرنس فممن قال فيه : القيسراني الشاعر قصيدته المشهورة التي أولها هذه الأبيات :

هذي العزائم لا ما تدعى القضب
وذي المكارم لاما قالت الكتب

وهذه الهمم اللاتي متى خطبت
تعثرت خلفها الأشعار والخطب

صافحت يابن عماد الدين ذروتها
براحة للمساعي دونها تعب

مازال جدك يبني كل شاهقة
حتى ابتنى قبة أوتادها الشهب

أغرت سيوفك بالافرنج راجفة
فؤاد رومية الكبرى لها يجب

ضربت كبشهم منها بقاصمة
أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب

طهرت أرض الأعادي من دمائهم
طهارة كل سيف عندها جنب

حتى استطار شرار الزند قادحة
فالحرب تضرم والآجال تختطب

والخيل من تحت قتلاها تقربها
قوائم خانهن الركض والخبب

والنقع فوق صقال البيض منعقد
كما استقل دخان تحته لهب

والسيف هام على هام بمعركة
لا البيض ذو دومة فيها ولا اليلب

والنبل كالوبل هطالا وليس له
سوى القسي وأيد فوقها سحب

وللظبا ظفر حلوا مذاقته
كأنما الضرب فيما بينها ضرب

وللأسنة عما في صدورهم
مصادر أقلوب تلك أم قلب

من كان يغزو بلاد الشرك مكتسبا
من الملوك فنور الدين محتسب

ذو عزمة ما سمت والليل معتكر
الا تمزق عن شمس الضحى الحجب

افعاله كاسمه في كل حادثة
ووجهه نائب عن وصفه اللقب

وهي طويلة جدا . ومما قال فيها بعض الشاميين وانسيت اسمه :

أقوى الضلال واقفرت عرصاته
وعلا الهدى وتبلجت قسماته

وانتاش دين محمد محموده
من بعد ما علت دما عبراته

ردت على الاسلام عصر شبابه
وثباته من دونه وثباته

أرسى قواعده ومد عماده
صعدا وشيد سوره سوراته

وأعاد وجه الحق أبيض ناصعا
إصلاته وصلاته وصلاته (٧٣)

وهي أيضا طويلة .

ذكر ملك حصن أفامية

وفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة سار نور الدين الى حصن أفامية ، وهو للفرنج أيضا ، وبينه وبين مدينة حماة مرحلة ، وهو حصن منيع على تل مرتفع عال ، ومن أحصن القلاع وامنعها ، وكان من به من الفرنج يغيرون على مدينة حماة وشيزر وينهبونها ، وأهل تلك الاعمال معهم تحت الذل والصغار ، فسار نور الدين اليه وحصره وضيق عليه ، ومنع من به القرار ليلا ونهارا ، وتابع عليهم القتال ليمنعهم الاستراحة ، فاجتمعت الفرنج من سائر بلادها ، وساروا نحوه ليزحزحوه عنه فلم يصلوا إليه وقد ملك الحصن ، وملأه ذخائر من طعام ومال وسلاح ورجال ، وجميع ما يحتاج إليه فلما بلغه قرب الفرنج منه سار نحوهم ، فحين رأوا جده في لقائهم ، رجعوا القهقرى واجتمعوا ببلادهم ، وكان قصاراهم أن صالحوه على ما أخذ ومدحه الشعراء فأكثروا ، فمن ذلك قول ابن منير في قصيدته التي أولها :

اسنى الممالك ما أطلت منارها
وجعلت مرهفة الشفار دسارها

وأحق من ملك البلاد وأهلها
رؤوف تكنف عدله أقطارها

أدركت ثأرك في البغاة وكنت يا
مختار أمة أحمد مختارها

عارية الزمن المغير سما لها
منك المعير فاسترد معارها .

صارت نجومك فوقها ولربما
باتت تنافثها النجوم سرارها

امست مع الشعرى العبور وأصبحت
شعراء تستقلي الفحول شوارها (٧٤)

وهي طويلة

ذكر الحرب بين نور الدين وجوسلين

وانهــزام نور الدين رضى الله عنه في ســنة (ســـــت وأربعين وخمسمائة) (٧٥)

فيها سار نور الدين إلى بلاد جوسلين ، وهي القلاع التي شمال حلب ، منها تل باشر ، وعين تاب ، وعزاز وغيرها مــن الحصــون فجمع جوسلين الفرنج فارسهم وراجلهم ، ولقوا نور الدين ، فكانت بينهم حرب شديدة اجلت عن انهزام المسلمين وظفر الفرنج ، وأخــذ جوسلين سلاح دار كان لنور الدين أسيرا ، وأخــذ مــا معــه مــن السلاح فأنفذه الى السلطان مسعود بن قليج أرســلان الســلجوقي صاحب قونية وأقصرا وغيرها من تلك الأعمال ـ وكان نور الدين قد تزوج ابنته ـ وأرسل مع السلاح إليه يقول : :قد أنفـذت لك ســلاح صهرك ، وسيأتيك بعد هذا غيره ، فعــظمت هــذه الحــالة على نور الدين ، وأعمل الحيلة على جوسلين حتى أسره على ما نذكره .

في ذكر أسر جوسلين وملك بلاده

لما بلغ نور الدين ما فعله جوسلين من إرسال ســلاحه إلى حميه السلطان مسعود ، قام لذلك وقعــد ، وهجـــر الراحـــة للأخــــذ

بثأره ، وأزكى العيون على جوسلين ، وأحضر جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب من الاقطاع والأموال ، إن هم ظفروا بجوسلين اما قتلا أو أسرا ، لأنه علم إن هو جمع العساكرالاسلامية لقصده ، جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع ، فأخذ الى اعمال الحيلة ، فاتفق ان جوسلين خرج متصيدا متنزها في نفر يسير ، فظفر به طائفة من التركمان فصانعهم على مال بذله لهم فرغبوا فيه وأجابوه الى ذلك وأخفوا أمره عن نور الدين وأرسل جوسلين في إحضار المال ، فأتى بعض التركمان ، وكان نور الدين بحلب فأعلمه الحال ، فسير معه عسكرا أخذوا جوسلين من التركمان قهرا ، وكان نور الدين حينئذ بحمص . وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين ، فإنه كان شيطانا عاتيا من شياطين الفرنج ، شديد العداوة للمسلمين ، وكان هو يتقدم على الفرنج في حروبهم ، لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه وشدة عداوته للملة الاسلامية ، وقسوة قلبه على أهلها ، وأصيبت النصرانية كافة بأسره ، وعظمت المصيبة عليهم بفقده ، وخلت بلادهم من حاميها ، وثغورهم من حافظها ، وسهل أمرهم على المسلمين بعده ، وكان كثير الغدر والمكر لا يقف على يمين ولا يفي بعهد ، طالما صالحه نور الدين وهادنه ، فإذا أمن من جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر ، فلقيه غدره ومكره (ولا يحيق المكر السيء الا بأهله)(٧٦) .

فما أسر تيسر فتح كثير من بلادهم وقلاعهم فمنها : تل باشر ، وعين تاب ، وأعزاز ، وقورس ، والراوندان ، وحصن البارة ، وتل خالد ، وكفر سوت وحصن بسر فوث بجبل بني عليم ، ودلوك ، ومرعش ، ونهر الجوز ، وبرج الرصاص ، وكان نور الدين رحمه الله تعالى ، إذا فتح حصنا لا يرحل عنه حتى يملأه رجالا وذخائر تكفيه عشر سنين ، خوفا من نصرة تتجدد للفرنج على المسلمين ، فتكون حصونهم مستعدة غير محتاجة إلى شيء .

وقال الشعراء في هذه الحادثة فأكثروا ، فمن ذلك قول القيسراني من قصيدة ، أولها هذه الأبيات حيث يقول :

دعا ما ادعى من غرة النهى والأمر
فما الملك الا ما حباك به القهر

ومن ثنت الدنيا إليه عنانها
تصرف فيما شاء عن أذنه الدهر

كما أهدت الأقدار للقمص اسره
وأسعد قرن من حواه لك الأسر

طغى وبغى عدوا على غلوائه
فأوثقه الكفران ، عداوه والكفر

وأمست عزاز كاسمها بك عزة
تشق على النسرين لو أنها وكر

فسر واملأ الدنيا ضياء وبهجة
فبالأفق الداجي إلى ذا السنا فقر

كأني بهذا العزم لافل حده
واقصاه بالأقصى وقد قضي الأمر

وقد أصبح البيت المقدس طاهرا
وليس سوى جاري الدماء له طهر (٧٧)

وقال بعض الشاميين أيضا في هذا المعنى هذه الابيات :

هيهات بعصم من اردت حذار
انى ومن أوهاقك الأقدار

- ٦٤٧٩ -

هـمم تحلك كل يوم رتبة
تسري فيصبح دونها الأقمار

ومطامح في العز إذ هي صوبت
فلهن في الفلك الأثير قرار

طلعت عليك بجوسلين ذريعة
لا سحل انشأها ولا امرار (٧٨)

وسعادة مازلت تمرى خلفها
فيشف وهو الناتق المدرار

فارتك ما يجني الوفي وفاؤه
وأرته كيف يحين الغدار (٧٩)

وهي طويلة

ذكر المصاف بين نور الدين والافرنج بدلوك

لما سار نور الدين الى قلاع جوسلين ليتملكها ، ملك بعضا وبقي بعض ، فاجتمعت الفرنج وسارت نحو الباقي لتمنعه منه ، وصدو، أنه يمتنع باجتماعهم ولايقدم عليهم في عقر ديارهم ، فلما بلغه خبرهم سار اليهم ، وصمم العزم على لقائهم ، فالتقوا بدلوك واقتتلوا ، وكان بين الطائفتين حرب يشيب لها الوليد ، فمنح الله المسلمين أكتاف الفرنج ، فهزموهم هزيمة أتت على كثير منهم وسلم الباقون ، واستولى نور الدين على دلوك وغيرها ، وفي ذكرها وذكر غيرها قال بعض الشعراء الشاميين قصيدة فيها :

- ٦٤٨٠ -

اعدت بعصرك هذا الأنيق
فتوح النبي وأعصارها

فوطئت ياحبذا أحديها
واسررت من بدر أذوارها

وكان مهاجرها تابعيك
وانصار رأيك أنصارها

فجددت إسلام سلمانها
وعمر جدك عمارها

ومايوم إنب إلا كتيـ
ـك بل طال بالبوع اشبارها

وأيامك الغر من بعده
تعيد إلى الطي أغرارها

ويوم على الجون جون السرا
ة عز فسعطها عارها

صدمت عريمتها صدمة
اذابت مع الماء أحجارها

فصبحت بالخمس أحفاضها
ومسيت بالخمس أبكارها

وفي تل باشر باشرتهم
بزحف تسور أسوار ها

وإن دالكتهم دلوك فقد
شددت فصدقت أخبارها (٨٠)

ذكر وفاة السلطان مسعود بن محمد بن السلطان ملكشاه السلجوقي بهمذان

في سنة أربع (٨١) وأربعين وخمسمائة ، توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمذان وكان مرضه حمى حادة نحو اسبوع ، وعهد إلى ملكشاه ابن أخيه السلطان محمود وخطب له ببلاد الجبل . وكان الغالب على البلاد والعساكر في أيام السلطان مسعود خاصبك ابن بلنبكري ، فقام بامر ملكشاه ولم يمهله غير قليل حتى قبض عليه ، وكتب إلى أخيه الملك محمد بن السلطان محمود وهو بخوزستان يستدعيه إليه ليخطب له بالسلطنة ، وكان غرض خاصبك أن يقبض عليه أيضا ، ويخلو وجهه من منازع من السلجقية ، وحينئذ يطلب السلطنة لنفسه . فلما كاتب محمدا أجابه إلى الحضور عنده ، وسار اليه وهو بهمذان واجتمع به ، وخدمه خاصبك خدمة عظيمة وحمل إليه التحف الكثيرة ، فلما كان الغد من يوم وصول الملك محمد ، دخل اليه خاصبك فقتله محمد والقى رأسه إلى أصحابه فتفرقوا ، واستقر محمد وثبت قدمه واستولى على بلاد الجبل جميعها ، وكان قتله سنة ثمان واربعين وخمسمائة ، وقتل معه زنكي الجاندار . وبقي خاصبك مطروحا حتى اكلته الكلاب . وكان ابتداء حاله ، انه كان من اولاد بعض التركمان ، فخدم السلطان فمال اليه وقدمه حتى فاق سائر الامراء ، فتقدم تقدما عظيما ، واستولى على أكثر البلاد . وهو كان السبب في اكثر الحوادث الشاغلة للسلطان مسعود ، فان الامراء الاكابر كانوا يأنفون من اتباعه ، لما كان يعاملهم به من الهوان والتكبر عليهم .
وفيها : اعني سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وصل إلى الموصل اياز قفجاق ـ وهو من أكابر أمراء العجم ـ شاكيا من شمس

الدين ايلدكز ، ومستغيثا عليه ومستشفعا اليه لانجاده بعساكر يفتح بها مابيده من البلاد ، فجهزت العساكر معه ، وجعل مقدمها الامير قراجة تجنه ، مقطع بلد الهكارية ، فوصلوا الى سلماس وأقاموا معه وأصلحوا حاله معه ايلدكز ، وهو صاحب تلك البلاد جميعها ، وكان هذا قبل أن يستولي على همذان واصفهان وسائر بلاد الجبل .
وفيها توفي حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين ، وولي بعده ابنه نجم الدين ألبي .

في ذكر ملك نور الدين دمشق

في سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، ملك نور الدين مدينة دمشــق وأخذها من صاحبها مجير الدين ابق بن محمد بن بوري بن طغتكين أتابك . وكان الذي حمل نور الدين على الجد في ملكها ، أن الفــرنج ملكوا في السنة الخالية مدينة عسقلان وهي مدينة فلسـطين حصــنا وحصانة ، ولما كانوا يحصرونها ، كان نور الدين يتلهــف ولايقــدر على ازعاجهم عنها ، لأن دمشــق في طــريقه ، وليس له طــريق على غيرها لاعتراض بلاد الفرنج في الوسط ، فقوي الفرنج بهــا حتــى طمعوا في دمشق ، واســتضعفوا مجير الدين وتــابعوا الغــارة على أعماله ، وأكثروا القتل بها والنهب والسبي ، وزاد الأمر بــالمسلمين بها ، إلى أن جعل الفرنج على أهل المدينة قطيعة كل ســنة ، فــكان رسولهم يجيء الى دمشق ويجبيها من أهل البلد . ثم اشــتد البــلاء على أهلها ، حتى أرسل الفرنج واستعرضوا عبيدهم وإماءهم ممن أخذ من سائر بلاد النصرانية ، وخيروهم بين المقام عند مواليهم أو العودة إلى أوطانهم ، فمن أحب المقام تركوه ، ومن أحب وطنه صار اليه ، وزالت طــاعة مجير الدين عن أهــــل البلد إلى أن حصروه في القلعة مع انسان منهم يقال له مؤيد الدين بن الصوفي (٨٢) ، فلما كانت الامور بها هكذا ، خاف اهلها وأشفقوا من العــدو ، فجــأروا إلى الله تعالى ودعوه في أن يكشف مابهم من الخــوف ، فــاستجاب لهم وأذن في خلاصهم ممــا هــم فيه على يد أحـــب عبـــاده اليه ، واحسنهم طريقة ، وأمثلهم سيرة ، وهو الملك العادل حقا نور الدين محمود ، فحسن له السعي في ملك البلد والقاه في روعه . فلما خطر له ذلك أفكر فيه فعلم أنه إن رام ملكه بالقوة والحصار تعذر عليه ، لان صاحبه كان متى رأى شيئا من ذلك ، راســل الفــرنج واســتمالهم واستعان بهم . وكان ابغض الاشياء إلى الفــرنج أن يملك نور الدين دمشق لانه كان يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له فكيف إذا أخذها وقوي بها . وانضاف إلى ذلك كراهيته لسفك دماء المســلمين ، فإن

الدم كان عنده عظيما لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل ، فلما رأى الحال هكذا عدل الى اعمال الحيلة ، فراسل مجير الدين صاحبها واستماله ، وواصله بالهدايا واظهر له المودة حتى وثق اليه ، ثم صار يكاتبه في بعض الاوقات ويقول له ان فلانا - ويذكر بعض الامراء الذين لمجير الدين - قد كاتبني في المخامرة عليك فاحذره ، فتارة يأخذ اقطاع احدهم ، وتارة يقبض عليه . فلما خلت دمشق من الامراء ، قدم أميرا كان عنده يسمى عطاء بن حفاظ السلمي الخادم ، وكان شهما شجاعا ، وفوض إليه امر دولته ، وكان نور الدين لايتمكن من دمشق معه ، فقبض عليه مجير الدين وقتله ، فقال له عند قتله : ان الحيلة قد تمت عليك فلا تقتلني ، واستبقيني فانه سيظهر لك ماأقول ، فلم يصغ إلى قوله وقتله ، فلما قتل عطاء قوي طمع نور الدين في البلد ، فراسل أحداث البلد وزناطرته واستمالهم ، فأجابوه الى تسليم البلد . فسار إليهم وحصرهم عدة أيام ، فكاتب مجير الدين الفرنج وبذل لهم الاموال وقلعة بعلبك إن رحلوا نور الدين عنه ، وإلى أن جمعوا وجاءوا ، بلغهم أخذ نور الدين البلد فعادوا بخفي حنين .

وإما نور الدين فإنه لما حصر البلد وضيق على من به ، ثار الاحداث الذين كاتبهم نور الدين وسلموا إليه البلد من الباب الشرقي ، فدخله بالامان عاشر صفر * وحصر مجير الدين في القلعة ، وراسله وبذل له الاقطاع الكثير ، من جملته مدينة حمص ، فاجاب الى تسليم القلعة فسلمها اليه وسار الى حمص .

ولما استقر نور الدين في البلد ، عمل مع اهله مكرمة عظيمة ، واظهر فيهم عدلا عاما سيرد ذكره سنة تسع وستين ، عند ذكر سيرة نور الدين رحمه الله تعالى . والقى الاسلام بدمشق جرانه ، وثبت اوتاده ، وايقن الكفار بالبوار ، ووهنوا واستكانوا ، فصار جميع مابالشام من البلاد الاسلامية بيد نور الدين .

وإما مجير الدين فإنه أقام بحمص ، وراسل أهل دمشق في إثارة

الفتنة ، فأنهي الامر الى نور الدين ، فخاف إن يحدث مايشق تلافيه بل ربما تعذر ، لاسيما مع مجاورة الفرنج ، فأخذ حمص من مجير الدين وعوضه عنها مدينة بالس فلم يرضها ، وسار عن الشام الى العراق ، فأقام ببغداد وابتنى دارا مجاور المدرسة النظامية وتوفي بها .

ذكر القبض على سليمان شاه وحمله الى الموصل

في جمادى الأولى من سنة احدى وخمسين وخمسمائة ، قبض زين الدين علي كوجك نائب أتابك قطب الدين مودود ، على الملك سليمان شاه بن السلطان محمد وحمله الى الموصل فسجنه بها . وسبب ذلك ان سليمان شاه استأذن الامام المقتفي لأمر الله في قصد خدمته . وسأل ان يشرف ويخطب له ويمد بالعساكر ليقصد بلاد الملك محمد ابن أخيه السلطان محمود ، فأجيب الى ذلك واذن له ، فسار الى بغداد فوصل اليها في المحرم سنة احدى وخمسين وخمسمائة ، واحضر بدار الخلافة ، وجمع النقباء والقضاة والشهود ، وحلف سليمان شاه للخليفة على قواعد استقرت بينهما ، وخطب له ببغداد في المحرم ، ولقبه شاهنشاه المعظم غياث الدنيا والدين ، وخلع عليه الخليفة وعلى الامير قويدان وجعل الامير قويدان ، صاحب الحلة أمير حاجب معه وسار نحو بلاد الجبل عازما على قصد بلاد الملك محمد ، وخرج الخليفة الى حلوان ، وارسل إلى ملكشاه بن السلطان محمود أخي سليمان شاه واستدعاه ، فحضر ومعه الفا فرس فقرر الخليفة القواعد بينه وبين سليمان شاه ، وحلف كل واحد منهما للآخر ، وسيرهما في العساكر وقواهما بالاموال والعدد .

وبلغ الخبر الى الملك محمد ، فجمع عساكره ولقي سليمان شاه وملكشاه بقرب همذان وتصافوا ، فانهزم سليمان شاه وملكشاه ، وظفر الملك محمد بعسكرهما ومامعهما وعادوا منهزمين الى بغداد .

وأما سليمان شاه فإنه سار على شهر زور قاصدا نحو بغـداد ، وكان الملك محمد قـد أرســل إلى أتــابك قــطب الدين وزين الدين واستمالهما فأجاباه إلى مـوافقته ، وســار زين الدين نجـدة له في عسكر كثير ، فبلغه خبر الهزيمة وان سليمان شـاه قـد سـار على شهرزور ، وهي لزين الدين ونائبه بها الامير بـوزان ، فـوقف زين الدين على طريقه ، فلما وصل اليه اخذه وقبض عليه ، وحمله ، إلى الموصل فحبسه بها مكرما معظما ، وكانت الخطبة له ببغداد .

في ذكر حصر نور الدين قلعة حارم

في هذه السنة ، سار الملك العادل نور الدين محمود الى قلعة حارم ، وهي للفرنج ثم لبيمند صاحب انطاكية فحصرها – وهــذا الحصــن غربي حلب بالقرب من انطاكية – وضيق على أهلها ، وهي من أمنع الحصون واحصنها في نحور المسلمين ، فاجتمعت الفرنج من قـرب منها وبعد ، وساروا نحوه لمنعــه . وكان بـالحصن شـيطان مــن شياطين الفرنج يعرفون عقله وحسنه ، وحسن رأيه ، ويرجعون الى قوله ، فأرسل اليهم يعرفهم قـوتهم ، وانهـم قـادرون على حفـظ الحصن والذب عنه بما عندهـم من العدد والعدد وحصـانة القلعـة ، ويشير عليهم بالمطاولة وترك اللقاء . وقال لهم : ان لقيتموه هــزمكم وأخذ حارم وغيرها ، وإن حفظتم أنفسكم منه أطقنا الامتناع عليه . ففعلوا ماامرهم به وأشار عليهم ، وراسلوا نور الدين في الصلح على ان يعطوه حصة من أعمال حارم ، فابى أن يجيبهم الا على مناصفة الولاية ، فأجابوه الى ذلك ، فصالحهم وعاد ، وفي ذلك يقـول بعض الشعراء ، من ابيات له فيها يقول « شعر » :

البست دين محمد يانوره
عزا له فوق السها أساد

مازلت تمسكه بمياد القنا
حتى تثقف عوده المياد

لم يبق مذ أرهفت عزمك دونه
عدد يراع به ولا استعداد

إن المنابر لو تطيق تكلما
حمدتك عن خطبائها الاعواد

ولئن حمت منك الاعادي مهلة
فلهم الى المرعى الوبي معاد

ملق باطراف الفرنجة كلكلا
طرفاه ضرب صادق وجلاد

حاموا فلما عاينوا خوض الردى
حاموا فرائس كيدهم اوكادوا

ورأى البرنس وقد تبرنس ذلة
حرما بحارم والمصاد مصاد

عجبا لقوم حاولوك وحاولوا
عودا فواتاهم اليه مراد

من منكر أن ينسف السيل الربى
وأبوه ذاك العارض المداد

أو أن يعيد الشمس كاسفة السنا
نار لها ذاك الشهاب زناد

لايدفع الاباء ماسمكوا من الـ
ـعلياء حتى ترفع الاولاد (٨٣)

وهي طويلة .

في ذكر الزلزلة التي جرت في الشام ونواحيها

في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، كان بالشام زلزلة شديدة ذات رجفات عظيمة متتابعة ، أخربت البلاد وأهلكت العباد . وكان أشدها بحماة وحصن شيزر ، فإنهما خربتا بمرة ، وكذلك ماجاورهما كحصن بارين ، والمعرة وغيرها من البلاد والقرايا . وهلك تحت الهدم من الخلق مالا يحصيه الا الله تعالى ، وتهدمت الاسوار والدور والقلاع . ولولا ان الله من على المسلمين بنور الدين ، جمع العساكر وحفظ البلاد ، وإلا كان دخلها الفرنج بغير قتال ولاحصار

ولقد بلغني من كثرة الهلكى ، أن بعض المعلمين بحماة ، ذكر أنه فارق المكتب لمهم عرض له ، فجاءت الزلزلة فأخربت الدور ، وسقط المكتب على الصبيان جميعهم . قال المعلم : فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له في المكتب ، وأشباه هذه الحكاية من الأخبار الدالة على أن كثرة الهلكى كثيرة جدا .

ذكر ملك نور الدين المرحوم حصن شيزر

نبتدىء بذكر حصن شيزر ولمن كان قبل هذا الوقت الذي ملكه نور الدين فيه ، فنقول : هذا الحصن قريب من حماه ، بينهما نحو نصف نهار ، وهو من أمنع القلاع وأحصنها ، على حجر عال له طريق منقور في طرف الجبل ، وقد قطع الطريق في وسطه وجعل عليه جسر من خشب ، فإذا قطع ذلك الجسر تعذر الصعود اليه ، وكان لآل منقذ

الكنانيين ، يتوارثونه من أيام صالح بـن مـرداس (٨٤) إلى أن إنتهى الأمر إلى الأمير أبي المرهف نصر بن علي بن المقلد بـن نصر ابن منقذ بن نصر بن هاشم بعد أبيه أبي الحسن علي ، فبقي به مدة طويلة إلى أن مات بشيزر سنة إحدى وتسـعين وأربعمـائة . وكان شجاعا كريما صواما قواما ، فلمـا حضره الموت اسـتخلف أخـاه الأمير أبا سلامة مرشد بن علي ، فقال : والله لا وليتها ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها ، وكان عالما بـالقرآن والادب ، كثير الصـلاح ، فولاها أخاه الآخر أبا العساكر سلطان بن علي ، وكان أصغر منه ، فاصطحبا أجمل صحبة مدة من الزمان ، فأولد أبو سلامة مرشد عدة اولاد ذكور ، فكبروا وسادوا ، منهم: عز الدولة ابو الحسـن علي ، ومـؤيد الدولة اسـامة ابن مرشد وغيرهما ، ولم لاخيه سلطان ولد ذكر الى آن كبر ، فجاءه أولاد ، فحسد أخاه على ذلك ، وكان كلما رأى صـغر أولاده وكبر أولاد أخيه وسيادتهم ، ساءه ذلك وخافهم على أولاده ، وسعى المفسدون بينهما فغيروا كلا منهما على أخيه ، فكتب الأمير سلطان إلى أخيه شعرا يعاتبه على اشياء بلغته عنه فاجابه بـابيات جيدة في معناها ، رأيت اثبات بعضها ، وهي هذه الابيات ، شعر :

ظلوم ابت في الظلم الا تماديا
وفي الصد والهجران الا تناهيا

شكت هجرنا في ذلك والذنب ذنبها
فيا عجبا من ظالم جاء شاكيا

وطاوعت الواشين في وطالما
عصيت عذولا في هواها وواشيا

ومال بها تيه الجمال الى القلى
وهيهات أن أمسي لها الدهر قاليا

- ٦٤٩٠ -

ولاناسيا ماأودعت من عهودها
وإن هي أبدت جفوة وتناسيا

ولما أتاني من قريضك جوهر
جمعت المعالي فيه لي والمعانيا

وكنت هجرت الشعر حينا لأنه
تولى برغمي حين ولى شبابيا

وأين من الستين لفظ مفوف
إذا رمت أدنى القول منه عصانيا

وقلت أخي يرعى بني وأسرتي
ويحفظ عهدي فيهم وذماميا

ويجزيهم مالم أكلفه فعله
لنفسي فقد أعددته من تراثيا

فمالك لما أن حنى الدهر صعدتي
وثلم مني صارما كان ماضيا

تنكرت حتى صار برك قسوة
وقربك منهم جفوة وتنائيا

فاصبحت صفر الكف مما رجوته
أرى الياس قد عفى سبيل رجائيا

على أنني ماحلت عما عهدته
ولاغيرت هذي السنون وداديا

فلا غرو عند الحادثات فانني
أراك يميني والأنام شماليا

تهن بها عذراء لو قرنت بها
نجوم سماء لم تعد دراريا

تحلت بدر من صفاتك زانها
كما زان منظوم اللإلي الغوانيا

وعش بانيا للجود ماكان واهيا
مشيدا من الاحسان ماكان هاويا

وكان الامر فيه في حياة الامير مرشد بعض الستر ، فلما مات سنة احدى وثلاثين وخمسمائة قلب أخوه لأولاده ظهر المجن ، وباداهم بما يسوءهم ، وتمادت الايام بينهم إلى أن قوي عليهم فأخرجهم من شيزر . وكان أعظم الاسباب في إخراجهم ، ماحدثت به عن مؤيد الدولة اسامة بن مرشد ، قال : كنت من الشجاعة والأقدام على ماقدعلمه الناس ، فبينما أنا بشيزر ، وإذ قد أتاني انسان ، فأخبرني أن برمله ، يقاربها ، أسدا ضاريا . قال : فركبت فرسي وأخذت سيفي وسرت إليه لاقتله ، ولم أعلم أحدا من الناس لئلا أمنع من ذلك ، فلما قربت من الأسد ، نزلت عن فرسي وربطته ومشيت نحوه ، فلما رآني قصدني ووثب على ، فضربته بالسيف على رأسه فانفلق ، ثم أجهزت عليه وأخذت رأسه في مخلاة فرسي وعدت الى شيزر ، ودخلت على والدتي والقيت الرأس بين يديها وحدثتها الحال ، فقالت : يابنى تجهز للخروج من شيزر ، فوالله لايمكنك عمك من المقام ولاأحدا من أخوتك ، وأنتم على هذه الأحوال من الأقدام والجراءة . فلما كان الغد وإذا قد أمر عمي بإخراجنا من عنده ، والزمنا به الزاما لامهلة فيه فتفرقنا في البلاد . فقصدوا الملك

العادل نور الدين ، وشكوا إليه مالقوا من عمهم ، فلم يمكنه قصده والاخذ بثأرهم واعادتهم الى وطنهم لاشتغاله بجهاد الكفار ، ولخوفه من أن يسلم شيزر الى الفرنج ، وبقي في نفسه منه أثر . وتوفي الامير السلطان وولي بعده أولاده ، فبلغ نور الدين عنهم مراسلة الفرنج ، فاشتد مافي نفسه وهو ينتظر الفرصة ، فلما خربت القلعة بالزلزلة لم يسلم منها أحد كان في الحصن ، فبادر إليها وملكها واضافها الى بلاده ، وعمرها وعمر أسوارها وإعادها كأن لم تخرب . وكذلك ايضا فعل بمدينة حماة وكل ماخرب بالشام بهذه الزلزلة ، فعادت البلاد كأحسن ماكانت .

ذكر وفاة عز الدين الدبيسي وحصر الجزيرة

في ذي الحجة من سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، توفي الامير عز الدين أبو بكر الدبيسي صاحب جزيرة ابن عمر ، فسار قطب الدين أتابك مودود ابن الشهيد إليها ، ظنا منه أنها لا تمتنع عليه ، لأنها كانت بيد الدبيسي إقطاعا منه، فلما وصل إليها رأى أنه قد تغلب عليها ملوك الدبيسي اسمه أغلبك ، وقد أطاعه الجند وامتنعوا بالمدينة ، وكان الدبيسي لم يخلف ولدا، فلهذا تغلب بعده • وأقام أتابك قطب الدين محاصرا المدينة عدة شهور لأنه لم ير أن يضع من قدرها بالاسراع في ملكها ، ثم تسلمها وترك بيد اغلبك القلاع المختصة بها وهي : كواشى (٨٥) ، والزعفران ، وفرح ، وجميع قلاع الزوزان وغيرهما . وعاد اتابك الى الموصل بعد الاستيلاء على الجزيرة ، وكان الدبيسي من أكابر الأمراء ، يأخذ نفسه مأخذ الملوك.
حكى لي والدي ، أنه لم يضع علامته على اطلاق مال أبدا قل أم كثر . وكان عاقلا حازما ، ذا رأي وكيد ومكر .

ذكر حصار الملك محمد وزين الدين دار السلام بغداد

في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، سار الملك محمد بن السلطان محمود الى بغداد ليحصرها ، وأرسل إلى أتابك قطب الدين يستمده ، ويطلب منه ان ينجده بارسال العساكر . فجهز إليه عسكرا كثيفا ، وجعل مقدمه زين الدين نائبه في جميع بلاده وسيرهم اليه . واجتمعوا بالملك محمد بنواحي حربي ، وساروا في الجانب الغربي الى بغداد فوصلوها في ذي القعدة . وبلغ الخبر إلى المقتفي لامر الله ، فأمر بإخراب قصر عيسى ، والمربعة ، والقرية ، والمستجدة ، والنجمي ، ونهب أصحابه ماوجدوا في الدور من الاموال والأثاث وغير ذلك ، وخرب عسكر الملك محمد نهر القلائين ، والتوثة ، وباب الميدان ، وقطفتا (٨٧) ،ولم يتعرض أحد للكرخ وباب البصرة ، وخرج أهلهما الى العسكر فاتجروا وكسبوا معهم الاموال الكثيرة . وجد المقتفي لامر الله في حفظ بغداد وجمع الغلات ، وقام وزيره عون الدين بن هبيرة في هذا الأمر المقام الذي يعجز عنه غيره .

ولما وصل العسكر إلى بغداد نصبوا جسرا على دجلة ، وعبر أكثر العسكر إلى الجانب الشرقي وأقام زين الدين وعسكر أتابك قطب الدين بالجانب الغربي ، نازلين تحت الصراة ، وكان القتال في الماء على باب البلد ، ولم يقتل بين الفريقين الا نفر يسير ، وإنما الجراح كان كثيرا ، وأمر المقتفي لامر الله فنودي ببغداد : من جرح فله خمسة دنانير ، فكان كل من جرح يوصل ذلك إليه . فحضر بعض العامة عند الوزير مجروحا ، فقال له الوزير : هذا جرح صغير لاتستحق عليه شيئا ، فعاد الى القتال فضرب في جوفه فخرجت امعاؤه ، فعاد الى الوزير وقال له : يامولانا الوزير : يرضيك هذا . فضحك منه ، وأمر له بصلة وأحضر من عالجه .

ولم يزل الخليفة يراسل زين الدين ويستميله ، إلى أن تغيرت نيته في القتال ، وثبط الملك محمد عنه أيضا ، وكانت كتب الخليفة ورسله ، صادرة إلى جميع أصحاب الاطراف المجاورين للملك محمد ، يحثهم على قصد بلاده ، وأقطع كل صاحب طرف مايليه منها ، فتحرك أصحاب الاطراف .

وكان قد طال المقام على بغداد ولم ينل الملك محمد منها غرضا ولا غلا بها سعر ، لان الوزير كان يعطي الاجناد الغلات عوض الأموال ، فيبيعونها لينفقوا ثمنها ، فكانت الاسعار لاتزال رخيصة بهذا السبب .

ثم إن الخبر وصل إلى الملك محمد ، بأن أخاه ملكشاه قد قصد همذان ودخلها في عسكر كثير ونهبها ، وأخذ نساء الامراء الذين معه وأولادهم فاختلط العسكر وتفرقوا وعاد الملك محمد نحو همذان ، وعسكر الموصل مع زين الدين نحو الموصل ، وعاد كل امير الى بلاده على عزم العود الى بغداد ، وخرج أهل بغداد فنهبوا أواخر العسكر والمنقطعين ، وشعثوا دار السلطان .

ذكر وفاة المقتفي لأمر الله وخلافة ابنه المستنجد بالله

في ثاني ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، توفي أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله بعلة التراقي . وكان مولده ثاني عشر ربيع الاخر سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، وأمه أم ولد تدعى ياغي ، وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وشهرين .

ولما توفي جددت البيعة لولده ابي المظفر يوسف ولقب المستنجد بالله وكان قد عهد اليه قبل وفاته ، وبايعه الامراء ، والقضاة ،

والفقهاء ، وأعيان الناس . وكتب الى الآفاق بأخذ البيعة له فلم يمتنع أحد من ذلك ، وأقر عون الدين بن هبيرة على وزارته .

في ذكره مسير سليمان شاه الى همذان

في اوائل سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وردت رسل الأمراء الأكابر من بلاد الجبل الى أتابك قطب الدين ، يطلبون منه إنفاذ الملك سليمان شاه بن محمد إليهم ليولوه السلطنة ، وترددت الرسل في ذلك حتى استقر الأمر بينهم أن يكون سليمان شاه سلطانا ، وقطب الدين أتابكه والمرجع إليه في جميع مملكته ، وجمال الدين وزيره ، وزين الدين مقدم عسكره . وتحالفوا على هذا وجهز سليمان شاه ، وحمل إليه أتابك قطب الدين من الأموال والثياب والخيل والآلات مايصلح للسلاطين ، وسار ومعه زين الدين في عسكر الموصل نحو همذان ، فلما قاربوا بلاد الجبل ، أقبلت العساكر إلى خدمة سليمان شاه أرسالا ، كل يوم يلقاه طائفة وأمير ، فاجتمع معه عسكر عظيم ، فخافهم زين الدين على نفسه وعلى الموصل ايضا ، لأنه رأى من تسلطهم على السلطان واطراحهم للادب ماأوجب الخوف ، فعاد عنه الى الموصل . فحين فارقه زين الدين لم ينتظم أمره ولم يتم له ماأراد .

حكى لي والدي قال : استدعاني جمال الدين الوزير بعد مسير سليمان شاه ، وقال : قد استقر الأمر كيت وكيت ، فتعود الى الجزيرة وتقطع علائقك وتقضي اشغالك ، فإنني أريد أن أجعلك نائبي بالعراق ، قال : فسرني ذلك من وجه وساءني من اخر ، الا انني لم ار من طاعته بدا ، قال : ثم استدعاني بعد ذلك ، وقال لي : عد الى بلدك ، فان سليمان شاه لم ينتظم حاله ففارقته وعدت .

وفيها اعنى سنة خمس وخمسين ، حج زين الدين نائب قطب الدين ، وحذره اصحابه من الحج لاجل مساعدة الملك محمد في حصر

بغداد ، فلم يلتفت الى قولهم وسار ، فلما وصل بغداد اكرمه الخليفة المستنجد بالله ، واجتمع به وأمر بالخلع عليه ، فلما لبس الخلعة كانت طويلة ـ وكان هو قصير جدا ـ فمد يده الى كمرانة وأخرج ما شد به وسطه وقصر الجبة ، فنظر المستنجد إليه فاستحسن ذلك منه ، وقال لمن عنده : مثل هذا يكون الامير والجندي لامثالكم ، فلما دخل عليه قبل يده ، ثم خرج من عنده بعد ان حادثه بالتركية ـ وكان المستنجد بالله يتكلم بها جيدا ـ فلما خرج نظر اليه المستنجد من شباك ، وكان زين الدين قد أخرج شيئا من السيف الذي أنعم به عليه من الديوان ، فلم يره جيدا وهو يومىء برأسه ـ يعني انه غير جيد ـ فأرسل إليه سيفا آخر ، وقال الرسول : يقول لك أمير المؤمنين ، ذاك السيف يترك ، وهذا يقاتل به أعداء أمير المؤمنين وأعداء المسلمين . فرد وجهه وقبل الأرض وتقلده . وأحسن إلى الناس في الطريق ، وأكثر الصدقات .

في حصر نور الدين قلعة حارم

في سنة سبع وخمسين وخمسمائة ، جمع نور الدين العساكر بحلب ، وسار إلى قلعة حارم وحصرها وجد في قتالها ، فامتنعت عليه لحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج وشجعانهم . فلما علم الفرنج خبرها ، جمعوا فارسهم وراجلهم من سائر البلاد وحشدوا ، وأعدوا وأستعدوا ، وساروا وتلطفوا الحال معه . فلما رأى انه لايمكنه أخذ الحصن ولايجيبونه إلى المصاف عاد إلى بلاده .

وممن كان معه في هذه الغزوة ، الامير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ ـ وكان من الشجاعة في الغاية التي لامزيد عليها ـ فلما عاد الى حلب ، دخل مسجد سيرين ـ وكان قد دخله

في العام الماضي سائرا الى الحج - فلما دخله الآن ، كتب على حائطه ، يقول : شعر

لك الحمد يامولاي كم لك منة
علي وفضل لايحيط به شكري

نزلت بهذا المسجد العام قافلا
من الغزو موفور النصيب من الأجر

ومنه رحلت العيس في عامي الذي
مضى نحو بيت الله والركن والحجر

فأديت مفروضي واسقطت ثقل ما
تحملت من وزر الشبيبة عن ظهري

في ذكر انهزام نور الدين بحصن الاكراد وماجرى له

في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، جمع الملك العادل نور الدين محمود بن الشهيد زنكي عساكره جميعها ودخل بلاد الفرنج ، فنزل بالبقيعة تحت حصن الاكراد - وهو للفرنج عازما على دخول بلادهم ومنازلة طرابلس فبينما الناس في بعض الايام في خيامهم وسط النهار ، لم يرعهم إلا ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه الحصن . وكان سبب ذلك ، أنهم اجتمعوا واتفق رأيهم علي كبسة المسلمين في النهار لأنهم يكونوا أمنين ، فركبوا نحوهم ، فلم يشعر بزك (٨٨) المسلمين الا وقد قاربوهم ، فأرادوا منعهم فلم يطيقوا ذلك ، وارسلوا إلى نور الدين يعلمونه الخبر ، فرهقهم الفرنج وأخذوهم بين ايديهم ، فوصلوا معا إلى العسكر النوري ، فلم يتمكن المسلمون من ركوب الخيل وأخذ السلاح الا وقد خالطوهم ، فكان أقصى رأيهم الانهزام ، ووضع الافرنج فيهم السيف وأكثروا

القتل والأسر ، وكان أشد شيء على المسلمين الدوقس الرومي ، فإنه كان قد خرج إلى الساحل في جمع كثير من الروم فقاتلوا محتسبين في زعمهم ، فلم يبقوا على أحد ، وقصدوا خيام الملك العادل نور الدين فخرج من ظهر خيمته عجلا بغير قباء فركب فرسا هناك للنوبة ، ولسرعته ركبه وفي رجله شبحة ، فنزل انسان من الأكراد فقطعها ، فنجا نور الدين وقتل الكردي ، وكان أكثر القتل في السوقة والغلمان ، ولما نجا نور الدين سأل عن مخلفي ذلك الكردي فأحسن اليهم جزاء لفعله .

وسار نور الدين الى مدينة حمص وأقام بظاهرها ، وأحضر منها مافيها من الخيام ونصبها على بحيرة قدس (٨٩) على فرسخ من حمص ، وبينها وبين مكان الواقعة أربع فراسخ ، فكان الناس لايظنون إنه يقف دون حلب ، فكان رحمه الله اشجع من ذلك وأقوى عزما .

ولما نزل على بحيرة قدس ، اجتمع اليه كل من نجا من المعركة ، فقال له بعض أصحابه : ليس من الرأي أن تقيم ههنا ، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا ونحن على هذه الحال ، فوبخه واسكته وقال : اذا كان معي الف فارس لاابالي بهم قلوا أم كثروا والله لااستظل بجدار حتى آخذ بثأر الاسلام وثأري .

ثم إنه أرسل إلى حلب ودمشق ، وأحضر الأموال والدواب والاسلحة والخيام وسائر مايحتاج اليه الجند فاكثر ، وفرق ذلك جميعه على من سلم ، وأمامن قتل أو أسر فإنه أقر اقطاعه على اولاده ، فإن لم يكن ولد فعلى بعض أهله ، فعاد العسكر كأنه لم يفقد منه احد .
وأما الفرنج فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة ، لأنها أقرب البلاد اليهم ، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها ، قالوا : إنه لم يفعل هذا إلا وعنده من القوة أن يمنعنا .

وكان نور الدين قد أكثر الخرج ، إلى أن قسم في يوم واحد مائتي

الف دينار حمر ، سوى غيرهما من الدواب والخيام والسلاح وغير ذلك . وتقدم الى ديوانه ان يحضروا الجند ويسألوا كل واحد منهم عن الذي أخذ منه ومهما ذكر شيئا أعطوه عوضه ، فحضر بعض الجند وادعى شيئا كثيرا علم الذواب كذبه فيما ادعاه لمعرفتهم بحاله ، فارسلوا الى نور الدين ينهون اليه القصة ، ويستأذنوه في تحليفه على ماادعاه ، فأعاد الجواب : لاتكدروا عطاءنا بالاذى ، فاني أرجو الثواب والاجر على قليله وكثيره . وقال له أصحابه : ان لك في البلاد ادرارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء ، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل ، فغضب من هذا وقال : والله لاأرجو النصر الا باولئك ، فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم ، كيف اقطع صلات قوم يقاتلون عني وانا في فراشي بسهام لاتخطىء ، واصرفها الى من لايقاتل عني الا اذا رآني بسهام قد تخطىء وتصيب ، ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال اصرفه اليهم ، كيف اعطيه غيرهم ، فسكتوا .

تلك المكارم لاقعبان من لبن
شيبا بماء فعادا بعد ابوالا

هكذا هكذا والا فلا لا.
ثم ان الفرنج ارسلوا الى نور الدين في المهادنة فلم يجبهم اليها ، فتركوا عند الحصن من يحميه ، وعادوا إلى بلادهم وتفرقوا .

في ذكر القبض على جمال الدين الوزير ابن علي الاصفهاني

في هذه السنة أيضا ، قبض أتابك قطب الدين على وزيره جمال الدين محمد بن علي الاصفهاني . وكان قد خدم الشهيد فولاه نصيبين فظهرت كفايته ، فأضاف إليه الرحبة فأبان عن كفاية

وعفة ، وكان من خواصه وأكبر ندمائه ، فجعله مشرف مملكته كلها ، وحكمه تحكيما لامزيد عليه . فحكى لي والدي ، قال : أرسلني دزدار الجزيرة الى الوزير ضياء الدين الكفرتوثي - وهو وزير الشهيد والحاكم في بلاده قبل أن اتصل أنا بخدمة جمال الدين وأنوب عنه - يقول له : قد بلغني أن جمال الدين يقصدني ويريد أن يعزلني ، وأنا متعلق بك وبنصير الدين ، ومن أصحابكما ، فكيف ترى الحال . قال : فلما أبلغت الوزير هذه الرسالة ، قال لي : ماسمعت من جمال الدين شيئا من هذا عند أتابك ، ومع هذا ، فالرجل يدخل قبلي ويخرج بعدي ، فلم أعلم مايكون منه . ولم يزل كذلك الى ان قتل الشهيد ، وكان منه ماقد تقدم ذكره في حفظ الدولة ، ووزر لولده سيف الدين ، ثم لقطب الدين . وكان بينه وبين زين الدين عهود ومواثيق على المصافاة والاتفاق ، وكان أصحاب زين الدين يكرهونه ويقعون فيه عند زين الدين فنهاهم ، وكانت الموصل في أيامه ملجأ لكل ملهوف ، ومأمنا لكل خائف ، فسعى به الحساد إلى أتابك حتى أوغروا صدره عليه ، وقالوا : إنه يأخذ أموالك فيتصرف بها ، فلم يمكنه ان يغير عليه شيئا بسبب اتفاقه مع زين الدين ، فوضع على زين الدين من غيره عن مصافاته ومؤاخاته ، فقبض عليه وحبس بقلعة الموصل ، ثم ندم زين الدين على الموافقة على قبضه ، لأن خواص أتابك وأصحابه كانوا يخافون جمال الدين ، فلما قبض انبسطوا في الامر والنهي على خلاف غرض زين الدين ، فكان زين يذم أصحابه على تحسين الموافقة على قبض جمال الدين .

ذكر مسير شيركوه وعساكر نور الدين إلى ديار مصر

في سنة تسع وخمسين وخمسمائة سار أسد الدين شيركوه بن شاذي - وهو من أكابر الأمراء الذين في خدمة الملك العادل نور الدين محمود - الى الديار المصرية عازما على ملكها واستضافتها الى المملكة النورية .

ونحن نبتدىء قبل مسيره وماكان منه ، بذكر حاله وتنقله واتصاله بالخدمة النورية ، فنقول : كان أسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب — وهو أكبر ابناء شاذى — من بلد دوين ، وهي بلدة من آخر بلاد أذربيجان مما يلي الروم (٩٠) واصلهما من الاكراد الروادية ، وهذا القبيل هو أشرف الأكراد ، فقدما العراق وخدما مجاهد الدين بهروز شحنة العراق ، فرأى من نجم الدين عقلا ورأيا وحسن سيرة فجعله دزدار تكريت ، وهي له ، فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين ، فلما انهزم أتابك الشهيد رضي الله عنه بالعراق من قراجة الساقي على ماذكرناه قبل ، وصل إلى تكريت ، فخدمه نجم الدين وأقام له السفن ، فعبر دجلة هناك وتبعه اصحابه ، فأحسن نجم الدين صحبتهم وسيرهم ثم ان أسد الدين قتل انسانا بتكريت لملاحاة جرت بينهما ، فأرسل مجاهد الدين إليه وإلى أخيه نجم الدين فأخرجهما من تكريت ، فقصدا أتابك الشهيد ، فأحسن اليهما وعرف لهما خدمتهما ، واقطعهما اقطاعا حسنا ، وصارا من جملة جنده . فلما فتح حصن بعلبك جعل نجم الدين دز دارا فيه ، فلما قتل الشهيد حصره عسكر دمشق ، فأرسل الى الملك سيف الدين غازي — وقد قام بالملك بعد والده — ينهي الحال اليه ويطلب العسكر ليرحل صاحب دمشق عنه ، وكان سيف الدين في ذلك الوقت في بداية ملكه ، وهو مشغول باصلاح السلطان واصحاب الاطراف الذين يجاورونه ، فلم يتفرغ لبعلبك ، وضاق الامر على من بها من الحصر ، فلما رأى نجم الدين الحال ، وخاف ان تؤخذ قهرا وعنوة وينالهُ أذى ، أرسل في تسليم القلعة وطلب اقطاعا ذكره فأجيب الى ذلك ، وحلف له صاحب دمشق عليه وتسلم القلعة ، ووفى له بما حلف عليه من الاقطاع والتقدم وصار عنده من أكابر الامراء ، واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بالخدمة النورية بعد قتل الشهيد — وكان يخدمه في أيام والده — فقربه نور الدين واقطعه ، ورأى منه في حروبه ومشاهده اثارا يعجز عنها غيره لشجاعته وجرأته ، فزاده اقطاعا وقربا ، حتى صار له حمص والرحبة وغيرهما ، وجعله مقدم عسكره .

فلما تعلقت الهمة النورية بملك دمشق ، أمر أسد الدين فراسل أخاه نجم الدين ايوب - وهو بها - في ذلك ، وطلب منه المساعدة على فتحها ، فأجاب الى مايراد منه ، وطلب هو وأسد الدين من نور الدين كثيرا من الاقطاع والأملاك ببلد دمشق وغيرهما ، فبذل لهما ماطلب منه ، وحلف لهما عليه ، ووفى لهما لما ملكها ، وصارا عنده في أعلى المنازل ، لاسيما نجم الدين ، فإن سائر الأمراء كانوا لايقعدون عند نور الدين الا أن يأمرهم أو أحدهم بذلك ، الا نجم الدين ، فإنه كان إذا دخل إليه قعد من غير ان يؤمر بذلك .

فلما كان هذه السنة وعزم نور الدين على ارسال العساكر الى مصر ، لم ير لهذا الأمر الكبير أقوم ولا أشجع من اسد الدين فسيره . وكان سبب ذلك أن شاور السعدي - وزير العاضد لدين الله العلوي صاحب مصر - عزل من الوزارة ، فسار الى الملك العادل نور الدين ، فوصل إليه وهو بدمشق ، والتجأ إليه واستجاربه ، فأحسن لقاءه وأكرم مثواه ، وانعم عليه انعاما غمره به . وكان وصوله سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، وطلب منه ارسال العساكر الى مصر ليعود اليها ويكون له فيها حصة ذكرها له ، ويتصرف على أمره ونهيه واختياره ، ونور الدين يقدم في ذلك رجلا ويؤخر اخرى ، تارة تحمله رعاية قصد شاور •

(بابه) وطلب الزيادة في الملك والتقوي على الفرنج ، وتارة يمنعه خطر الطريق وكون الافرنج فيه ، إلا أن يوغلوا في البر فيتعرضوا لخطر آخر مع الخوف من الفرنج،ثم استخار الله تعالى وأمر أسد الدين بالتجهز للمسير معه ، وكان هوى أسد الدين في ذلك وعنده من الشجاعة وقوة النفس مالايبالي بمخافة ، فتجهز وسار مع شاور في جمادى الأولى من سنة تسع وخمسين ، وأمره نور الدين بإعادة شاور الى منصبه ، والانتقام ممن نازعه في الوزارة ، فساروا جميعا ، وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الاسلام ممايلي الفرنج بعساكره ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين ، فكان ظن نور الدين صحيحا ، فصار الفرنج لحفظ بلادهم من نور الدين . ووصل

أسد الدين إلى مصر سالما هو ومن معه ، فهرب المنازع لشاور في الوزارة ، وعاد شاور وزيرا وتمكن من منصبه . وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة ، وغدر به شاور لما عاد إلى منصبه ، وعاد عن ماكان قرره لذور الدين من البلاد المصرية ولاسد الدين أيضا ، وأرسل إليه يأمره بالعود الى الشام . فاذف اسد الدين من هذه الحال ، وأعاد الجواب يطلب ماكان استقر ، فلم يجبه شاور اليه . فلما رأى ذلك أرسل ذوابه فتسلموا مدينة بلبيس ، وحكم على البلاد الشرقية ، فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم ويخوفهم من ذور الدين إن ملك مصر . وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إن ملكها ذور الدين فهم خائفون ، فلما ارسل شاور اليهم يستنجدهم ويطلب ان يساعدوه على إخراج أسد الدين من البلاد ، جاءهم فرج لم يحتسبوه ، وسارعوا الى تلبية دعوته والمبادرة الى نصرته ، وطمعوا في ملك ديار مصر ، وكان قد بذل لهم مالا على المسير اليه ، فتجهزوا وساروا ، فلما بلغ ذور الدين خبر تجهيزهم للمسير ، سار بعساكره الى طرف بلاده مما يلي الفرنج ليمتنعوا عن المسير ، فلم يمتنعوا ، لعلمهم أن الخطر في مقامهم إذا ملك أسد الدين مصر ، أشد من الخطر في مسيرهم ، فتركوا في بلادهم من يحفظها ، وسار ملك القدس في الباقين الى مصر ، وكان قد وصل إلى الساحل جمع كثير من الفرنج في البحر لزيارة البيت المقدس ، فلما قارب الفرنج مصر ، فارقها أسد الدين وقصد مدينة بلبيس ، وأقام بها هو وعسكره وجعلها ظهرا له يتحصن به ، فاجتمعت العساكر المصرية والفرنجية ، ونازلوا أسد الدين بمدينة بلبيس وحصروه بها ثلاثة اشهر ، وقد أمتنع بها أسد الدين ، وسورها من طين قصير جدا وليس لها خندق ولا فصيل يحميها ، وهو يغاديهم القتال ويرا وحهم ، فلم يبلغوا منه غرضا ولانالوا منه شيئا . فبينما هم كذلك ، أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج بحارم وملك ذور الدين الحصن ومسيره إلى بانياس ، فحينئذ سقط في ايديهم ولات حين مناص ، فأراد الفرنج العود إلى بلادهم ليحفظوها ، ولعلهم يدركون بانياس قبل أخذها ، فلم يدركوها الا وقد ملكها على ماتذكره إن شاء الله تعالى ورا سلوا

أسد الدين في الصلح والعود إلى الشام ومفارقة مصر وتسليم مابيده منهـا الى المصريين ، فـاجابهم الى ذلك لأنه لم يعلم بمـا فعله نور الدين بالفرنج في الساحل ، فحدثني من رأى أسد الدين حين خـرج من بلبيس ، قال : رأيته وقـد أخـرج أصـحابه بين يديه وبقـي في أخرهـم ، وبيده لت حديد يحمـي سـاقتهم ، والمسـلمون والفـرنج ينظرون . قال : فأتاه افرنجي من الفرنج الغرباء ، فقـال له : أمـا تخاف أن يغدر بك هـؤلاء ــ المسلمون والفرنج ــ وقد أحاطوا بك فلا يبقى لك معهم بقية . فقال شيركوه : ياليتهم فعلوا حتـى كنت تـرى مالم تر مثله ، كنت والله أضع السيف ، فلا يقتل منا رجل حتى يقتل رجالا ، وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين ــ وقد ضعفوا وفني أبطالهم ــ فيملك بلادهم ويملك من بقي منهـم ، ووالله لو أطـاعني هـؤلاء ــ يعني أصحابه ــ لخرجت إليكم أول يوم ، لكنهم امتنعوا . فصلّب الفرنجي على وجهه ، وقال : كنا نعجـب مـن فـرنج هـذه الديار ، ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك ، والان فقد عذرناهم . ثم رجع عنه ، وسار شيركوه إلى الشام وعاد سالما .

في ذكر فتح حصن حارم من الأفرنج

في هذه السنة في رمضان ، فتح الملك العادل نور الدين قلعة حارم وملكها من الفرنج ، والسبب في هـذا الفتـح ، أن نور الدين لما عاد منهزما على ماذكرناه قبل ، أقبل على الجد والاجتهاد ، والاستعداد للجهاد ، والأخذ بثـاره ، وغزو العـدو في عقـر داره ، وليرفـو ذلك الخرق ، ويرتق ذلك الفتق ، ويمحو سمة الوهن ، ويعيد رونق الملك ، فراسل أخاه قطب الدين بـالموصل ، وفخـر الدين قـرا أرســلان بالحصن ، ونجم الدين ألبي بماردين وغيرهم من أصحاب الاطراف يستنجدهم .

فاما قطب الدين أتابك ، فانه جمع عساكره وسـار مجـدا وعلى مقدمة عسكره زين الدين نائبه ، واما فخر الدين قرا أرسلان فبلغني

عنه أنه قال له ندماؤه وخواصه : على أي شيء عزمت ، فقال : على القعود ، فإن نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة ، فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك . فكلهم وافقه على ذلك ، فلما كان الغد ، أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة . فقال له اولئك : ما عدا مما بدا ، فارقناك بالامس على حال بدا الآن ضدها ؟ .

فقال : إن نور الدين قد سلك معي طريقا ، إن لم أنجده ، خرج أهل بلادي عن طاعتي ، وأخرجوا البلاد عن يدي ، فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا ، يذكر لهم مالقي المسلمون من الفرنج ، ومانالهم فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه ، وهم يقرؤون كتب نور الدين ويبكون ، ويلعنوني ويدعون علي ، فلا بد من إجابة دعوته ، ثم تجهز أيضا وسار إلى نور الدين بنفسه .

وأما نجم الدين فانه سير عسكرا ، فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم ، في كل بطل بسلاحه شاكي ، ولشدة المراس غير شاكي ، (كما) يقول (الشاعر) :

في كل اروع يرتاع المذون له
إذا تجرد لانكس ولاجهد

يكاد حين يلاقي القرن من حذق
قبل السنان إلى حوبائه يرد

وكانوا حقا جيش الطواويس(٩١) ، وكل منهم في بيض الحديد وألوان التشاهير يختال ويميس ، وأشرقت عليهم الشمس فرقت لها الأحداق ، وتلألأت الآفاق ، ونزل عليها وحصرها ، وأطار إليها من القسي والمجانيق سهامها وحجرها .

وبلغ الخبر الى الفرنج من بقي منهم بالساحل لم يسر الى مصر ،

فجاءوا في حدهم وحـديدهم ، وعدهــم وعديدهــم ، وقضـهم وقضيضهم ، وملوكهم وفرسانهم ، وأسـاقفتهم ورهبـانهم ، قـد حشدوا حتى أربـاب الصـوامع ، ولم يشـعروا إنهـم رزق الذئاب والخوامع ، وأقبلوا إليه رجالا وعلى كل ضامر ، في كل قرن مساور وبطل مهاصر ، وقد ألف النزال ، واعتاد اقتناص الأبـطال ، فهـم لكثرتهم من كل حدب ينسلون ، فارتاع لكثـرتهم المسـلمون . وكان مقدم الفرنج البرنس صاحب انطاكية ، والقمص صاحب طـرابلس وأعمالها ، وابن جوسلين – وهو من مشاهير الفـرنج وأبـطالها ، والدوك – وهو رئيس الروم ومقدمها – وجمعوا معهم من الراجـل مالا يقع عليه الاحصاء ، قـد مـلأوا الأرض وحجبـوا بقسـطلهم السماء ، فحرض نور الدين أصحابه ، وأطمع فيهم أحزابه ، وفرق نفائس الأموال ، على شجعان الرجال ، فلما قاربه الفرنج رحل عن حارم الى أرتاح ، وهو إلى لقائهم قد أرتاح ، وإنما رحل طمعـا أن يتبعوه ، ويتمكن منهم ببعدهم عن بلادهم إذا لقوه ، فساروا حتـى نزلوا على « عم» (٩٢) ، وهو على الحقيقة تصحيف مـالقوه مـن الغم ، ثم تيقنوا أنهم لاطاقة لهم بقتاله ، ولا قدرة لهـم على نزاله ، فعادوا الى حارم وقـد حـرمتهم كل خير ، وحلت اليهـم كل وهـن وضير ،فلما عادوا عن « عم » تبعهم نور الدين في عساكر المسلمين ، وأبطال الموحدين على تعبئة الحرب ، فلما تقاربوا اصطفوا للقتال ، وتهيأوا النزال ، وتدانت الخطى ، وكشف الغطا ، وبـدأت الفـرنج بالحملة على ميمنة المسلمين وبها عسكر حلب وفخر الدين ، فبـددوا نظامهم ، وزلزلوا أقدامهم ، وولوهم الأدبار ، وركنوا إلي الفـرار وكانت تلك الفرة من الميمنة عن اتفاق ورأي دبروه ، ومـكر بـالعدو مكروه ،وهو أن يبعدوهم عن راجلهم ، فيميل عليهم من يبقى مـن المسلمين ويضعوا فيهم السيوف ، ويرغموا منهم الأنوف ، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين ، لم يلقوا راجلا يلجـأون اليه ، ولا وزرا يعتمدون عليه ، ويعود المنهزمون في اثارهم ، يكسـعون أدبـارهم ، وتأخذهم سيوف الله من بين أيديهم ومـن خلفهـم ، فيجعـل لهـم بوارهم وحتفهم . وكان الأمر على مادبر ، والحال على ماقدر ، فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين ، عطف زين الدين في عسكر الموصـل على

راجلهم فأفناهم قتلا وأسرا ، وعادت خيالتهم ولم يمعنوا في الطلب خوفا على راجلهم من العطب ، فصادفوا راجلهم على الصعيد معفرين ، وبدمائهم مضرجين فسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، وخضعت رقابهم وذلوا ، فلما رجعوا عطف حينئذ المنهزمون اعنتهم ، وعادوا كرتهم بعد فرتهم ، فبقي العدو في الوسط وقد أحدق بهم المسلمون من كل جانب ، وحمي الوطيس ، وباشر الحرب المرؤوس والرئيس ، وقاتل الفرنج قتال من يرجو باقدامه النجاة ، وحاربوا حرب من ايس من الحياة ، واشتد الزحام ، وعظم اللزام ، وبطل العامل وعمل الحسام ، وانقضت العساكر الاسلامية عليهم انقضاض الصقور على أناث الطيور ، فمزقوهم بددا ، وجعلوهم طرائق قددا ، والقى الفرنج بايديهم إلى الأسار ، وعجزوا عن الهزيمة والفرار ، فاكثر المسلمون فيهم القتل ، وأوردوهم مناهل الفناء والهلك ، فزادت عدة القتلى على عشرة الاف وأما الأسرى فلم يحصوا كثرة ، ويكفيك دليلا على كثرتهم ، أن ملوكهم أسروا ، مثل : البرنس بيمند صاحب انطاكية ، والقمص صاحب طرابلس ، والدوك مقدم الروم ، وابن جوسلين ، وسار نور الدين بعد الكسرة إلى حارم فملكها في الحادي والعشرين من رمضان .

وأشار أصحابه عليه بالمسير إلى انطاكية ليملكها لخلوها ممن يحميها ويدفع عنها ، فلم يفعل ، وقال : أما المدينة فأمرها سهل ، وأما القلعة التي لها فهي منيعة لاتؤخذ إلا بعد طول حصار ، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وسلموها اليه ، ومجاورة بيمند أحب إلى من جوار ملك الروم . وبث سراياه في تلك الأعمال والولايات فنهبوا وسبوا ، وأوغلوا في البلاد حتى بلغوا لاذقية ، وسويدا(٩٣) وغير ذلك وعادوا سالمين .

ثم إن نور الدين أطلق بيمند صاحب انطاكية بمال جزيل أخذه منه ، وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقتهم .

في ذكر خبر الوقعة التي جرت في حرب قلعة حارم

قال صاحب التاريخ : وحكى أن السلطان نور الدين الشهيد – رحمه الله – لما كسرت ميسرة عسكره ، نزل عن فرسه وكشف رأسه وسجد لله عز وجل فسمع يقول : ياالهي وسيدي ومولاي ، من محمود عبدك ابن زنكي بن اقسنقر حتى لاتخذله ، إن تنصره تنصر دينك الذي أظهرته لنبيك الذي أرسلته ، استجب دعائي ، وأحسن منقلبي ومثواي ولاتشمت بي أعدائي ، ولم يزل متضرعا باكيا ، ويقلب وجهه على التراب ودموعه تجري على خديه ، الى أن بلغه الله مراده من خذلانهم ونصره عليهم .

ومن عجائب الاتفاق ، ماحكاه كمال الدين ابن العديم في كتاب «اخبارحلب» أن الزكي أحمد بن مسعود الموصلي المقريء اخبرني ، قال : كنت الم بعلم الدين سليمان بن جندر ، قال : فاتفق أن خرجت معه إلى حرب حارم في سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، وجلست معه تحت شجرة هناك ، ومجد الدين أبو بكر بن الداية – داية الشهيد رحمه الله – وصلاح الدين يوسف بن أيوب تحت هذه الشجرة نتحدث ، ونور الدين الشهيد يحاصر حارم وهي في أيدي الفرنج ، فقال مجد الدين : أتمنى أن يفتح نور الدين حارم ويعطيني إياها نيابة . فقال صلاح الدين يوسف : أتمنى على الله تبارك وتعالى أن يفتح نور الدين الشهيد مصر ويعطيني إياها . ثم قال : تمن انت ايضا بما تريد ، قلت : يامولاي ، إذا كنت أنت صاحب مصر ومجد الدين صاحب حارم ، ماأضيع بينكما . فقالا : لابد أن تتمنى شيئا ، فقلت : إذا كان ولابد من ذلك ،فأتمنى « عم »

(وبينما) نحن في الكلام – والله تعالى قاض بما أراد في حكمه – فقدر الله عز وجل ، أن نور الدين كسر الافرنج وفتح حارم ، وأعطاها مجد الدين بن الداية ، وأعطاني قلعة « عم » ، وقدر الله ، أن أرسل نور الدين الشهيد رحمه الله تعالى ، اسد الدين شيركوه الى مصر وفتح مصر على يده ، ثم آل الأمر إلى أن ملكها صلاح الدين يوسف بن أيوب ، على ماننذكر إن شاء الله تعالى

الرحمـــن في وقتـــه ، وتملك مصر ، والشـــــام ، والشرق والكرك ، واليمـــن ، وبـــلاد الشرق وعارض الملوك والســـلاطين ، وحـــاصر القلاع ، وفتح البلاد ، وجند الاجناد ، وهذه الجراكسة التـــي هـــي اليوم ملوك مصر والشام ومحامي الحرمين الشريفين ، مماليك نسل وذرية الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك الكامل أبـــي المعالي ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبي بكر بـــن أيوب ، أبـــو الملوك الأيوبية .(٩٤)

وفاة جمال الدين الوزير

في شعبان من سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، توفي الوزير جمال الدين محبوسا . وكان له نحو سنة مذ مرض فمضى لسبيله .

وكان عظيم القدر والخطر ، كريم الورد والصدر ، عديم النظير في سعة نفسه . لم يرو في كتب الأولين ، أن أحدا من الوزراء اتســـعت نفسه ومروءته ، كما اتسعت له نفس جمال الدين ، فلقـــد كان عظيم الفتوة ، كامل المروة ، وسيرد من أخباره ماتعلم منها صحة قولي .

حكى لي جماعة عن الشيخ ابي القـــاسم ـــ وهـــو رجـــل مـــــن الصالحين ، كان يتولى خدمة جمال الدين في محبسه ـــ قال : لم يزل جمال الدين مشغولا بأمور آخرته مدة حبســـه ، وكان يقـــول : كنت أخشى أن انقل من الدست الى القبر . قال : فلما مـــرض ، قـــال لي بعض الايام : ياأبـــا القـــاسم ، إذا جـــاء طـــائر أبيض إلى الدار فعرفني ، قال : فقلت في نفسي ، قد اختلط عقله ، فلمـــا كان الغـــد ، أكثر الســـؤال عن ذلك الطـــائر ، وإذا طـــائر أبيض لم أر مثله قـــد سقط ، فقلت له : جاء الطائر ، فاستبشر ثم قال : جاء الحق وأقبـــل على الشهادة وذكر الله تعالى ، وتوفي . فلما توفي طار ذلك الطـــائر ، قال : فعلمت أنه رأى شيئا في معناه . ودفن بـــالموصل نحـــو ســـنة . وكان قد قال للشيخ أبي القاسم : أن بيني وبين أسد الدين شيركوه

عهدا ، من مات منا قبل صاحبه حمله الحي إلى المدينة على ساكنها السلام ، فدفنه بها في التربة التي عملها ، فإذا أنامــت فــامض إليه وذكره فلما توفي سار الشيخ أبو القاسم إلى أســد الدين في المعنى ، فاعطاه مالا صالحا ليحمله به الى مكة والمدينة ، وأمر أن يحج معــه جماعة من الصوفية ، ومن يقرأ بين يدي تابوته عند النزول والرحيل وقدوم مدينة تكون في الطــريق ، وينادون في البــلاد الصــلاة عليه ، ففعلوا ذلك ، فكان يصلى عليه في كل مدينة خلق كثير ، فلمــا كان « بالحلة » ، اجتمع الناس للصلاة عليه ، وإذا شاب قــد أرتفــع على موضع عال ، ونادى بأعلى صوته ملعلعا يقول :

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما
سرى جوده فوق الركاب ونايله

يمر على الوادي فتثني رماله
عليه وبالنادي فتبكي أرامله

فلم ير باكيا أكثر من ذلك اليوم . ثم وصلوا به إلى مكة ، وطافوا به حول الكعبة ، وصلوا عليه بالحرم وحملوه إلى المدينة وصلوا عليه أيضا . ودفنوه بالرباط الذي أنشأه بها ، بينه وبين قبر النبي ، نحو خمسة عشر ذراعا .

في ذكره شيء من اخباره رحمه الله

كان رحمه الله أسخى الناس وأكثرهم عطاء وبذلا للمال ، رحيما بالناس متعطفا عليهم ، عادلا فيهم ، فمن أعماله الحسنة ، أنه جدد بناء مسجد الخيف بمنى ، وغرم عليه أمــوالا جــزيلة عظيمــة وبنى الحجر بجانب الكعبة ، ورأيت اسمه عليه ، ثم غير وبني غيره ســنة ست وسبعين وخمسمائة .

وزخرف الكعبة بالذهب والذقرة ، فكل ما فيها من ذلك ، فهو عمله

إلى سنة تسع وستمائة . ولما أراد ذلك ، أرسل إلى الامـام المقتفـي لأمر الله هدية جليلة حتى أذن له فيه ، وأرسل إلى أمير مكة ، عيسى ابن أبي هاشم ، خلعا سنية وهدية كثيرة حتى مكنه .

وعمر أيضا المسجد الذي على جبل عرفات ، وعمـل الدرج التـي يصعد فيها إليه ، وكان الناس يلقون شدة في صعودهم .

وعمل بعرفات مصانع للماء ، وأجـرى الماء إليهـا مـن نعمـان (٩٥) في طرق معمولة تحت الجبل مبنية بالكلس ، فغـرم على ذلك مالا كثيرا ، وكان يعطى أهل نعمان كل سنة مالا ليتركوا الماء يجري إلى المصانع أيام مقام الحاج بعرفات ، فكان الناس يجدون به راحة عظيمة .

ومن أعظم الأعمال التي عملها نفعا ، أنه بنى سورا على مـدينة النبي صلى الله وعليه وسـلم ، فـانها كانت بغير سـور تنهبهـا الأعراب ، وكان اهلها في ضنك وضر معهم ، رأيت بالمدينة انسـانا يصلي الجمعة ، فلما فرغ ترحم على جمال الدين ودعا له ، فسألناه عن سبب ذلك ، فقال : يجب على كل من بـالمدينة أن يدعو له ، لأننا كنا في ضر وضيق ، ونكد عيش مـع العـرب ، لايتـركون لأحـدنا مايواري عورته ، ولامايشبع جوعته ، فبنى علينا سورا احتمينا بـه ممن يريدنا بسوء ، فاستغنينا فكيف لاندعو له وكان الخطيب بالمدينة يقول في خطبته : اللهم صن حريم من صـان حـرم نبيك بـالسور ، محمد بن علي بن أبي منصور . فلو لم يكن له إلا هذه المكرمة لكفـاه فخرا ، فكيف وقد كانت صدقاته تجوب شرق الارض وغربها .

وسمعت عن متولي ديوان صدقاته التـي يخـرجها على بـاب داره للفقراء سوى الادرارات والتعهـدات ، قـال : كان له كل يوم مـائة دينار يتصدق بها على باب داره .

ومن أبنيته العجيبة التي لم ير الناس مثلهـا ، الجسر الذي بناه

على الدجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس ، إلا أنه لم يفرغ لأنه قبض قبل فراغه . وبنى أيضا جسرا على نهر الياريار عند الجزيرة أيضا .

وبنى الربط بالموصل ، وسنجار ، ونصيبين ، وغيرها . وقصده الناس من أقطار الأرض ويكفيه أنه الذي احتاج إليه ابن الخجندي رئيس أصحاب الشافعي بأصفهان ، وابن الكافي قاضي همذان وقصداه ، فأخرج عليهما مالا جزيلا ، وكذلك غيرهما من الصدور ، والعلماء ، ومشايخ الصوفية .

وصارت الموصل في أيامه مقصدا وملجأ . وكان أحب الأشياء إليه إخراج المال في الصدقات ، فكان يضيق على نفسه وبيته ليتصدق . حكى لي والدي قال : كنت يوما عنده وقد أحضر بين يديه قندزا ليعمل على وبر له ليلبسه بخمسة دنانير ، فقال : هذا كثير ، اشتروا لي قندزا بدينارين وتصدقوا بثلاثة دنانير ، قال : فراجعناه غير مرة فلم يقبل . (وحكى لي من أثق إليه من العدول بالموصل : إن الأقوات تعذرت في بعض السنين بها وغلت الأسعار ، وكان بالموصل رجل من الصالحين ، يقال له الشيخ عمر الملاء ، فأحضره جمال الدين وسلم إليه مالا ، وقال له : تخرج هذا المال على مستحقه ، وكلما فرغ أرسل إلي لأنفذ غيره فلم تمض إلا أيام يسيرة ، حتى فرغ ذلك المال لكثرة المحتاجين ، فأرسل إليه يعرفه بنفاد ذلك المال ، فأنفذ له شيئا آخر

ففني ، ثم أرسل يطلب ما يخرجه ، فقال جمال الدين للرسول : والله ما عندي شيء ، ولكن خذ هذه المحافر (التي في داري) وتصدقوا بثمنها (إلى أن يأتيني شيء آخر فنرسله إلى الشيخ عمر ، فبيعت وتصدقوا بثمنها (٩٦)) وعرفوه ذلك ، فلم يكن عنده ما يرسله ، فأعطاه ثيابه التي كان يلبسها مع العمامة التي على رأسه وأرسل الجميع ، وقال للرسول ، قل للشيخ ، لايمتنع من الطلب فهذه أيام مواساه ، فلما وصلت الثياب إلى الشيخ عمر ، بكى وباعها وتصدق بثمنها .

وحكى لي بعض الصوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النسائي شيخ الشيوخ بالموصل ، قال : أحضرني الشيخ وقال لي : إنطلق إلى مسجد الوزير - وهو بظاهر الموصل - واقعد هناك ، وإذا أتاك شيء فاحفظه إلى أن أحضر عندك ، ففعلت ، وإذا قد أقبل جمع كثير من الحمالين يحملون أحمالا من النصافي والخام ، وإذا جاء نائب جمال الدين مع الشيخ ، ومعهما قماش كثير وثمانية عشر ألف دينار وعدد كثير من الجمال ، فقال لي : تأخذ هذه الأحمال وتسير إلى الرحبة ، فتوصل هذه الرزمة وهذا الكتاب إلى متوليها فلان ، فإذا أحضر لك فلانا العربي توصل (اليه) هذه الرزمة الاخرى وهذا الكتاب وتسير معه ، فإذا أوصلك إلى فلان العربي توصل اليه هذه الرزمة وهذا الكتاب ، وهكذا إلى المدينة على ساكنها السلام ، توصل إلى وكيلي فلان هذه الاحمال وهذه الكسوات والمال الذي عليها اسم المدينة ليخرجها بمقتضى ما في هذه الجريدة ، ثم تأخذ الباقي الذي عليه اسم مكة وتسير إليها فيتصدق به وكيلي بها على ما في هذه الجريدة الأخرى .

قال : فسرنا كذلك إلى وادي القرى ، فرأينا به نحو مائة جمل تحمل الطعام إلى المدينة وقد منعهم خوف الطريق ، فلما رأونا ساروا معنا إليها ، فوصلناها والحنطة بها كل صاعين بدينار مصري - والصاع خمسة عشر رطلا بالبغدادي - فلما رأوا الطعام والمال ، اشتروا كل سبعة أصوع بدينار ، فضج أهل المدينة بالدعاء له ، ثم سرنا إلى مكة ففعلنا ما أمرنا ،

وحكى لي والدي ، قال : رأيت جمال الدين بالرقة ، وقد حضر عنده رجل فقيه قبل أن يصير وزيرا وطلب شيئا ، وتردد إليه عدة أيام ثم انقطع ، فسأل عنه ، فقيل إنه سافر ، فشق ذلك عليه ، ثم قال : هكذا تنصرف الأحرار عن أبواب الكلاب ، وكرر ذلك غير مرة ، ثم سأل عنه فقيل : إنه سار نحو ماردين ، فأرسل إليه خلعة ونفقة إلى ماردين ، **ولو رمت شرح مفردات أعماله لأطلت واضجرت** وهي ظاهرة لاتحتاج إلى بيان ، فلهذا تركنا أكثرها .

ذكر فتح قلعة بانياس

في سنة ستين وخمسمائة فتح نور الدين قلعة بانياس من الفرنج ، وكان قد سار إليها بعد عوده من فتح حارم ، فأذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم ، وأظهر أنه يريد طبرية ، فجعل من بقي من الفرنج همهم حفظها وتقويتها ، فسار نور الدين مجدا إلى بانياس لعلمه بقلة من فيها من الحماة المانعين عنها ، ونازلها وضيق عليها وقاتلها ، وكان في جملة عسكره أخوه نصرة الدين أمير أميران (١٤٦ ـ ب) فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه . فلما رآه نور الدين قال له : لو كشف لك عن الأجر الذي أعد لك لتمنيت ذهاب الأخرى ، وجد في حصارها ، وسمع الفرنج بذلك فجمعوا ، فلم تتكامل عدتهم حتى فتحها ، على ان الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم ، فملك القلعة وملأها ذخائر وعدة ورجالا .

وعاد نور الدين إلى دمشق ، وفي يده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجواهر ، فسقط من يده في شعراء بانياس ـ وهي كثيرة الأشجار ملتفة الاغصان ـ فلما أبعد من المكان الذي ضاع فيه الفص علم به ، فأعاد بعض أصحابه في طلبه ودلهم على مكانه ، وقال : أظن أنه هناك ضاع ، فعادوا إليه فوجدوه ، فقال بعض الشعراء الشاميين ، أظنه ابن منير من أبيات يمدحه ويهنئه بهذه الغزاة وعود الجبل الياقوت . شعر :

إن يمتر الشكاك فيك بانك الـ
ـهدي مطفي جمرة الدجال
فلعودة الجبل(٩٧) الذي أضللته
بالامس بين غياطل وجبال
مسترجعا لك بالسعادة آية
ردت مطال الفال غير مطال

- ٦٥١٥ -

لم يعطها إلا سليمان وقد
ذلت الرباء بموشك الاعجال
زجر جرى لسرير ملكك إنه
كسريره عن كل حد عال
فلو البحار السبعة استهوينه
وأمرتهن قذفنه في الحال (٩٨)

ولما فتح الحصن ، كان ولد معين الدين أنر ـ الذي سلم بانياس إلى الفرنج ـ قائما على رأسه ، فالتفت إليه وقال له : للناس بهـذا الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان فقال : كيف ذلك ؟ قال : لأن اليوم برد الله جلدة والدك من نار جهنم .

ذكر فتح المنيطرة على يد الشهيد رحمه الله

في سنة إحدى وستين وخمسمائة ، سار نور الدين إلى حصن المنيطرة(٩٩) ـ وهو أيضا الفرنج ـ ولم يحشد له ولاجمع عساكره ، إنما سار على غرة من الفرنج ، وعلم أنه إن جمع العساكر حذروا وجمعوا ، فانتهز الفرصة وسار إلى المنيطرة وحصرها ، وجد في قتالها وأخذها عنوة وقهرا ، وقتل من بها وسبى وغنم غنيمة كثيرة لا من من بها فأخذتهم خيل الله (بغتة وهم لايشعرون) (١٠٠) ولم يقدر الفرنج على أن يجتمعوا لدفعه إلا وقد ملكه ، ولو علموا أنه جريدة لأسرعوا إليه ، إنما لم يظنوا إلا أنه في جمع كثير ، فلما ملكه تفرقوا وأيسوا منه .

ذكر عودة أسد الدين شيركوه إلى مصر مرة أخرى

في ربيع الآخر من سنة اثنتين وستين وخمسمائة ، عاد أسد الدين وسار إلى مصر . وكان بعد عوده من مصر ، لايزال يحدث نفسه

بقصدها ومعاودتها ، حريصا على الدخول إليها ، يتحدث به مع كل من يثق إليه . وكان مما يهيجه على العود ، زيادة حقده على شاور وما عمل معه . فلما كان هذه السنة تجهز وسار إليها ، وسير معه الملك العادل نور الدين محمود جماعة من الأمراء ، فجد في السير على البر ، وترك بلاد الفرنج عن يمينه ، فوصل إلى الديار المصرية ، فقصد إطفيح وعبرالنيل عندها إلى الجانب الغربي ، ونزل بالجيزة مقابل مصر ، وتصرف في البلاد الغربية ، وأقام بها نيفا وخمسين يوما .

وكان شاور لما بلغه مجيء أسد الدين ، قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم ، فأتوه على الصعب والذلول ، فتارة يحثهم طمعهم في ملك مصر على الجد والتشمير ، وتارة يحدوهم خوفهم أن يملكها العسكر النوري ، فجدوا على الاسراع في المسير ، فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم ، فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي ، وكان أسد الدين والعسكر النوري قد ساروا إلى الصعيد ، فبلغوا مكانا يعرف بالبابين ، وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءه ، فادركوه به في الخامس والعشرين من جمادى الاولى ، وكان قد أرسل إليهم جواسيس ، فعادوا وأخبروه بكثرة عددهم وعددهم وجدهم في طلبه ، فعزم على لقائهم وقتالهم وأن تحكم السيوف بينه وبينهم ، إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن الثبات في هذا المقام الخطر ، الذي عطبهم فيه أقرب من السلامة ، لقلة عددهم وبعدهم عن بلادهم ، فاستشارهم ، فكلهم أشار عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام ، وقالوا له : إن نحن انهزمنا — وهو الذي لا شك فيه — فإلى أين نلتجيء وبمن نحتمي ، وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدو لنا ، ويودون لو شربوا دماءنا ، ويحق لعسكر عدتهم ألفا فارس — قد بعدت ديارهم ونأى ناصرهم — أن ترتاع من عشرات ألوف ، مع أن كل أهل البلاد عدو لهم . فلما قالوا ذلك ، قام إنسان من المماليك النورية يقال له شرف الدين برغش — وكان من الشجاعة بالمكان المشهور — وقال : من يخاف القتل والجراح فلا يخدم الملوك ، بل يكون فلاحا أو في بيته

مع النساء ، والله لئن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة وبلا عذر تعذرون فيه ليأخذن إقطاعكم ، وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه منه مذ خدمتموه إلى يومنا هذا ، ويقول لكم : أتأخذون أموال المسلمين وتفرقون من عدوهم ، وتسلمون مثل الديار المصرية تتصرف فيها الكفار ، فقال اسد الدين : هذا رأيي وبه أعمل ، ووافقهما صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ثم كثر الموافقون لهم على القتال . فاجتمعت الكلمة على اللقاء ، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبئة ، وقد جعل الاثقال في القلب يتكثر بها ، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فتنهبها أهل البلاد . ثم إنه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب وقال له ولمن معه : إن الفرنج والمصريين يظنون أنني في القلب ، فهم يجعلون جمرتهم بإزائه وحملتهم عليه ، فاذا حملوا عليكم ، فلا تصدقوهم القتال ولاتهلكوا نفوسكم ، واندفعوا بين أيديهم ، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم . واختار من شجعان أصحابه جمعا يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم ، ووقف بهم في الميمنة ، فلما تقابل الطائفتان ، فعل الفرنج ماذكره أسد الدين وحملوا على القلب ظنا منهم أنه فيه ، فقاتلهم من به قتالا يسيرا وانهزموا بين أيديهم فتبعوهم ، فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على من تخلف من الذين حملوا على القلب ــ من المسلمين والفرنج ــ فهزمهم ووضع السيف فيهم فأثخن الجراح ، وأكثر القتل والاسر وانهزم الباقون . فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين الذين كانوا في القلب ، رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقعا ليس بها منهم ديار ، فانهزموا أيضا . وكان هذا من أعجب ما يؤرخ ، أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل .

ذكره ملك أسد الدين ثغر الاسكندرية

لما انهزم المصريون والفرنج من أسد الدين بالبابين سار إلى ثغر الاسكندرية ، وجبى ما في طريقه من القرايا والسواد من الاموال ،

ووصل الى الاسكندرية فتسلمها بغير قتال ، سلمها أهلها إليه . فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه وعاد إلى الصعيد ، فملكه وجبى أمواله ، وأقام به حتى صار شهر رمضان .

وأما المصريون والفرنج فإنهم عادوا الى القاهرة وجمعوا أصحابهم ، وأقاموا عوض من قتل منهم ، واستكثروا وحشدوا وساروا إلى الاسكندرية - وبها صلاح الدين - في عسكر يمنعونها منهم ، فقد أعانهم أهلها خوفا من الفرنج . فاشتد الحصار ، وقل الطعام بالبلد ، فصبر أهله على ذلك .

ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم - وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان - ووصلته رسل المصريين والفرنج يطلبون الصلح ، وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد ، فأجابهم إلى ذلك . وشرط أن الفرنج لايقيمون بمصر ولايتسلمون منها قرية واحدة ، وأن الاسكندرية تعاد إلى المصريين ، فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا ، وعاد إلى الشام ، فوصل دمشق ثامن عشر ذي القعدة ، وتسلم المصريون الاسكندرية في النصف من شوال .

وأما الفرنج فإنهم استقر بينهم وبين المصريين ، أن يكون لهم بالقاهرة شحنة ، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ، ليمتنع الملك العادل نور الدين من إنفاذ عسكر إليهم ، ويكون للفرنج من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار . هذا جميعه يجري بين الفرنج وشاور . وأما العاضد صاحب مصر فليس له من الأمر شيء ، ولايعلم بشيء من ذلك ، قد حكم شاور عليه وحجبه . وعاد الفرنج إلى بلادهم ، وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهير أعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة .

ثم إن الكامل شجاع بن شاور راسل الملك العادل نور الدين مع شهاب الدين محمود الحارمي - وهو من اكابر أمرائه ، وخال

- ٦٥١٩ -

صلاح الدين يوسف ـ ينهي محبته وولاءه ، ويسأله أن يأمره بإصلاح الحال وجمع الكلمة بمصر على طاعته ويجمع كلمة الاسلام ، وبذل مالا يحمله كل سنة ، فأجابه إلى ذلك ، وحملوا إلى نور الدين مالا جزيلا ، فبقي الامر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر لتملكها ، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

عصيان غازي

في هذه السنة عصى الامير غازي بن حسان المنبجي (صاحب منبج) بها على نور الدين ـ وكان هو اقطعه إياها ـ فارسل إليه نور الدين عسكرا حصروه بها وأخذها منه ، وأقطعها أخاه قطب الدين ينال بن حسان ، وكان عاقلا خيرا حسن السيرة ، فبقي بها إلى أن أخذها صلاح الدين منه سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

ذكر مفارقة زين الدين الموصل ووفاته وولاية فخر الدين عبد المسيح قلعة الموصل

في سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، سار زين الدين علي بن بكتكين ، نائب اتابك قطب الدين عن الموصل ، إلى إربل ، وسلم جميع ما كان بيده من البلاد والقلاع إلى أتابك قطب الدين ، فمن ذلك سنجار ، وحران ، وقلعة عقر الحميدية ، وقلاع الهكارية جميعها ، وكان نائبه بتكريت الامير تبر ، فأرسل إليه ليسلمها ، فقال : إن المولى أتابك لايقيم بتكريت ، ولابد له من نائب فيها ، وأنا أكون ذلك النائب فليس له مثلي ، فما أمكن محاققته لاجل مجاورة بغداد . وأما شهرزور فكان بها الامير بوزان ، فقال مثله أيضا ، فأقرت بيده ، وكان في طاعة اتابك قطب الدين .

وسبب فراق زين الدين ، أنه أصابه عمى وصمم ، وأقام بإربل

إلى أن توفي بها من سنته وكان قد استولى عليه الهـرم ، وضـعفت قوته ، وكان خيرا عادلا ، حسن السيرة ، جوادا محافظا على حسن العهد واداء الامانة ، قليل الغدر بل عديمه ، وكان إذا وعد بشيء لابد له من أن يفعله وإن كان فعله خـطيرا ، وكان حـاله مـن أعجـب الاحوال ، بينما يبدو منه ما يدل على سلامة صدره وغفلتـه ، حتـى يبدو منه ما يدل على إفراط الذكاء وغلبة الدهـاء . بلغني أنه أتـاه بعض أصحابه بذنب فرس ذكر أنه نفق له ، فأمر له بفرس ، فـأخذ ذلك الذنب أيضا غيره من الاجناد وأحضره وذكر أنه نفق له دابـة ، فأمر له بفرس ، فتـداول ذلك الذنب إثنا عشر رجـلا كلهـم يأخـذ فرسا ، فلما أحضره آخرهم ، قال له : أمـا تسـتحيون مني كمـا أستحي منكم ، قـد أحضر هــذا الذنب عندي إثنا عشر رجـلا وأنا أتغافل لئلا يخجل احدكم ، أتظنون أنني لاأعرفه ، بلى والله ، إنما أردت أن يصلكم عطائي بغير من ولا تكدير ، فلم تتركوني ، وأمر له بفرس آخر ، كما قال بعضهم في شانه :

ليس الغبي بسيد في قومه
لكن سيد قومه المتغابي

وكان يعطي كثيرا ويخلع عظيما ، وكان له البـلاد الكثيرة فلم يخلف شيئا ، بل أنفد جميعه في العطاء والانعام على الناس ، فـكان يلبس الغليظ ، ويشد على وسطه كل ما يحتاج الجندي إليه مـن سـكين ، ودرفش ، ومـطرقة ، ومسـلة ، وخيوط ، ودسـترك (١٠١) وغير ذلك . وكان من أشجع الناس ، ميمـون النقيبـة لم تهـزم له راية ، وكان يقوم المقام الخطر فيسلم منه بحسن نيته . وكان تركيا أسـمر اللون ، خفيف العارضين ، قصيرا جـدا . وبنى مـدارس وربـطا بـالموصل وغيرهـا ، بلغني أنه مـدحه الحيص بيص ، فلمـا أراد الانشاد قال له : أنا لاأدري ما تقول ، لكنني اعلم أنك تريد شـيئا ، وأمر له بخمسمائة دينار وأعطاه فرسا وخلعا وثيابا ، يكون مجموع ذلك نحو ألف دينار . ومكارمه كثيرة نقتصر على بعضها .

ولما توفي كان الحاكم باربل خادمه مجاهد الدين قايماز والمتـولي لامـورها ، وولي بعـد زين الدين ولده الملك المعـظم مـظفر الدين كوكبوري مدة ، ثم فـارقها ، لخلاف كان بينه وبين مجـاهد الدين ، وجرت أمور يطول ذكرها .

ولما فارق زين الدين الموصل ، إستناب أتابك قطب الدين بـالقلعة بعده مملوكه فخر الدين عبد المسيح ، فسلك غير طـريق زين الدين ، فكرهـه الناس وذموه ، فلم تطل أيامه ، وسيجيء ذكر عزله سنة ست وستين وخمسمائة إن شاء الله تعالى .

ملك نور الدين

قلعة جعبر من صاحبها وكيف

في أول سنة أربع وستين وخمسمائة ، ملك نور الدين قلعة جعبـر وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مـالك العقيلي ، فكانت بيده ويد آبائه قبله من أيام السلطان ملكشاه ، وقد تقدم ذكر ذلك . وهي من أمنع الحصـون وأحسـنها ، مـطلة على الفـرات ، لايطمع فيها بحصار .

وأما سبب ملكها ، فإن صاحبها نزل منها يتصـيد ، فـاخذه بنو كلاب أسيرا وحملوه إلى نور الدين في رجـب سـنة ثـلاث وسـتين وخمسمائة ، فاعتقله بحلب وأحسن إليه ، ورغبه في الاقـطاع والمال ليسلم إليه القلعة فلم يفعل ، فعدل إلى الشـدة والعنف وتهـدده فلم يفعل ايضا ، فسير إليها نور الدين عسكرا مقدمه الامير فخر الدين مسعود بن أبي علي بن الزعفراني فحصروها مدة فلم يظفروا منهـا بشيء ، فامدهم بعسكر جرار ، وجعل على الجميع الامير مجد الدين أبا بكر المعروف بابن الداية ــ وهو رضيع نور الدين ، وهو واحـد

امرائه - فحصرها ايضا فلم ير له فيها مطمعا ، فسلك مع صاحبها طريق اللين ، وأشار عليه أن يأخذ العوض من نور الدين مدينة سروج وأعمالها والملاحة التي بين حلب وباب بزاعة وعشرين ألف دينار معجلة ، وهذا إقطاع عظيم جدا لكنه لاحصن فيه ، وتسلم نور الدين القلعة في أول هذه السنة ، ولما اخذها نور الدين سلمها إلى مجد الدين بن الداية . وكان هذا آخر ملك بني مالك ولكل أمر أمد ، ولكل ولاية نهاية ، (تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء) (١٠٢) (يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)(١٠٣) بلغني أنه قيل لشهاب الدين : أيما أحب إليك وأحسن مقاما ، سروج والشام (أم) القلعة ؟ فقال : هذه أكثر مالا ، والعز بالقلعة فارقناه .

ذكر مسير أسد الدين شيركوه إلى مصر ثالثة وملكها وقتل شاور وتملك أسد الدين سلطنة مصر

في ربيع الاول من سنة أربع وستين أيضا ، سار أسد الدين شيركوه في العساكر النورية إلى ديار مصر وملكها واستولى عليها . وسبب ذلك ما ذكرناه من استيلاء الفرنج على البلاد بمصر ، وأنهم جعلوا لهم شحنة بمصر والقاهرة ، وأبواب البلدين قد سكنها فرسانهم والمفاتيح معهم ، وتحكموا تحكما كثيرا ، وحكموا على المسلمين حكما جائرا ، فنال المسلمين منهم اذا شديدا ، وجورا عظيما ، وقهرا زائدا ، وطمعوا فيهم وأرسلوا حينئذ إلى ملكهم ، وهو « مرى » ولم يكن ملك الفرنج مذ خرجوا الى الشام مثله شجاعة ومكرا ودهاء يستدعونه ليملك البلاد ، وأعلموه خلوها من ممانع عنها ، وسهلوا أمرها عليه فلم يجبهم إلى المسير ، واجتمع فرسان الفرنج وذوو الرأي والتقدم وأشاروا عليه بالمسير إليها والاستيلاء عليها ، فقال لهم : الرأي عندي أننا لانقصدها فإنها طعمه لنا ، وأموالها تساق إلينا نتقوى بها على نور الدين ، وإن نحن قصدناها لنملكها ، فان صاحبها وعساكرها وعامة أهل بلاده

وفلاحيها لايسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها ، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين ، وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين ، فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام فلم يصغوا إلى قوله ، وقالوا : إن مصر لامانع لها ولاحافظ ، وإلى أن يصل الخبر الى نور الدين ويجهز العساكر ويسيرهم الينا ، نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من امرها ، وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة فلا يقدر عليها ، وكانوا قد عرفوا البلاد ، وانكشف لهم أمرها ، فأجابهم إلى ذلك على كره شديد ، وتجهزوا وأظهروا أنهم على قصد الشام وخاصة مدينة حمص ، فلما سمع نور الدين (بذلك) كاتب عساكره وأجناده وأمرهم بالقدوم عليه .

وجد الفرنج في السير إلى مصر فقدموها ، ونازلوا مدينة بلبيس وحصروها ، فملكوها قهرا ونهبوها وسبوا أهلها مستهل صفر ، وكان جماعة من أعيان المصريين منهم ابن الخياط وابن قرجلة قد كاتبوا الفرنج .

وساروا من بلبيس إلى مصر ، فنزلوا على القاهرة وحصروها عاشر صفر ، فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم مثل فعلهم بأهل بلبيس ، فحملهم الخوف منهم على الامتناع ، فحفظوا البلد وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه ، فلو أن الفرنج احسنوا السيرة في بلبيس لملكوا مصر والقاهرة ، لكن الله تعالى حسن لهم ذلك ليقضي امرا كان مفعولا ، وكان شاور قد أمر باحراق مدينة مصر تاسع صفر قبل نزول الفرنج عليهم بيوم واحد خوفا عليها من الفرنج ، فبقيت النار فيها تحرقها اربعة وخمسين يوما ، فأرسل الخليفة العاضد لدين الله صاحب ديار مصر الى الملك العادل نور الدين يستغيث به ، ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج ، وأرسل في الكتب شعور النساء ، وقال : هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج ، فقام نور الدين لذلك وقعد ، وشرع في تجهيز العساكر إلى مصر .

وأما الفرنج فإنهم اشتدوا في حصار القاهرة وضيقوا على من فيها ، وشاور هو متولي أمر البلد والعساكر والقتال ، فضاق به الأمر وضعف عن ردهم ، فأخذ إلى إعمال الحيلة ، فأرسل إلى ملك الفرنج يذكر له مودته ومحبته القديمة ، وأن هواه معه لخوفه من نور الدين والعاضد ، وإنما المسلمون لايوا فقونه على التسليم إليه ، ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يسلم البلاد إلى نور الدين ، فأجابه إلى الصلح على أخذ ألف ألف دينار مصرية ، يعجل البعض ويؤخر البعض ، واستقرت القاعدة على ذلك . ورأى الفرنج أن البلاد قد امتنعت عليهم ، وربما سلمت إلى نور الدين فأجابوا كارهين ، وقالوا : ناخذ المال نتقوى به ، ونستكثر من الرجال ونعود الى البلاد بقوة لانبالي معها بنور الدين ولا غيره ، (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين)(١٠٤) فعجل لهم شاور مائة ألف دينار وسألهم الرحيل عن البلد ليجمع لهم المال ، فرحلوا قريبا .

وعاود العاضد مراسلة نور الدين وإعلامه مالقي المسلمون من الفرنج ، ويبذل له ثلث بلاد مصر ، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيما عنده في عسكر ، وإقطاعهم عليه خارجا عن الثلث الذي لنور الدين .

وكان نور الدين لما أتاه الرسل أولا من العاضد ، قد أرسل إلى أسد الدين يستدعيه من حمص – وهي إقطاعه – فلما خرج القاصد من حلب لقي أسد الدين قد وصلها ، وكان سبب وصوله أن كتب المصريين أيضا وصلته في المعنى ، فسار إلى نور الدين وهو بحلب واجتمع به ساعة وصوله ، فعجب نور الدين من ذلك وتفاءل به وسره ، وأمره بالتجهز إلى مصر والسرعة في ذلك ، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والالات والاسلحة وغير ذلك ، وحكمه في العسكر والخزائن ، فاختار من العسكر ألفي فارس ، وأخذ المال ، وجمع من التركمان ستة آلاف فارس وسار هو ونور الدين إلى دمشق ، فوصلاها سلخ صفر ، ورحلا في جميع العساكر إلى رأس الماء ، وأعطى نور الدين كل فارس من العسكر الذين مع

أسد الدين عشرين دينارا معونة له على طريقه ، غير محسوبة من القرار الذي له ، وأضاف إلى أسد الدين جماعة أخرى من الأمراء والمماليك ، منهم مملوكه عز الدين جرديك ، وعز الدين قليج ، وشرف الدين بزغش ، وعين الدولة الياروقي ، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي ، وصلاح الدين يوسف بن أيوب على كره منه ، (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم)(١٠٥) ، أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته ، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه ، وسيرد ذلك إن شاء الله تعالى عند موت شيركوه .

ثم إن أسد الدين شيركوه سار مجدا من رأس الماء منتصف ربيع الأول ،فلما قارب مصر رحل الفرنج عنها عائدين إلى بلادهم بخفي حنين خائبين مما أملوا ، وسب ملكهم كل من أشار عليه بقصد مصر ، وبلغ خبر عودهم نور الدين فسره ذلك وأظهر الاستبشار ، وأمر بضرب البشائر في سائر بلاده ، وبث رسله إلى الآفاق مبشرا به ، والحق بيده ، فإنه كان فتحا جديدا لمصر وحفظا لسائر بلاد الشام وغيرها .

وأما أسد الدين فإنه وصل إلى القاهرة سابع ربيع الاخر ودخلها ، واجتمع بالعاضد لدين الله ، فخلع عليه وعاد إلى خيامه ، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة ولم يمكن شاور المنع عن ذلك لانه رأى العساكر كثيرة بظاهر البلد ورأى هوى العاضد معهم من داخله فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه فكتمه ، وهو يماطل أسد الدين في تقرير ماكان بذل له من المال والاقطاع للعساكر ، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين ، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه ويعده ويمنيه ، (وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) (١٠٦) ثم إنه عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الامراء ويقبض عليهم ، فنهاه ابنه الكامل ، وقال له : والله لئن عزمت على هذا الامر لأعرفن أسد الدين ، فقال أبوه : لئن لم أفعل هذا لنقتلن جميعا ، فقال : صدقت ، لئن نقتل ونحن

مسلمون والبلاد بيد المسلمين ، خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج ، وليس بينك وبين عود الفرنج الا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه ، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارسا واحدا ويملكون البلاد ويظهرون الفساد ، فترك ماكان عزم عليه فلما رأى العسكر المطل من شاور ، إتفق صلاح الدين بن أيوب وعز الدين جرديك وغيرهما على قتل شاور ، وأعلموا أسد الدين بذلك فنهاهم ، فقالوا : إننا ليس لنا في البلاد شيء مهما هذا على حاله ، فأذكر ذلك ، فاتفق أن بعض الايام سار أسد الدين إلى زيارة قبر الشافعي رضي الله عنه ، وقصد شاور عسكره على عادته للاجتماع به ، فلقيه صلاح الدين يوسف ، وعز الدين جرديك ومعهما جمع من العساكر ، فخدموه وأعلموه أن أسد الدين في الزيارة ، فقال : نمضي اليه ، فسار وهما معه قليلا ، ثم ساوروه وألقوه عن فرسه فهرب أصحابه فأخذ أسيرا ، ولم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين فسجنوه في خيمة وتوكلوا بحفظه ، فعلم أسد الدين الحال فعاد مسرعا ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه ، وأرسل العاضد لدين الله صاحب مصر في الوقت إلى أسد الدين ، يطلب منه رأس شاور ويحثه على قتله وتابع الرسل بذلك ، فقتل شاور في يومه وهو السابع عشر من ربيع الاخر ، وحمل رأسه الى القصر ، ودخل أسد الدين إلى القاهرة ، فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خافه على نفسه ، فقال لهم : أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور ، فقصدها الناس ينهبونها فتفرقوا عنه ، وقصد أسد الدين قصر العاضد ، فخلع عليه خلع الوزارة ولقب الملك المنصور أمير الجيوش ، وقصد دار الوزارة - وهي التي كان فيها شاور - فلم ير فيها ما يقعد عليه ، واستقر في الامر وغلب عليه ، ولم يبق له منازع ولامناوىء ، وولى الاعمال من يثق إليه واستبد بالولاية ، وأقطع البلاد العساكر التي قدمت معه إليها .

-٦٥٢٧-

ذكر وفاة أسد الدين شيركوه وملك صلاح الدين يوسف بن أيوب

(حتى إذا فرحوا بما أوتوا اخذناهم بغتة)(١٠٧) لما ثبت قدم أسد الدين شيركوه ، وخلا وجهه ممن يخافه ، وصفت له دنياه ، وارتفع شأنه ، وخافه القاصي والداني لاسيما الفرنجة ، أتاه أمر الله الذي لامحيد عنه ولامفر منه ولايحتمي عليه ملك بكثرة رجال ، ولايمنع عنه المعاقل والمال ، فمرض وتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الاخرة سنة أربع وستين وخمسمائة ، فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام .

ولما توفي كان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه نجم الدين أيوب ابن شاذي ، قد سار معه على كره منه ٠ حكي لي عنه أنه قال : لما وردت الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين رضي الله عنه مستصرخين ومستنجدين ، أحضرني وأعلمني الحال ، وقال : تمضي إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسولي إليه ، تأمره بالحضور وتحثه أنت على الاسراع فما يحتمل الأمر التأخير . قال : ففعلت ، فلما فارقنا حلب على ميل منها لقيناه قادما في هذا المعنى ، فقال له نور الدين : تجهز للسير ، فامتنع خوفا من غدرهم اولا وعدم ما ينفقه في العساكر ثانيا ، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال ، وقال له : إن تأخرت أنت عن المسير إلى مصر ، فالمصلحة تقتضي أن أسير أنا بنفسي إليها ، فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج ولايبقى لنا معهم مقام بالشام وغيره قال : فالتفت إلي عمي أسد الدين ، وقال : تجهز يايوسف قال : فكأنما ضرب قلبي بسكين ، فقلت : والله لو أعطيت ملك مصر ماسرت إليها ، فلقد قاسيت بالاسكندرية من المشاق مالا أنساه أبدا ، فقال عمي لنور الدين : لابد من مسيره معي فترسم له ، فأمرني نور الدين وأنا أستقيله ، فانقضى المجلس ، ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم ولم يبق غير المسير ، فقال لي نور الدين : لابد من مسيرك مع عمك ، فشكوت

إليه الضائقة وقلة الدواب وما أحتاج إليه ، فأعطاني ما تجهزت بــه فكانما أساق إلى الموت ، وكان نور الدين مهيبــا مخــوفا مــع لينه ورحمته ، فسرت معه ، فلما استقر أمره وتوفي ، أعطــاني الله مــن ملكها مالا كنت اتوقعه . هذا حكي لي عنه .

وأما كيفية ولايته ، فإن جماعة من الامــراء النورية الذين كانوا بمصر ، طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة ، منهــم : الأمير عين الدولة الياروقي ، وقطب الدين خسرو بن تليل ــ وهـو ابن أخي أبي الهيجاء الهذباني الذي كان صاحب إربــل ــ ومنهــم : ســيف الدين علي بن أحمد الهــكاري ــ وجــــده كان صـــاحب قـــلاع الهكارية ــ ومنهم : شهاب الدين محمود الحــارمي ــ وهـــو خــال صلاح الدين ــ وكل من هـؤلاء يخطبها وقد جمــع ليغــالب عليهــا ، فأرسل الخليفة العــاضد لدين الله صــاحب مصر إلى صــلاح الدين وأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة ويوليه الامر بعــد عمه ، وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صــلاح الدين ، فإنه ظن أنه إذا ولى صلاح الدين ــ وليس له عسكر ولارجــال ــ كان في ولايته مستضعفا يحكم عليه ولايجسر على المخالفة ، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه ، فاذا صار معه البعض خــرج الباقين وتعود البلاد إليه وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفــرنج ونور الدين « اردت عمــرا واراد الله خــــارجة »(١٠٨) فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن هذا المقام فالزمه بــه وأخــذ كارهـا ، « إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بــالسلاسل » ، فلمــا حضر في القصر خلع عليه خلعــة الوزارة ، الجبــة والعمــامة وغيرهما ، ولقب الملك الناصر ، وعاد إلى دار أسد الدين فأقام بها ، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الامراء الذين يريدون الأمر لأنفســهم ولاخدموه ، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري معه ، فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه ، وقال له : إن هذا الأمــر لايصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل ، فمــال إلى صلاح الدين . ثم قصد شهاب الدين الحارمي ، وقــال له : إن هــذا صلاح الدين هو ابن أختك وملكه لك وقد استقام الامر له ، فلا تكن

أول من يسعى في إخـراجه عنه ولايصـل إليك ، ولم يزل بـه حتـى أحضره أيضا عنده وحلفه له . ثم عدل إلى قطب الدين ، وقال له إن صلاح الدين قد أطاعه الناس ، ولم يبق غيرك وغير الياروقـي وعلى كل حال فيجمع بينك وبين صلاح الدين ان اصله مـن الاكراد ، فـلا تخرج الامر عنه إلى الاتراك ، ووعده وزاد في إقطاعه فأطاع صـلاح الدين أيضا ، وعدل إلى عين الدولة الياروقي – وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعا – فلم تنفعه رقاه ولانفذ فيه سحره ، وقـال : أنا لا أخدم يوسف أبدا ، وعاد إلى نور الدين ومعـه غيره فـأنكر عليهـم فراقه ، وقد فات الامر (ليقضي الله امراكان مفعـولا) ،(الأنفـال (١٤٢)) ، وثبتت قدم صلاح الدين ، ورسـخ ملكه ، وهـو نائب عن الملك العـــــــــــــــــــادل نور الدين ، والخطبة لنور الدين في البلاد كلهـا ، ولايتصرفـون إلا عن أمـره ، وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالامير الاسـفهسلار ، ويكتـب علامته في الكتب تعظما أن يكتب اسمه ، وكان لايفرده في كتاب ، بل يكتب الأمير الأسفهسلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا ، واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل الاموال مما كان أسد الدين قد جمعه ، وطلب من العاضد شيئا يخـرجه فلم يمكنه منعه ، فمال الناس إليه وأحبوه ، وقـويت نفسـه على القيام بهذا الامر والثبات فيه ، وضعف أمر العاضد ، فكان كالبـاحث عن حتفه بظلفه ، وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يسير إليه إخوته فلم يجبه إلى ذلك ، وقال : أخاف أن يخالف أحد منهـم عليك فتفسد البلاد . ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسـيروا إلى مصر ، فسـير نور الدين العساكر وفيهم إخوة صلاح الدين ، منهم شـمس الدولة توران شاه بن أيوب – وهو أكبر من صلاح الدين – فلمـا أراد أن يسير ، قال له : إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تسر ، فإنك تفسـد البـلاد وأحضرك حينئذ وأعاقبك بمـا تسـتحقه ، وإن كنت تنظـر إليه أنه صاحب مصر وقائم مقامي ، وتخدمه بنفسك كما تخدمني ، فسر إليه وأشدد أزره وساعده على ما هو بصدده . فقال : أفعـل معـه مـن

الخدمة والطاعة مايتصل بك (خبره) إن شاء الله تعالى . فكان معه كما قال .

ذكر حصر الافرنج مدينة دمياط في سنة خمس وستين

في سنة خمس وستين وخمسمائة ، في أوائل صفر ، نزل الفرنج على مدينة دمياط من الديار المصرية ، فكان افرنج الساحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك فكاتبوا الفرنج الذين بالاندلس وصقلية وغيرهما يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك مصر ، وأنهم خائفون على البيت المقدس من المسلمين ، وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة ، فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح ، واتعدوا النزول على دمياط ظنا منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهرا يملكون به ديار مصر ، (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا)(١٠٩) .

فلما نازلوها حصروها وضيقوا على من بها ، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل ، وحشر فيها كل من عنده وأمدهم بالمال والسلاح والذخائر ، وتابع رسله إلى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف ، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الافرنج ، وإن سار إليها ، خلفه المصريون في مخلفيه ، ومخلفي عسكره بالسوء وخرجوا عن طاعته ، وساروا من خلفه والفرنج من أمامه ، فجهز نور الدين إليه العساكر أرسالا ، كلما تجهزت طائفة سيرها ، فسارت إليه العساكر يتلو بعضها بعضا .

ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر ، فدخل بلاد الفرنج فنهبها وأغار عليها ووصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه لخلو البلاد من مانع ، فلما رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر ، ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وإخرابها ، رجعوا خائبين لم يظفروا

بشيء ، وهذا موضع المثل : ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين . فوصلوا إلى بلادهم فرأوها خاوية على عروشها ، وكان مدة مقامهم على دمياط خمسين يوما ، أخرج فيها صلاح الدين أموالا لاتحصى ، حكي لي عنه أنه قال : مارأيت أكرم من العاضد ، أرسل إلى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصري ، سوى الثياب وغيرها .

ذكر حصر نور الدين رحمه الله الكرك

وفي هذه السنة سار نور الدين إلى بلاد الفرنج فحصر حصن الكرك في رجب . وكان سبب حصره ، أن نجم الدين أيوب والد صلاح الدين سار عن دمشق إلى مصر ، وسير معه نور الدين عسكرا ، واجتمع معهم من التجار ومن كان له مع صلاح الدين أنس ومودة مالا يعد ، فخاف نور الدين عليهم ، فسار إلى الكرك ونزل عليه وحصره ، وسار نجم الدين أيوب ومن معه سالمين ، ونصب نور الدين على الكرك المجانيق ، فأتاه الخبر أن الفرنج قد جمعوا وساروا إليه وأن ابن الهنفري ، وفيليب بن الرفيق – وهما فارسا الفرنج في وقتهما – في المقدمة إليه ، فرحل نور الدين نحوهما ليلقاهما ومن معهما قبل أن يلتحق ، بهما باقي الفرنج ، فكانا في مائتي فارس وألف تركبلي ومعهم من الراجل عالم كثير ، فلما قاربهما رجعا القهقرى إلى من وراءهم من الفرنج ، وقصد نور الدين الشام في وسط بلادهم ، ونهب ما كان على طريقه إلى أن وصل الشام فنزل بعشترا (١١٠) وأقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم ، فلم يبرحوا من مكانهم خوفا منه ، وأقام هو حتى أتاه خبر الزلزلة الحادثة بحلب وأعمالها وسائر بلاد الشام فرحل .

ذكر الزلزلة التي جرت بالشام وما فعله نور الدين

وفي هذه السنة أيضا في ثاني عشر شوال، كانت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلها عمت أكثر البلاد من الشام، ومصر، وديار الجزيرة، والموصل، والعراق وغيرها، إلا أن أشدها وأعظمها كان بالشام، فخربت بعلبك، وحمص، وحماة، وشيزر، وبعرين، وحلب وغيرها من البلاد، وتهدمت أسوارها وقلاعها، وسقطت الدور على أهلها، وهلك منهم مايخرج عن الحد والاحصاء، فلما أتاه هذا الخبر، سار الى بعلبك ليعمر ما أنهدم من أسوارها وخلوها من أهلها، فرتب ببعلبك من يحميها ويعمرها، وسار إلى حمص ففعل مثل ذلك، ثم إلى حماه ثم إلى بارين. وكان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج لا سيما قلعة بارين، فإنها مع قربها منهم لم يبق من سورها شيء ألبته، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مع أمير كبير، ووكل بالعمارة من يحث عليها ليلا ونهارا. وبلغ الرعب بمن نجا كل مبلغ، وكانوا لايقدرون على أن يأووا إلى بيوتهم السالمة من الخراب خوفا من الزلزلة، فانها عاودتهم غير مرة. وكانوا يخافون يقيمون بظاهر حلب من الفرنج. فلما شاهد ما صنعت الزلزلة بها وبأهلها، أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين، ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوار جميع البلاد وجوامعها، فأخرج من المال مالا يقدر قدره.

وأما بلاد الفرنج فإنها أيضا فعلت بها الزلزلة قريبا من هذا، وهم أيضا يخافون نور الدين على بلادهم، فاشتغل كل منهما بعمارة بلاده.

ذكره غزوة لسرية نورية

كان شهاب الدين محمود بن إلياس بن إيلغازي بن أرتق صاحب

قلعة ألبيرة ، وقد سار في عسكره – وهم مائتا فارس – إلى الخدمة الذورية وهو بعشترا ، فلما وصل إلى اللبوة – وهي من أعمال بعلبك – ركب متصيدا ، فصادف ثلاثمائة فارس للفرنج قد ساروا للاغارة على بلاد الاسلام ، وذلك سابع عشر شوال من هذه السنة ، فوقع بعضهم على بعض واقتتلوا ، واشتد القتال ، وصبر الفريقان لاسيما المسلمون ، فان ألف فارس منهم لاتصبر لحملة ثلاثمائة فارس من الفرنج ، وكثر القتلى بين الطائفتين ، فانهزم الفرنج وعمهم القتل والاسر ، فلم يفلت منهم الا من لايعتد به . قال تعالى : (ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله امرا كان مفعولا)(١١١) . ثم إن شهاب الدين سار بالاسرى ورؤوس القتلى إلى نور الدين ، فركب هو والعساكر الى لقائه واستعرض الاسرى ورؤوس القتلى ، فرأى فيها رأس مقدم الاسبتار صاحب حصن الاكراد ، وكانت الافرنج تعظمه لشجاعته ودينه ، ولانه شجا في حلوق المسلمين ، وكذلك رأى رأس غيره من مشهوري الفرنج فازداد سروره ، (وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين (١١٢))

في ذكر وفاة أتابك قطب الدين مودود بن الشهيد زنكي بن آقسنقر رضي الله عنه وملك ابنه سيف الدين

في شوال من سنة خمس وستين وخمسمائة ، توفي أتابك قطب الدين مودود بن أتابك الشهيد زنكي بن آق سنقر رضي الله عنه بالموصل ، وكان مرضه حمى حادة . ولما اشتد مرضه أوصى بالملك بعده لولده عماد الدين زنكي – وهو أكبر أولاده وكان النائب عن قطب الدين حينئذ والقيم بأمر دولته فخر الدين عبد المسيح ، وكان يكره عماد الدين لانه كان قد أكثر المقام عن عمه الملك العادل نور الدين وخدمه وتزوج ابنته وكان نور الدين يبغض فخر الدين لظلم

كان فيه ويذمه ، ويلوم أخاه قطب الدين على توليته الامور ، فخاف فخر الدين أن يتصرف عماد الدين في أموره عن أمر عمه فيعزله ويبعده ، فاتفق هو والخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش - زوجة قطب الدين - فردوه عن هذا الرأي ، فلما كان الغد أحضر الامراء واستحلفهم لولده سيف الدين غازي وتوفي وقد جاوز عمره أربعين سنة . وكان تام القامة ، كبير الوجه ، أسمر اللون واسع الجبهة ، جهوري الصوت ، وكانت ولايته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفا .

ولما توفي استقر سيف الدين في الملك ، ورحل عماد الدين الى عمه نور الدين شاكيا مستنصرا ، وكان فخر الدين هو الذي يدبر أمور سيف الدين ويحكم في مملكته ، وليس لسيف الدين من الأمر إلا اسمه ، فانه كان في عذفوان شبابه وغرة حداثة .

حادثة تحث على العدل

من جملة أعمال جزيرة ابن عمر ، قرية تسمى العقيمة تقابل الجزيرة ، يفصل بينهما دجلة ، ولها بساتين كثيرة ، وبعضها تمسح أرضه ويؤخذ على كل جريب من الارض التي قد زرعت شيء معلوم ، وبعضها عليه خراج ولامساحة عليه ، وبعضها مطلق منهما ، فالممسوح منها لايحصل لأصحابه إلا القدر القريب ، وكان لنا بها عدة بساتين .

فحكى لي والدي قال : جاءنا كتاب فخر الدين عبد المسيح إلى الجزيرة - وأنا اتولى حينئذ ديوانها والحكم إلي فيه على ما شوهد - يأمر بأن يجعل بساتين العقيمة كلها ممسوحة ، قال : فشق ذلك علي لأجل أصحابها ، ففيها ناس صالحون ولي بهم أنس ، وهم فقراء . قال : فراجعته ، وقلت له : لاتظن أنني أقول هذا لأجل ملكي ، لا والله ، إنما أريد أن يدوم الناس على الدعاء

المولى قطب الدين وأنا أمسح ملكي جميعه . قال : فأعاد الجواب يأمر بالمساحة ، ويقول : تمسح أولا ملكك ليقتدي بك غيرك ، ونحن نطلق لك مايكون عليه ، قال : فأظهرنا الأمر ، وشرع الذواب يمسحون ، وكان بالعقيمة رجلان صالحان وبيني وبينهما مودة ، اسم أحدهما يوسف والآخر عبادة ، قال : فحضرا عندي وتضررا من هذه الحال ، وسألاني المكاتبة في المعنى ، فأظهرت لهما كتاب فخر الدين جوابا عن كتابي ، فشكراني ثم قالا : وأيضا تعود تراجعه . فعاودت القول ، فأصر على المساحة فعرفتهما الحال . قال : فلما مضى عدة أيام ، عدت يوما إلى داري راكبا ، وإذا هما قد صادفاني على الباب ، فقلت في نفسي : عجبا لهذين الشيخين ، قد رأيا مراجعتي وهما يطلبان مني مالا أقدر عليه . قال : فسلمت عليهما وسلما علي ، وقلت لهما : والله إنني أستحي منكما كلما جئتما في هذا الامر ، وقد رأيتما الحال كيف هو . فقالا : صدقت ، ولم نحضر إلا لنعرفك أن حاجتنا قضيت . قال : فظننت أنهما قد أرسلا إلى الموصل من يشفع لهما ، فدخلت داري وأدخلتهما معي ، وسألتهما عن الحال كيف هو ومن الذي سعى لهما ، فقالا : إن رجلا من الصالحين الأبدال شكونا إليه حالنا فقال : قد قضيت حاجة أهل العقيمة جميعهم . قال : فوقع عندي من هذا فكر ، تارة أصدقهما لما أعلم من صلاحهما ، وتارة أعجب من سلامة صدريهما ، كيف يعتمدان على هذا القول ويعتقدانه واقعا لا شك فيه . قال : فلما كان بعد أيام وإذا قد وصل قاصد من الموصل بكتاب يأمر فيه بإطلاق مساحة العقيمة ، وإطلاق كل مسجون وبالصدقة . فسألنا القاصد عن السبب ، فقال : إن أتابك شديد المرض . قال : فأفكرت في قولهما وتعجبت منه ، ثم توفي بعد يومين من هذا ، ورأيت والدي إذا رأى أحد الرجلين يبالغ في إكرامه ويحترمه ويقضي أشغاله ، واتخذهما أصدقاء .

فصل في ذكر بعض سيرة أتابك قطب الدين رضي الله عنه

كان رحمه الله ورضي عنه من أحسن الملوك سيرة ، وأعفهم عن أموال رعيته ، محسنا إليهم كثير الانعام عليهم ، محبوبا إلى صغيرهم وكبيرهم ، عطوفا على مأمورهم وأميرهم ، حليما عن المذنبين منهم ، قليل المؤاخذة لهم على زالهم ، كريم الاخلاق حسن الصحبة لهم ، فكأن القائل أراده بقوله إذ يقول :

خلق كماء المزن طيب مذاقه
والروضة الغناء طيب نسيم
كالسيف لكن فيه حلم واسع
عمن جنى والسيف غير حليم
كالغيث إلا أن وابل جوده
أبدا وجود الغيث غير مقيم
كالدهر إلا أنه ذو رحمة
والدهر قاسي القلب غير رحيم

وكان رضي الله عنه سريع الانفعال للخير ، بطيئا عن الشر . حدثني والدي قال : إستدعاني يوما وهو بالجزيرة وكنت أتولى أعمالها له ، فلما حضرت عنده قال لي : بلغني أنك تهمل هذه الجنايات(١١٣) ولاتحفظها ، فقلت له : إنني أعجز عن حفظها لأنني أكون في بيتي والدز دار يفعل في القلعة مايريد ، ثم التفاوت ليس بعظيم وأخاف من الاستقصاء فيها ، لو دعي على بعض هؤلاء الملوك ــ وأومأت إلى أولاده ــ لكانت شعرة منه تساوي الدنيا وما فيها ، ولنا مواضع تحتمل العمارة لو عمرت يتحصل منها أضعاف هذا . فقال لي : جزاك الله خيرا ، فلقد نصحت وأديت الامانة ، واشرع في عمارة هذه الأماكن التي تحتمل العمارة . قال : ففعلت وكبرت منزلتي عنده ، ولم يزل يثني علي .

قال : وكان السلطان كثير الصبر والاحتمال من أصحابه ، لقد صبر من نوابه زين الدين وجمال الدين وغيرهما على ما لم يصبر عليه سواه .

وكان حسن الاتفاق مع أخيه الملك العادل نور الدين ، كثير المساعدة له والانجاد بنفسه وعسكره وأمواله ، حضر معه المصاف بحارم وفتحها ، وفتح بانياس ، وكان يخطب له في بلاده باختياره من غير خوف .

وكان إحسانه إلى أصحابه متتابعا من غير طلب منهم ولاتعريض . حكى لي والدي قال : دخلت إليه مرة ، فسألني عن ما أتولاه من الأعمال وأحوال الرعية فيها وأنا أخبره . ثم سألني عن القرايا التي خاصة ومن يتولى قسمتها واستخلاص أموالها ، فقلت له : أنا أفعل ذلك بنفسي ، فقال : وما الذي قرر لك عليها في مقابل تعبك ؟ فقلت : لي من إنعام مولانا مالا حاجة لي إلى تقرير شيء آخر ، ثم المقرر لي من الجامكية والرسوم إنما هو على أعمال من جملتها هذه القرايا ، فقال : لايجوز تتعب بدون فائدة . ثم أمر لي بعمالة الخاص جميعها في بلد الجزيرة ، فدعوت له . ولما خرجت رأيتها كثيرة يحصل منها مايزيد على سبعمائة دينار أميري ، وليس لي بها من العمل كثير أمر . فقلت في نفسي : ربما لايعلم مقدارها ، فإذا علمه يظن أنني اغتنمت غرته ، فأرسلت إليه مع حاجبه أقول له : إن هذه العمالة يتحصل منها في هذا الرخص كذا وكذا دينار ، وأنا أقنع ببعض ذلك ، قال : فلما سمع قولي ضحك ، وقال : هذا كلام رجل عاقل والجميع له . قال : وكان يدخل إلى الخزانة بعض الاوقات ونحن فيها - إذ كنت أتولاها - فلا يخرج منها إلا وقد وهب كلا من الحاضرين منها شيئا صالحا ، وربما أرسل إلى من غاب ، سهمه .

قال : وكان يبغض الظلم وأهله ، ويعاقب من يفعله من أصحابه ، فمن ذلك أن نائبين كانا له بالجزيرة اختصما وترافعا

إليه ، فذكر أحدهما عن الآخر أنه قد كان خان السلطان في ماله ، وأخذ من أموال الرعية أيضا رشا على مالا يجوز له فعله ، قال : فاحضرهما بالموصل وأرسل إليه . وهما في ديوانه يقول : قد قلت عن فلان كذا وكذا ، فإن صح عليه أنه أخذ من أموال رعيتي دينارا واحدا صلبته ، فإنني قد وسعت عليه وكثرت إقطاعه لئلا يمد عينه إليهم ، وإن لم يصح عليه شيء عاقبتك على كذبك ، فلم يصح عليه قول شيء فأعاده إلى شغله ، وقال الاخر : لولا أن لك علي حق خدمة لكنت عاقبتك على كذبك ، فعزله .

وكان رضي الله عنه واسع الكرم ، كثير البذل للمال ، يكثر تعهد أصحابه وذوابه ، بالصلات السنية والعطايا الجزيلة ، ففرق أموالا لاتحصى ولاتحد ، فمنها : ما كان جمع في الأيام الشهيدية • والايام السيفية ، وما كان قد ادخره نصير الدين جقر ، وما تحصل له هو من البلاد في أيامه .

أعطى فأكثر واستقل هباته
فاستحيت الانواء وهي هوامل
فاسم الغمام لديه وهو كنهور
آل(١١٤) وأسماء البحار جداول
لم تخل أرض من نداه ولا خلا
من شكر ما يولي لسان قائل

وكان رضي الله عنه يقول لمن ينهاه عن كثرة الانفاق وإخراج الاموال : متى سمعتم أن ملكا حبسه القاضي ، وإذا لم يظهر إحساني على من يخدمني فمن الذي يحسن إليهم ؟ وبالله أقسم إذا فكرت في الملوك أولاد الشهيد عماد الدين زنكي : سيف الدين ، ونور الدين ، وقطب الدين ، وما جمع الله سبحانه فيهم من مكارم الاخلاق ، ومحاسن الافعال ، وحسن السيرة ، وعمارة البلاد ، والرفق بالرعية إلى غير ذلك من الاسباب التي يحتاج الملك إليها ، أظن أن القائل أرادهم بقوله : شعر

- ٦٥٣٩ -

هيذون ليذون أيسار بذو يسر
سواس مكرمة أبناء أيسار
لاينطقون على العوراء إن نطقوا
ولايمارون إن ماروا بإكبار
من يلق منهم يقل لاقيت سيدهم
مثل النجوم التي يسري بها السار

واذكر قول بعضهم - وقد سئل عن أولاد المهلب بن أبي صفرة - أيهم أفضل ، فقال : هم كالحلقة المفرغة . وقول فاطمة ابنة الحريث - وقد سئلت عن اولادها الكملة أيهم خير - فقالت : فلان ، بل فلان ، ثم قالت : ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم خير . وهكذا كانوا رضي الله عنهم .

ذكر وفاة المستنجد بالله أمير المؤمنين وخلافة ولده المستضيء بامر الله . رضي الله عنهم

توفي الامام المستنجد بالله أمير المؤمنين في تاسع شهر ربيع الآخر من سنة ست وستين وخمسمائة . واسمه يوسف بن المقتفي لأمر الله . وتمام نسبه عند وفاة المستظهر بالله رضي الله عنه .

وامه ام ولد اسمها طاووس رومية . ومولده مستهل ربيع الاخر سنة عشر وخمسمائة ، وكانت خلافته احدى عشرة سنة وستة أيام. وكان أسمرا ، تام القامة ، طويل اللحية .

وكان سبب موته انه مرض واشتد مرضه ، وكان قد خافه استاذ الدار عضد الدين ابو الفرج ابن رئيس الرؤساء وقطب الدين قايماز - وهو من مماليك المقتفي لامر الله - وهو حينئذ أكبر أمير ببغداد ، وله من الاتباع مثل علاء الدين تتامش ويزدن وغيرهما ، وكان محسنا الى الاجناد ، فلما اشتد مرض المستنجد بالله اتفقا

ووضعا الطبيب على ان يصف له مايؤنيه ، فوصف له دخول الحمام ، فامتنع المستنجد بالله لضعفه ، ثم ادخله واغلق عليه الباب الى أن مات . هكذا سمعته من غير واحد ممن يعلم الحال .

وكان وزيره حينئذ شرف الدين أبا جعفر احمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن البلدي – وهو الحاكم في الدولة – وبينه وبين أستاذ الدار عضد الدين وقطب الدين عداوة مستحكمة ، لان المستنجد بالله كان يأمره فيما يتعلق بهما بأشياء فيفعلها ، فكانا يظنان أنه هو الذي يسعى بهما ، فلما مرض المستنجد بالله وأرجف بموته ، ركب الوزير ومعه الأمراء والأجناد وغيرهم بالعدة الكاملة فلم يتحقق عنده خبر موته ، وأرسل إليه استاذ الدار يقول : إن أمير المؤمنين قد خف مابه من المرض واقبلت (عليه) العافية . فخاف الوزير أن يدخل إلى دار الخلافة بالجند فربما جرى عليه عتب وانكار ، فعاد إلى داره وتفرق الناس عنه . وكان استاذ الدار وقطب الدين قد استعدا للهرب لما ركب الوزير (خوفا منه) إن دخل الدار (ان ياخذهما (١١٥) ، فلما عاد أغلق استاذ الدار ابوابها وأظهر وفاة المستنجد ، واحضر هو وقطب الدين ابنه ، أبا محمد الحسن وبايعاه بالخلافة ولقباه المستضيء بأمر الله ، وشرطا عليه شروطا ، منها : أن يجعل عضد الدين وزيرا وابنه كمال الدين أستاذ الدار ، ويجعل قطب الدين أمير العسكر ، فأجابهم إلى ذلك . وعلم شرف الدين بن البلدي الحال ، فصفق يدا على يد ، وقرع سنه ندما على ما فرط في عوده الى داره ، حيث لايذفعه الندم ، وأتاه من يستدعيه للجلوس للعزاء والبيعة للمستضيء ، فمضى الى دار الخلافة ومعه زعيم الدين ابن جعفر ، وهو صاحب المخزن ، فلما دخلها صرف الى موضع من الدار وقتل وقطع قطعا والقي في دجلة ، رحمه الله تعالى . وأرسل عضد الدين وقطب الدين الى داره فحمل جميع ماله فيها من مال وغيره ، فرأيا في ذلك خطوط المستنجد بالله اليه يأمره فيها بالقبض عليهما ، وخط الوزير قد راجعه في ذلك وصرفه عنه ، فلما وقفا عليه ، علما براءته مما كانا يظنان فيه ، فندما حيث لم يذفعهما

ندمهما . واما زعيم الدين جعفر ، فان عماد الدين بن الوزير عضد الدين شفع فيه ، وهذا عماد الدين كان قد تصوف وترك الاعمال .

وكان المستنجد بالله من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية ، عادلا فيهم ، كثير الرفق بهم ، وأطلق من المكوس كثيرا ولم يترك بالعراق مكسا . وكان شديدا على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس . بلغني أنه قبض على انسان كان يسعى بالناس ويكتب فيهم السعايات فأطال حبسه ، فحضر بعض أصحابه وشفع فيه ، وبذل عنه عشرة الاف دينار ، فقال : أنا أعطيك عشرة الاف دينار وتحضر لي انسانا آخر مثله أحبسه لاكف شره عن الناس ولم يطلقه .

فصل في ذكر ملك نور الدين الموصل وغيرها من البلاد الجزرية وتقرير الموصل على سيف الدين غازي

لما بلغ نور الدين وفاه أخيه قطب الدين رضي الله عنهما ، وملك ولده سيف الدين بعده . واستيلاء فخر الدين عبد المسيح واستبداده بالامور وحكمه على سيف الدين غازي ، انف لذلك وكبر لديه وشق عليه ، وكان يبغض فخر الدين لما يبلغه من خشونته على الرعية والمبالغة في إقامة السياسة ، وكان رحمه الله لينا رفيقا عادلا ، فقال: أنا أولى بتدبير بني اخي وملكهم ، ثم سار من وقته فعبر الفرات عند قلعة جعبر مستهل محرم سنة ست وستين وقصد الرقة ، فامتنع النائب بها شيئا من الامتناع ، ثم سلمها على شيء اقترحه ، فاستولى نور الدين عليها وقرر امورها .
وسار الى الخابور فملكه جميعه .

ثم ملك نصيبين واقام بها يجمع العسكر ، فإنه كان قد سار جريدة ، فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن

وديار بكر ، واجتمعت عليه العساكر فكان قد ترك اكثر عسكره بالشام لحفظ ثغوره واطرافه من الفرنج وغيرهم فلما اجتمعت العساكر سار إلى سنجار فحصرها وأقام عليها ونصب المجانيق ، وكان بها عسكر كثير من الموصل ، فكاتبه عامة الامراء الذين بالموصل يحثونه على السرعة إليهم ليسلموا البلد إليه وأشاروا بترك سنجار فلم يقبل منهم ، وأقام حتى ملك سنجار وسلمها إلى عماد الدين زنكي ابن اخيه قطب الدين . ثم سار إلى الموصل فاتى مدينة بلد ، وعبر دجلة في مخاضة عندها إلى الجانب الشرقي ، وسار فنزل شرقي الموصل على حصن نينوى ، ودجلة بينه وبين الموصل . ومن العجب أنه يوم نزوله سقط من سورالموصل بدنة كبيرة . وكان فخر الدين قد سير المولى عز الدين مسعود بن أتابك قطب الدين رضي الله عنهما إلى أتابك شمس الدين إيلدكز صاحب بلاد الجبل ، وأذربيجان ، وأران وغيرها يستنجده ، فأرسل أيلدكز رسولا إلى نور الدين ينهاه عن قصد الموصل ، ويقول : إن هذه البلاد للسلطان ولا سبيل لك إليها ، فلم يلتفت نور الدين إلى رسالته ـ وكان بسنجار ـ فسار إلى الموصل ، وقال للرسول : قل لصاحبك ، أنا أرفق ببني اخي منك فلم تدخل نفسك بيننا ، وعند الفراغ من إصلاحهم يكون الحديث معك على باب همذان ، فإنك قد ملكت نصف بلاد الاسلام وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها ، وقد بليت أنا وحدي بأشجع الناس ، الفرنج ، فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم ، فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه ، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت من بلاد الاسلام وإزالة الظلم عن المسلمين ، فعاد الرسول بهذا الجواب .

وحصر نور الدين الموصل فلم يكن بينهم قتال ، وكان هوى كل من بالموصل من جندي وعامي معه لحسن سيرته وعدله ، وكاتبه الامراء يعلمونه أنهم على الوثوب بفخر الدين وتسليم البلد إليه ، فلما علم فخر الدين ذلك ، راسله في الصلح والدخول في طاعته ، وإبقاء الموصل على سيف الدين ، ويطلب لنفسه الامان وإقطاعا يكون له ، فأجابه إلى ذلك ، وقال : لا سبيل إلى مقامك في الموصل بل

تكون عندي بالشام ، فإني لم آت لآخذ البلاد من أولادي ، إنما جئت لأخلص الناس منك ، وأتولى أنا تربية أولادي ، فاستقرت القاعدة على ذلك ، وسلمت الموصل إليه ، فدخلها ثالث عشر جمادى الاولى من سنة ست وستين وخمسمائة ، وسكن القلعة . وأقر سيف الدين غازي على الموصل ، وولى بقلعتها خادما له يقال له سعد الدين كمشتكين وجعله دزدارا فيها ، وقسم جميع ما خلفه أخوه أتابك قطب الدين بين أولاده بمقتضى الفريضة .

ولما كان يحاصر الموصل جاءته خلعة الامام المستضيء بأمر الله فلبسها ، فلما دخل الموصل خلعها على سيف الدين .

وأطلق المكوس جميعها من الموصل وسائر ما فتحه من البلاد ، وأمر ببناء الجامع النوري فبني ، وأقيمت الصلاة فيه سنة ثمان وستين وخمسمائة .

وأقام بالموصل نحو عشرين يوما وسار إلى الشام ، فقيل له : إنك تحب الموصل والمقام بها ونراك أسرعت العود . فقال : قد تغير قلبي فيها ، فإن لم أفارقها ظلمت ، ويمنعني أيضا أنني (ههنا)(١١٦) لاأكون مرابطا للعدو وملازما للجهاد .

ثم أقطع نصيبين والخابور للعساكر ، وأقطع جزيرة ابن عمر لسيف الدين غازي ابن أخيه مع الموصل ، وعاد إلى الشام ومعه فخر الدين عبد المسيح ، فغير اسمه وسماه عبد الله ، وأقطعه إقطاعا كثيرا .

ذكر غزوة إلى بلد أنطاكية وطرابلس الشام

في سنة سبع وستين وخمسمائة ، خرجت مراكب من مصر إلى الشام ، فأخذ الفرنج الذين في لاذقية مركبين منها مملوءين من الامتعة والتجار وغدروا بالمسلمين ، وكان نور الدين قد هادنهم

فذكاثوا ، فلما سمع نور الدين الخبر إستعظمه ، وراسل الفـرنج في اعادة ما أخذوه فغالطوه ، واحتجوا بأمور منهـا : أن المركبين كانا قد دخلهما ماء البحر لكسر فيهما ، وكانت العـادة بينهـم أخـذ كل مركب يدخله الماء ، وكانوا كاذبين ، فلم يقبل مغالطتهم . وكان رضي الله عنه لايهمل أمرا من أمـور رعيتـه فلم يردوا شـيئا ، فجمـع العساكر من الشام والموصل والجزيرة وبـث السرايا في بـلادهم ، بعضهم نحو انطاكية وبعضهم نحو طرابلس ، وحصر هـو حصـن عرقة وخرب ربضه ، وأرسل طائفة من العساكر إلى حصني صافيتا وعريمة فـأخذهما عنوة وكذلك غيرهمـا ، ونهـب وخـرب ، وغنم المسلمون الكثير وعادوا اليه وهو بعرقة ، فسار في العساكر جميعها الى قريب طرابلس يخرب ويحرق وينهب .

وأما الذين ساروا الى أنطاكية ، فانهم فعلوا في ولايتها مثل مـا فعل من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس ، فراسله الفرنج وبذلوا اعادة ماأخذوه من المركبين ، وتجدد معهم الهـدنة فـأجابهم الى ذلك فكانوا في ذلك كما يقال ، اليهودي لايعـطي الجـزية حتـى يلطم ، وكذلك الفرنج ماأعادوا أمـوال التجـار بـالتي هـي أحسن ، فلما نهبت بلادهم وخربت أعادوها .

نادرة غريبة في زماننا هذا

قد علم الناس قلة الأمانه ـ ء الأ ... ر بل عدمها ، فلما أخـذ الفرنج هذين المركبين ، كان لوالدي فيهما تجارة مع شخصين فلما أعادوا الى الناس أمـوالهم لم يصـل الى كل انسـان الا اليسير ، وكان يحمل المتاع الى نور الدين ويحضر التجار ، فكل من اسمه على ثوب أخذه ، وكان في الناس من يأخذ ماليس له ، فـكان أحد هذين المضاربين فيه أمـانة ـ وكان نصرانيا ـ فلم يأخـذ الا ماعليه اسمه وعلامته ، فذهب مـن مـاله ومـالنا كثير بهـذا السبب ، وكان الذي حصل له من مالنا أكثر من الذي له ، فلما عاد

إلينا سلم الذي له إلى والدي ، فامتنع مــن أخــذه وقــال خــذ أنت الجميع فإنك أحوج اليه ، وأنا في غنى عنه ، فلم يفعل ، فلمــا كان بعض الأيام ، واذا قد جاء ذلك الغــلام ومعــه عدة مــن الأثــواب السوسي وغيرها ، وقال : هذا من قماشنا قد حضر اليوم ، وسبب حضوره أن انسانا فقاعيا (١١٧) مــن أهــل تبــريز كان معنا في المركب ، وقد أعادوا عليه ماله ، فرأى هذه الأثواب واسمي عليها ، فلم يسهل عليه مردها ، وسأل عني وقصدني وهــي معــه ، وحضر عندي الساعة وسلمها الي ، وقال : قــد تــركت طــريقي لتبــرأ ذمتي ، وأخذنا نحن مــا عليه اســمنا بعــد الجهــد ، وطلب والدي الرجل ، وســأله ان يقيم عندنا ليســلم اليه مــالا يتجــر فيه فلم يفعل ، وعاد الى بلده وهذان الرجلان نادران في هذا الزمان .

ذكر انقراض الدولة العلوية بمصر واقامة الخطبة العباسية بها

في المحرم من سنة سبع وستين وخمسمائة ، قطعت خطبة العاضد لدين الله العلوي صاحب مصر ، وخطب فيها للامام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين .

وكان السبب في ذلك أن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، لما ثبت قدمه في مصر ، وزال المخالفون له ، وضعف أمر الخليفة بها ، العاضد ، ولم يبق من العساكر المصرية أحد ، كتب اليه الملك العادل نور الدين محمود ، يأمره بقطع الخطبة العاضدية ، واقامة الخطبة العباسية ، فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب اهل مصر ، وامتناعهم من الاجابة الى ذلك لميلهم الى العلويين ، فلم يصغ نور الدين الى قوله ، وأرسل اليه يلزمه بذلك الزاما لا فسحة له فيه ، واتفق ان العاضد مرض - وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة له - فاستشار امراءه كيف الابتداء بالخطبة العباسية ، فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها ، ومنهم من خاف ذلك ، الا أنه لم يمكنه الا امتثال امر نور الدين ، وكان قد دخل الى مصر انسان عجمي يعرف بالأمير العالم - وقد رأيناه بالموصل كثيرا - فلما رأى ماهم فيه من الاحجام ، قال : أنا أبتدىء بها ، فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بأمر الله فلم ينكر أحد فلما كان الجمعة الثانية ، أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد واقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله ، ففعلوا ذلك ، ولم ينتطح فيها عنزان ، وكتب بذلك الى سائر الديار المصرية .

وكان العاضد قد اشتد مرضه ، فلم يعلمه أهله وأصحابه

بذلك ، وقالوا : ان سلم فهو يعلم ، وان توفي فلا ينبغي ان ننغص عليه هذه الأيام التي بقيت من أجله ، فتوفي يوم عاشوراء ، ولم يعلم .

ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء ، واستولى على قصره وعلى جميع مافيه ، وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد ، بهاء الدين قراقوش - وهو خصي - لحفظه وجعله كأستاذ دار العاضد ، فحفظ مافيه حتى تسلمه صلاح الدين ، ونقل اهل العاضد الى مكان منفرد ووكل بحفظهم وجعل اولاده وعمومته وأبناءهم في ايوان في القصر وجعل من يحفظهم ، وأخرج من كان بالقصر من العبيد والاماء ، فأعتق البعض ووهب البعض وباع البعض ، وأخلى القصر من أهله وسكانه ، فسبحان من لايزول ملكه ولايغيره ممر الأيام وتعاقب الدهور .

ولما اشتد مرض العاضد ارسل يستدعي صلاح الدين ، فظن أن ذلك خديعة فلم يمض اليه ، فلما توفي علم صدقه ، فندم على تخلفه عنه .

وكان ابتداء الدولة العلوية بافريقية والمغرب في ذي الحجة من سنة تسع وتسعين ومائتين ، وأول من ظهر منهم ، المهدي ابو

محمد عبد الله وهو (الذي) بنى المهدية وملك إفريقية جميعها ، وقام بالأمر بها بعده ، ابنه القائم بأمر الله ابو القاسم محمد ، ثم ابنه المنصور بالله أبو الطاهر اسماعيل بن محمد ، ثم ابنه المعز لدين الله أبو تميم معد - وهو الذي سير العساكر الى مصر مع مولاه جوهر ، ففتحها وملكها في شعبان من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وبنى القاهرة - وخرج المعز من إفريقية ، فأقام بمصر وأولاده بعده الى أن انقرضت دولتهم الآن ، فكانت مدة دولتهم مائتي سنة وستا وستين سنة ، وكان مقامهم بمصر مائتي سنة وثمان سنين ، وملك منهم أربعة عشر خليفة ، وهم : المهدي ،

والقائم بأمر الله ، والمنصور بالله ، والمعز لدين الله ثم ابنه العـزيز بالله ، ثم الحاكم بـأمر الله ، ثـم الظـاهر لاعزاز دين الله ، ثـم المستنصر بالله ، ثم المستعلي بالله ، ثم الآمـر بـأحكام الله ، ثـم الحافظ لدين الله ، ثم الظافر بالله ، ثـم الفـائز بنصر الله ، ثـم العاضد لدين الله ، وهو آخرهم ، ولقد اتينا على ذكر ماأجملناه في المستقصى في التاريخ ، وانما نذكر ههنا ماتدعو الحاجة اليه .

ولما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره ، اختـار منه ماأراد ووهب أهله وأمراءه وباع منه كثيرا وكان فيه من الجوهر والاعلاق النفيسة مالم يكن عند ملك من الملوك ، قد جمع على طـول السنين وممر الدهور ، فمنه : القضيب الزمرد طوله نحـو قبضـة ونصف ، والجبل الياقوت وغيرهما ، ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد .

ولما خطب للمسـتضيء بـأمر الله بمصر ، ارسـل نور الدين اليه يعرفه ذلك ، فحل عنده أعظم محل ، وسـير اليه الخلع الكاملة مـع عماد الدين صندل المقتفوي اكراما له ، لأن عماد الدين كان كبيرا في المحل في الدولة العباسية ثبتهـا الله تعـالى ، وكذلك ايضـا خلعـا لصلاح الدين ، الا أنها أقل مـن خلع نور الدين ، وسـيرت الاعلام السود لتنصب على المنابر ، وكانت هـذه أول هبـة عباسية دخلت مصر بعد استيلاء العلويين عليها .

-٦٥٤٩-

ذكر الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين باطنا

وفي سنة سبع وستين ايضا ، جرى ماأوجب نفرة نور الدين من صلاح الدين وكان الحادث أن نور الدين ارسل الى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها الى بلد الفرنج ، والنزول على الكرك ومحاصرته ، ليجمع هو ايضا عساكره ويسير اليه ، ويجتمعا هناك على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم ، فبرز صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرم ، وكتب الى نور الدين يعرفه ان رحيله لايتأخر ، وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز ، وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو ، فلما أتاه الخبر بذلك ، رحل عن دمشق عازما على قصد الكرك فوصل اليه ، وأقام ينتظر وصول صلاح الدين اليه ، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول اليه باختلال البلاد ، وأنه يخاف عليها مع البعد عنها فعاد اليها ، فلم يقبل نور الدين عذره .

وكان سبب تقاعده أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده ، وعزم على الدخول الى مصر واخراج صلاح الدين عنها ، فبلغ الخبر الى صلاح الدين ، فجمع أهله وفيهم والده نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الأمراء ، وأعلمهم مابلغه من عزم نور الدين قصده وأخذ مصر منه ، فاستشارهم فلم يجبه أحد منهم بشيء ، فقام تقي الدين عمر – ابن أخي صلاح الدين – وقال : اذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن البلاد ، ووافقه غيره من أهله فشتمهم نجم الدين ايوب وأنكر ذلك واستعظمه – وكان ذا رأي ومكر وعقل – وقال لتقي الدين : اقعد وسبه ، وقال لصلاح الدين : أنا أبوك ، وهذا شهاب الدين

خالك ، أتظن أن في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا ؟ فقال : لا ، فقال : والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لم يمكننا الا أن نترجل له ونقبل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا ، فاذا كنا نحن هكذا ، كيف يكون غيرنا ، فكل من تراه من الأمراء والعساكر ، لو رأى نور الدين وحده ، لم يتجاسر على الثبات على سرجه ولا وسعه الا النزول وتقبيل الأرض بين يديه ، وهذه البلاد له وقد أقامك فيها ، وان أراد عزلك فأي حاجة له الى المجيء ، يأمرك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ويولي بلاده من يريد .

وقال للجماعة كلهم : قوموا عنا ، فنحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا مايريد ، فتفرقوا على هذا ، وكتب اكثرهم الى نور الدين بالخبر ، ولما خلا ايوب بابنه صلاح الدين ، قال له : أنت جاهل قليل المعرفة ، تجمع هذا المجمع الكثير وتطلعهم على مافي نفسك ، فاذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه عن البلاد ، جعلك أهم الامور اليه وأولاها بالقصد ، ولو قصدك لم تر معك أحدا من هذا العسكر ، وكانوا اسلموك اليه ، وأما الآن بعد هذا المجلس ، فسيكتبون اليه ويعرفونه قولي ، وتكتب أنت اليه وترسل في المعنى وتقول : اي حاجة الى قصدي ، يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي ، فهو اذا سمع هذا عدل عن قصدك ، واشتغل بما هو أهم عنده ، والأيام تندرج والله كل وقت في شأن ، ففعل صلاح الدين ماأشار به والده ، فلما رأى نور الدين الأمر هكذا ، عدل عن قصده ، وكان الأمر كما قال نجم الدين ، وتوفي نور الدين ولم يقصده ولا أزاله ، وهذا كان من أحسن الآراء وأجودها .

في ذكر اتخاذ نور الدين حمام الهوادي

وفي سنة سبع وستين ، أمر الملك العادل نور الدين باتخاذ الحمام

الهوادي ، وهي المناسيب التـي تـطير مـن البـلاد البعيدة الى أوكارها ، واتخذت في سائر بلاده .

وكان سبب ذلك انه اتسعت بلاده وطالت مملكته ، فكانت من حد النوبة الى باب همذان ، لايتخللها سوى بلاد الفرنج وكان الفـرنج لعنهم الله ربما نازلوا بعض الثغور ، فالى ان يصل الخبر ويسـير اليهم يكونوا قد بلغوا بعض الغرض ، فحينئذ أمر بذلك ، وكتب بـه الى سائر البلاد وأجرى الجرايات لها ولمربيها ، فوجد بهـا راحـة كثيرة ، كانت الأخبار تأتيه لوقتها ، فإنه كان له في كل ثغـر رجـال مرتبون ومعهم من حمـام المدينة التـي تجـاورهم ، فـاذا رأوا أو سمعوا أمرا ، كتبوه لوقته وعلقوه على الطائر وسرحوه ، فيصـل الى المدينة التي هو منها في ساعته ، فتنقل الرقعة منه الى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين ، وهـكذا الى أن تصل الأخبار اليه ، فانحفظت الثغور بذلك حتى ان طـائفة مـن الافرنج نازلوا ثغرا له ، فأتاه الخبر ليومه ، فـكتب الى العسـاكر المجـاورة لذلك الثغـر بـالاجتماع والمسـير بسرعة وكبس العدو ، ففعلوا ذلك ، فـظفروا والفـرنج آمنون ، لبعـد نور الدين عنهم ، فـرحمه الله ورضي عنه ، مـاكان أحسـن نظـره للرعايا والبلاد .

ذكر قصد نور الدين الشهيد بلاد قلج أرسلان

في سنة ثمان وستين وخمسمائة ، سار نور الدين نحو ولاية الملك عز الدين قلج ارسلان بن مسعود بـن قلج ارسـلان بـن سـليمان السلجقي ، وهي ملطية وسيواس وقونية ، وأقصرا ، عازمـا على حربه وأخذ بلاده منه .

وكان سـبب ذلك ، أن ذا النون بـن دانشـمند صـاحب ملطية وسيواس وغيرهما من البلاد ، قصده قلج ارسـلان وأخـذ بـلاده

وأخرجه عنها طريدا ، فسار الى نور الدين مستجيرا به وملتجئا الى ظله ، فأكرم نزله وأحسن اليه ، وحمل له مايليق أن يحمل إلى الملوك ، ووعده النصرة والسعي في رد ملكه إليه ، وكانت عادة نور الدين أنه لايقصد ولاية أحد من المسلمين الا ضرورة ، إما ليستعين بها على قتال الفرنج ، أو للخوف عليها منهم ، كما فعل بدمشق ومصر وغيرهما ، فلما قصده ذو النون ، راسل قلج ارسلان وشفع اليه في اعادة ماغلب عليه من بلاده فلم يجبه الى ذلك ، فسار نور الدين نحوه ، فابتدأ بحصني بهسنا ، ومرعش فملكهما ومابينهما من الحصون ، وسير طائفة من عسكره الى سيواس فملكوها وكان قلج ارسلان لما بلغه قصد نور الدين بلاده ، قد سار من أطرافها التي تلي الشام الى وسطها ، خوفا وفرقا ، وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح والصفح عنه ، فتوقف نور الدين عن قصده رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب ، فأتاه عن الافرنج ماأزعجه فأجابه الى الصلح وكان في جملة رسالة نور الدين اليه : انني اريد منك أمورا وقواعد ، ومهما تركت منها فلا اترك ثلاثة اشياء : أحدهما أنك تجدد اسلامك على يد رسولي حتى يحل لي اقرارك على بلاد الاسلام ، فانني لاأعتقدك مؤمنا - وكان قلج أرسلان يتهم باعتقاد مذهب الفلاسفة - والثاني ، اذ طلبت عسكرا الى الغزاة تسيره ، فانك قد ملكت طرفا كبيرا من بلاد الاسلام وتركت الروم وجهادهم وهادنتهم .

فاما أن تنجدني بعسكر لاقاتل بهم الافرنج وأما أن تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوسع في جهادهم والثالث ان تزوج ابنتك بسيف الدين غازي ولد أخي ، وذكر أمورا غيرها ، فلما سمع قلج أرسلان الرسالة قال : ماقصد نور الدين الا الشناعة علي بالزندقة ، وقد اجبته الى ماطلب أنا أجدد اسلامي على يد رسوله ، واستقر ذي الذون، فبقي العسكر بها الى أن مات نور الدين ، فرحل العسكر عنها وعاد قلج ارسلان وملكها .

-٦٥٥٣-

ذكر وفاة الملك العادل نور الدين بن عماد الدين زنكي

توفي الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر بدمشق ، يوم الأربعاء حادي عشر شوال من سنة تسع وستين وخمسمائة ، بعلة الخوانيق ، ودفن بقلعة دمشق ، ثم نقل عنها الى المدرسة التي أنشأها بدمشق عند سوق الخواصين .

وكان قد شرع يتجهز للمسير الى مصر لأخذها من صلاح الدين ، فانه رأى منه فتورا في غزو الفرنج من ناحيته ، فأرسل الى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر ليتركها في الشام تمنعه من الفرنج ، ليسير هو بعساكره الى مصر وكان المانع لصلاح الدين من الغزو خوف نور الدين ، فانه كان يعتقد أن نور الدين متى زال الفرنج من طريقه أخذ البلاد منه ، فكان يحتمي : بهم عليه ولايؤثر استئصالهم ، وكان نور الدين لايرى إلا الجد في غزوهم بجهده وطاقته ، فلما رأى إخلال صلاح الدين بالغزو وعلم غرضه ، تجهز للمسير اليه ، فأتاه أمر الله الذي لايرد .

حكى لي طبيب دمشقي يعرف بالرحبي – وهو من حذاق الأطباء –قال : استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الأطباء ، فدخلنا عليه – وهو في بيت صغير بقلعة دمشق – وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته ، فكان يخلو فيه للتعبد في أكثر أوقاته فابتدأ به المرض فيه فلم ينتقل عنه ، فلما دخلنا اليه ورأينا مابه ، قلت له : كان ينبغي أن تنتقل عن هذا الموضع الى مكان فسيح فله اثر في هذا المرض ، وشرعنا في علاجه فلم ينجع فيه الدواء وعظم الداء ، ومات عن قريب رضي الله عنه .

وكان أسمر ، طويل القامة ، ليس له لحية الا في حنكه ، وكان واسع الجبهة ، حسن الصورة حلو العينين .

- ٦٥٥٤ -

ولما توفي كان قد اتسع ملكه جدا ، فملك الموصل ، وديار الجزيرة ، وأطاعه أصحاب ديار بكر ، وملك الشام ، والديار المصرية ، وأمر بمسير جند من مصر الى اليمن فساروا - ومقدمهم شمس الدولة بن أيوب أخو صلاح الدين - فملكها ، وخطب له بالحرمين مكة والمدينة ، وكان مولده تاسع عشر شوال من سنة احدى عشرة وخمسمائة ، وطبق ذكره الأرض لحسن سيرته وعدله ، وأنا أذكر من حاله ماتعلم أن الله تعالى كمله ، وأنه لم يكن مثله الا الشاذ النادر .

في ذكر ولاية ابنه الصالح اسماعيل رضي الله عنه

لما توفي نور الدين ، جلس ابنه الملك الصالح اسماعيل في الملك ولم يبلغ الحلم ، وحلف له الأمراء والمقدمون بدمشق وأقام بها ، وأطاعه الناس في سائر بلاد الشام وصلاح الدين بمصر ، وخطب له بها ، وضرب السكة باسمه فيها ، وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن المقدم .

وحكى لي البقة قتلغ الكمالي ، قال : لما توفي نور الدين قال صاحبي كمال الدين (محمد الشهرزوري) للأمراء ومنهم شمس الدين بن المقدم وحسام الدين الحسين بن عيسى الجراحي وغيرهما من أكابر الأمراء : قد علمتم ان صلاح الدين من مماليك نور الدين وذوابه ، والمصلحة نشاوره فيما نفعله ، ولانخرجه من بيننا فيخرج عن طاعة الملك الصالح ويجعل ذلك حجة علينا ، وهو أقوى منا لأن له مثل مصر ، وربما أخرجنا وتولى هو خدمة الملك الصالح ، فلم يوافق اغراضهم هذا القول ، وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجون ، قال : فلم يمض غير قليل حتى وصلت كتب صلاح الدين الى الملك الصالح يهنئه بالملك ويعزيه بأبيه ، وأرسل دنانير مصرية عليها اسمه ، ويعرفه ان الخطبة له والطاعة كما كانت لوالده ، فلما سار سيف الدين غازي ابن عمه قطب الدين

وملك الديار الجزرية ، ولم يرسل من مع الملك الصالح من الأمراء الى صلاح الدين ولاأعلموه الحال ، كتب الى الملك الصالح يعتبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده ليحضر في خدمته ويكفه ، وكتب الى كمال الدين والى الأمراء يقول : ان الملك العادل ، لو علم أن فيكم من يقوم مقامي أو يثق اليه مثل ثقته بي ، لسلم اليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته ، ولو لم يعجل عليه الموت ، لم يعهد الى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته سواي ، وأراكم قد تفردتم بخدمة مولاي دوني ، وسوف أصل الى خدمته ، وأجازي انعام والده بخدمة يظهر أثرها ، وأقابل كلا منكم على سوء صنيعه واهمال أمر الملك الصالح ومصالحه حتى أخذت بلاده ، فقال لهم كمال الدين : هذا الذي كنت حذرتكم ، فأقام الملك بدمشق ومعه جماعة من الأمراء ولم يمكنوه من المسير الى حلب لئلا يغلبهم عليه شمس الدين علي بن الداية ، فانه كان أكبر الأمراء النورية ، وانما تأخر عن خدمة الملك الصالح بعد وفاة نور الدين لمرض لحقه ، وكان هو وأخوته بحلب ، وأمرها اليهم ، وعساكرها معهم في حياة نور الدين وبعده ، ولما عجز عن الحركة ، أرسل إلى الملك الصالح يدعوه الى حلب ليمنع البلاد من سيف الدين ابن عمه ، وارسل الى كمال الدين والأمراء يقول لهم : إن سيف الدين قد ملك الى الفرات ، ولئن لم ترسلوا الملك الصالح الى حلب ، حتى يستجمع العساكر ويسترد ماأخذه منه ، والا عبر سيف الدين إلى حلب ، ولاأقوى على منعه ، فلم يرسلوه ولامكنوه من قصد حلب ، فكان من سيف الدين في ملك البلاد الجزرية ماأذكره ان شاء الله تعالى .

في ذكره بعض سيرة الملك العادل نور الدين محمود رضي الله عنه

قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه الى يومنا هذا ، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ، ملكا

أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولاأكثر تحريا العدل والانصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره ، وجهاد يتجهز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها واحسان يوليه ، وانعام يسديه ، وقد تقدم من أحواله في مملكته مايستدل به على ماذكرنا ونحن نذكر ههنا مايعلم به محله في أمر دنياه وأخراه ، فلو كان في أمة لافتخرت به ، فكيف في بيت واحد .

فأما زهده وعبادته فانه كان مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده وأموالها ، لايأكل ولايلبس ولايتصرف فيما يخصه ، الا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين ، أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ مايحل له من ذلك ، فأخذ ماأفتوه بحله ولم يتعده الى غيره ألبتة ، ولم يلبس قط ماحرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة ، ومنع من شرب الخمر وبيعها في جميع بلاده ، ومن ادخالها الى بلد ما ، وكان يحد شاربها الحد الشرعي ، وكل الناس عنده فيه سواء .

حدثني صديق لنا بدمشق كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين أنر زوجة نور الدين ووزيرها ، قال : كان نور الدين اذا جاء اليها يجلس في المكان المختص به ، وتقوم في خدمته لاتتقدم إليه إلا أن يأذن لها في أخذ ثيابه عنه ، ثم تعتزل عنه الى المكان الذي يختص بها ، وينفرد هو تارة يطالع رقاع اصحاب الاشغال ، أو مطالعة كتاب أتاه ويجيب عنه وكان يصلي فيطيل الصلاة ، وله أوراد في النهار فاذا جاء الليل وصلى العشاء نام ، ثم يستيقظ نصف الليل ويقوم الى الوضوء والصلاة والدعاء الى بكرة ، ثم يظهر للركوب ويشتغل بمهام الدولة قال : وإنها قلت عليها النفقة ، ولم يكفها ماكان قد قرره لها فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها فلما قلت له تنكر واحمر وجهه ، ثم قال : من أين أعطيها ، أما يكفيها مالها ؟! والله لاأخوض نار جهنم في هواها ، ان كانت تظن أن الذي بيدي من الاموال هي لي فبئس الظن ، إنما هي أموال المسلمين ومرصدة لمصالحهم ، ومعدة لفتق ان كان من عدو

الاسلام ، وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها ثم قال : لي بمـدينة حمص ثلاث دكاكين ملكا قد وهبتها إياها فلتـأخذها، قـال: وكان يحصل منها قدر قليل .

وكان رحمه الله لايفعل فعلا الا بنية حسنة ، كان رجل بالجزيرة من الصـالحين كثير العبـادة والورع ، شـديد الانقـطاع عن الناس ، وكان نور الدين يكاتبـه ويرجـع الى قـوله ويعتقـد فيه حسنا ، فبلغه أن نور الدين يدمن اللعب بالكرة ، فـكتب اليه يقـول له : ماكنت أظن أنك تلهـو وتلعـب وتعـذب الخيل لغير فـائدة دينية ، فكتب اليه نور الدين بخط يده يقول له : والله ماحملني على اللعب بالكرة ، اللهو والبطر ، وانما نحـن في ثغـر والعـدو قـريب منا ، وبينمـا نحـن جلوس اذ يقـع الصـوت فنركب في الطلب ، ولايمكننا أيضا مـلازمة الجهـاد ليلا ونهـارا ، شـتاء وصيفا ، اذ لابد من الراحة للجند ، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماما لاقدرة لها على ادمان السير في الطلب ، ولامعرفة لها أيضا بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعـركة ، فنحـن نركبهـا ونروضها بهذا اللعب ، فيذهب جمـامها وتتعـود سرعة الانعـطاف والطاعة لراكبها في الحرب ، فهذا والله هو الذي يبعثني على اللعب بالكرة .

فانظر الى هـذا الملك المعـدوم النظير ، الذي يقـل في اصـحاب الزوايا المنقطعين الى العبادة مثله ، فإن من يجيء إلى اللعب ويفعله بنية صالحة ، حتى يصير من أعظم العبادات وأكثر القربات ، يقـل في العـالم مثله، وفيه دليل على أنه كان لايفعـل شـيئا الا بنية صالحة ، وهي افعال العلماء الصالحين العاملين .

وحكي لي عنه ، انه حمل اليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة فلم يحضرها عنده ، فوصفت له فلم يلتفت اليها ، وبينما هم معه في حديثها ، واذا قد جاءه رجل صوفي فأمر بها له ، فقيل : انها لاتصلح لهذا الرجـل ، ولو أعطـي غيرهـا لكان انفـع

له ، فقال : اعطوها له ، فاني أرجو أن أعوض عنها في الآخرة ، فسلمت اليه ، فسار بها الى بغداد فباعها بستمائة دينار اميري أو سبعمائة دينار ، أنا أشك أنها كانت تساوي اكثر .

وحكى لنا الأمير بهاء الدين علي بن الشكري رحمه الله تعالى — وكان خصيصا لخدمته قد صحبه من الصبا وأنس به وله معه انبساط — قال : كنت معه يوما في الميدان بالرها نسير والشمس في ظهورنا ، فكلما سرنا تقدمنا ظلنا ، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا ، فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه ، فقال لي : اتدري لأي شيء أجري فرسي وألتفت ورائي ؟ قلت : لا ، قال : قد شبهت مانحن فيه بالدنيا ، تهرب ممن طلبها وتطلب من هرب منها ، وكان رحمه الله يصلي كثيرا من الليل ، ويدعو ويستغفر ويقرأ ، ولايزال كذلك الى أن يركب .

جمع الشجاعة والخشوع لربه
ماأحسن المحراب في المحراب

وكان عارفا بالفقه على مذهب الأمام ابي حنيفة ، وليس عنده تعصب بل الانصاف سجيته في كل شيء، وسمع الحديث وأسمعه طلبا للأجر ، وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للملوك اتباع سنة العدل ، والانصاف ، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك ، فانهم كانوا قبله كالجاهلية ، همة أحدهم بطنه وفرجه ، لايعرف معروفا ولاينكر منكرا . حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه ، وألزم بذلك اتباعه وذويه ، فاقتدى به غيره منهم ، واستحيوا أن يظهر عنهم ماكانوا يفعلونه ، ومن سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، فإن قال قائل : كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة وتجبى إليه الأموال الكثيرة ؟ فليذكرني الله سليمان بن داود عليه السلام مع ملكه ، وهو سيد الزاهدين في زمانه ، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد حكم على حضرموت ، واليمن

- ٦٥٥٩ -

والحجاز وجزيرة العرب جميعها من حدود الشام الى العراق ، وهو على الحقيقة سيد الزاهدين ، وانما الزهد خلو القلب من محبة الدنيا لاخلو اليد عنها .

وأما عدله

فانه كان من أحسن الملوك سيرة ، وأعد لهم حكما ، فمن عدله أنه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة لامكسا ولاعشرا ، بل اطلقها جميعها في بلاد الشام ، والجزيرة جميعا والموصل وأعمالها وديار مصر وغيرها مما حكم عليه ، وكان المكس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون دينارا ، فأطلقها ، وهذا لم تتسع له نفس غيره ، وكان يجري العدل ، وينصف المظلوم من الظالم كائنا من كان ، القوي والضعيف عنده في الحق سواء ، فكان يسمع شكوى المظلوم ، ويتولى كشف حاله بنفسه ، ولايكل ذلك الى حاجب ولاأمير فلا جرم أن سار ذكره في شرق الأرض وغربها .

ومن عدله

أنه كان يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها ، ويقول : نحن شحن لها نمضي أوامرها فمن اتباعه أحكامها أنه كان يوما يلعب بالكورة بدمشق ، فرأى انسانا يحدث آخر ويومىء بيده اليه ، فأرسل اليه يسأله عن حاله ، فقال : لي مع الملك العادل خصومة وهذا غلام القاضي ليحضره الى مجلس الحكم يحاكمني على الملك الفلاني ، فعاد اليه ولم يتجاسر يعرفه ماقال ذلك الرجل وغالطه ، فلم يقبل منه غير الحق ، فذكر له قوله ، فألقى الجوكان من يده ، وخرج من الميدان وسار الى القاضي يقول : إنني قد جئت محاكما ، فأسلك معي ماتسلكه مع

غيري ، فلما حضر ساوى بينه وبين خصمه وحاكمه ، فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين ، فقال نورالدين حينئذ للقاضي ولمن حضر : هل ثبت له عندي حق ؟ فقالوا : لا فقال : اشهدوا انني قد وهبت له هذا الملك الذي حاكمني عليه ، وقد كنت أعلم أنه لاحق له عندي وانما حضرت معه لئلا يظن أنني ظلمته ، فحيث ظهر ان الحق لي وهبته وهذا غاية العدل والانصاف بل غاية الاحسان وهي درجة وراء العدل ، فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة الى الحق ، الواقفة معه .

قال صاحب التاريخ : ومن عدله قدس روحه ونور ضريحه من نور فسيحه ، أنه لم يكن يعاقب العقوبة التي جرت بها عادة الملوك في هذه الأعصار على الظنة والتهمة ، بل يطلب الشهود على المتهم ، فان قامت عليه البينة الشرعية، عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعد ، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر مايوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة والأخذ بالظنة وأمنت بلاده مع سعتها ، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر .

وحكي لي من أثق به ، أنه دخل يوما الى خزانة المال ، فرأى فيها مالا أنكره ، فسأل عنه فقيل :ان القاضي كمال الدين ارسله وهو من جهة كذا ، فقال ان هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء ، وأمر بإعادته إلى كمال الدين ليرده الى صاحبه ، فأرسله متولي الخزانة الى كمال الدين فرده إلى الخزانة مرة أخرى وقال : اذا سأل الملك العادل عنه ، فقولوا له عني ، انه له ، فدخل نور الدين الى الخزانة مرة أخرى فرآه ، فأنكر على النواب ، وقال : ألم أقل لكم يعاد هذا المال على اصحابه ، فذكروا له قول كمال الدين فرده اليه ، وقال للرسول : قل لكمال الدين : أنت تقدر على حمل هذا (المال) وأما أنا فرقبتي دقيقة لاأطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى ، يعاد قولا واحدا فأعاده .

وكان اذا حضر الحـــــرب ، أخـــــذ قـــــــــــوسين وتركشين (١١٩) وباشر القتال بنفســه ، وكان يقـول : طـالما تعرضت للشهادة فلم أرزقها ، ســمعه يومــا الامــام قــطب الدين النيسابوري ـ الفقيه الشافعي ـ وهو يقول ذلك ، فقال له : بالله لاتخاطر بنفسك وبالاسلام والمسلمين فإنك عمــادهم ، وإن أصــبت والعياذ بالله في معركة ، لايبقى مــن المســلمين أحــد إلا وأخـــذه السيف ، وأخذت البلاد ، فقال له : ياقطب الدين ، ومن محمــود حتى يقال له هذا ، قبلي من حفظ البلاد والاســلام ، ذلك الله الذي لا إله إلا هو .

وكان رحمه الله يكثر أعمال الحيل والمكر والخداع مــع الفـرنج خذلهم الله تعالى ، وأكثر ماملكه من بلادهم به ، ومــن جيد الرأي ماسلكه مع مليح بن ليون ملك الأرمن صاحب الدروب ، فانه مازال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفرا وحضرا ، وكان يقــاتل به الفرنج ، وكان يقول : إنمــا حملني على اســتمالته ، أن بــلاده حصينة وعرة المســالك ، وقــلاعه منيعــــة ، وليس لنا إليهــــا طريق ، وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الاسلام ، فاذا طلب انحجر فيها فلا يقدر عليه ، فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئا من الاقطاع على سبيل التــألف حتــــى أجـــاب إلى طــــاعتنا وخدمتنا ، وساعدنا على الفرنج وحين توفي نور الدين وسلك من بعد غير هذا الطريق ، ملك المتولي للأرمــن بعــد مليح كثيرا مــن بــلاد المسلمين وحصونهم ، وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لايمــكن رقعه .

ومن أحسن الآراء ماكان يفعله مع أجناده ، فإنه كان إذا توفي أحــــدهم وخلف ولدا ، أقــر الاقــطاع عليه ، فـــان كان الولد كبيرا ، استبد بنفسه ، وإن كان صغيرا رتب معه رجلا عاقلا يثــق إليه فيتولى أمره إلى أن يكبر ، فكان الأجناد يقولون ، هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد فنحــن نقـــاتل عنهــــا ، وكان ذلك ســـببا عظيما ، من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحــروب ، وكان

أيضـا يثبـت أسـماء أجناد كل أمير في ديوانه ، وسـلاحهم ودوابهم ، خوفا من أن حرص بعض الأمراء وشحه يحمله على أن يقتصر على بعض ماهو مقرر عليه من العدد ، ويقـول : نحـن كل وقت بصدد النفير ، فاذا لم يكن اجناد كافة الأمـراء كاملي العـدد والعدد ، دخل الوهن على الاسلام ، ولقد صدق رضي الله عنه فيمـا قال ، وأصاب فيما فعل فلقد رأينا ماخافه عيانا .

وأما مافعله من المصالح

الذي فعله من المصالح في بلاد الاسلام ممـا يعـود الى حفـظها وحفظ المسلمين فكثير عظيم ، ونحن نذكر طرفا منه ، فمن ذلك أنه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها ، فمنها : حلب ، حمـاة ، وحمص ، ودمشق ، وبارين ، وشيزر ، ومنبج وغيرها مـن القـلاع والحصون وحصنها ، وأحكم بناءها ، وأخرج عليها مـن الامـوال مالا تسمح به النفوس .

وبنى أيضـا المدارس بحلب ، وحمـاة ، ودمشـق ، وغيرهـا للشافعية والحنفية .

وبنى الجوامع في جميع البلاد ، فجامعه في الموصل إليه النهاية في الحسن والاتقان ، ومن أحسن ماعمل فيه ، أنه فوض أمر عمـارته والخرج عليه الى الشيخ عمر الملا رحمـه الله ـ وهـو رجـل مـن الصالحين ـ فقيل له : إن هذا لايصلح لمثل هذا العمل ، فقال : اذا وليت العمل بعض أصحابي مـن الأجناد والكتـاب أعلم انه يظلم في بعض الأوقات ، ولايفي الجامع بظلم رجل مسلم ، وإذا وليت هـذا الشـيخ غلب على ظني أنه لايظلم ، فإذا ظلم كان الأثـم عليه لاعلي ، وهذا هو الفقه في الخلاص من الظلم ، وبنى أيضا بمـدينة حماة جامعا على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأنزهها ، وجـدد في غيرها من عمارة الجوامع ماكان قد تهدم إما بزلزلة أو بغيرها .

ومن عدله ايضا بعد موته ـ وهـو أعجب مـايحكى عنه ـ أن انسانا كان بدمشق غريبا قد استوطنها وأقام بها لما رأى مـن عدل نور الدين ، فلما توفي وملكها صـلاح الدين ، كان اجناده وأمـراؤه يفعلون مايريدون ولايمنعهم ، فتعدى بعض الأجناد على هذا الرجل فشكاه، فلم ينصفه صلاح الدين ، فنزل من القلعة وهـو يسـتغيث ويبكي وقد شق ثوبه ، وهو يقول : يانور الدين ، لو رأيتنا ومانحن فيه من الظلم لرحمتنا ، اين عدلك عنا ، وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق مالايحصى ، وكلهم يبكي ويصـيح ، فـوصل الخبـر الى صـلاح الدين ، وقيل له : احفـظ البلد والرعية والا خـــرج عن يدك ، فأرسل الى ذلك الرجل ـ وهـو عند تـربة نور الدين يبـكي والناس معه ـ فطيب قلبه ، ووهبه (شيئا) وانصفة ، فبكى اشد من الأول ، فقال له صلاح الدين : لم تبـكي ؟ فقـال : أبـكي على سلطان عدل فينا بعد موته ، فقـال صـلاح الدين وهـذا هـو الحق ، وكل مايرى فينا من عدل فمنه تعلمناه .

فصل في ذكر بنائه دار العدل

رحمه الله وأسكنه فسيح جناته

كان الملك العـادل نور الدين رضي الله عنه ، أول مـن بنى دارا لكشف المظالم وسماها دار العدل ، وكان سبب بنائها ، أنه لما طال مقامه بدمشق وأقام بها أمراؤه وفيهم اسد الدين شيركوه ـ وهـو أكبر امير معه ، وقد عظم شأنه وعلا مكانه حتى صار كأنه شريك في الملك ـ واقتنوا الاملاك فأكثروا ،وتعدى كل واحد منهـم على مـن يجاوره في قرية أو غيرهـا ، فـكثرت الشـكوى إلى كمـال الدين ، فأنصف بعضهم من بعض ، ولم يقدم على الانصـاف مـن أسد الدين شيركوه ، فـأنهى الحـال الى نور الدين ، فـأمر حينئذ ببناء دار العدل ، فلمـا سـمع أسـد الدين ذلك ، أحضر نوابـه جميعهم ، وقال لهم : اعلموا أن نور الدين ماأمر ببناء هذه الدار إلا

بسببي وحدي ، وإلا فمن هـو الذي يمتنع على كمـال الدين ، والله لئن حضرت الى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنه ، فامضوا الى كل من بينكم وبينه منازعة فافصلوا الحال معه ، وأرضـوه بـأي شيء أمكن ، ولو أتى ذلك على جميع مابيدي ، فقالوا له : ان الناس اذا علموا هذا اشتطوا في الطلب فقال : خروج املاكي عن يدي اسـهل عندي مـن أن يراني نور الدين بعين أني ظـالم ، أو يسـاوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة .

فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ماأمرهم ، وأرضوا خصـماءهم وأشهدوا عليهم ، فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحـكومات ، وكان يجلس في الأسـبوع يومين وعنده القـــاضي والفقهاء ، فبقي كذلك مدة ، فلم يحضر عنده أحد يشكو مـن اسـد الدين ، فقال لكمال الدين : ماأرى أحدا يشكو من شيركوه ، فعرفه الحال ، فسجد فشكر الله تعالى وقـال : الحمـد لله إذ اصـحابنا ينصفون من انفسهم قبل حضورهم عندنا ، فانظر الى هذه المعـدلة ماأحسنها ، والى هذه الهيبة مـاأعظمها ، وإلى هـذه السـياسة ماأشدها ، هذا مع أنه كان لايريق دما ، ولايبالغ في عقوبه ، وانمـا كان يفعل هذا صدقة في عدله وحسن نيته .

وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهـاية إليه فيهمـا ، فإنه كان أصبر الناس في الحرب وأحسـنهم مـكيدة ورأيا ، وأجـودهم معرفة بأمور الاجناد وأحوالهم ، وبه كان يضرب المثل في ذلك سمعت جمعا كثيرا من الناس لاأحصيهم يقولون انهـم لم يروا على ظهـر الفرس أحسن منه ، كأنه خلق لايتحرك ولايتزلزل .

وكان من أحسن الناس لعبـا بـالكرة وأقـدرهم عليهـا ، لم ير جوكانه يعلو على رأسه ، وكان ربما ضرب الكرة فتعلوا ، فيجـري الفـــــرس ويتناولهـــــا بيده مـــــــــــن الهواء ويرميها إلى آخـر الميدان ، وكانت يده لاتـرى والجـو كان فيها ، بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب .

وبنى البيمارستانات في البلاد ، ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق ، فإنه عظيم كثير الخرج ، بلغني أنه لم يجعله وقفا على الفقراء حسب ، بل على كافة المسلمين من غني وفقير ، ولقد جرى لي مع طبيبه ما أذكره ، وذلك أنني قدمت من زيارة بيت المقدس – بعد أن فتحه المسلمون – مريضا ، فسألت عن طبيب فدلوني على مغربي فأتيته ووصفت له مرضي ، فوصف لي وصفة لم يرضني قوله ، فعاودته القول فتركني ومضى ، فأنفت نفسي وضاقت الدنيا في عيني ، وعزمت على أن لا أعالج نفسي الا بما تنتهي إليه معرفتي ، واشتد مرضي لما نالني من الغيظ ، فلما كان الغد ، قوي عزمي على قصد طبيب يعالجني ، فركبت ودخلت البلد وسألت عن طبيب ، فدللت على طبيب هذا البيمارستان ، فأتيته فيه وهو يكتب نسخا للمرضى الذين به ، فلما رآني قد قاربته ، أقبل على بوجه منبسط وسايلني عن حالي فوصفته له ، فكتب لي نسخة ، وقال لي : يحمل غلامك مباني هذه النسخة ، فقلت : لا حاجة بي إلى ذلك ، فقد أغناني الله عن مزاحمة الفقراء ، فقال : يامولاي ، لا أشك أنك في غنى عن هذا ، ولكن لا يأنف أحد من صدقة نور الدين وانعامه ، والله إن أولاد السلطان صلاح الدين وأهله ليأخذون من الأدوية من هذا البيمارستان ، فقلت : أنا لا أرى ذلك ، فقال : أنه وقف على كافة المسلمين غنيهم وفقيرهم ، فوجدت في نفسي بكلامه انبساط ، فحكيت له حكاية ذلك الطبيب ، فقال : يامولاي ، مغربي وقد أقام بالشام لا يكون إلا هكذا ، وأما أنا فما تراه في من أدب الناس فمن عندكم وبلادكم ، فإني سافرت إلى الموصل والعراق ، فشكرته وعدت عنه ، رضي الله عنه .

وبنى أيضا الخانات في الطرق ، فأمن الناس وحفظت أموالهم ، وباتوا في الشتاء في كن من البرد والمطر .

وبنى أيضا الأبراج على الطرق ، وبين بلاد المسلمين

والفرنج ، وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادي ، فاذا رأوا من العدو أحدا أرسلوا الطيور ، فأخذ الناس حذرهم واحتاطوا لأنفسهم ، فلم يبلغ العدو منهم غرضا ، وكان هذا من ألطف الفكر وأكثرها نفعا ، رحمة الله تعالى .

وبنى أيضا الربط والخانقاهات في جميع البلاد للصوفية ، ووقف عليها الوقوف الكثيرة ، وأدر عليهم الادرارات الصالحة ، وكان يحضر عنده مشايخهم ويقربهم ويدنيهم ويبسطهم ويتواضع لهم ، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه ، ويعتنقه ويجلسه معه على سجادته ويقبل عليه بحديثه ، وكذا أيضا كان يفعل بالعلماء ، من التعظيم والتوقير والاحترام ويجمعهم عنده للبحث والنظر ، فقصدوه من البلاد الشاسعة ، من خراسان وغيرها ، وبالجملة فكان أهل الدين عنده في أعلى المنازل وأعظمها ، فكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك ، وكانوا يقعون فيهم عنده فينهاهم ، واذا نقلوا عن انسان عيبا يقول : ومن المعصوم ، وانما الكامل من تعد ذنوبه .

بلغني ان بعض الأكابر من الأمراء حسد قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي ـ وكان قد استقدمه من خراسان وبالغ في اكرامه والاحسان اليه ـ فحسده ذلك الأمير فنال منه يوما عند نور الدين ، فقال له : ياهذا إن صح ماتقول فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها ، وهي العلم والدين ، وأما أنت وأصحابك ، ففيكم أضعاف ماذكرت ، وليست لكم حسنة تغفرها ، ولو عقلت لشغلك عيبك من غيرك ، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم ، أفلا احتمل سيئة هذا ـ إن صحت ـ مع وجود حسنته ، على أنني والله لاأصدقك فيما تقول : وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لأونبنك ، فكف عنه ، هذا والله هو الاحسان والفعل الذي يكتب على العيون بماء الذهب .

وبنى بدمشق أيضا دارا للحديث ، ووقف عليها وعلى من بها

من المشتغلين بعلم الحديث وقوفا كثيرة ، وهــو أول مــن بنى دارا الحديث فيما علمناه .

وبنى أيضا في كثير من بلاده مكاتب للأيتـــام ، وأجـرى عليهــم وعلى معاميهم الجـــرايات الوافـــرة ، وبنى أيضـــا مســـاجد كثيرة ، ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن ، ووقف على الأيتام الذين يقرؤون بها القرآن ، وهذا فعل لم يسبق إليه .

بلغني من عارف بأعمال الشـــام ، أن وقــوف نور الدين في وقتنا هذا ـ وهو سنة ثمــان وســتمائة ـ كل شــهر تســعة آلاف دينار صورية ، ليس فيها ملك غير صحيح شرعي ظــاهرا وبــاطنا ، فإنه وقف ماانتقل إليه وورث ثمنه أو من ماغلب عليه مــن بــلاد الفــرنج وصار سهمه .

فصل في ذكر وقاره وهيبته
قدس الله روحه ونور ضريحه

فإليه النهاية فيهما ، فلقد كان كما قيل : شديد في غير عنف رقيق في غير ضعف ، واجتمع له مالم يجتمع لغيره ، فإنه ضبط نامــوس الملك حتى مع أجناده وأصحابه إلى غاية لامزيد عليها ، كان يلزمهم بوظائف الخدمة ، الصغير منهــم والكبير ، ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس ، الا نجم الدين أيوب والد صــلاح الدين يوسف ، وأما من عداه كأسد الدين شــيركوه ، ومجــد الدين بــن الداية وغيرهما ، فانهم كانوا إذا حضروا عنده يقفون قياما إلى أن يأمرهم بالقعود ، وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم ، إذا دخــل عليه الفقيه أو الصــوفي أو الفقير يقــــوم له ويمشي إلى بين يديه ، ويجلسه إلى جانبه ، ويقبل عليه بحــديثه كأنه أقــرب الناس اليه ، وكأن إذا اعطى أحدهم شيئا ، يقــول : إن هؤلاء لهــم بيت المال حق ، فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا .

وكان مجلسه كما روي في صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مجلس حلم وحياء لاتؤبن فيه الحرم ، وهكذا كان مجلسه ، لايذكر فيه إلا العلم والدين ، وأحوال الصالحين ، والمشورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدو ، ولايتعدى هذا .

بلغني ان الحافظ أبا القاسم أبن عساكر الدمشقي رضي الله عنه ، حضر مجلس صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق رأى فيه من اللغط وسوء أدب الجلوس فيه مالاحد عليه ، فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين ، فلم يتمكن من القول لكثرة اختلاف المتحدثين وقلة استماعهم ، فقام وبقي مدة لايحضر المجلس الصلاحي ، وتكرر من صلاح الدين الطلب له فحضر ، فعاتبه صلاح الدين على انقطاعه ،فقال: نزهت نفسي عن مجلسك ، فإني رأيته كبعض مجالس السوقة ، لايستمع به إلى قائل ولايرد جواب متكلم ، وقد كنا بالامس نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل : كأنما على رؤوسنا الطير ، تعلونا الهيبة والوقار ، وإذا تكلم أنصتنا ، وإذا تكلمنا استمع لنا ، فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه أنهم لايكون منهم ماجرت به عادتهم إذا حضر الحافظ فهكذا كانت أحواله جميعها – رحمه الله تعالى – مضبوطة محفوظة .

وأما حفظه أصول الديانات

فإنه رحمه الله تعالى كان مراعيا لها ، لايهملها ولايمكن أحد من الناس من اظهار مايخالف الحق ، ومتى أقدم مقدم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته ، وكان يبالغ في ذلك ، ويقول : نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق ، والأذى الحاصل منهما قريب ، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه مايناقضه ، وهو الأصل .

حكي لي أن انسانا كان بدمشق يعرف بيوسف بن آدم ، كان

يظهر الزهد والنسك ـ وقد كثر أتباعه ـ أظهر شيئا من التشبيه ، فبلغ خبره نور الدين فأحضره وأركبه حمارا وأمر بصفعه وطيف به في البلد جميعه ، ونودي عليه : هذا جزاء من أظهر في الدين البدع ، ثم نفاه من دمشق فسار عنها وقصد حران ، وأقام بها الى أن مات ويسوق الله القصار الأعمار الى البلاد الوخمة .

فصل من كلام عماد الدين الكاتب فيه رحمه الله تعالى

قال العماد محمد بن حامد الكاتب ـ وقد ذكر نور الدين في بعض مصنفاته ـ فقال : كان ملك بلاد الشام ومالكها ، والذي بيده ممالكها ، الملك العادل نور الدين أعف الملوك وأتقاهم ،وأثقبهم رأيا وأنقاهم وأعدلهم وأعبدهم وأزهدهم وأجهدهم ، وأطهرهم وأظهرهم ، وأقواهم وأقدرهم ، وأصلحهم عملا ، وانجحهم أملا ، وأرجحهم رأيا وأوضحهم آيا ، وأصدقهم قولا ، وأقصدهم طولا ، وكان عصره فاضلا ، ونصره واصلا ، وحكمه عادلا ، وفضله شاملا ، وزمانه طيبا ، واحسانه صيبا ، والقلوب بمهابته ومحبته ممتلية ، والنفوس بعاطفته وعارفته متملية ، وأموره مقتبلة ، وأوامره ممتثله ، وجده منزه عن الهزل ، وذوابه في أمن من العزل ، ودولته مأمولة مأمونه ، وروضته مصوبة مصونة ، والرياسة كاملة ، والسياسة شاملة ، والزيادة زائدة ، والسعادة مساعدة ، والعيشة ناضرة ، والشيعة ناصرة ، والانصاف صاف ، والاسعاف عاف ، وأزر الدين قوي ، وظمأ الاسلام روي ، وزند النجح وري ، والشرع متبوع ، والحكم مسموع، والعدل مولى والظلم معزول ، والتوحيد منصور والشرك مخذول والتقي شروق ،ومااللفسوق سوق ، وهو الذي أعاد رونق الاسلام إلى بلاد الشام ، وقد غلب الكفر ، وبلغ الضر ، فاستفتح مغالقها ، واستخلص معاقلها ، واستخلص

عقائلها ، وأشاع بها شعار الشرع في جميع الحل والعقد ، والابرام والنقض ، والبسط والقبض ، والوضع والرفع ، وكانت للفرنج في أيام غيره على بلاد الشام قطائع فقطعها ، وعفى رسومها ومنعها ، ونصره الله عليهم مرارا حتى أسر ملوكهم وبدد سلوكهم ، وصان الثغور منهم ، وحماها عنهم ، وأحيا معالم العلوم الدوارس ، وبنى للأئمة المدارس ، وأنشأ الخانقاهات الصوفية وكبرها ، في كل بلد وكثر وقوفها ووفر معروفها ، وأدنى للوافدين من جنان جنابه قطوفها ، وأجد الأسوار والخنادق ، وأنمى المرافق ، وحمى الحقائق ، وأمر في الطرقات ببناء الربط والخانات ، فضاقت ضيوف الفضايل وفاضت فيوض الفواضل ، وهو الذي فتح مصر وأعمالها ، وأنشأ دولتها ورجالها (١٢٠) .

ولو ذكرت ماقال العلماء فيه لكان مجلدات ، ولكن الاختصار اليق بما نحن فيه والسلام .

في ذكر استيلاء أتابك سيف الدين غازي على البلاد الجزرية بعد وفاة نور الدين

كان نور الدين قبل أن يمرض ، قد أرسل الى البلاد الشرقية كالموصل وغيرها يستدعي العساكر منها ، فسار سيف الدين غازي ابن أتابك قطب الدين صاحب الموصل في عساكره ، فلما كان ببعض الطريق ، أتاه الخبر بموت عمه الملك العادل نور الدين ، فعاد إلى نصيبين فملكها ، وأرسل الشحن إلى بلد الخابور فاستولوا عليه ، وسار هو إلى حران فحصرها عدة أيام ، وكان بها مملوك نور الدين في قلعتها اسمه قايماز الحراني ، فامتنع فيها ، ثم أطاع على أن تكون حران له ، ونزل إلى خدمة سيف الدين فقبض عليه وأخذ حران منه ، وسار الى الرها فحصرها وملكها ، وأرسل الى

مدينة الرقة فملكها ، وكذلك سروج ، واستكمل ملك سائر ديار الجزيرة سوى قلعة جعبر .

وكان بمدينة حلب وقلعتها الأمير شمس الدين علي بن الداية – وهو من أكبر الأمراء النورية – وهو مريض فلم يمكنه منع سيف الدين عن البلاد الجزرية ، فأرسل إلى دمشق يطلب أن يرسل إليه الملك الصالح في العساكر التي معه بها ، ليمنع سيف الدين عن البلاد ، فلم يفعل شمس الدين بن المقدم – وكان هو المربي للملك الصالح والقائم بأمره – وخاف أن يرسله فيأخذه أولاد الداية ويسير معه الى دمشق ويزيلوا ابن المقدم عما يتولاه .

فمكن حينئذ سيف الدين من ملكها ، فلما استقام له ملك البلاد الجزرية ، قال له فخر الدين عبد المسيح – وكان قد فارق سيواس بعد وفاة نور الدين ، وقصد سيف الدين ظنا منه أن سيف الدين يرعى له خدمته ، وقيامه في أخذ الملك له من والده قطب الدين على ماذكرناه أولا ، فلم يجن ثمرة ماغرس ، وكان عنده كبعض الأمراء – فقال له : ليس بالشام من يمنعك ، فاعبر الفرات وأملك البلاد . فأشار أمير آخر معه – وهو أكبر أمرائه – يقال له عز الدين محمود المعروف بزلف دار : قد ملكت أكثر من والدك ، والمصلحة أن تعود ، فرجع إلى قوله وعاد إلى الموصل (ليقضي الله أمرا كان مفعولا)(١٢١) ،(وكان ذلك في الكتاب مسطورا) (١٢٢) .

وأما أحوال من بالشام ، فان نور الدين كان قد جعل بقلعة الموصل لما ملكها دزدارا لها وهو سعد الدين كمشتكين – بعض خدمه الخصيان – فلما سار سيف الدين الى الشام كان في مقدمته على مرحلة ، فلما أتاه خبر وفاة نور الدين هرب ، وأرسل سيف الدين في اثره فلم يدرك ، فنهب بركه ودوابه وسار الى حلب ، فتمسك بخدمة شمس الدين بن الداية وأخوته ، واستقر بينهم وبينه أن يسير إلى دمشق ويحضر الملك الصالح ، فسار

اليها ، فأخرج اليه ابن المقدم عسكرا فنهبوه فعاد منهزما الى حلب ، فأخلف عليه شمس الدين بن الداية ماأخذ وجهزه وسيره الى دمشق - وعلى نفسها تجني براقش - فلما وصلها سعد الدين دخلها ، واجتمع بالملك الصالح والأمراء وأعلمهم مافي مسير الملك الصالح الى حلب من المصالح ، فأجابوا الى تسييره فسار اليها ، فلما وصلها وصعد الى قلعتها ، قبض سعد الدين على شمس الدين بن الداية وأخوته ، وعلى ابن الخشاب رئيس حلب والذي يتبعه من أحداثها ولولا مرض شمس الدين لم يتمكن منه ، ولاجرى من ذلك الخلف والوهن شيء (وكان أمر الله قدرا مقدورا) (١٢٣)

واستبد سعد الدين بتدبير أمر الملك الصالح، فخافه ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق ، وكاتبوا سيف الدين ليسلموا إليه دمشق فلم يفعل ، وخاف أن تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق فيمنع عنها ، ويقصده ابن عمه من وراء ظهره ولايمكنه الثبات ، فراسل الملك الصالح وصالحه على اقرار ماأخذه بيده ، وبقي الملك الصالح بحلب وسعد الدين بين يديه يدبر أمره ، وتمكن منه تمكنا عظيما يكاد يقارب الحجر عليه .

في ذكر وصول صلاح الدين يوسف بن ايوب الى دمشق دار العشق وتملكها من يد ولد مولاه

لما خاف من بدمشق من الأمراء أن يقصدهم سعد الدين والملك الصالح فيعاملهم بما عامل به بني الداية ، راسلوا سيف الدين ليسلموها إليه فلم يجبهم ، فحملهم الخوف على أن راسلوا صلاح الدين يوسف بن ايوب بمصر ، وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين محمد بن المقدم - ومن اشبه أباه فما ظلم - (١٢٤) فلما أتته الرسل بذلك لم يتوقف ، وبادر إلى الاجابة وسار إلى الشام ، فلما

وصل دمشق ، سلمها إليه من بها من الأمراء ودخلها واستقر بها ، ولم يقطع خطبة الملك الصالح وإنما أظهر : أني إنما جئت لأخدم مولاي وابن مولاي ، واسترد له بلاده التي أخذها ابن عمه ، وجرت أمور قد شوهدت فلا حاجة إلى ذكرها ، كما قال بعضهم :

فكان ماكان مما قد سمعت به
فظن خيرا ولاتسأل عن الخبر

وفي آخر الأمر اصطلح هو وسيف الدين والملك الصالح كل منهم على مابيده بعد حروب ومخامرات ، قد أتينا على ذكر ذلك في المستقصى في التاريخ .

ذكره ولاية مجاهد الدين قلعة الموصل ووزارة جلال الدين أبي الحسن علي

وفي ربيع الآخر من سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، استوزر أتابك سيف الدين ، جلال الدين أبا الحسن علي بن جمال الدين رحمهما الله تعالى ، ومكنه في ولايته ، وفوض إليه أمور دولته ، فظهرت منه كفاية لم يظنها الناس ، وبدا منه معرفة بقواعد الدول ، وأوضاع الدواوين ، وتقرير الأمور واطلاع على دقائق الحسابات ، وعلم بصناعة الكتابة الحسابية حيرت العقول ، ووضع للناس في كتابة الانشاء وضعا لم يعرفوه ، وشرع لهم منها شرعا استحسنوه ، وبذل بذلا استعظموه ، وكان عمره حين ولي الوزارة خمسا وعشرين سنة ، ثم قبض عليه في شعبان سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وشفع فيه كمال الدين بن نيسان وزير صاحب آمد - وكان قد زوجه ابنته - فأطلق من الحبس وسار إليه فبقي بآمد يسيرا مريضا ، ثم فارقها وتوفي بدنيسر سنة أربع

وسبعين وخمسمائة وحمل إلى الموصل ودفن بها ، ثم حمل منهـا في موسم الحج إلى المدينة فدفن عند والده ، وكان أحسن الناس صورة ومعنى ، رضي الله عنه .

ثم ان سيف الدين استناب دزدار بقلعة الموصل ، الأمير مجـاهد الدين قايماز في ذي الحجة سنة احدى وسـبعين وخمسـمائة ، ورد اليه أزمة الأمور في الحل والعقد ، والرفع والخفض ، وكان بيده قبل هذه الولاية مدينة إربل وأعمالها ، ومعه فيها ولد صغير لزين الدين علي ولقبـه أيضـا زين الدين ، وكان البلد لولد زين الدين اسـما لامعنى تحته ، ولمجاهد الدين صورة ومعنى .

وفي سنة اثنتين وسبعين ، شرع مجاهد الدين في عمارة جـامعه بظاهر الموصل بباب الجسر ، وهو من أحسن الجـوامع ، ثـم بنى بعد ذلك الرباط والمدرسة والبيمارستان وكلها متجاورة .

ذكر عصيان ابن بوزان وعوده الى الطاعة

ثم ان الأمير شهاب الدين محمـد بـن بـوزان صـاحب شهرزور – وهو في طاعة سيف الدين – أظهـر التجني على سـيف الدين سنة اثنتين وسـبعين وخمسـمائة ، وجعـل عذره في تـرك الحضور في الخدمة بنفسه ، الخوف من مجاهد الدين لعداوة بينهما محكمة القواعد ، وقال : إن مجـاهد الدين هـو الآن مـدبر الدولة والحاكم فيها ، ولا آمنه على نفسي ، فأرسل إليه جلال الدين الوزير رسولا عن نفسه وكتب إليه كتابا ليس مثله في معناه ، فلمـا وصـل الرسول والكتاب إلى شهاب الدين بـادر إلى الحضـور في الخـدمة السيفية .

ذكر القبض على سعد الدين كمشتكين الذوري

قد ذكرنا حال سعد الدين كمشتكين وأنه استولى على دولة الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل نور الدين ، وحكم عليها ، فلما كان سنة ثلاث وسبعين ، قبض عليه الملك الصالح وطلب منه أن يسلم اليه قلعة حارم ـ وكانت اقطاعه ـ فلم يفعل ، فأرسل الملك الصالح إلى مستحفظها يأمره بتسليمها إلى نائبة فلم يسلمها ، فسار الملك الصالح إليها من حلب ومعه سعد الدين فحصر القلعة ، وعاقب سعد الدين ليأمر من بها بالتسليم فلم يجب إلى ماطلب منه ، فعلق منكوسا ودخن تحت أنفه فمات ، وعاد الملك الصالح عن حارم ولم يملكها ، ثم إنه أخذها بعد ذلك .

ذكر الغلاء والوباء

وفي سنة أربع وسبعين وخمسمائة ، اشتد الغلاء وعم أكثر البلاد : العراق والموصل وديار الجزيرة وديار بكر والشام وغير ذلك من البلاد ودام إلى أن انقضى اكثر سنة خمس وسبعين وخرج الناس في سائر البلاد يستسقون فلم يسقوا ، ثم إن الله تعالى رحم عباده ولطف بهم وأنزل عليهم الغيث ، وأرخص الأسعار ، ومن عجب مارأيت تلك السنة أنني كنت في الجزيرة ، وقد قصدت مدرسة بها أسمع على مدرسها شيئا من حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، فبينما أنا جالس عند فقيه في بيته أنتظر مدرسها ، وإذا قد أقبل انسان تركماني قد أثر عليه الجوع وكأنه قد أخرج من قبر ، فبكى وشكا الجوع ، فأرسلت من اشترى له خبزا فتأخر احضاره لعدمه ، وهو يبكي ويتمرغ على الأرض فتغيمت السماء وجاءت تنقط المطر متفرقة ، وضج الناس ، ثم جاء فأكل ذلك التركماني وأخذ الباقي معه ومشى ، واشتد المطر ، ودام من تلك

الساعة ، فرخصت الأسعار ، ووجدت الأقوات بعد أن كانت معدومة ، ثم تعقب الغلاء وباء شديد كثير ، وكان مرض الناس شيئا واحدا ، وهو برسام (١٢٥) فمات فيه من كل بلد أمم لايحصون كثرة ، ولقي الناس منه ما أعجزهم حمله ، ثم ان الله تعالى رفعه عنهم في سنة ست وسبعين وخمسمائة وقد ضعضع العالم .

فصل في ذكر وفاة أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله الخليفة العباسي

في سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، توفي الامام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله بن المقتفي لأمر الله بن المستظهر بالله ، وقد تقدم باقي نسبه ، وأمه أم ولد : (ارمنية تدعى غضة) وكانت خلافته (نحو تسع سنين وسبعة أشهر) (١٢٦) .

ذكر شيء من سيرته قدس الله روحه

وكان عادلا حسن السيرة ، كثير البذل للمال ، غير مستقص في أخذ ماجرت العادة بأخذه ، وكان الناس معه في أمن وسكون لم يروا مثله ، وكان رحمة الله عليه كريم الأخلاق ، كثير العفو ولا يرى المعاقبة بل يعفو ويصفح ، وزر له عضد الدين أبو الفرج بن رئيس الرؤساء إلى أن قتل أوائل ذي القعدة من سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وكان قد سار إلى الحج - وكنت حينئذ ببغداذ عازما على الحج - فعبر عضد الدين دجلة في شبارة ، فلما ركب دابته والناس معه مابين راكب وراجل ، فتقدم اليه بعض العامة ليدعو له ، فمنعه أصحابه فزجرهم وأمرهم ان لايمنعوا عنه أحد ، فتقدم

إليه الباطنية فقتلوه بالجانب الغربي ، وقتل الباطنية وأحرقوا ، وحمل من موضعه إلى دار له بقطفتا بالجانب الغربي ، فتوفي بها رحمة الله تعالى ، وتولى الأمور بعده ظهير الدين بن العطار وحكم في الدولة حكما نافذا .

ذكر وفاة الملك سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر

في صفر من سنة ست وسبعين وخمسمائة ، توفي الملك سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن اتابك الشهيد زنكي رضي الله عنهم ، وكان مرضه السل فطال به ، ومن العجائب أن الناس لما خرجوا يستسقون بالموصل سنة خمس وسبعين وخمسمائة الغلاء الحادث في البلاد ، خرج سيف الدين في موكبه فثار الناس وقصدوه مستغيثين به ، وطلبوا منه أن يأمر بالمنع من بيع الخمر فأجابهم الى ذلك ، فدخلوا البلد وقصدوا مساكن الخمارين ، وخربوا أبوابها ودخلوها ونهبوها وأراقوا الخمور ، وكسروا الأواني وعملوا مالايحل ، فاستغاث أصحاب الدور الى ذواب السلطان وخصوا بالشكوى رجلا من الصالحين يقال له أبو الفرج الدقاق ، ولم يكن له في الذي فعله الناس من النهب فعل ، إنما هو اراق الخمور ، ولمارأى فعل العامة نهاهم عنه فلم يسمعوا منه ، فلما شكا الخمارون منه ، أحضر بالقلعة وضرب على رأسه فسقطت عمامته ، فلما أطلق لينزل من القلعة ، نزل مكشوف الرأس فأرادوا تغطيته بعمامته فلم يفعل ، وقال : والله حتى ينتقم الله لي ممن ظلمني فلم يمض غير قليل حتى توفي الدزدار المباشر لأذاه له ، ثم بعقبه مرض سيف الدين ودام مرضه إلى أن توفي ، وكان عمره نحو ثلاثين سنة ، وكانت ولايته عشر سنين وشهورا .

ذكر صفة سيف الدين وذكر شيء من سيرته

كان رحمه الله من أحسن الناس صورة ، تام القامة ، مليح الشمائل ، أبيض اللون ، مستدير اللحية ، متوسط البدن بين السمين والدقيق ، وكان عاقلا ، وقورا ، قليل الالتفات إذا ركب واذا جلس ، عفيفا ، لم يذكر عنه شيء من الأسباب التي تنافي العفة ، وكان غيورا شديد الغيرة ، لم يترك أحدا من الخدام يدخل دور نسائه إذا كبر ، إنما يدخل عليهن الخدم الصغار ، وكان لايحب سفك الدماء ، ولاأخذ الأموال مع شح فيه .

في ذكر مملكة المولى السعيد عز الدين بن قطب الدين مودود

لما اشتد المرض بسيف الدين ، أراد أن يعهد بالملك لولده معز الدين سنجر شاه فخاف من ذلك ، لأن صلاح الدين يوسف بن أيوب كان قد تمكن بالشام وقويت شوكته ، وامتنع أخوه المولى السعيد عز الدين من الاذعان والاجابة إلى ذلك ، فأشار الأمراء الأكابر ومجاهد الدين قايماز ، بأن يجعل الملك بعده في أخيه ، لما هو عليه من كبر السن أولا والشجاعة والعقل وقوة النفس وحسن سياسة الملك ، وأن يعطي ابنيه بعض البلاد ، ويكون مرجعهما الى المولى عز الدين والمتولي أمرهما مجاهد الدين ففعل ذلك ، وحلف الناس لأخيه • فلما توفي سيف الدين ، كان مجاهد الدين هو المدبر الدولة والنائب فيها ، والمرجع إلى قوله ورأيه ، فركب إلى الخدمة العزية وعزاه ، وركبه إلى دار المملكة ومشى في ركابه راجلا ، فدخلها وجلس للعزاء ، وكانت الرعية تخافه قبل أن يملك لاقدامه وجرأته وحدة كانت فيه ، وكان لا يلتفت إلى أخيه سيف الدين إذا أراد أمرا ، فلما ولي تغيرت أخلاقه ، فصار رفيقا بالرعية ، محسنا

إليهم ، قريبا منهم ، فكان في ذلك كما روي ، أن أبابكر الصديق رضي الله عنه لما عهد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالخلافة ، خافه الناس لما عرفوا من شدته وفظاظته ، فقال بعض الصحابة لأبي بكر : ما تقول لربك إذا قدمت عليه وقد استخلفت علينا عمر؟ فقال : أقول له استخلفت عليهم خيرهم ، فلما توفي أبو بكر وولي عمر ، رأى الناس من رقته عليهم ، ورفقه بهم ، وشفقته عليهم ما هو مشهور مدون في الكتب

ذكر وفاة الملك الصالح اسماعيل بن العادل نور الدين الشهيد بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر الملك شاهي

في رجب من سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، توفي الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود بن الشهيد عماد الدين زنكي رضي الله عنهم بمدينة حلب ، ولم يبلغ عشرين سنة .

ولما اشتد مرضه وصف له الأطباء شرب الخمر تداويا بها ، فقال : لا أفعل حتى استفتي الفقهاء .وكان عنده علاء الدين الكاساني الفقيه الحنفي بمنزلة كبيرة ، وكان يعتقد فيه اعتقادا حسنا ويكرمه ، فاستفتاه ، فأفتاه بجواز شربها . فقال له : يا علاء الدين ، إن كان الله سبحانه قد قرب أجلي أيؤخره شرب الخمر ؟ قال :لا ، قال: والله لا لقيت الله تعالى وقد استعملت ما حرمه علي . فلما أيس من نفسه ، أحضر الأمراء كلهم وسائر الأجناد واستحلفهم لابن عمه أتابك عز الدين رضي الله عنه ، وأمرهم بتسليم مملكته جميعها اليه . فقال بعضهم :إن ابن عمك عز الدين له الموصل وغيرها من البلاد من همذان الى الفرات ، فلو أوصيت بحلب لعماد الدين ابن عمك لكان أحسن ، ثم هو تربية أبيك وزوج أختك ، فقال:إن هذا لم يغب عني ، ولكن قد علمتم تغلب صلاح الدين على عامة بلاد الشام سوى مابيدي ، ومتى

سلمت حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها من صلاح الدين فلا يبقى لأهلنا معه مقام ، وإذا سلمتها الى عز الدين ، أمكنه ان يحفظها لكثرة عساكره وبلاده وأمواله ، فاستحسن الحاضرون قوله وعلموا صحته ، وعجبوا من جودة رأيه مع شدة مرضه ، ومن أشبه أباه فما ظلم .

فلما توفي ، أرسل دزدار حلب – وهو شاذ بخت – وسائر الأمراء إلى أتابك عز الدين يدعونه إلى حلب ليسلموها إليه ، فورد الخبر ومجاهد الدين قايماز قد سار إلى ماردين لهم عرض ، فلقي القاصدين عندها فأخبروه الخبر ، فسار إلى الفران ينتظره ، فسار أتابك مجدا ، فلما وصل المنزلة التي بها مجاهد الدين أقام معه ، وأرسل الى حلب يستحضر الأمراء فحضروا كلهم عنده وجددوا اليمين له فسار حينئذ الى حلب ودخلها وكان يوما مشهودا .

ولما عبر الفرات ، كان تقي الدين عمر – ابن أخي صلاح الدين – بمدينة منبج ، فسار عنها هاربا إلى مدينة حماة ، وثار أهل حماة ونادوا بشعار أتابك ، وكان صلاح الدين بمصر ، فأشار عسكر حلب على عز الدين بقصد دمشق ، وأطمعوه فيها وفي غيرها من البلاد الشامية ، وأعلموه محبة أهلها للبيت الأتابكي ، فلم يفعل وقال : بيننا يمين فلا نغدر به ، وأقام بحلب عدة شهور ، ثم سار منها الى الرقة فأقام بها .

وجاءته رسل أخيه عماد الدين يطلب ان يسلم إليه حلب ، ويأخذ عوضا عنها مدينة سنجار ، فلم يجبه إلى ذلك ، ولج عماد الدين ، وقال :إن سلمتم إلي حلب ، وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين ، فأشار حينئذ الجماعة بتسليمها إليه ، وكان أكثرهم في ذلك مجاهد الدين قايماز فإنه لج في تسليمها إلى عماد الدين ، فلم يمكن أتابك عز الدين مخالفته لتمكنه من الدولة وكثرة عساكره

وبلاده ، فوافقه وهو كاره ، وسلم حلب إلى أخيه وتسلم سنجار وعاد إلى الموصل .

وكان صلاح الدين بمصر وقد أيس من العود الى الشام ، فلما بلغه أخذ عماد الدين حلب ، برز في يومه عن القاهرة إلى الشام ، فلما سمع أتابك بوصوله إلى الشام ، جمع عساكره وسار عن الموصل خوفا على حلب من صلاح الدين ، فاتفق أن بعض الأمراء الأكابر مال الى صلاح الدين وعبر الفرات اليه ، فلما رأى أتابك ذلك ، لم يثق بعده إلى أحد من أمرائه ، إذ كان ذلك الأمير أوثقهم في نفسه ، فعاد إلى الموصل .

وعبر صلاح الدين الفرات وملك البلاد الجزرية ، ونازل الموصل فلم يتمكن من النزول عليها ، فعاد الى حلب وحصرها ، فسلمها اليه عماد الدين وأخذ سنجار والخابور ونصيبين عوضا عنها . وكان سبب هذا جميعه تسليم حلب الى عماد الدين ، فإنه كان مضرة محضه .

فصل في سبب قضية القبض على مجاهد الدين قايماز وماتبعه من الوهن (١٢٧)

في جمادى الأولى من سنة تسع وسبعين وخمسمائة ، قبض المولى المرحوم أتابك عز الدين رضي الله عنه على مجاهد الدين قايماز رحمه الله تعالى ، وهو حينئذ نائبه في بلاده ، واتبع في ذلك هوى من أراد المصلحة لنفسه ولم ينظر في مضرة صاحبه وكان الذي أشار به عز الدين محمود زلف دار ، وشرف الدين أحمد بن أبي الخير - الذي كان أبوه صاحب بلد الغراف - وهما من أكابر الأمراء ، فلما قبضه كان بيده إربل ، وشهرزور ، ودقوقا وجزيرة ابن عمر وكان بها معز الدين بن سيف الدين صغيرا ، والحكم فيها الى مجاهد الدين ، وله أيضا قلعة العقر ، فحين قبض امتنع زين

الدين يوسف بن زين الدين علي باربل ، وكان فيها لا حكم له مع مجاهد الدين ، وامتنع معز الدين بالجزيرة ، وأرسل الخليفة الناصر لدين الله عسكرا حصر دقوقا فملكوها ، ولم يحصل المولى عز الدين من

جميع ما كان بيد مجاهد الدين إلا شهرزور ، وصارت هذه البلاد التي كانت بيده أضر شيء على الموصل ، وبقي مجاهد الدين مقبوضا نحو عشرة أشهر ، وندم أتابك على قبضه فأخرجه ، وخلع عليه وأعاده الى ولاية قلعة الموصل ، إلا أن الذي أخذ من البلاد لم يعد الى طاعته ، وقبض أتابك على عز الدين زلف دار وعلى شرف الدين أحمد ابن صاحب الغراف ، عقوبة لهما على ماأشارا به من قبض مجاهد الدين ، وعلى الحقيقة فليس على الدول شيء أضر من ازالة بيشكاه (١٢٨)مدبر لها وإقامة غيره ، فإن الأول يكون كالطبيب الحاذق العارف بمزاج الانسان ومرضه وعلاجه ومايوافقه ويؤنيه ، ويكون الثاني - وإن كان كافيا - بمنزلة الطبيب الذي لايعرف مزاج الانسان ولا مايوافقه ويؤنيه ، فإلى أن يعرف حاله يفسد أكثر مما ينصلح.قال :

في ذكر حصر الجزيرة

في شهر ربيع الأول من سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، سار المولى السعيد عز الدين - قدس الله روحه - إلى جزيرة ابن عمر ، فحصرها وبها معز الدين سنجر شاه ابن أخيه سيف الدين غازي وهو صاحبها ، وكان سبب ذلك أن معز الدين كان سيء السيرة مع المرحوم عز الدين ، خارجا عن طاعته ، مساعدا للأعداء عليه ، ينتقل عنه إلى الملوك المجاورين لبلاده ما يوحشهم منه ، الى غير ذلك من الاسباب التي بعضها يخرج الوالد عن محبة ولده ، ولم يزل المرحوم يرفق به ويستميله وينعم عليه ، وهو لا يزداد إلا سوء معاملة وأدب ، فبقي كذلك من أوائل سنة تسع وسبعين إلى

الآن ، فلما طال الأمر عليه وأيس من اصلاحه ، سـار إليه فحصره بها وضيق عليه ، وعزم على أخذها منه فلما نازله ادركته رقة الوالد فلم يقاتله ، بل نزل عليه من غير قتـال إلا شـيئا لا يبـالي بـه المحاصر ، فبقي كذلك إلى رجب ، فلما رأى معز الدين ضعف حاله ونفاد أمواله وتغير رجاله ، خضع وطلب العفو والصفح ، فـأجابه إلى ذلك وصالحه على قاعدة استقرت بينهما ، وخرج معز الدين إلى خدمته ، فأحسن إليه وأنعـم عليه وأمنه ، وعاتبـه على مـا يبـدو منه ، فاعتذر بأعذار علم المرحوم أنه غير صادق فيها ، إلا انه تغمد اساءته بعفوه ، وزلته بصفحه عنها ، وأقره على بلده وعاد عنه الى الموصل ، فعـاد معـز الدين إلى حـالته الأولى ، فتجـاوز عنه واطرحه ، وقـال : مـا يمنعني عن أخـذ بلده والحجـر عليه ، إلا الخوف من ظن الملوك انني فعلت هذا شرها على مابيده ، وإلا كنت فعلت معه ما يستحقه .

ذكر وفاة المولى السعيد المرحوم عز الدين رضي الله عنه

توفي صلاح الدين يوسف بن أيوب في السابع والعشرين من صفر من سنة تسع وثمانين وخمسمائة بدمشق ، فلما وصل خبـر وفـاته إلى الموصل ، إلى المولى المرحوم عز الدين رضي الله عنه ، جمع من يرجع إلى رأيه واستشارهم في الذي يفعله ، فأشار عليه أخي مجـد الدين أبو السعادات رحمة الله عليه ، بالاسراع في الحـركة وقصـد البلاد الجزرية فإنها لا مانع لها منه ، فقال مجاهد الدين قـايماز : ليس هذا برأي أننا نتـرك وراءنا مثـل عمـاد الدين صـاحب سنجار ، ومعز الدين صاحب الجزيرة ، والملك المعظم مـظفر الدين صاحب إربل وتسير ، إنما الرأي أننا نراسلهم ونستميلهم ونأخـذ رأيهم وننظر ما يقولون فقال أخي : إن كنتم تفعلون ما يشيرون بـه عليكم ويرونه فاقعدوا ، فإنهم لا يرون الا هـذا لأنهـم لا يؤثـرون

حركتكم ولا قوتكم ، إنما الرأي أن يبرز هذا السلطان ويكاتبهم ويراسلهم ويستميلهم ، ويبذل لهم اليمين على ما بأيديهم ويعلمهم أنه على الحركة ، فليس فيهم من يمكنه يخالف خوفا أن يقصد ولايته ، لاسيما إذا رأوا جده وخلو البلاد الجزرية من مانع وحام ، فهم لا يشكون أنه يملكها سريعا ، فيحملهم ذلك على موافقته ، ومتى أراد الانسان يفعل فعلا لا تتطرق إليه الاحتمالات بطلت افعاله ، إنما إذا كانت المصلحة أكثر من المضرة اقدم ، وأن كان العكس احجم ، فظهرت امارات الغيظ على مجاهد الدين ، فسكت أخي لأنه كان هو المخدم للجميع على الحقيقة والحاكم فيهم ، واتبع المرحوم عز الدين ـ قدس الله روحه ـ قول مجاهد الدين ، وأقام بالموصل عدة شهور يراسل المذكورين ، فلم ينتظم بينه وبين أحد منهم حال غير أخيه عماد الدين صاحب سنجار ، فإنهما اتفقا على قواعد استقرت بينهما ، فالى ان انفصل الحال ، وصل الملك العادل أبي بكر بن أيوب من الشام إلى حران وأقام هناك ، وجاءته العساكر من دمشق وحلب وحمص وحماة ، وامتنعت البلاد به .

وسار المرحوم عز الدين عن الموصل الى نصيبين ، وقد ابتدأ به اسهال بنزيف ، فوصل إلى نصيبين واجتمع بها هو وعماد الدين ، وسارا في عساكرهما إلى تل موزن من شبختان يقصدون الرها ، فأرسل الملك العادل حينئذ يطلب الصلح ، وأن تكون البلاد الجزيرية : الرها ، وحران ، والرقة وما معها بيده على سبيل الاقطاع من المرحوم عز الدين فلم يجبه الى ذلك ، وقوي المرض به بتل موزن واشتد إلى أن عجز عن الحركة ، فعاد الى الموصل في طائفة يسيرة من العسكر ومعه مجاهد الدين وأخي مجد الدين ، وترك سائر العساكر مع أخيه عماد الدين ليفصل الحال ويقرر الصلح مع الملك العادل ، فلما وصل دنيسر رأى ضعفا شديد ، فأحضر أخي كتب وصيته ، ثم سار الى الموصل فوصلها مريضا بالاسهال ، وبقي كذلك إلى أن توفي سابع وعشرين شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، ولم اسمع عن أحد من الناس بمثل

حاله في مرضه ، فإنه كان لا يزال ذاكرا الله تعالى ، حتى إنه كان إذا تحدث مع انسان يقطع حديثه مرارا ويقول : أشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحي ويميت وهو حي لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، وأشهد (ان محمدا صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله) وأشهد ان الموت حق (وعذاب القبر حق ، وسؤال منكر ونكير حق ، والصراط حق ، والميزان حق) (١٣٠) وأن الساعة آتية لاريب فيها ، وأن الله يبعث من القبور ويقول لمن يخاطبه : اشهد لي بهذا عند الله تعالى ثم يعود الى حديثه ، وأحضر عنده من يقرأ القرآن ، فلم يزل كذلك الي ان توفي رضي الله عنه . وأصاب الناس من رعاياه كلهم بموته فجيعة لم يصبهم مثلها ، وأظهروا من الغم والحزن مالا كان يظنه احد ودفن بالمدرسة التي انشأها بباطن الموصل مقابل دار المملكة . وكان عمره (١٣١) .. وكانت مملكته نحو ثلاث عشرة سنة وستة اشهر . وكان اسمر ، مليح الوجه ، حسن اللحية ، خفيف العارضين . وحكى لي والدي ، قال : هو أشبه الناس بجده الشهيد قدس الله روحه . وكان ربعة اذا مشى ، فإذا ركب لم يعله احد .

ذكر شيء من سيرته رحمه الله تعالى

كان رضي الله عنه لين الجانب ، كريم الأخلاق ، كثير الاحسان الى الناس ، يتعهدهم بالنفقات والسؤال عن أحوالهم ، لا سيما من يعلم أن له خدمة متقدمة في دولتهم ، فإنه كان يعظمه ويحترمه ويعلي محله ، فمن ذلك أنه كان في دولته الأمير بهاء الدين علي بن الشكري ، وكان رجلا كبيرا له خدمة سالفة — فكان يبالغ في احترامه إلى حد أنه كان إذا لعب معه بالكرة ، يعطيه من دوابه الخاص ما يركبه ويلعب عليه . ومن ذلك أيضا ، انه لما عاد من حصار الجزيرة العمرية سنة سبع وثمانين ، فلما وصل إلى الموصل أمر أن لا يدخل أحد إلى البلد ، ونزل هو في المغرقة في الكشك الذي

بالميدان ، ونزل الناس متفرقين . وكان في جملة الواصلين معه ، أخي مجد الدين رحمهما الله تعالى ، وكان ينزل بالقرب منه ، فنصبت خيمة أخي بزاوية الميدان من داخله ولم يدخل الموصل ، فخرجت أنا إليه أبصره ، فركب المرحوم عز الدين رضي الله عنه فرأى الخيمة ، فاستدعى أخي وقال له : أرى خيمتك ههنا ؟ قال: لأنك رسمت أن لايدخل أحد قال : الا أنت ، فإن والدك اثير الدين له مدة ما رآك ، ولا شك إنه قد اشتاقك ، فتدخل إليه وتسلم عليه وتسأله الدعاء ، ولاتجيء الينا الى ثلاثةأيام ، فامتنع من ذلك ، وقال : أنا أبصره وأعود إلى الخدمة ، فلم يرخص له في ذلك ، وألزمه بقصد والده والاقامة عنده ، فأنظر إلى هذا الرفق واللطف الذي لا يفعله الانسان الا مع أهله لا سيما الملوك .

وكان رحمه الله تعالى حييا كثير الحياء ، كما قيل ، أشد حياء من العذراء في خدرها ، لم يحدث أحدا قط إلا وهو مطرق ، فمن حيائه أنه أمر طائفة من عسكره بالتجهيز للغزاة ، وكان فيهم مملوك لم يكن له محل ، إنما هو بمفرده ، فحضر في خدمته وقال : لي مهم أريد أقوله ، فأذن له في القول ، فقال : بلغني انني في جملة العسكر المسير إلى الغزاة ، وعجب من مولانا كيف يسمح بمثلي ويرسلني ويبعدني عن خدمته ، ولا شك أن المولى لا يعرف محلي ، وإلا فما كان أمر بذلك . فقال له : صدقت ، مثلك لا ينبغي أن يفارقنا مع علو محلك وارتفاع قدرك فلما خرج من عنده أظهر الانكار ، وقال : قد صار مثل هذا المدبر المنحوس يقول لي هذا القول ، ومن هو وما محله وقد سيرنا في هذه الغزاة جماعة من أكابر الأمراء ، أليس له بهم أسوة . فقال له بعض الحاضرين : لم لا أمر المولى بتأديبه واقامته من خدمته ، وكيف استمع حديثه ؟ فقال : استحيت منه ، فقالوا: أفلا تؤدبه وتعرفه ذنبه ؟ فقال : قد أحسن الظن بنفسه فلا نعاقبه عليه .

وكان رحمه الله تعالى رفيقا رقيق القلب ، كثير الرحمة لرعيته ، حكى عنه اخي مجد الدين رحمه الله تعالى ، انه ركب يوما

فقال له ولمن معه : إنني هذه الليلة ما نمت الى سحر ، فقالوا له : وما سبب ذلك ؟ قال : كنت سمعت أن ابن فلان مريض - وذكر انسانا بائعا ، بالموصل - فلما كان الليلة سمعت صوت مأتم ، فظننت أنه توفي فضاق صدري - وكان بلغني بانه ليس لأبويه غيره - فشق ذلك علي ، وقمت من الفراش الى أطراف السطح ، لعلي أعلم من هو الميت ، فطال الأمر الى ثلث الليل الأخير ، فقلت : لم أعذب نفسي ، فأرسلت خادما وفتح أبواب الدار وأرسل من الأجناد من يستعلم لنا من الميت ، فعاد وذكر انه شخص لم أعرفه ، فحينئذ نمت ، فاعجب لهذه الشفقة والرقة على رجل من الرعية ليست له صحبة ولا خدمة .

قال: وكان رحمة الله عليه دينا خيرا ، قد ابتنى في داره مسجدا فيخرج اليه في الليل ويصلي فيه أورادا كانت له ، ولبس فرجية كان قد اخذها من الشيخ عمر النسائي الصوفي ويصلي بها ، وكان قد حج ولبس بمكة حرسها الله خرقة التصوف من الشيخ عمر النسائي المذكور ، وكان من الصالحين.

وكان رضي الله عنه يقوي يد من يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر. كان بالموصل رجل من الفقراء الأخيار من باجبتري(١٣٢) اسمه حرب ، فكان كثيرا ما يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ، فاجتاز يوما على الجسر فلقي دوابا تحمل الخمر لانسان هو اقرب الناس الى المرحوم عز الدين واخصهم به ، فالقاه الفقير عن الدواب واراقة بعد ان ضرب ، فبلغ الخبر اليه ، فأحضر الفقير وامره بازالة جميع ما يراه من المنكرات واطلق يده ، وانكر على ذلك الأمير وامره باحضار غلمانه الذين ضربوا الفقير ، فبعد الجهد ان تركهم.

وكان رحمه الله تعالى يأمر بالانتصاف من اقرب الناس اليه واعظمهم منزلة عنده ، ويقوي يد صاحب الحق ، فمن ذلك انه كان بالموصل انسان من اعيان الدولة ، وهو مع ذلك يتولى امر الخاتون والدة المرحوم رضي الله عنه ، وله بها اعظم جاه واعلى منزلة ، ولها

به اتم عناية واكثر حماية لقديم خدمته ، وكان له قرية تجاور قرية الانسان عجمي مقيم بالموصل ، فأخذ شيئا من ارض قرية العجمي ، وطال النزاع بينهما ، ففي بعض السنين جاء الى الموصل واعظ ، فأحضره المرحوم عز الدين بداره ليعظ عنده ، وامر ان لايحجب احد ، فاجتمع عالم كثير ، فتكلم ذلك الواعظ ، فقام ذلك العجمي وصاح واستغاث وبيده رقعة يشكو بها حاله ، فأمر السعيد عز الدين بالجلوس الى ان يفرغ المجلس ، فلما جلس ، واحضر القاضي وامره بالحكم بمقتضى الشريعة المطهرة فحكم بينهما ، فظهر الحق للعجمي ، فأمر الحاكم بالاسجال له والاثبات لحقه والاشهاد عليه به ، وارسل معه اوصل حقه اليه واسخط والدته في اتباع الحق.

وكان رضي الله عنه حليما ، فمن حلمه ، ان انسانا فقيرا من اهل الموصل من اصحاب الزوايا بظاهر البلد ، لما وصل صلاح الدين يوسف بن ايوب الموصل محاصرا بها(١٣٣) اجتمع به واكثر التردد اليه واخذ صلته ، وقال: ما تحتمل الملوك بغضة الى احد ، فلما عاد صلاح الدين ، احضر المرحوم عز الدين هذا الفقير واذكر عليه ، وامر بتخريب زاويته ، ثم احضره بعد أيام واعتذر اليه واستحله ، واعطاه مائة دينار وامره بتجديد زاويته ، وقال: أن أردت شيئا آخر ذفــــــــــــــــنه

الك ، فعمر غير زاويته وأكبر منها وأحسن ، وغرم عليها جملة وافرة ، وكلما فرغ بالذفقة أنفذ له شيئا آخر الى أن فرغت ، وكان بعد ذلك يتردد إليه ويزوره ويواصله بالعطاء ، وكان يتردد إلى الصالحين ويزورهم ويصلهم ،

قال : وهو الذي ابتنى المدرسة الغربية بباب دار المملكة ، وهي مدرسة حسنة ، جعلها للفريقين الحنفية والشافعية ، وقرر للفقهاء ماليس بمدرسة أخرى من الفواكه والحلواء ، والدعوات في المواسم والاعياد والشيرج للوقود والفحم وغير ذلك ، وقرر في وقفها من

الصدقات كل أسبوع وفي الأيام الشريفة والليالي المباركة شيئا كثيرا .

وهو الذي فتح الباب الغربي في الموصل - وهو بين باب كندة وباب العراق - ولم يكن هناك باب فجاء حسنا ، وانتفع به أهل ذلك الصقع .

في ذكر ملك ولده السعيد نور الدين بن عز الدين ابن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي

قد ذكرنا عود المرحوم - قدس الله روحه - من تل موزن مريضا وأنه كتب وصيته بنصيبين ، وكان في جملة الوصية أنه أوصى بالملك لولده المولى نور الدين أرسلان شاه ، قدس الله روحه ، وأوصى بغير ذلك ، وكان الوصي فيها مجاهد الدين قايماز ، رحمه الله تعالى .

فلما وصل الى الموصل وهو مريض ، أرسل إليه أخوه شرف الدين بن قطب الدين مودود يطلب أن يجعل الملك له ، وأرسلت أيضا والدته الخاتون في المعنى وبالغت ، لأن شرف الدين أيضا ولدها ، وجمعا لهما جموعا وجندا ، وأظهر شرف الدين أن أحدا لايقدر يملك الموصل معه ، وحدث نفسه بشيء وظنه حقا (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (١٤٣)) وقال شرف الدين : ان ملكني أخي بعده ، والا أثرت فتنة في البلد وأخذته قهرا فان عجزت سرت الى الملك العادل بن ايوب ، وأرعد وأبرق ، وكان عمر المولى المرحوم نور الدين - قدس الله روحه - حينئذ نحو عشرين سنة ، وهو

ينظر إلى عمه ويظنه يفعل مايريد وكان الملك العادل سيف الدين بن أيوب حينئذ قد نزل نصيبين ، فلهذا قوي جنان شرف الدين ظنا منه أن أخاه يملكه اذ هو كبير (البيت(١٣٥)) ليقوم برد العادل عن نصيبين ، فخاب ظنه فقال عز الدين لمجاهد الدين ليحلف الناس لولده نور الدين ، وقال : أخاف ان أموت وليس لكم ملك مستقل بالملك ، والعادل في البلاد ، فيحدث ضرر لايمكنكم تلافيه ، فلم يقدم مجاهد الدين على ذلك خوف الفتنة ، وكان يحب السلامة ، فأرسل الى شرف الدين يأمره ويشير عليه بأن يحلف لولد أخيه ووعده الزيادة (والاقطاع) فلم يجب الى ذلك وتهدد وقال ، فتوقف مجاهد الدين في تحليف الناس ، ثم إن المرحوم نور الدين ، رضي الله عنه ، أرسل إلى أخي مجد الدين - رحمه الله - مع خادم لوالده ، وهو أمين الدين يمن ، يطلب منه أن يشير على مجاهد الدين بتحليف الناس له وترك التواني فيه ، ووعده الزيادة والاقطاع وتمليك القرايا ، وأرسل إليه معه خاتما ، فرد الخاتم ، وقال : خاتم المولى إنما يعطى على بلاد ، وأما هذا الأمر اليسير فهو أحقر من أن يؤخذ عليه خاتمه - وكان أخي هو الذي يصدرون عن رأيه على ماشاهده الناس - وأما مارسمت به فأنا مشدود الوسط فيه ولايشكرني المولى على هذا ، فإنني افعله خدمة لوالدك الذي أنا في خدمته اذ هو هكذا يريد ، ولو أراد غيره لاتبعته ولم يبد مني الا مايوافق غرضه والمصلحة له ولدولته ، وأنا أشكر الله تعالى حيث ارادة والدك موافقة لارادتك فاذا خدمت خدمة وافقت الغرضين ، وأماما وعدت به من انعام وزيادة مرسوم ، فليست لي رغبة في شيء من هذا ، فلي من نعمتكم مايفضل عني ، ثم ركب من

وقته واجتمع بمجاهد الدين بالقلعة فرآه مفكرا ، فشكا اليه مجاهد الدين وقال : هذا شرف الدين يريد الفتنة والمولى عز الدين يريد ولده ، والعادل بنصيبين ، والفتنة قد رفعت رأسها ، فبينما هما في الحديث ، واذا قد جاء قاصد من المرحوم عز الدين يقول لمجاهد الدين : قد ضجرت مما اقول لك لتحلف الناس لولدي وأنت تهمل الأمر والعدو بالقرب منكم وانتم بغير سلطان ، وأنا فما أظن أنني

أعيش يوما آخر فما تنتظر ؟ فتضجر مجاهد الدين ، وأعاد مـــا كان يقوله لأخي من الشكوى فقال له أخـــي : أنت تفعـــل هـــذا جميعـــه بنفسك وبـــالدولة ، معـــك ولو شـــئت لم يكن منه شيء ، والرأي أن تأمر باحضار الأمراء ، وأرباب المناصـــب ، والمقـــدمين ، وأعيان البلد وتحلفهم لولده كما يريد ، فاذا فعلت هـــذا ، حينئذ يندم شرف الدين وما عسى أن يفعل ، وإن بدا منه مايخالف هذا ، أخذناه قهرا ووكلنا به ، ومهما الأمـــر على هـــذه الحـــال بغير يمين لنور الدين ، ولايركب ليراه الناس ، ويعلموا أن لهم سلطانا ، لانزال مع شرف الدين مصدعين فأمر مجاهد الدين باستدعاء الجماعة الذين ذكرهـــم أخي فحضروا ، وحلفوا بالنسخ التي كتبها أخي ــ رحمـــه الله ــ لهم ، وحلف مشايخ المحال وعرفاء الاسواق فســـمع مـــن جمعهـــم شرف الدين فخافوا وتفرقوا عنه ، فأرسل الى مجاهد الدين يعاتبه حيث حلف الناس قبله ، وقـــال : أردت أن أخـــدم المولى نور الدين وأتولى القيام بأمره ، ثم ان مجاهد الدين ركب الســـعيد نور الدين من الغد في موكب والده ، وحمل السنجق على رأسه ، ومشى مجاهد الدين في ركابه راجلا قد حمل الغاشية ، فلم يلبث المرحـــوم عز الدين بعده غير يومين حتى توفي رضي الله عنه وأرضاه ، واستقر الســـعيد نور الدين ــ قدس الله روحه ــ ولم يتغير بـــالناس حـــال ، ورعى هذه الخدمة لأخي رحمـــه الله تعـــالى ، فـــكان عنده واحـــــد دولته ، والمرجع الى قوله ورأيه ، ولم يزل كذلك الى أن فـــرق الموت بينهما رضي الله عنهما .

-٦٥٩٢-

ذكره وفاة عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود .

وفي (المحرم(١٣٦)) من سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، توفي الملك العادل عماد الدين زنكي بن السعيد أتابك قطب الدين مودود بن الشهيد عماد الدين زنكي بن آقسنقر رضي الله عنهم ، صاحب سنجار ونصيبين والخابور وقد تقدم كيف ملكها ، وكان عمره ...(١٣٧)وولي بعده ابنه قطب الدين محمد ، وتولى تدبير دولته مملوك والده ، مجاهد الدين يرنقش ، وكان دينا خيرا ، الا أنه كان شديد التعصب على مذهب الشافعي رضي الله عنه ، يكثر ذم الفقهاء الشافعية ويقع فيهم ، فمن تعصبه أنه بنى مدرسة للحنيفة بسنجار ، وشرط ان يكون النظر في وقوفها الى الحنفيين من أولاده دون الشافعيين وهذا غاية التعصب .

ذكر ملك السعيد نور الدين مدينة نصيبين

في (جمادى الأولى) (١٣٨) من سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، سار المولى السعيد نور الدين ارسلان شاه الى مدينة نصيبين – وهي لقطب الدين ابن عمه عماد الدين – فملكها ، وسبب ذلك ان عمه عماد الدين زنكي ، رحمه الله ، وكان له نصيبين ، فتطاول نوابه بها ، واستولوا على عدة قرايا من أعمال بين النهرين من ولاية الموصل ، وهي مجاور ولاية نصيبين .

فبلغ الخبر الى مجاهد الدين قايماز ، فلم يعلم مخدومة نور الدين الخبر ، لما يعلم من علو همته وابائه فخاف أنه ربما حمله الغيظ على أن يبدو منه مايوجب اختلافا بينه وبين عمه ، فأرسل

من عنده رسولا الى عماد الدين في المعنى وقبح هذا العمل ، وقال:
لا شك أن الذواب قد فعلوا بغير أمره ، فأعاد الجواب : انهم لم يفعلوا (الا) ماأمرتهم به ، وهذه القرايا هي من أعمال نصيبين ، ولم يعدها ، فرد مجاهد الدين برسالة ثانية يقول له : ماتساوي هذه وأضعافها أن تخرج ولدك ذور الدين عن يدك ، فانه الى الآن ماخالفك في شيء ، وما أعلمته بهذه الحال لعلمي أنه لايصبر عليها ، وليس هو مثل والده ، إن علم يخرج الأمر عن يدي ولاأقدر أمنعه ، فلم يلتفت عماد الدين فحينئذ أنهى مجاهد الدين الحال إلى السعيد ذور الدين ، فغضب لذلك وأذكر حيث لم يعلمه أولا وقال : وهذا هو الذي أطمعه ، ثم أحضر أميرا من مشايخ دولتهم ، يقال له بهاء الدين علي بن الشكري ممن خدم الشهيد رضي الله عنه ، وأرسله إلى عماد الدين يقول : قد بلغني كذا وكذا ، وأن مجاهد الدين راسلك مرتين ولم ترد ملكنا إلينا ، فلو أنك أرسلت تطلب جميع الولاية وغيرها لكان أحب الأشياء الي ، وأما بأن تأخذ مني قرية واحدة مراغمة لي واطراحا لجانبي فلا أصبر على هذا ، فتأمر بإعادتها قولا واحدا

فمضى الرسول فأدى الرسالة وعماد الدين قد مرض ، فاغتاظ من ذلك وامتنع من الاجابة ، فقال الرسول من عنده نصحا له ، واشار عليه بالمصلحة ، لأنه كان عند جميع البيت الشريف الاتابكي مقبولا، فلم يصغ الى قوله ، وقال ماجرت العادة أن تقوله المرضي ، فعاد الرسول الى الموصل وأخبر مجاهد الدين جلية الحال ، فأمره أن يكتم مايغيظ ذور الدين ، فلم يفعل وحكى للمرحوم ذور الدين جلية الحال ، فغضب وعزم على المسير الى نصيبين وملكها ، ومجاهد الدين يمنعه فتوفي عماد الدين والحال على ذلك فجلس للعزاء .

ثم أرسل إلى قطب الدين محمد بن عماد الدين في المعنى ، فلزم ماكان والده عليه ، فسار حينئذ ذور الدين عن الموصل إلى نصيبين ، فلما سمع قطب الدين سار عن سنجار في عساكره فسبقه

اليها ونزل بظاهرها ، وعزم على منعه من النزول عليها ومن محاصرتها ، فلما وصل نور الدين ، لم يعبأ بقطب الدين وتقدم إلى البلد ، وكان بينه وبين قطب الدين نهر ، فلما قرب نور الدين (من) النهر ، عبر الأمير فخر الدين عبد الله بن عيسى المهراني النهر – وهو من أكبر الأمراء النورية – وقاتل من بازائه ، فلم يثبتوا له ، وعبر العسكر النوري وقد تمت الهزيمة على قطب الدين ولم يقاتله غير فخر الدين عبد الله ، واحتمى هو ونائبه مجاهد الدين يرنقش وغيرهما بقلعة نصيبين ، وأدركهم الليل فخرجوا منها هاربين الى ديار بكر ، ثم منها الى حران .

وراسلوا الملك العادل أبا بكر بن أيوب صاحب حران وغيرها – وكان بدمشق – وبذلوا له الأموال الكثيرة لينجدهم ويعيد اليهم نصيبين ، وأقام أتابك نور الدين بمدينة نصيبين ، فمرض كافة أمرائه وأكثر عساكره فعادوا إلى الموصل وتوفي أكثرهم ، وأقام هو بنصيبين وقد تضعضع العسكر بعود الأمراء وكثرة الأمراض . ووصل الملك العادل إلى الديار الجزرية ، فحينئذ فارق السعيد نور الدين نصيبين وعاد إلى الموصل لاستيلاء المرض على كافة العسكر وعودهم ، فلما فارقها تسلمها قطب الدين بن عماد الدين .

وتوفي جماعة من الأمراء المواصلة ، منهم عز الدين جورديك وفخر الدين عبد الله بن عيسى ، وشمس الدين عبد الله بن ابراهيم المهرانيان وظهير الدين (يولق) (١٣٩) بن بلذكري الدكزي ، ومجاهد الدين قايماز ، وجمال الدين محاسن وغير ذلك من ذكرنا ، وأما من هو أقل من هذه الطبقة فلا نطول الكتاب بذكرهم فهم كثير .

ولما عاد المرحوم نور الدين الى الموصل ، قصد الملك العادل بن ايوب قلعة ماردين فحصرها واستولى على ربضها ، وحصر القلعة

وضيق على من بها ولم يبق غير ملكها ، فأنقذها الله تعالى على يد نور الدين على ماننذكره إن شاء الله تعالى ٠

ذكر وفاة مجاهد الدين قايماز رحمه الله تعالى

في (ربيع الأول)(١٤٠) من سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، توفي مجاهد الدين قايماز رحمه الله تعالى بقلعة الموصل ، وهو متوليها والحاكم في الدولة الأتابكية النورية ، وكان ابتداء ولايته القلعة في ذي الحجة من سنة احدى وسبعين وخمسمائة ، ثم قبض عليه سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، فأعيد الى ولايتها بعد الافراج عنه على ماذكرناه ، وبقي الى الآن . وكان اصله من القرادي من أعمال شبختان واخذ هو منها طفلا ، وكان عاقلا ، دينا ، خيرا ، فاضلا ، يعلم الفقه على مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه ، ويحفظ من الأشعار والحكايات والنوادر والتواريخ شيئا كثيرا ، الى غير ذلك من المعارف الحسنة ، وكان يكثر الصوم ، وكان يصوم رجب وشعبان ورمضان ، وشيئا من شوال ، وعشر ذي الحجة ، وعشر المحرم ، وكل اثنين وخميس ، والأيام البيض من كل شهر الى غير ذلك ، وكان له ورد يصليه كل ليلة ويكثر الصدقة .

وبنى عدة جوامع منها الذي بظاهر الموصل ، وبني عدة خانقاهات ، منها التي بالموصل ، ومدارس ، وقناطر على الأنهار الى غير ذلك من المصالح ، ومناقبه كثيرة فلا نطول بذكرها لئلا نخرج عن ما قصدناه من الاختصار .

ذكر ما فعله المرحوم نور الدين عفا الله بماردين

في سنة خمس وتسعين وخمسمائة في رمضان ، سار الملك السعيد نور الدين – قدس الله روحه – إلى ماردين لازاحة العسكر العادلي عنها وابقائها على صاحبها حسام الدين ، وكان سبب ذلك أن الملك العادل حصرها في العام الماضي على ما ذكرناه ، فبقي محاصرا لها أحد عشر شهرا ، فعدمت الاقوات وغيرها بها ، وأصاب أجنادها مرض عم أكثرهم ، فكان أحدهم لا يطيق القيام ، ولم يبق غير الاستيلاء عليها ، فبينما الملك العادل يحاصرها ، إذ توفي الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب الديار المصرية ، وكان عسكره مع عمه الملك العادل على ماردين ، فلما توفي ، ملك بعده أخوه الملك الافضل علي بن صلاح الدين ، وكان بينه وبين عمه نفرة قد ذكرناها في المستقصى .

فلما ملك مصر أرسل إلى العسكر المصري الذي مع عمه يأمرهم بمفارقته والعود إلى مصر فعادوا ، فقل جمعه وعسكره ، إلا أن أهل ماردين قد ضعف من بها واستكانوا ، ولم ينفعهم قلة العسكر عليهم ، لأن الراجل كان كثيرا ويكفي في حصرهم .

ثم ان الملك الأفضل أرسل الى السعيد نور الدين يطلب منه الموافقة على الملك العادل ، فأجاب إلى ذلك ، وخرج الأفضل من مصر عازما على حصر دمشق واستعادتها من عمه ، لأنه كان أخذها منه ، فلما سمع الملك العادل الخبر سار عن ماردين جريدة في نفر يسير إلى دمشق ليحفظها من الأفضل ، وترك ابنه الكامل محمد مع العسكر على ماردين يحاصرونها .

وبرز المرحوم نور الدين عن الموصل وسار إلى ماردين أواخر شعبان ووافقه قطب الدين ابن عمه عماد الدين صاحب سنجار ونصيبين ، ووافقه ايضا معز الدين ابن عمه سيف الدين – وهو

بشرط أن يعطي خبزا يرضيه ، وحضر سنقر المشطوب ، وحلف وا شترط أن يرضي وحضر أيبك الأفطس رحمه الله وا شترط رضاه ، وحضر حسام الدين بشارة ، وحلف وكان مقدما على هؤلاء ولم يحضر أحد من الأمراء المصريين ، ولم يتعرض لهم بل حلف هؤلاء التقرير ، ونسخة اليمين المحلوف بها مضمونها : إنني من وقتي هذا صفيت نيتي ، وأخلصت طويتي ، للملك الناصر مدة حياته ، وإنني لاأزال باذلا جهدي في الذب عن دولته بنفسي ومالي ، وسيفي ورجالي ، ممتثلا أمره واقفا عند مراضيه ، ثم من بعده لولده الأفضل علي ووريثه ، ووالله إنني في طاعته وأذب عن دولته وبلاده بنفسي ومالي وسيفي ورجالي ، وأمتثل أمره ونهيه وباطني وظاهري في ذلك سواء ، والله على ماأقول وكيل .

ذكر وفاته رحمه الله وقدس روحه

ولما كانت ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر ، وفي الثانية عشرة من مرضه اشتد مرضه وضعفت قوته ، ووقع في أوائل الأمر في أول الليل ، وحال بيننا وبينه النساء واستحضرت أنا والقاضي الفاضل في تلك الليلة وابن الزكي ، ولم يكن عادته الحضور في ذلك الوقت ، وحضر بيننا الملك الأفضل ، وأمر أن نبيت عنده ، فلم ير القاضي الفاضل ذلك رأيا فإن الناس كانوا في كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة فخاف أن لاننزل فيقع الصوت في البلد وربما نهب الناس بعضهم بعضا ، فرأى المصلحة في نزولنا واستحضار الشيخ أبي جعفر أمام الكلاسة ، وهو رجل صالح ليبيت بالقلعة ، حتى إذا احتضر رحمه الله بالليل حضر عنده وحال بينه وبين النساء ، وذكره الشهادة ، وذكره الله تعالى ، ففعل ذلك ، ونزلنا وكل منا يود فداءه بنفسه وبات في تلك الليلة على حال المنتقلين إلى الله تعالى ، والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ، ويذكره الله تعالى ، وكان ذهنه غائبا من ليلة التاسع لايكاد يفيق إلا في أحيان ، وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى (هو

صاحب جزيرة ابن عمر ، فساروا ، فلما وصلوا الى ماردين نزلوا اسفل جبلها ، وشرع نور الدين بجمع الرجالة ليزحف الى ربض ماردين ويقاتل العسكر العادلي من تحت ويقاتلهم أهل ماردين من فوق ، لعلهم يظفرون بهم ويزيلونهم قهرا ومكابرة ، مع تعذر الصعود في الجبل الى الربض ، إنما همته كانت عظيمة لا يعتقد انه يعجزه شيء . فاتفق ان العسكر العادلي نزل عن الربض الى قتال العسكر النوري ، ونزل الرجالة في الربض ليمنعوا القلعة من النزول ، فجاء امر لم يكن في الحساب ، فالتقوا واقتتلوا .

وكان قطب الدين صاحب سنجار قد واطأ العسكر العادلي على أن ينهزم بين أيديهم ولم يعلم بذلك احدا ، فقدر الله تعالى ، أنه لما نزل العسكر العادلي واصطفت العساكر ، ألجات قطب الدين الضرورة والزحمة الى ان وقف في شعب بجبل ماردين ، ليس اليه طريق للعسكر العادلي ، ولا يرى الحرب بينهم وبين العسكر النوري لينهزم ، وإذا أراد الله أمرا فلا مرد له ، والتقى العسكران واقتتلوا واشتد القتال ، وكان السعيد نور الدين في القلب وإلى جانبه أخي مجد الدين على بغلة ، فقال له : في مثل هذا اليوم تركب بغلة ؟ فقال: الساعة نأخذهم برقابهم إن شاء الله تعالى ، فحمل العسكر العادلي على القلب النوري فزحزحوا عن موقفهم قليلا ، فقال أخي للسعيد نور الدين : تقدم قليلا ليراك الناس فيتقدموا وتشتد انفسهم ، فأخذ الرمح وحمل إلى المعركة ولم يشعر أخي به الا وقد حمل ، قال أخي : ولقد ندمت حيث قلت له ليتقدم حيث لم ينفعني الندم ، فحين رآه الناس قد حمل القوا نفوسهم على العادلية فأخذوهم باليد ، وانهزم الباقون مصعدين في الجبل الى الربض ، وحمل الأسرى الى بين يدي نور الدين ، فرأى فيهم أميرا من اعيان العسكر وهو مكشوف الرأس ، فقام اليه واعتنقه ، وأخذ شيئا كان على رأسه فألبسه إياه بيده وأقعده إلى جانبه ، وأحسن الى المأسورين جميعهم ووعدهم الاطلاق إذا فرغوا من أمر ماردين .

وأما الملك الكامل والعسكر الذين معه ، فإنهم لما جنهم الليل

رحلوا عن ماردين ، فتقطعوا في ذلك الجبل وساروا نحو ميافارقين ، وأصبحت الأرض منهم بلقعا لا أنيس بها ، وأتى الخبر الى السعيد نور الدين رضي الله عنه ، فقال له بعض أصحابه ، اصعد الى الربض فليس دون ملك القلعة مانع لضعف من بها فتملكها صفوا عفوا ، ويكون هذا الموضع المثل : رب ساع لقاعد فقال : حاشا لله ان يتحدث الناس عني ان ناسا اعتضدوا بي واستنصروني فأغدر بهم ، ثم قال لأخي مجد الدين وهو عنده : ماتقول؟ فقال : الغادرون كثير ، وقد أودعت الكتب غدراتهم فهي باقية الى يوم القيامة ، وإنما لم يؤرخ عن أحد من الناس انه قدر على مثل ماردين وتركها وفاء وانعاما واحسانا . قال فقال لي : أرسل إلى صاحب ماردين ليرسل نوابه الى ولايته وقراياه – وكان قد اقطعها للعساكر التي معه ، وأمر بكف أيديهم عنها وتسليمها إلى صاحبها – قال : فقلت له :إن اصحابنا لم يأخذوا درهما واحدا لتأخر ادراك الغلات ، فلو بقي الاقطاع بأيديهم إلى أن يأخذوا منها ما ينفقون منه على بيكارهم لكان مصلحة . فقال : لا نكدر انعامنا واحساننا اليهم ، ونحن نكفي اصحابنا . قال : فأرسلت الى صاحب ماردين ليتسلم بلاده فتسلمها وارسل اليها النواب ، وهذه سيرة لم يؤرخ عن أحد من الناس مثلها .

وكان في عزمه المسير إلى حران وما والاها من البلاد الجزرية للاستيلاء عليها ، فمرض وعاد إلى الموصل ، ولو سار اليها لملكها ، لأن الملك الكامل وعسكره لما فارقوا ماردين قصدوا ميافارقين لعلمهم ان السعيد نور الدين يقصد البلاد الجزرية ، فأبعدوا عنها خوفا منه .

- ٦٦٠٠ -

ذكر عوده رضي الله عنه الى بلاد العادل والصلح بينهما

قد ذكرنا فيما تقدم عود المولى السعيد نور الدين رضي الله عنه عن ماردين مريضا فلما وصل إلى الموصل بقي أياما ثم عوفي فلما قوي، عاد وجمع عسكره وسار الى البلاد الجزرية التي بيد العادل في سنة ست وتسعين وخمسمائة، وعزم على حصرها، وكان بها حينئذ الملك الفائز ولد الملك العادل ومعه عسكر كثير قد سيرهم والده اليه لحفظ البلاد من نور الدين، فلما وصل الى رأس عين، جاءته رسل الفائز ورسل من معه من أكابر الأمراء يرغبون في الصلح ويشيرون به، فاقتضت المصلحة إجابتهم الى ما طلبوا فصالحهم على ما بأيديهم، وضمنوا ان يحلفوا له الملك العادل، وحلفوا له على ذلك، فأرسل الى العادل بالذي تقرر، وسار مع رسوله أمير كبير من عند ولده فحلف له واتفقا واستقرت القواعد وأمنت البلاد، وعاد السعيد نور الدين الى الموصل

في ذكر حصر العادل مدينة سنجار وما فعله المولى نور الدين في حفظها وضبطها

في سنة ست وستمائة، سار الملك العادل أبو بكر بن أيوب من الشام إلى سنجار في عساكر الشام ومصر والجزيرة وديار بكر فحصروها، وبها صاحبها قطب الدين بن عماد الدين – وهو ابن عم المرحوم نور الدين قدس الله روحه فأرسل قطب الدين ولده الى الخدمة النورية مستجيرا ومستنصرا، ثم سار إلى إربل، الى الملك المعظم مظفر الدين (كوكبري (١٤٣)) في المعنى، فأرسلا إلى العادل يشفعان في أمر سنجار ويطلبان ابقاءها على صاحبها وترك التعرض إليها، فاعتذر عن الاجابة، وذكر لصاحبها ذنوبا

تقتضي قصده وحصره ، فجمع السعيد نور الدين عساكره ، ووصل إليه الملك المعظم مظفر الدين في عساكر إربل وشهر زور وأعمالها ، واجتمعا بالموصل بعد طول افتراق ، واتفقا بعد اختلاف ، ووثق كل واحد منهما بصاحبه وثوقا لامزيد عليه ، إلى حد أن مظفر الدين كان يبيت في قلعة الموصل ونور الدين بظاهرها في المعسكر ، وهذا غاية الائتلاف والاتفاق ، وعزما على المسير الى سنجار ولقاء العادل ومحاربته ، وانما منعهما عن ذلك ، أن أمير المؤمنين الناصر لدين الله اعز الله سلطانه ، أرسل رسولا ، وهو بهاء الدين بن الضحاك استاذ الدار العزيزة في اصلاح الحال ، وناهيك بهذا شرفا وجلالة وقدرا لنور الدين عند أمير المؤمنين اذ ينفذ مثل استاذ داره العزيزة ليسعى في اغراضه ، فأشار بهاء الدين بترك الحرب ، وقال : اي الطائفتين انهزمت ، كان وهنا عظيما في الاسلام لا يجبر وخرقا لا يرقع ، فسمعا واطاعا ، وسار إلى سنجار واجتمع بالعادل ، وجرت أمور ، وترددت الرسل ، واستقرت القاعدة على الصلح وابقاء سنجار على قطب الدين فرحل العادل عنها .

ذكر وفاة المولى السعيد نور الدين
قدس الله روحه

توفي المولى السعيد نور الدين – قدس الله روحه ونور ضريحه – في رجب من سنة سبع وستمائة ، وكان كثير الأمراض منحرف المزاج ، واختلف الأطباء في مرضه الذي توفي به . فقيل لوث مزاج ، وقيل قرحة وقيل غير ذلك . تنوعت الأسباب والداء واحد .

وكان رضي الله عنه قوي النفس في مرضه ، لم يغفل عن تدبير الملك وسياسته الى ان فارق الدنيا ، ولما اشتد مرضه انحدر في شبارة الى الحامة المعروفة بعين القيارة (١٤٤) فلم يجد بها راحة ، فأصعد الى الموصل فأدركه أجله ليلا قبل الوصول إليها ، وكان معه المولى بدر الدين فتاه ، فكتم موته من طبيب وملاح وخادم

الى ان وصل الى البلدفأدخله الدار ميتا وتركه بالمكان الذي كان فيه مريضا ، ووكل ببابه من يمنع من الدخـول إليه ، وأمضى في نهـاره ذلك ماكان وصاه به في طريقه الى أن توفي فلمـا فـرغ مـن جمعيه ، أظهر موته آخر النهار ودفن أول الليل بالمدرسة التي أنشأها بباطن الموصل ، وقام في حفـظ البلد المقـام المرضي ، بحيث أن أهـل البلد الرجال والنساء باتوا يترددون عامة الليل الى الدار السلطانية ،فلم يفقد من أحد منهم الحبة الفرد . واشتد الحزن عليه ، ولم ينفعهـم اشتراكهم في المصيبة بـــه ، لأنه كان رفيقـــا بهـــم ، مشـــفقا عليهم ، ناظرا في مصالحهم . وأكثر الشعراء مراثيه وتأبينه .

قال فيه البليغ ما قال ذو العـ
ي وكل بوصفه منطيق

وكذاك العدو لم يعد ان
قال جميلا كما يقول الصديق

ولما توفي كان عمره (ثمانيا وثلاثين سنة (١٤٥)) وكان ملكه سبع عشرة سنة واحد عشر شهرا . وكان أسمر ، خفيف اللحية والعارضين بالمرة ، مليح الوجه ، وقد أسرع إليه الشيب .

ذكر شيء من سيرته

كان رضي الله عنه بعيد الهمـــــــــــــة ، كبير النفس ، كريم الأخلاق ، حسن الصحبة مع مماليكه ، يمازحهم وينبسط معهـم ، كثير الاحتمال لما يبدو منهم ، فمن ذلك أنني أعلم أنه بقي عدة سنين يشكو من بعض أصحابه ويذمـه إلى أن قـال : ابتـلاه الله تعـالى بمخالفتي ، إن احببت انسانا ابغضـه ، وإن قـدمته أخـره ، وإن أعطيته حرمه ، ومع هذا جميعه ، فكان يحتمله ويحلم عنه ولا يظهر له شيئا من ذلك .

وكان رضي الله عنه يحلم عن ذوابه ويتغـافل عنهـم مـع علمـه بحركاتهم وسكناتهم ، ولقد قال يوما لمن يثق اليه : ماأجهل هؤلاء ذوابي ، يخدمني أحدهم وليس له شيء وعليه دين ، فمـا يذقضي عليه سنة حتى يوفي في دينه ويعمر الدور والامـلاك ويرسـل إلي يطلب أن يشتري مني قرايا ، ولو أن لهم عقلا ادخروا الأموال وا شتروا بهـا أملاكا من غيري ، فإنهـم يعلمـون أنني أعرف أحـوالهم قـديما وحديثا ، ومع هذه المعرفة فكان يغضي عنهـم كأنه لايعلم بشيء مـن أمرهـم .

وكان ـ قدس الله روحه ـ كثير الاحسان الى رعيته والرفق بهم والقرب منهم ، سريع الانفعال للخير

حكي لي أخي مجد الدين رحمه الله تعـالى ـ وكان غاية الخبـر به ـ قال : ما قلت له في شيء قط من عدل وبذل مال أو غير ذلك مـن الصلاح ، فقال لا ، وحكي لي أيضا عنه قـال :كنت معـه في بعض اسفاره ، وكان له سردار بالموصل يكون معه مفاتيح داره ، فبلغـه ان ولد السرداد قد سرق من داره شيئا ، فأرسل الي ليلا يأمرني أن اكتب كتابا الى الموصل بقطع يده ، فأعدت الجواب : إنني ماأكتب هذا الكتاب الليلة ، وإذا اجتمعت بـه غدا أعرفـه مـاعندي في هـذا فأعاد ، مـــرة ثـــانية وثـــالثة وأنا امتنع مـــن ذلك ، فاستدعاني ، فحضرت عنده فقال لي : لم لا تـكتب كتـابا ؟ فقلت له : عادتي معكم انني لا اكتب الا ما تجيزه الشريعة ، فقـال لي : هذا سارق توجب الشريعة المطهرة قطع يده ، فقلت له : لا قطع عليه ، لأنه من غير حرز لأن المفاتيح بيده ، فعفا عنه .

ومن رفقه برعيته وتعطفه عليهم ، أنه كان له غلام قد خدمه قديما في صباه واوجب عليه حقـا ، وكان يؤثـر ان يقـدمه ويفـوض إليه أمرا ، فولاه ولاية الموصل ، فسلك مع اهلهـا سـيرة فيهـا بعض الخشونة ، فكتب إليه بعض أهلها يذكر له شـيئا ممـا يفعله هـذا النائب فعزله ، وبقي مدة معزولا ثم حمله طـول خـدمته له على ان

ولاه غيرها ثانية ووصاه بالاحسان والرفق . فغلبت عليه عادته ، فعزله ثانيا ميلا في هوى رعيته واستمالة لقلوبهم وحفظا لهم ، ومن ذلك انه مرض مرضا شديدا غير مرضه الذي توفي فيه وعظم مرضه ، فكان الناس على طبقاتهم يحضرون كل يوم باب داره محبه له ، فبطلت معايشهم ، فكان يتكلف في بعض الأوقات العقود لهم ، ويأمر بادخالهم جميعهم إليه ففي بعض الأيام حضر أخي مجد الدين والناس على الباب مجتمعون ، فحين رأوا أخي استغاثوا وقالوا : نريد نبصر صاحبنا ، فلما دخل رآه وبه قوة ، فأشار عليه بالقعود لهم والانتقال الى مكان فسيح لكي أن يدخل إليه جميع الناس ، ففعل وتكلف الحركة واحتمل المشقة طلبا لرضاهم ، إذ علم انهم يؤثرون أن يروه .

وأما وقاره ، وهيبته في حركاته وسكناته وملبوسه فالى النهاية ، لم يكن يلبس إلا مالا يعيبه به أحد ، فلم يكن يلبس الذهب والحرير والالوان التي يستحسنها الشباب ، ولا يترك على دابته حلية من ذهب ولا غيرها ، بل ترك ما كان يسلكه غيره من قواعد السلطنة وألقاه تحت قدمه ونزه نفسه عنه أنفة منه .

وأما شجاعته ، فالذي ذكرنا من حاله يدل على غاية الشجاعة وقوة النفس ، وزيادة الاقدام ، ونحن نذكر ههنا نكتة ، وهي انه رضي الله عنه عزم على قصد بلاد العادل مما يليه ، وكذلك أيضا عزم الملك الظاهر بن صلاح الدين يوسف صاحب حلب ، والسلطان غياث الدين وغيرهما ، كل منهم يقصد ما يليه منها ، فأقام العادل بحران ليكون في الوسط ليبادر الى من يسبق الى التقدم ، فاتفق ان السعيد نور الدين كان منحرف المزاج وزاد به ذلك ، فرأى مصالحة العادل فصالحه ، وكان العادل لا يزال يراسله سرا يستميله ، فلما تم الصلح بينهما سار العادل عن حران الى دمشق ، فقيل له لو اقمت حتى ينفصل الحال مع الباقين لكان جيدا ، فقال : ليس فيهم من يفكر فيه ، إنما الذي يخاف ويرجى هو نور الدين ، ومن عداه

فليس بشيء ، وسار ولم يقم فكان كما قال ، ليس فيهم من يحــرك (ساكنا) ومن ذلك أن العادل كان له ديار مصر ، والشام ، وديار الجزيرة وبلاد ارمينية ، وبعض ديار بكر وباقيها في طاعته ، ومعــه ايضا صاحب سنجار ، والملك المعظم صاحب إربــل ، ومعــز الدين صاحب جزيرة ابن عمر ، وكان المرحوم نور الدين رضي الله عنه كل قليل قد انشب الحرب معهم ويقصد بلادهم ، فكان العادل بســببه لا يزال يستميل أصحاب الأطراف المجاورين لبلاده والأمــراء الذين في عسكره بمصر والشام ، ليســتعين بهــم عليه ، وخــوفا أن يميلوا إليه ، وبلغني ان العادل قال ــ وقد بلغه خبر حركته ــ : أي رجــل هو نور الدين ، أنا خصمه بهذه البــلاد جميعهــا وهــذه العســاكر الكثيرة ، وكل من يجاوره معي عليه وقــد احــدقنا بــه مــن جميع جهاته ، ومع هــذا فــلا يقنع منابــالسلامة ، بـــل يريد أن يملك بلادنا ، ولولا أن الله تعــالى أعاننا بــكثرة أمـــراضه لعجـــزنا عنه ، وبلغني أيضا أنه قال لما توفي السعيد نور الدين ــ قــدس الله روحه ــ : ذهب من كان يخاف ، ومــن ذلك أنه ذكر عنده يومـــا ملك والده الســـعيد قلعـــة حلب ، وانه ســـلمها إلى أخيه عمـــــاد الدين ، فقال : والله ما أذكر هذه الحال إلا أعجــب منهـــا ، والله لو ملكتها لجالدت صلاح الدين بالسيف بباب مصر .

وأما علو همته

فمن ذلك ما فعله بماردين من انقــاذها مــن العســكر العــادلي وإبقــائها على صـــاحبها ، ولو أن ذا القـــرنين فعـــل ذلك لكان عظيما ، وما ذكرناه من طلب ملك البــلاد فمــن علو الهمــة وكبـــر النفس .

وأما عقله وحسن آرائه

فإليه النهاية : سمعت أخي مجد الدين رحمه الله غير مرة ، يقول : ليس عند هذا المولى نور الدين مثله ، والله إنه أعلم بالمصلحة من كل ما رأيناه ، ولقد رأيت كثيرا من الملوك من أهله وغيرهم ما رأيت فيهم اسرع إدراكا ولا أهدى إلى الصواب منه في سرعة خاطر . ولو رمت ذكر جياد آرائه لاحتجت الى كثير من الأوراق ، لكن المقصود التنبيه من كل خلق على بعضه .

وأما حسن عهده ومراعاته لحقوق خدمه ومماليكه في حياته

فأنا أذكر ما رأيته منه . فمن ذلك أن أخي مجد الدين ــ رحمة الله عليه ــ توفي سلخ ذي الحجة من سنة ست وستمائة ، فأرسل المولى المرحوم نور الدين ــ رضي الله عنه ــ إلي ذلك اليوم عدة مرار يقول : لا تخرجه إلى الجامع للصلاة عليه حتي اقول لك ، فإنني أريد أصلي عليه ــ وكان الزمان صيفا ، وكان رضي الله عنه ذلك اليوم غير طيب النفس وهو مدعوك البدن ــ فلما كان العصر وفتر الحر ، أرسل إلي يأمرني بحمله الى الجامع ، وانحدر هو فسبقنا ، فلما رأى الجنازة ، بلغني عنه انه بكي كثيرا وأظهر التأسف ، ولما قصدنا خدمته بعد ذلك اظهر لنا من الهم بسببه شيئا كثيرا ، وحملنا له ما جرت العادة وفيه سجادة الصلاة ، فرده وسألني عن شيء كان بلائه بنفسه ، فأومأت إلى السجادة ، فمد يده واخذها ، (حدث) هذا جميعه وهو شديد الوعك . ولم يزل بعد ذلك يزداد مرضا إلى أن توفي بعده بسبعة أشهر ، رضي الله عنه .

ومن محاسن أعماله المدرسة التى أنشأها بباطن الموصل مقابل

دار المملكة ، وهي أحسن المدارس ، ووقف عليها الوقوف الكثيرة ، وجعلها وقفا على ستين فقيها من الشافعية ، سوى ما فيها من الصدقات الدارة والتعهدات للصوفية والفقراء .

ذكر ملك ولده المولى الملك القاهر أعز الله أنصاره

كان المولى السعيد نور الدين ــ قدس الله روحه كما نور ضريحه ــ قد عهد الى ولده المولى الملك القاهر العالم العادل المؤيد المنصور المظفر المجاهد المرابط عز الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، ناصر أمير المؤمنين ، ابي المظفر مسعود أعز الله سلطانه ، وأعلى شأنه ، ونصر جنده وأعوانه ، وخذل عدو دولته وأهانه .

وهذا دعاء لو سكت كفيته
لأني سألت الله فيك وقد فعل

قبل وفاته بعدة سنين ، لأنه كان يرى الدنيا بعينه ، ويسمع منها بأذنه ، ويستهل صعاب الامور منه ، ويستجلي بقربه ، ويستلذ نسم الهواء به ولم يزل في حجره ، وبين سحره ونحره ، فلما اشتد بالمرحوم المرض ، ورأى أن جوهر حياته قد استحال إلى العرض ، جدد العهود له ، وأمر بأخذ الميثاق على كافة الأولياء من الأجناد والأمراء والأعيان والأماثل والعلماء والأفاضل .

ساد الملوك لسبع عشرة حجة
ولداته إذ ذاك في اشغال

قعدت بهم هماتهم وسمت به
همم الملوك وسورة الأبطال

فلمـا تــوفي الســعيد رضي الله عنه وأرضــاه ، وأكرم نزله ومثواه ، قام مقامه ، وحفـظ مــن الملك نظــامه ، وتــلافى ذلك الفتق ، ورقع ذلك الخرق ، واقتفى اثر السعيد بــأبيه ، في كل مــا يذره

زاد على ماشاد آباؤه
به وقد شاد الذي أثلوه

اقصر كل الخلق عن شأوه
حسرى وطال الكل إذ طالوه

وأضحت الدولة باسمة ، بعد أن كانت باكية ، وشاكرة ، بعد أن كانت شاكية ، ومستبشرة ، بعد ان كانت باسرة ، وعاودها بهاؤها وروعتها ، وفارقها عبوسها وروعتها .

ولما فرغ من وظيفة العزاء ، بذل من الأموال والتشريفـات مـالم يسبقه مــن مضى ولا يدركه مــن هــوآت ، عمـت الأمير والمأمور ، وشملت الصغير والكبير ، وأظهر من الجود ما عير على حاتم وكعب ، وحير كل ذي عقل ولب ، وهذا مــوضع المثـل : ليس السرف في الشرف ، وحين استقر في الدست ظهر عليه من علو الهمة الى معالي الأمور ، ومحبة العدل في سياسة الجمهور ، ومن الغرام بمكارم الأخلاق من الحلم والسخاء ، والعفو والاباء ، مالم يجـاره فيه احد الا وسبقه ثانيا من عنانه ، ولم يباره ملك الا وجاء سـكيتا (١٤٦)في ميدانه ، واشتهر عنه من العدل مـالو رآه كسرى لعـاد خجلا يتعثر بأنياله ، ولاستتر حياء من وراء حجاله .

من كان ذاك ابوه كان لمجده
ان يستطيل وأن يشاد بناؤه
من كان من نجل البدور ونجرها
لم يعدها إشراقه وعلاؤه

ملك إذا افتخرت بآباء العلى
أولادها فخرت به آباؤه
من رام مشبهه سوى أسلافه
في المكرمات الغر خاب عناؤه
ملك الجلال فأشرقت لألاؤه
وحبى الجميل فأعرقت آلاؤه

ولو رمنا شرح مفردات محاسن أفعاله وحكم أقواله لطال الكتاب ، ولكنا نقتصر على حادثة واحدة يستدل بها على نظائرها ، وهي ، أنه - خلد سلطانه - جلس في دار العدل للانصاف ، والأخذ للضعفاء من الأقوياء والأشراف ، فحضرت امرأة عمياء ادعت أن بعض الملوك من عمومته ضربها ببندقية عند الجلابين رماها ، كانت سبب عماها ، فأمر باحضاره الى الحاكم وهو عنده ، فحضر وساوى خصمه وقيل له الدية أو القصاص ، فقام فزعا قد أيس من الحياة ، وهو لا يصدق بالنجاة ، فأرضى خصمه بمال بذله ، وعن القصاص استنزله ، فعادت الامرأة وذكرت انها قد رضيت وعفت عن حقها ، وهذه حالة لم يسمع بمثلها ، ولم يدون في كتب التواريخ عدلها .

يا ليت شعري من هذي مكارمه
ماذا ترى ببلوغ النجم ينتظر

أجرى الله على يده الشريفة كل صالحة ، ودفع عن حضرته العلية كل فادحة ، ووفقه للصواب في الأقوال والأفعال ، ولازال سلطانه قاهرا ، وفلك سعادته دائرا ، ولابرح جد عدوه عاثرا ، وذكره خاملا داثرا .

لما فرغ المولى السعيد المرحوم نور الدين أسكنه الله

جنانه ، وأفاض عليه عفوه ورضوانه ، وملا ضريحه روحه وريحانه ، من تقرير قواعد ولده المولى الملك القاهر أعز الله أنصاره ، أراد أن يشد أزره بمن يجعله له وزيرا ، وعلى ما فوض إليه من أعباء المملكة ظهيرا ، ليكون مدبرا لدولته ، وناظرا في مهام مملكته ، ونائبا عنه في ولاية رعيته ، فاعتبر خواصه وأولياءه ، ومماليكه وأصفياءه ، وكفاته وأمراءه ليختار منهم من يكون أهلا لهذا الأمر الكبير ، وقيما بهذا الشأن الخطير ، فلم ير فيهم أقوم سيرة ، ولا أخلص سريرة ، ولا أتم وفاء ، ولا أعلى همة وأكثر سخاء ، ولا أغزر حياء ومروة ، ولا أغنى غناء ولا أعظم فتوة ولااحسن اصطلاحا ، ولا أكثر للحق اتباعا ، ولا أعدل منه احكاما ، ولا أعلم بما يكسب الدولة انتظاما ، من المولى الامير اصفهسلار الكبير العادل الكامل الاسعد المقبل بدر الدين (لؤلؤ (١٤٧)) عضد الاسلام وسيد الأمراء ، حسام امير المؤمنين اسبغ الله ظله ، واعلى محله ، وقهر عدوه وأذله .

أوحده الله فما مثله
لطالب ذاك ولا ناشد

ليس على الله بمستنكر
أن يجمع العالم في واحد

فحيث ، وجد ماكان ينشده ، وظفر بما كان يريده ويقصده ، تقدم إليه بخدمة ولده ، وحكمه في أمواله ورجاله وبلده ، ورأى أنه قد أسند هذا المهم إلى الولي الوافي ، وفوض هذه الزعامة إلى المخلص الكافي ، وقد كان – رضي الله عنه – يتفرس في هذا الأمير ، إستحقاق التقدم والتدبير ، فلم يزل يدرجه بين الطافه وكرامته ، وولاياته واقطاعاته ، من رتبة إلى أخرى هى أعلى منها مكانا ، وأرفع شأنا ، الى أن ولاه إمارة الجيوش والعساكر ، وسياسة القبائل والعشائر .

ولما استأثر الله تعالى بالمرحوم ، قام في خدمة المولى الملك القاهر

مقاما يحمده عليه الداني والقاصي ، والمطيع والعاصي ، والبادي والحاضر ، والمنجد والغائر ، ولقد جاء على حين فترة من الكرام ، وكثرة من اللئام ، فجدد من أعلام السيادة ما كان دارسا ، وأضحك من ثغور المروءة ماكان عابسا ، واختالت الدولة من حسن تدبيره اختيال العروس ، ورفلت من صائب آرائه في أحسن لبوس ، وافتخر به دهره على سائر الدهور .

إذا نحن اثنينا عليك بصالح
فأنت كما نثني وفوق الذي نثني
وإن جرت الألفاظ يوما بمدحه
لغيرك إنسانا فأنت الذي نعني

هذه نبذة يسيرة من محاسنه تليق بهذا المختصر ، وقطره من بحر مكارمه تناسب هذا المعتصر، ولو أوردتها مفصلة لخرجنا عما اعتمدناه ، وتركنا ما قصدناه ، ونحن إن شاء الله تعالى نأتي على كثير من ذلك في المستقصى في التاريخ ، والله الموفق للصواب ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الأبرار وسلم تسليما كثيرا .

حواشي ابن جبير

١ ـ كذا ، صاحب الموصل سيف الدين غازي بن قطب الدين بـن زنكي ، وصـاحب سـنجار اخوه ين زنكي الثاني . وتضبط معلومات ابن جبير على مـا أورده ابـن الاثير في البـاهر وع جاء في المصادر الاخرى في موسوعتنا .

٢ ـ اي أصابه الهزال بسبب التبتل .

٣ ـ قطب الدين ايلغازي بن البي الارتقي ، تقدم ذكره في تاريخ آمدوميافارقين .

٤ ـ انظر المعجب لعبد الواحد المراكشي ـ ط . القاهرة ١٩١٤ ص ٤٠ حيث نسـبه للحسـن بـن رشيق .

٥ ـ اي الخنازير لاسيما الاناث منها .

٦ ـ اي برزت .

٧ ـ الملاك هنا : الزواج

٨ ـ سورة ص ـ الآية : ٤٢

٩ ـ مسوفة احدى قبائل المرابطين . انظر الحلل الموشية ص ١٧ .

١٠ ـ المقصود هنا مقبرة باب الصغير .

١١ ـ سورة الاسراء ـ الآية :٩٧

١٢ ـ كذا وهو وهم ، لان سميساط مدينة على شاطىء الفرات . معجم البلدان والسميساطي هو أبو القاسم علي بن محمد ، وكان من أعيان دمشق .

١٣ ـ نسبة الى الاحنف بن قيس التميمي الذي عاصر الامام علي واوائل خلفـاء بني أمية وشـهر بالحلم .

١٤ ـ رشيدي نسبة الى الخليفة هرون الرشيد ، والجعفري نسبة الى جعفر المتوكل .

١٥ ـ عمري : نسبة الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

١٦ ـ كذا بالاصل .

١٧ ـ سورة الاعراف ـ الآية : ١٥٥ .

١٨ ـ سورة يوسف ـ الآية : ٩٠

١٩ ـ اي عمد تعريب كلمة Baptize

٢٠ ـ سورة طه ـ الآية : ١٢٧

٢١ ـ الرهو : السكون . القاموس

حواشي كتاب الباهر

١ - أضيف ما بين الحاصرتين لاستقامة السياق .
٢ - الاشـــارة هنا إلى عز الدين مسـعود صـاحب الموصـل ٦٠٧ - ٦١٥ هـ) / ١٢١٠ - ١٢١٨ م) الذي حمل لقب القاهر .
٣ - صاحب الموصل (٥٨٩ - ٦٠٧ هـ / ١١٩٣ - ١٢١٠ م)
٤ - سورة الحديد - الاية :٢١
٥ - الخشلب . قطع الزجاج المتكسر أو الخزف . القاموس
٦ - الارض الجرز : التي لانبات فيها فهي مجدبة . النهاية لابن الاثير .
٧ - لم يذكر اسمه ولعله صاحب ملك نامة
٨ - كذا وهو شاذ لان المتداول : « جلال الدين » .
٩ - حصن كيفا ، وتمت معالجة هذه المسائل من قبل في الجزء الاول من كتاب المدخل .
١٠ - بلد قرب تكريت على فم نهر الزاب الاسفل . معجم البلدان .
١١ - هذا لقب رتبة بيزنطية عسكرية وليس اسما لعلم من الاعلام .
١٢ - بين بغداد والانبار . معجم البلدان .
١٣ - كورة من نواحي نيسابور . معجم البلدان

١٤ - كذا بالاصل وهو وهم صوابه حذف « من أولاد » كمـا تقـدم معنا في الجـزء الاول مـن المدخل .
١٥ - يرجح أنه مات مسموما .
١٦ - طراز من بلاد ما وراء النهر ، وأيضا كاشغر ، وكذلك بلاساغون . معجم البلدان .
١٧ - أضيف ما بين الحاصرتين من الروضتين لابي شامة .
١٨ - التراقي نوع من أنواع الدمامل تظهر بالحلق .
١٩ - من غير المؤكد أنه خطب لتتش بالسلطنة في بغداد بل انه رام ذلك واخفق .
٢٠ - من أنواع القوارب النهرية .
٢١ - كان أنذاك علي بن طراد الزينبي ، وكان من أبرز شخصيات عصره .
٢٢ - المتاع الخاص من أقمشة وملابس .
٢٣ - السانية الناقة التي يستقى عليها .
٢٤ - الجندب : الجراد ، وصر : صوت وصاح شديدا . القاموس .
٢٥ - سورة الانفال - الاية : ٦٧ .
٢٦ - ديوان أبي تمام - ط . القاهرة ١٩٦٧ ج ١ ص ٢١
٢٧ - من أنواع المراكب النهرية .
٢٨ - هكذا سيذكره بعد أسطر .
٢٩ - سورة الانفال - الاية : ٣٢ .
٣٠ - اضيف ما بين الحاصرتين لاستقامة السياق ومنه .
٣١ - سورة الاحزاب - الاية : ٢٥ .
٣٢ - خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الاصـفهاني ، قسـم بـلاد الشـام ، ج ١ - ط دمشق ١٩٥٥ ص ٤٧٠ - ٤٧٣ مع فوارق
٣٣ - الميثرة : الثوب الذي تجلل بـه الثياب فيعلوهـا ، وهنة كهيئة المرفقـة تتخـذ للسرج القاموس .

٣٤- أي في بلد دمشق .
٣٥ - بعرين الان (بارين) قرية تتبع ناحية عوج - منطقة مصياف ، محافظة حماه في سورية . المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري .
٣٦ - أي الرمح
٣٧ - من أيام معركة القادسية .
٣٨ - سورة الاحزاب - الاية : ٦٣ .
٣٩ - سورة ص - الاية :٣ .
٤٠ - سورة النساء - الاية : ١٢٠
٤١ - وقعت العمادية في شمالي الموصل وهي من أعمالها . معجم البلدان
٤٢ - ماتزالان تحملان الاسم نفسه في عراق اليوم .
٤٣ - انظر ما تقدم حول هذا الامر نفسه لدى المصادر السريانية ولدى ابن الازرق الفارقي
٤٤ - أبو تمام الشاعر .
٤٥ - ديوان المتنبي - ط . بيروت ١٩٦٩ ص ٢٧٣ .
٤٦ - أي يبطن أمرا ويظهر سواه .
٤٧ - سورة الاعراف - الاية : ١٤٩ .
٤٨ - سورة هود - الاية : ١٠٢
٤٩ - الخامع : الضبع .
٥٠ - سورة الاسراء - الاية : ٨١ .
٥١ - سورة النور - الاية : ٥٥ .
٥٢ - اضافة من السياق نفسه .
٥٣ - الزوزان كورة بين اخلاط واذربيجان وديار بكر والموصل معجم البلدان
٥٤ - اضافة مما نقله صاحب الروضتين كما سيمر معنا .
٥٥ - فاظ : مات . القاموس .
٥٦ - يوم الهباءة من ايام العرب قبل الاسلام بين عبس وذبيان . وكان البراض بن قيس من فتاك العرب قبل الاسلام وهو الذي تسبب بحرب الفجار ، والحجاف هو ابن حكيم ، كان من فتاك العرب في الاسلام وهو الذي أوقع بتغلب يوم البشر ، والجحاف هو سيل جحف كل شيء بمكة سنة ثمانين للهجرة .
٥٧ - على مقربة من الرقة عند موقع ابي هريرة .
٥٨ - نوع من الفطير المصنوع من السكر والفستق والزبد .
٥٩ - زيادة اقتضاها السياق .
٦٠ - بلد قريب من الرحبة . معجم البلدان .
٦١ - أضيف ما بين الحاصرتين من الروضتين .
٦٢ - مدينة على دجلة فوق الموصل . معجم البلدان .
٦٣ - بقعاء الموصل . انظر مادة الموصل في معجم البلدان .
٦٤ - سورة التوبة - الاية : ١١١ .
٦٥ - على مقربة من خانق الربوة خارج دمشق .
٦٦ - سورة الصافات - الآية : ٤٤ .
٦٧ - بين نصيبين وماردين . معجم البلدان
٦٨ - وقعت يفرى في منطقة العمق .
٦٩ - هو أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير القيسراني ، من شعراء الخريدة - قسم بلاد الشام - ج ١ ص ٩٦ - ١٦٠ .
٧٠ - هو سعد بن محمد بن صيفي التميمي (ت ٥٧٤ هـ / ١١٧٨ م) انظر ترجمته في بغية

الطلب لابن العديم ـ ط . دمشق ١٩٨٨ ص ٤٢٦٢ ـ ٤٢٧١ . وقد طبع ديوانه في بغداد عام ١٩٧٤ .

٧١ ـ زيادة اقتضاها السياق ومنه اخذت .

٧٢ ـ لاتتوافق هذه التفاصيل مع الخبر المتقدم .

٧٣ ـ هذه الابيات لابن منير الطرابلسي ، انظر ديوانه ـ ط . طرابلس ١٩٨٦ ص ٢٠٨ ـ ٢١٤ .

٧٤ ـ ديوانه ص ٢١٥ ـ ٢١٨ .

٧٥ ـ زيد ما بين الحاصرتين من الكامل لابن الاثير ج ٩ ص : ٢٩ .

٧٦ ـ سورة فاطر ـ الآية : ٤٣ .

٧٧ ـ انظر الخريدة ـ قسم بلاد الشام ـ ج١ ص ـ ١٥٧ ـ ١٥٩ ، هذا وجميع المواقع المذكورة في نواحي حلب .

٧٨ ـ السحل الثوب الذي لايبرم غزله أو الحبل ، والامرار القوة والاحكام .

٧٩ ـ ديوان ابن منير الطرابلسي ص ٢٢٣ ـ ٢٢٥ .

٨٠ ـ ديوان ابن منير الطرابلسي ص ٢١٥ ـ ٢١٨ مع فوارق كبيرة .

٨١ ـ في الكامل ج ٩ ص ٣١ « سبع وأربعين » ، وهو الاصح كما هو واضح من السياق .

٨٢ ـ كانت رئاسة دمشق انذاك لرجال من آل الصوفي غالبا ما كانوا على غير وئام مع أمراء الدولة البورية .

٨٣ ـ ديوان ابن منير الطرابلسي ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ .

٨٤ ـ كذا وهو وهم ، فقد ظهر بنو منقذ اولا في كفر طاب ، وذلك مع بدايات تاريخ الدولة المرداسية ، ثم جاء الاستيلاء على شيزر مع سقوط حكم بني مرداس في حلب ، وسلف لي معالجة هذا كله في الجزء الاول من كتاب المدخل من موسوعتنا هذه .

٨٥ ـ قلعة لاترام في الجبال التي إلى شرقي الموصل . معجم البلدان .

٨٦ ـ أورد ابن الجوزي أخبار هذه الاحداث في كتابه المنتظم في حوادث سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، وقد قمت بتحقيق كتاب المنتظم وهو قد شارف على الانتهاء طباعة .

٨٧ ـ محلة كبيرة ذات أسواق بالجانب الغربي من بغداد . معجم البلدان .

٨٨ ـ اليزك لفظ فارسي معناه الطليعة .

٨٩ ـ هي بحيرة قطينة الحالية .

٩٠ ـ أضيف ما بين الحاصرتين من الروضتين ومفيد مقارنة هذه المعلومات مع المواد التي ستمر معنا في نص البدر العيني .

٩١ ـ المشهور أن جيش الطواويس هو الجيش الذي أرسله الحجاج بقيادة عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث للقتال ضد رتبيل صاحب كابل .

٩٢ ـ عم قرية بين انطاكية وحلب . معجم البلدان .

٩٣ ـ في منطقة صافيتا التابعة لمحافظة طرطوس قرية اسمها السويده ، تبعد عن طرطوس مسافة ٣٢ كم ، فلعلها المقصودة هنا .

٩٤ ـ ليس لواحد من هؤلاء ترجمة فيما وصلنا من كتاب بغية الطلب في تأريخ حلب لابن العديم الذي كنت قد حققته وطبعته في دمشق ١٩٨٨ .

٩٥ ـ واد بين مكة والطائف . معجم البلدان .

٩٦ ـ الاضافات من الروضتين .

٩٧ ـ تطلق العرب على فص الياقوت « اسم جبلة

٩٨ ـ ديوان ابن منير ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ .

٩٩ ـ المنيطرة حصن قرب طرابلس . معجم البلدان .

١٠٠ ـ سورة الأعراف ـ الآية : ٩٥ .
١٠١ ـ الدرفش : المخرز ، والدرسترك : منشار صغير .
١٠٢ ـ سورة آل عمران ـ الآية : ٢٦ .
١٠٣ ـ سورة الرعد ـ الآية : ٣٩ .
١٠٤ ـ سورة آل عمران ـ الآية : ٥٤
١٠٥ ـ سورة البقرة ـ الآية :٢١٦
١٠٦ ـ سورة النساء ـ الآية: ١١٩ ٠
١٠٧ ـ سورة الانعام ـ الآية : ٤٤
١٠٨ ـ قال هذا الخارجي الذي حاول اغتيال عمرو بن العاص فأخفق .
١٠٩ ـ سورة الأحزاب ـ الآية : ٢٥
١١٠ ـ في أحواز بلدة نوى في حوران
١١ ـ سورة الانفال ـ الآية : ٤٢
١١٢ ـ سورة البقرة ـ الآية : ٢٤٩
١١٣ ـ الجنايات هنا ماكان يفرض من قبل السلطة من ضرائب وغرامات تاديبية
١١٤ ـ الكنهور : من السحاب قطع كالجبال ، أو المتراكم منه ، والآل : السراب ٠ القاموس
١١٥ ـ الاضافات من الكامل ج ٩ ص ١٠٩ .
١١٦ ـ الاضافة من الروضتين
١١٧ ـ بائع فقاع ٠ والفقاع شراب يتخذ من الشعير .
١١٨ ـ الاضافة بين الحاصرتين من الروضتين .
١١٩ ـ التركش بالفارسية : الجعبة .
١٢٠ ـ قال هذا العماد في مطلع كتابه البرق الشامي ، انظر سنا البرق الشامي . ط . القاهرة ١٩٧٩ ص ١٦ .
١٢١ ـ سورة الانفال ـ الآية : ٤٢
١٢٢ ـ سورة الاسراء ـ الآية : ٥٨
١٢٣ ـ سورة الاحزاب , لآية ٣٨
١٢٤ ـ كان والد ابن المقدم هو الذي سلم من قبل سنة ٥٤٤ هـ ـ ١١٤٩ م سنجار لنور الدين ، وذلك خروجا عن أمر سيده صاحب الموصل .
١٢٥ ـ البرسام : علة يهذى . فيها . القاموس .
١٢٦ ـ الاضافتان من الكامل ج ٩ ص ١٤٨
١٢٧ ـ جاء هذا العنوان بالاصل مشوشا هكذا : « فصل في سبب قضية الذي جرت في ذكر القبض على مجاهد بن قايماز وماتبعه من الوهن » ولعل ما اثبتناه هو الصواب .
١٢٨ ـ بيشكاه فارسية معناها : صدر المجلس رئيس . ذو مقام عال .
١٢٩ ـ تل موزن بلد بين رأس عين وسروج . معجم البلدان
١٣٠ ـ الاضافات من الروضتين .
١٣١ ـ بياض بالاصل
١٣٢ باجبارة : قرية على نحو ميل من الموصل الى الشرق منها . معجم البلدان
١٣٣ ـ حاصر صلاح الدين الموصل اكثر من مرة
١٣٤ ـ سورة الصف ـ الآية :٨
١٣٥ ـ اضيف ما بين الحاصرتين من مفرج الكروب لابن واصل الحموي ج ١ ـ ط . القاهرة ١٩٥٧ ص ٢٣ .
١٣٦ ـ زيد ما بين الحاصرتين من الكامل لابن الاثير ج ٩ ص ٢٣٩ .
١٣٧ ـ فراغ بالاصل .

١٣٨ ـ اضيف مابين الحاصرتين من الكامل ج ٩ ص ٢٤٠
١٣٩ ـ زيد ما بين الحاصرتين من الكامل ج ٩ ص ٢٤٠
١٤٠ ـ اضيف ما بين الحاصرتين من الكامل ج ٩ ص ٢٤٨
١٤١ ـ كان صاحب ماردين انذاك يولق بن ايلغازي بن ارتق . انظر الكامل ج ٩ ص ٢٤٢ ، ٢٤٦ .
١٤٢ البيكار كلمة فارسية معناها الحرب والمحاربة .
١٤٣ ـ الاضافة من الكامل ج ٩ ص ٣٠١
١٤٤ ـ لعلها التي بين اسعرت وجزيرة ابن عمر . معجم البلدان .
١٤٥ ـ استخرج هذا الرقم تقديرا مما تقدم . فقد جاء مكانه بياض بالاصل .
١٤٦ ـ السكيت : أخر خيول الحلبة . القاموس .
١٤٧ ـ اضيف ما بين الحاصرتين من الكامل ج ٩ ص ٣٠٤

المحتوى